

الكتاب الأول

ابتهاج غامر في إنجلترا

١٥٥٨ - ١٦٤٨

فصل الأول

الملكة العظيمة

١٥٥٨ - ١٦٠٣

١ - مزايا المحنة

في السابع عشر من نوفمبر ١٥٥٨ ، ركض أحد الرسل إلى فناء القصر الملكي في هاتفيلد - على مسافة ٣٦ ميلا إلى الشمال من لندن - وأعلن إلى اليزابث تيودور أنها أصبحت ملكة على إنجلترا . ان أختها غير الشقيقة ، الملكة ماري ذات السمعة التي يرثى لها ، قد وافاها الأجل المحتوم في غسق الصبح في ذاك اليوم . وفي لندن عند ما تلقى البرلمان هذا النبأ هتف : « حفظ الله الملكة اليزابث ! فايطل أمد حكمها علينا ! » - ولم يكن يدور بخلده أو يعلم بأن حكمها سوف يمتد إلى خمسة وأربعين عاما . وعلى الرغم من أن الكنائس كانت توجس خيفة من صايل نواقيسها هز أجواز الفضاء . ومد الناس في إنجلترا موائد الأفراح في الشوارع ، كما فعلوا من أجل ماري من قبل ، وصبغوا السماء في ذاك المساء بأضواء المشاعل التي تشف عن الأمل الخالد .

وفي يوم السبت التاسع عشر من نوفمبر . احتشد كبار الوردات والسيدات وأعضاء مجلس العموم من جميع أنحاء المملكة في قصر هاتفيلد . ليقسموا يمين الولاء للملكة ، ويلتمسوا في هذه المناسبة غنا ، وفي اليوم العشرين خطبت فيهم اليزابث في أسلوب ملكي حقا ، قائلة :

أيها اللوردات : أن توازن الطبيعة لتثير في نفسي لواعج الأسى والحزن على أختي ، وإن العبء الذي ألقى على كاهلي ليذهاني . ولكني بوصفي من عباد الله ، يتعين

على الامتثال لاختياره إياى لهذا المنصب . انى فوق ذلك سوف أخضع لمشيتته ، تحذوفى الرغبة من أعماق قلبى ، فى أن يهينى العون ، بفضلله وكرمه : على تنفيذ إرادته سبحانه وتعالى فى المهمة التى وكلت اليوم إلى ، وما أنا ، من الناحية المادية إلا بشر ، ولكنى بإذنه تعالى بشر سياسى عليه أن يحكم . فهل لى أيها اللوردات ، وخاصة النبلاء منكم ، كل على قدر مرتبته وسالطته — هل لى أن أطمع فى أن تكونوا عوناً لى ، حتى أستطيع أنا بحكمى وأنتم بخدماتكم ، أن نقدم لله سبحانه وتعالى عملاً مقبولاً ، ونترك لأعتابنا على الأرض شيئاً من الرفاهية والراحة (١) . »

وفى اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر ، اخترقت اليزابث ، مرتدية ثوباً من القטיפه القرمزية ، شوارع لندن فى موكب عام ، إلى نفس « برج لندن » التى كانت محبنة فيه منذ أربعة أعوام ؛ تنتظر الموت . وفى طريقها ، أخذ الأهالى اليوم يهللون ويهتفون لها والمناشدون يتغنون بمجدها وعظمتها ، والأطفال يتلون عليها . وهم يرتعدون ، ما حفظوه من عبارات الولاء والإجلال ، ورحبت طلقات المدافع والبنادق التى لم يسمع لها نظير من قبل ، بحكم قدر له أن يكون أزهى وأحفل بالرجال والعقول من أى حكم سبقه فى إنجلترا .

وكانت خمس وعشرون سنة من المحاكمات قد هيأت اليزابث لتسيطر وتتفوق . وفى ١٥٣٣ بدا أن من حسن طالعتها أن يكون هنرى الثامن أباً لها ، ولكن كان خطراً عليها أن تكون أمها آن بولين . إن العار الذى لحق بأمها ثم لإعدامها ، وقعا فى وقت لم تكن الطفلة فيه تعى أو تذكر شيئاً (١٥٣٦) ، ولكن مرارة هذا التراث الكريه لازمتها وما انجابت عنها طيلة شبابها ، ولم تبرأ منها إلا بفضل بلسم الملك : ونص قرار أصدره البرلمان فى ١٥٣٦ على أن زواج آن باطل ، ومن ثم صارت اليزابث ابنة غير شرعية ، ولاكت الألسنة موضوع أبوة البنت ، واختلفت الأقوال فيه بشكل قاس ، وكانت فى نظر معظم الإنجليز ، على أية حال ، ابنة زنى . ولم تعد الشرعية إليها قط بحكم القانون ، ولكن قراراً آخر من البرلمان (١٥٤٤) ثبت حقها فى تولى العرش ، بعد ادوارد أخيها من أبيها ، ومارى أختها لأبيها . وفى أثناء حكم ادوارد (١٥٤٧ - ١٥٥٣) تمسكت اليزابث بالبروتستانتية ولكن عندما اعتلت

مارى الكاثوليكية العرش ، آثرت اليزابث الحياة على التمسك بمذهبها ، فتحولت إلى الطقوس الرومانية الكاثوليكية . ولما اخفقت ثورة ويات Wyatt (١٥٥٤) في خلع ماري ، اتهمت اليزابث بالاشترار في المؤامرة ، وأرسلت إلى برج لندن (السجن) . ولكن ماري قررت بأن التهمة غير ثابتة على اليزابث . وأفرجت عنها لتعيش في وودستوك Woodstock تحت المراقبة . وأقرت ماري قبل وفاتها أن تخلفها أختها على العرش ، وأرسلت إليها مجوهرات التاج . وإنا لنعزو حكم اليزابث إلى شفقة ماري « السفاحة » .

وكان التعليم الأكثر منهجية لاليزابث واسعا ، وكان معلمها الخاص المشهور - روجر أسكام - يتيه فخرا « بأنها تتحدث بالفرنسية والإيطالية بمثل ما تتحدث بالإنجليزية ، وأنها كثيرا ما تحدثت معي في يسر وطلاقة باللاتينية ، وإلى حد ما باليونانية^(٢) » ، وكانت تتلقى في كل يوم لحة من اللاهوت ، وتضلعت في العقيدة البروتستانتية ، ولكن يبدو أن معلمها الإيطاليين نقلوا إليها شيئا من مذهب الشك الذي رضعوه وتأثروا به من بومبونازي ومكيافللي ورومه في عصر النهضة .

ولم تكن اليزابث مطمئنة على تاجها وعرشها قط . وأكد البرلمان من جديد في ١٥٥٣ عدم شرعية زواج أمها من أبيها ، واتفقت الحكومة والكنيسة على أنها ابنة زنى ، واستبعد القانون الإنجليزي - متجاهلا وليم الفاتح - كل أولاد الزنى ، من ولاية العرش ؛ واعتقد العالم الكاثوليكي - وكانت إنجلترا لا تزال كاثوليكية إلى حد كبير - أن الوريثة الشرعية للتاج الإنجليزي هي ماري استوارت ، ابنة حفيدة هنري السابع ، وقد أشير على اليزابث بأنها لو سالت الكنيسة ، لحد عنها البابا وصمة بنوة الزنى واعترف بحقها في الحكم . ولم يكن بها ميل شديد إلى هذا . فإن آلافا من الإنجليز كانوا قد وضعوا أيديهم على أملاك انتزعها البرلمان من الكنيسة في عهد هنري الثامن وادوارد السادس . وكان هؤلاء الملاك ذوو النفوذ يفتشون العودة إلى الكاثوليكية . ومن ثم ترفض الكنيسة استعادة أملاكها . ولذلك كانوا على استعداد للنضال من أجل ملكة بروتستانتية . كما أن الكاثوليك في إنجلترا آثروا الملكة البروتستانتية على الحرب الأهلية . وفي ١٥ يناير ١٥٥٩ ، وسط هتافات لندن

البروتستانتية ، توجت اليزابث في كنيسة وستمنستر « ملكة على إنجلترا وفرنسا وإيرلنده ، وحامية للعقيدة » . ذلك أن ملوك إنجلترا منذ عهد ادوارد الثامن طالبوا ، بانتظام ، بحقهم في عرش فرنسا ، لأنهم لم يقصروا في شيء ينقل كاهل الملكة بالمتاعب .

إن اليزابث الآن في سن الخامسة والعشرين ، وفيها كل الفطنة التي تقترن بنضج الأنوثة . وكانت متوسطة الطول ، حسنة المظهر ، مليحة القسفات ، ذات بشرة تميل إلى السمرة ، وعينين وضاعتين ، وشعر أسمر يضرب إلى الحمرة ، ويدين جملين عرفت كيف تظهرهما للعيان^(٣) . وبدا ضربا من المستحيل أن تتمكن مثل هذه الفتاة من أن تواجه بنجاح الفوضى التي تحيط بها ، فقد مزقت المذاهب الدينية المتصارعة أوصال البلاد ، جريا وراء السلطة ، مستخدمة السلاح ، وكان الفقر المدقع داء متوطنا ، وكان التشرد قد بقي على حاله بعد العقوبات الرهيبة التي فرضها عليه هنري الثامن . وعوقت العملة الزائفة سير التجارة الداخلية ، وانتشرت هذه العملة الزائفة لمدة نصف قرن ، وكان لهذا أثره في هبوط رصيد الخزنة ، مما جعل الحكومة تدفع ١٤٪ فائدة على القروض ، واستغرقت العقيدة الدينية كل تفكير ماري تيودور . إلى حد أنها لم تول شئون الدفاع الوطني أية عناية ، وقبضت يديها عنه ، فأهملت الحصون وبقيت الشواطئ دون حماية ، ولم تعد البحرية صالحة ، وساءت رواتب الجيش وطعمه ، وشغرت الوظائف فيه . وباتت إنجلترا — التي كانت أيام ولزي تحتفظ بميزان القوى في أوروبا — باتت الآن كسيح سياسي مشلول تقاذفه كل من أسبانيا وفرنسا . ودخلت الجيوش الفرنسية إلى اسكتلندة ، وكانت إيرلنده توجه الدعوة إلى أسبانيا . وكان الحرمان من الكنيسة — حرمانا مطلقا أو جزئيا — سيفا مصلتا على رأس الملكة يهددها به البابا ، كما كان يهددها بغزو الدول الكاثوليكية لبلادها . وبدا الغزو وشيكاً قطعاً في ١٥٥٩ . وكان الخوف من القتل يساورها دوماً ، ولم ينقذها إلا ديبب الشقاق بين أعدائها ، وحكمة مستشاريها ، وشجاعة روحها . ولقد صعد السفير الأسباني « بروح المرأة أن بين جنبيها شيطانا يملكها : ويقودها حيث يريد^(٤) » . ولم تكن أوروبا تحسب أنها ستجد روح إمبراطور وراء ابتسامات فتاة .

٢ - حكومة الزباث

برزت قدرة إلزابث على التمييز وحسدة ذهنها ، على الفور ، في اختيار معاونيها . أنها مثل أبيها الذي كان يستعد دوما للمعركة . وعلى الرغم من خطابها السياسي في هاتفيلد ، اختارت رجالا ليسوا من أصل عريق أو محتد كريم ، ذلك أن معظم قدامى النبلاء كانوا من الكاثوليك ، وحسب بعضهم أنهم أصلح منها لتولى العرش . فعينت وليم سيسل سكرتيرا ومستشارا أولا لها ، وهو الذي أصبحت عبقريته في انتهاج سياسة حكيمة وفي الملاطفة وتدبر الأمور عاملا بارزا في نجاحها ، إلى حد خيل معه إلى الذين لا يعرفون الملكية ، أنه هو الملك . وكان جده من صفار الأعيان اليسورين ، ثم أصبح سيدا من سادة الريف ، وكان أبوه موظفا في خزائن الملابس في قصر هنرى الثامن وهيا صديق أمه للأسرة ضيعة مناسبة . وترك وليم جامعة كمبردج دون الحصول على درجة جامعية ، ودرس القانون في Oray's Inn (أحد أجهزة العدل التي تمنح أجازة الاشتغال بالقانون في لندن) . وقضى شبابه الداعر يعيش فسادا في مواخير لندن^(٥) . ودخل مجلس العموم في سن الثالثة والعشرين (١٥٤٣) . وتزوج زوجته الثانية ملدرد كوك Mildred Cooke . وقد ساعدته بيوريتانياتها القاسية على التزامه المذهب البروتستانتي والتمسك به . وخادم الوصي « سومرست » ثم غريمه نورثمبرلند . وأيدليدي جين جراي لتخلف ادوارد السابع ، ثم تحول في اللحظة الحاسمة إلى ماري تيودور ، وأصبح كاثوليكيًا مطيعا بناء على اقتراح منها ، وندبته للترحيب بتقديم الكاردينال بول إلى إنجلترا . وكان رجل عمل ومصلحة ، لا يسمح لتقلباته الانلاوتية أن تخل بتوازنه السياسي . وعند ما عينته إلزابث سكرتيرا لها تحدثت ، بنظمتها المألوفة . إليه قائلة : -

« لقد عهدت إليك بهذه المسهة . وهى أن تكون من بين أعضاء مجلس شورى الملكية . وترضى أن تبذل أقصى الجهد من أجل ومن أجل مملكتي . واني لآنس فيك أنك لن تفسدك أية منحة أو هدية مهما يكن نوعها ، وأنت ستكون مخلصا للدولة ، وأنتك ستمحضنى ما ترى أنه خير الرأي والنصيحة ، دون اعتبار لإرادتى الخاصة ،

وأنك إذا رأيت أن ثمة شيئا ضروريا يجب إبلاغى إياه سرا فستفضى به إلى وحدى ،
وتأكد أنى لن أعجز عن التزام الصمت فى مثل هذه الحالة ، ومن ثم فأنى أعهد إليك
بهذه المهمة (٦) » .

واحتفظت به سكرتيرا لمدة أربعة عشر عاما ، كانت بمثابة امتحان لأمانته
وكفائته ، عينته بعدها وزيرا للخزانة لمدة ست وعشرين سنة أخرى ، حتى وفاته .
ولقد رأس مجلس شورى الملكة ، وأدار دفة العلاقات الخارجية ، والشئون المالية
العامة والدفاع الوطنى ، وقاد خطى الزابث فى تدعيم المذهب البروتستانتى فى إنجلترا .
انه ، مثل ريشليو ، اعتبر أن سلامة بلاده واستقرارها يتطلبان الحكم الملكى المطلق
الذى يعمل على التوحيد ، فى مواجهة النبلاء المتناحرين والتجار الجشعين ، والعقائد
التي يحاول بعضها القضاء على بعض ، وكل أولئك يعمل على التفريق والتمزيق . واتبع
بعض أساليب مكيا فىلى ، وقليل ما كان قاسيا ، ولكنه أخذ المعارضة بلا رحمة
وبلا هوادة (٧) ، وفكر مرة فى قتل ارل وستمورلند (٨) ، وكان ذلك فى لحظة نفذ
فيها الصبر ، حانت فى نصف قرن من التثبث الصابر والاستقامة الشخصية . وكان له
عيون وجواسيس على كل شىء ولكن اليقظة الباطنية هى ثمن السلطة والقوة . وكان
مقتصدًا مولعا بالكسب ، ولكن الزابث غفرت له ثراءه لقاء حكمته ، وأجبت فيه
لتقدير الذى أعد الوسائل لقهر الأرمادا ، ولولاه لكان من المحتمل أن تضللها المظاهر
البراقة والمغرورون المبذرون مثل ليستر وهاتون واسكس . وقال السفير الأسباني فى
تقرير له : « إن ذكاء سيدسل يفوق كل ذكاء سائر أعضاء المجلس مجتمعين ، ومن ثم
فهو موضع حسد الجميع وكراهيتهم » (٩) . وأصغت الزابث أحيانا إلى ما يقوله عنه
أعداؤه ، فعاملته من حين لآخر فى خشونة وجفوة إلى حد أنه كان يخرج من حضرتها
محطما باكيا ، حتى إذا هدأت سورة غضبها أدركت أنه أثبت دعامة للملكها . وفى
١٥٧١ عينته « لورد برجلى » Burghley ، أى زعيم الارستقراطية الجديدة التى
وقفت فى وجه النبلاء المعادين . فدعمت عرشها ورفعت من شأن مملكتها .

ويستحق صغار معاونيها أن نلم بهم فى بضعة سطور فى هذه العجالة التاريخية .
لأنهم خدموها بكفاية وشجاعة ، ولم يجزوا الجزاء الأوفى ، حتى أفنوا حياتهم فى

خدمتها . منهم سير نيقولا بيكون — والد فرنسيس بيكون — وكان حامل الخاتم الملكى منذ بداية حكم اليزابث حتى وفاته ١٥٧٩ . وسير فرانسيس نوليس Knollys الذى كان عضواً فى مجلس شورى الملكة منذ ١٥٥٨ ، ورئيسا للخاصة الملكية حتى وفاته (١٥٩٦) ، كما كان سير نيقولا ثروكمورتون Throckmorton سفيرها البارع فى فرنسا ، وتوماس رندولف سفيرها فى اسكتلنده وروسيا وألمانيا ، وكان فى المرتبة الثانية ، بعد سيسل ، من حيث الاخلاص والدهاء ، وسير فرنسيس ولسنهام الذى تولى منصب الوزارة من ١٥٧٣ حتى وافته المنية (١٥٩٠) ، وكان رجلاً دمثاً مرهف الحس ، قال عنه سبنسر « إنه ماسيناس(*) العظيم فى عصره » ، روعته المؤامرات المتكررة على حياة الملكة حتى أنه أقام لحمايتها شبكة من الجاسوسية ، امتدت من ادنبره إلى القسطنطينية ، وأوقعت فى شراكها ملكة اسكتلنده المنكوبة الحظ . وقلما حظى حاكم بمعاونين على مثل هذا القدر من الكفاية والقدره والولاء ، مع هذا القدر من الرواتب الضئيلة التى كانوا يتقاضونها .

وكانت الحكومة الإنجليزية نفسها فقيرة . وزادت الثروات الخاصة على الاعتمادات العامة . وبلغ مجموع الدخل ٥٠٠,٠٠٠ (١٠) جنيه فى ١٦٠٠ ، وهو ما يعادل المبلغ التافه ٢٥ مليون دولار . وقلما فرضت اليزابث ضرائب مباشرة ، ولم تحصل من الرسوم الجمركية إلا على ٣٦,٠٠٠ جنيه ، واعتمدت عادة على دخل ممتلكات التاج ، وعلى منح من الكنيسة الإنجليزية ، وعلى قروض من الأغنياء ، كانت من الوجهة العملية إجبارية ، ولكنها كانت تسدد بانتظام (١١) . وأقرت الديون التى خلفها أبوها وأخوها وأختها ، وتمتعت بسمعة طيبة فى الوفاء بالدين إلى حد أنها استطاعت أن تحصل على القروض من أنتورب بفائدة قدرها ٥٪ على حين أن فيليب الثانى ملك أسبانيا لم يستطع فى بعض الأحيان أن يقترض قط ، وكانت الملكة مسرفة ، على أية حال ، فى الانفاق على ملابسها وحليها ، وفى المزايا الاقتصادية التى تغدقها على ذوى الخطوة لديها .

(*) Moeceus أحد رجال الدولة الرومان ، فى القرن الأول ق . م . كان صديقاً لهوراس ولرجيل ، وكان كريماً راعياً للأدب .

وقل أن دعت الزباث البرلمان ، وعلى مضض منها ، لمساعدتها من الناحية المالية ، لأنها لم تكن تطبق المعارضة أو النقد أو المراقبة ، ولم تؤمن قط بنظريات سيادة الشعب أو البرلمان . وآمنت مع هوميروس وشكسبير بأن رأسا واحدا هو الذى يجب أن يتولى الحكم - ولم لا يكون رأسها هى ، الذى جرى فيه دم هنرى الثامن وتألفت كبرياؤه ؟ وتمسكت بحقوق الملوك والملكات الآلهية . وأودعت بعض الأفراد السجن بمحض إرادتها هى دون محاكمة ، أو سبب واضح ، وكان مجلس الشورى الذى انعقد على هيئة محكمة عليا لمحاكمة المجرمين السياسيين ، يعطل ، دون استئناف ، حقوقهم فى المعارضة وفى قانونية حبسهم ، أوفى محاكمتهم أمام المحلفين^(١٢) . وعاقبت أعضاء البرلمان الذين اعترضوا سبيلها فى تحقيق أهدافها . وأوحت إلى الأقطاب المحليين الذين يديرون شئون الانتخابات النيابية ويؤثرون فيها ، أنه مما ييسر الأمور أن يختاروا مرشحين ليس لديهم نزعات صهيانية فى حرية الكلام ، لأنها طمعت فى الحصول على المال دون أن يناقشها أحد الحساب ! واستسلمت برلماناتها الأولى إلى هذا الوضع بلباقة ، وخضعت البرلمانات غاضبة فى أواسط عهدها ، أما بعد ذلك فقد قاربت البرلمانات أن تنور .

وتغابت إرادتها لأن الأمة آثرت حكمها المطلق الحكيم على عنف الأحزاب التى تتنافس على السلطة ، ولم يفكر أحد فى أن يدع الشعب يحكم ، وكانت السياسة - وهى كذلك دائما - صراعا بين الأقليات ، على أيها يحكم الأغلبية . واستاء نصف إنجلترا من سياسة الزباث الدينية ، واغتازت كل إنجلترا تقريبا من عزوبتها ، ولكن الناس فى جملتهم ، وهم يحمدون الضرائب المنخفضة والتجارة المزدهرة ، والنظام فى الداخل ، والسلام الذى طال أمده ، بادلوا الملكة حبا بحب . لقد أقامت لهم المهرجانات ، وقامت بجولات ملكية بينهم ، واستمعت إليهم دون أن يظهر عليها أى امتعاض ، وشاركتهم ألعابهم العامة ، وبمائة أسلوب آخر تصيدت قلوب الناس^(١٣) . وكتب السفير الأسباني ، وهو يدوب حسرة على اعتناقها البروتستانتية ، إلى الملك فيليب يقول : « أنها أشد التصاقا بالأهالى ، وهى على ثقة من أنهم جميعا إلى جانبها ، وهذا هو الحق بعينه^(١٤) » . وزادت المحاولات

التي بذلت القضاء على حياتها من شعبيتها وسلطانها ، حتى أن البيوريتانيين الذين اضطهدتهم دعوا لها بالسلامة ، وأصبحت الذكرى السنوية لارتقاءها العرش عيداً قومياً للشكر وإقامة الاحتفالات .

وهل كانت اليزابث هي الحاكم الفعلى ، أو مجرد واجهة محبوبة للطبقة الدنيا من النبلاء فى إنجلترا ، والأقلية التجارية فى لندن ؟ وكثيراً . ما صحح معاونوها أخطاء سياستها ، على الرغم من خوفهم من انفعالها ، ولكنها بدورها ، كثيراً ما صححت أخطاءهم كذلك . لقد أبلغوها حقائق مرة ، وزودوها بنصائحهم المعارضة لرأيها ، وامثلوا لقراراتها ، أنهم حكموا ولكنها ملكت . وقال السفير الأسباني : « لأنها تصدر الأوامر ، وتفعل ما تريد ، تماماً كما كان يفعل أبوها (١٥) » . وقلما أدرك سيسل نفسه ماذا اعتزمت أن تفعل ، واضطرب واغتناظ من رفضها المتكرر لمشورته التي وصل إليها بعد جهد شاق وتمحيص دقيق . وعندما خثها على عدم التفاوض مع فرنسا ، والاعتماد فقط على تأييد البروتستانت ، انهرته فى قسوة وحدة « أيها السكرتير ، أفهم أنى انتهيت من هذا الموضوع ، ولسوف استمع إلى مقترحات ملك فرنسا ، ولن أكون بعد اليوم مربوطة إليك وإلى اخوتك فى المسيحية (١٦) » .

ودفعت تصرفاتها فى شئون الدولة الأصدقاء والأعداء إلى البكاء ، على حد سواء . فقد كانت متأنية مترددة إلى حد مثير ، فى البت فى الأمور ، ولكن ترددها عاد بالفائدة فى أحوال كثيرة ، لقد عرفت كيف تتحالف مع الزمن الذى يحل من المشاكل أكثر مما يحل الرجال ، وكم هيأ تسويقها فى البت ، للعوامل المعقدة فى موقف ما ، أن تستقر وتتركز وتتضح . لقد أعجبت بالفيلسوف الأسطورى الذى ألحوا عليه فى طلب الجواب ، فتلا حروف الهجاء فى صمت قبل الادلاء به . واتخذت شعاراً لها : « انى أرى وأنا صامت » . واكتشفت أنه فى السياسة كما فى الحب ، من لم يتردد يضيع نفسه . وإذا تذبذبت سياستها فى غالب الأحيان ، فهذا هو شأن الحقائق والقوى التى يعمل حسابها . ولما كانت محاطة بالأخطار والدسائس ، فإنها تحسست طريقها فى حذر موسوم بالتسامح والصفح ، محاولة أنا سبيلاً آخر ، فهى لا تدعى الثبات فى عالم مائع . وتعثر ترددها فى بعض أخطاء جسيمة ، ولكنها

احتفظت بانجلترا في سلام حتى بلغت من القوة ما تستطيع معه أن تحارب . ولما كانت قد ورثت أمة تشيع فيها الفوضى من الناحية السياسية ، منارة من الناحية العسكرية ، فقد كانت السياسة الوحيدة التي يمكن انتهاجها هي الحيلولة دون اتحاد أعدائها ضدها ، وتشجيع ثورة الهيجونوت ضد ملك فرنسا ، وثورة الأراضي الوطنية ضد أسبانيا ، وثورة البروتستانت ضد ملكة اسكتلنده الوثيقة الصلة بفرنسا . لقد كانت هذه سياسة مجردة من المبادئ الأخلاقية ، ولكن اليزابث آمنت مع مكيافايلي بأن الوسوس لا تلتئم مع الحكام المسئولين عن الدول . ومهما يكن من أمر فإن ضعفها الموسوم بالحدق والدهاء يشير إلى أنها حافظت على بلادها من السيطرة الأجنبية ، وحافظت على السلام لمدة ثلاثين عاما - باستثناء فترات قصيرة ، وتركت لإنجلترا أغنى مما كانت عليه في أي وقت مضى ، ماديا وفكريا .

واستطاعت اليزابث الدبلوماسية ، أن تلقن وزراء الخارجية في زمانها ، دروسا في الإعلام النشيط السريع والوسائل اللبقة الماكرة والخطوات الكثيرة التي لا يمكن التنبؤ بها . وكانت أقدر أهل زمانها على الكذب . ومن بين النساء الأربع - ماري تيودور ، ماري ستيوارت ، كاترين دي مديتشى واليزابث - اللائي ضربهن نوكس Knox مثلا على « حكم النساء الرهيب » في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، تفوقت اليزابث عليهن بلا منازع في الفطنة السياسية والبراعة الدبلوماسية . وذهب سيسل إلى أنها « أعقل امرأة وجدت » ، لأنها فهمت ميول كل أمير في زمانها وما يولع به وما يستهويه . وكانت على علم تام بمملكته إلى حد أن أيا من مستشاريها لم يكن لينبئها بشيء لم تكن تعرفه من قبل (١٧) . وهذا بطبيعة الحال يتطلب الرقبة من الحسد ببعض حصوات من الملح ، وتمتعت الملكة بميزة التباحث مباشرة مع السفراء بالفرنسية أو الإيطالية أو اللاتينية ، ومن ثم كانت في غنى عن الاعتماد على المترجمين والوسطاء . ويقول السفير الأسباني : « ان هذه المرأة يملكها مائة ألف شيطان ، ولكنها مع ذلك تزعم لي أنها تحب أن تكون راهبة ، تعيش في صومعة تتلو تسابيحها وصلواتها من الصباح إلى الليل (١٨) » ، لقد أدانتها كل حكومة في قارة أوروبا ، وفي نفس الوقت أعجبت بها وقال عنها البابا سكستس السادس : « لو لم تكن زنديقة لكانت تساوي عالما بأسره (١٩) » .

٣ — العذراء العاشقة

كانت عذرية اليزابث هي السلاح الخفى في دبلوماسيتها . وهذا بطبيعة الحال تفصيل ثانوى عويص يجدر بالمؤرخين ألا يزعموا التيقن منه ، أو لنكن نزاعين إلى الثقة ، مثل سسير والترالى حين يطلق الاسم على مستعمرة ويعينها بلداتها . ولقد ساورت سيسل بعض شكوك عابرة عندما لاحظ عبث اليزابث الطويل الأمد مع لستر ومغازلتها . ولكن سفيرين أسبانيين لا يتورعان ولا يجدان حرجا في تشويه سمعة الملكة ، انتهيا إلى أنها شريفة (٢٠) . وذكرت الاشاعات التى انتشرت في البلاط — كما رواها ابن جونسون لدروموند هوثورندن — « أن فيها غشاء يجعلها غير أهل لمعاشرة الرجال ، ولو أنها حاولت مع كثير منهم لجرد اللهو والمرح . . . » وأخذ جراح فرنسى على عاتقه أن يستأصلة ، ولكن الخوف منعها من ذلك (٢١) . وكتب كاندن في حولياته ١٦١٥ : « صب الناس اللعنات على هويك Huic طبيب الملكة لأنه ثبط همتها في الزواج بسبب عائق وعاهة فيها (٢٢) » . غير أن البرلمان الذى توسل إليها مرارا للتزوج ، افترض قدرتها على الحمل ، ولقد منى معظم ملوك آل تيودور بالاخفاق في هذه الناحية : فيحتمل أن تكون مصائب كاترين أوف أراجون في الولادة ترجع إلى داء الزهرى الذى أصيب به هنرى الثامن ، ومات ابنه ادوارد في سن الشباب نتيجة علة كريهة الوصف . وحاولت ابنته ماري محاولة شديدة أن يكون لها طفل ، وكل ما حدث أنها ظنت خطأ أن داء الاستسقاء حمل ، وعبثت اليزابث ما شاءت ، ولكنها لم تجرؤ على الزواج ، وقالت : « لقد كنت أنفر منه دائما » . وأعلنت منذ ١٥٥٩ عزمها على أن تبقى عذراء (٢٣) . وفي ١٥٦٦ وعدت البرلمان : « سوف أتزوج حالما أرى الوقت مناسبا . . . وآمل أن يكون لي أطفال (٢٤) » . ولكن في نفس العام ، عندما أنبأها سيسل أن ماري ستوارت أنجبت طفلا ، كادت اليزابث تذرف الدمع وقالت : « ان ملكة الاسكتلنديين أم لابن جميل ، أما أنا فلست إلا أرضا مجذبة (٢٥) » . وهنا ولفترة وجيزة ، كشفت عن حزنها المقيم — لأنها لم تستطع أن تحقق أنوثتها .

وزادت التورطات السياسية في عمق المأساة . وأعتقد كثير من رعاياها الكاثوليك أن عقمها ليس إلا عقابا وفاقا على خطايا والدها ، ووعد بأن ماري الكاثوليكية سوف ترث العرش . ولكن البرلمان وسائر إنجلترا البروتستانتية كانوا يوجسون خيفة من هذه التوقعات ، وألحوا عليها في أن تجد لها زوجا . ولقد حاولت ، ولكنها بدأت بأن شغفت حبا برجل متزوج ، هو لورد روبرت ددلي وهو رجل مديد القامة وسيم كيس مصقول شجاع ، وهو ابن دوق نورثمبرلند الذي كان قد لقي حتفه على جبل المشنقة لمحاولته إبعاد ماري تيودور عن وراثة العرش لتجلس عليه جين جراي . وتزوج ددلي من آمي روبسار Amy Robsart ولكنه لم يكن يقيم معها . وراجت الإشاعات بأنه عابث خليع لا أخلاق له . وكان جمعية اليزابث في وندسور ، عند ما سقطت زوجته من على درج السلم في Cumnor Hall فدى عنقها وقضت نجها (١٥٦٠) . وحامت الشبهات عند السفير الأسباني وآخرين غيره بأن ددلي والملكة دبرا هذه الميئة الشنيعة . وكانت الريب ظالمة (٢٦) . ولكنها قضت ، لبعض الوقت ، على آمال ددلي في أن يصبح زوجا لاليزابث . ولما ذهب بها الظن إلى أنها ستقضى نجها (١٥٦٢) توسلت أن يعين ددلي وصيا على المملكة ، واعترفت بأنها أحبه منذ زمن طويل ، ولكنها أشهدت الله : على أنهما لم يرتكبا عملا غير لائق (٢٧) . وبعد عامين قدمته إلى ملكة اسكتلنده ، وخلعت عليه لقب « ارل لستر » ، لتزيد من مفاقته ، ولكن ماري كرهت أن يشاركها عشيق غريمها فراشها فواسته اليزابث وهدأت من روعه بما أغدقت عليه من احتكارات ، وكان موضع عطفها ورعايتها حتى مات (١٥٨٨) .

واحتمل سيسل هذه الإشاعة في اشمئزاز وقور ، وفكر لبعض الوقت في الاستقالة من منصبه احتجاجا ، فقد اتجه تفكيره الخاص إلى زواج يعمل على تقوية إنجلترا ، بعقد أو اصر الصداقة مع دولة قوية . ولمدة ربع قرن من الزمان حوم حول الملكة نفر عديد من الأجانب يطلبون يدها . وكتب أحد السفراء : « هناك اثني عشر سفيرا ينافس بعضهم بعضا في طلب يد جلالتها ، ولسوف يأتي بعد ذلك دوق هولشتين ليطلب يدها الملك الدنمركي . وهنا دوق فنلنده الذي جاء رسولا عن أخيه ملك السويد ،

وهو يهدد بتتل مبعوث الإمبراطور ، ولشد ما تخشى الملكة أن يقطع كل منهم رقبة الآخر في حضرته^(٢٨) . ولا بد أنها أحست بشيء من الرضا حين قدم لها فيليب الثاني ، وهو أعظم عاهل في العالم المسيحي يده المخنكة (١٥٥٩) ، ولكنها رفضت هذه الحيلة لتحويل إنجلترا إلى ولاية كاثوليكية تابعة لأسبانيا . وتمهلت طويلا في الرد على اقتراح من شارل التاسع ملك فرنسا ،

كانت آنذاك تسلك سلوكا محمودا . وشكا السفير الفرنسي « من أن الدنيا خلقت في ستة أيام ، وأن الملكة قضت حتى الآن ثمانين يوما ، ولا تزال مترددة » . فأجابت هي جوابا بارعا ما كرا بأن الدنيا « خلقها من هو أعظم منها^(٢٩) » . وبعد عامين أوعزت لوكلاء إنجلترا أن يقترحوا زواجها من شارل أرشيدوق النمسا ، ولكنها بتحريض من ليستر تخلت عن هذه الفكرة . ولما كان الموقف الدولي يقتضى مسaire فرنسا (١٥٧٠) ، فقد تشجع دوق ألنسون (ابن هنرى الثانى من كترين دى مديتشى) على التفكير فى أن يصبح زوجا فى السادسة والعشرين للملكة فى السابعة والثلاثين ، ولكن المفاوضات توقفت بسبب ثلاث عقبات — مذهبهم الكاثوليكى ، وشبابه غير الناضج وندوب فى أنفه . وانقضت خمس سنوات ذلت فيها إحدى هذه العقبات ، واتجه التفكير مرة أخرى إلى ألنسون الذى أصبح الآن دوق أنجو ، ودعى إلى لندن ، ولمدة خمس سنوات أخرى غررت الزايت به وبفرنسا ، وعقب فترة أخيرة (١٥٨١) تلاشت هذه المغازلة المرححة ، وانسحب دوق أنجو من الميدان ، وهو يلوح برباط لجورب الملكة تذكارا لهذه الواقعة ، وكانت الملكة فى نفس الوقت قد منعت من الزواج من ابنة ملك أسبانيا ، ومن ثم حالت دون تحالف عدوتها فرنسا وأسبانيا . وقل أن غنمت امرأة مثل هذا الغنم من عقمها ، أو نعمت بمثل هذا اللهو والسرور من عذريتها .

٤ — الزايت وحاشيتها

وجدت الملكة فى تودد هذه الزمرة من رجال عصرها الشيطانيين المكنمين رجولة وقوة لإيها وملاطفتهم لإيها — نقول وجدت ارتياحا ورضا أكثر مما هو فى

مضاجعة شاب مريض بالزهرى مثلاً . وإن المغازلة لتبقى ما لم يقض عليها الزواج ، ومن ثم تلذذت اليزابث بالزلفى والملق والتودد طوال الوقت واستطابت ذلك كله فى نهم لا يشبع . وجر اللوردات الخراب على أنفسهن فى سبيل الاحتفاء بها وتسليتها ، وعبروا بالمواكب والمهرجانات ومظاهر الأبهة والمسرحيات التنكرية عن عظمة الملكة ومجدها ، وأغرقها الشعراء بقصائدهم واهداءاتهم ، وداعب الموسيقيون أوتار آلاتهم شدوا بمدحها . ولقد تغنت قصيدة غزلية بعينها على أنهما كرتان ملكيتان تأسران الناظر إليهما وتقهرانه ، وصدرها على أنه « أكمة جميلة تكمن فيها الفضيلة والبراعة القدسية »^(٣٠) وقال لها رالى إنها تحكى فى مشيتها فينوس ، وفى صيدها ديانا ، وفى ركوبها الخيل الأسكندر ، وفى غنائها ملاكا ، وفى لعبها أوريوس^(٣١) . وكادت اليزابث تصدق هذا . وكانت مزهوة ، وكأن كل مزايا إنجلترا وفضائلها لم تكن إلا الثمار المباركة لأموتها ، وهذا حق إلى درجة ما . ولما كانت ترتاب فى مفاتن جسمها ، فقد لحأت إلى ارتداء أثمن الثياب التى تغيرها كل يوم تقريبا ، حتى لقد تركت عند موتها ألفى ثوب . وقد تحلت بالمجوهرات فى شعرها وذراعها ومعصمها وأذنها وأثوابها ، وإذا ما استنكر أحد الأساقفة حبها للمجوهرات ، بعث إليه بمن ينذره بالألأ يطرق هذا الموضوع ثانية ، وإلا لقي ربه قبل الأوان^(٣٢) .

وقد يكون سلوكها وعاداتها مفزعة . فقد صفعت رجال حاشيتها أو لاطفهم وداعبتهم ، بل حتى المبعوثين الأجانب . ولقد وخزت رقبة ددلى من الخلف حين انحنى ليتسلم براءة لقب ارل^(*) ، وبصقت أنى شاءت — وذات مرة على معطف ثمين . وكانت عادة أليفة يسهل الوصول إليها . ولكنها تحدثت بلسان ذرب ، وربما غدت سليطة لا يمكن الرد عليها ، وأقسمت كما يقسم القرصان (وكانت كذلك بالوكالة) وكان من أخف الأيمان التى تقسم بها « بحق وفاة الرب » . وكان فى مقدورها أن تكون قاسية ، كما هو الحال فى لعبة القط والفأر ، التى لعبتها مع مارى ستيوارت ،

(*) يروى أوبرى قصة سمجة : « ان ادوارد دى فر de Vere ارل أكسفورد ، وهو ينحى اجلالا للملكة اليزابث خرجت منه ربيع فضجل وشعر بالعار . وغادر البلاد لمدة سبع سنين دأبا ، فلما عاد رجبت الملكة يهودته إلى الوطن وقالت سيدهى اللورد ، لقد نيت الريح^(٣٣) . »

أو في ترك ليدي كاترين جرای تذبذب وتهم حتى الموت في « برج لندن ». ولكها كانت أساسا عطوفة رحيمة ، وخلطت بين رقها وضرباتها . وكثيرا ما ثارت وفقدت صوابها ، ولكن سرعان ما استعادت ضبط النفس والسيطرة على الأعصاب . وكانت تنفجر ضاحكة إذا تسلت ، وكثيرا ما حدث ذلك . وأولعت بالرقص فرقصت على قدم واحدة حتى بلغت التاسعة والستين وكانت تثب وتغامر وتصطاد . كما أحببت المسرحيات والحفلات التنكرية ، واحتفظت بروح معنوية عالية حتى حين هبطت مواردها .

وكانت غاية في الشجاعة والذكاء عند مواجهة الخطر . وكانت معتدلة في طعامها وشرابها ، شرهة في المال والمجوهرات ، وكانت تجد لذة كبيرة في مصادرة ممتلكات العصاة الأثرياء ، ودبرت أن تحصل على مجوهرات التاج في اسكتلنده وبرجندى والبرتغال وتقتنيها ، بالإضافة إلى ذخيرة من الجواهر والأحجار الكريمة أهداها إليها اللوردات المرتقبون نفعا أو المرشحون للمناصب ، ولم تشتهر بعرفان الحميل ولا بالسخاء ، وحاولت في بعض الأحيان أن تدفع أجور العاملين لديها كلمات حلوة بدلا من النقود ، وقد كان ثمة شيء من حب الوطن في تقديرها وكبريائها على السواء . وعند ما تولت العرش ، لم تكذب توجد أمة بلغت من الفقر حدا تنظر معه إلى إنجلترا بعين الاجلال والتقدير ، أما عند مماتها فقد كانت لإنجلترا السيادة على البحار . كما كانت تتحدى سيطرة إيطاليا وفرنسا في مجال الفكر والعقل .

وأى نوع من العقل كان لهذه المرأة ؟ لقد حصلت من التعليم على القادر الذي يمكن أن تحصل عليه ملكة دون عناء ، وقد استمرت أثناء حكمها في دراسة اللغات . وتبادلت الرسائل بالفرنسية مع ماري ستيوارت ، وتحدثت بالإيطالية مع أحد سفراء البندقية ، ووبخت مبعوثا بولنديا بلغة لاتينية قوية . وترجمت سالوست Sallust وبوethius Boethius ، وألمت بقدر من اليونانية يكفي لقراءة سوفوكليس ولترجمة إحدى مسرحيات يوريبيدس . وزعمت أنها قرأت من الكتب عدد ما قرأ أى أمير في العالم المسيحي ، والأرجح أن يكون الأمر كذلك . ودرست التاريخ كل يوم تقريبا ، ونظمت الشعر وألفت الموسيقى ، وعزفت ، مع شيء من التسامح ، على العود والعندراوية (آلة موسيقية تشبه البيان الصغير بدون قوائم) ، ولكن كان

عندها من الإدراك ما تسخر به من منجزاتها ، وتميز به بين التعليم والذكاء . وإذا ما أطرى سفير معرفتها باللغات ردت عليه قائلة : « ليس غريبا أن تعلم امرأة أن تتكلم ، بل الأصعب منه كثيرا أن تعلمها كيف تكف عن الكلام » (٣٤) . « وكان ذهنها حادا قدر حدة كلامها وكان ذكاؤها يجارى الزمن ولا يتخلف عنه . وقال فرنسيس بيكون : « لأنه كان من عاداتها أن تقول عن توجيهاتها لكبار موظفيها إنها مثل الثياب ، تكون محكمة محبوكة لأول مرة يلبسها الإنسان ، ولكنها تصبح يوما بعد يوم فضفاضة » (٣٥) وكانت رسائلها وخطبها بلغة إنجليزية من إنشائها وحدها : معقدة ملتوية متكلفة ، ولكنها زاخرة بالصيغ الغريبة ، ساحرة في فصاحتها وأسلوبها .

وتحلت الزباث بالذكاء أكثر منها يسداد الرأي . قال عنها ولستهم : « إنها غير صالحة لمعالجة أى موضوع له وزنه » (٣٦) . ولكنه ربما تحدث في مرارة التفانى الذى لم يلق جزاءه . لقد كمنت براعتها فى الرقة الأنثوية ودقة الإدراك الحسى ، لافى المنطق المره . وفى بعض الأحيان كشفت نتيجة هذا كله عن حكمة أكبر فى تصرفاتها الماكرة منها فى تحليلها لها ، إنها روحها التى يتعذر تحديدها أو تعريفها هى التى يعتد بها ، وهى التى حيرت أوروبا وسحرت إنجلترا ، وأمدت بلادها بالقوة والقسدرة على الازدهار والنمو . وأعادت الزباث بناء الإصلاح الدينى من جديد ، ولكنها مثلت عصر النهضة - التلهف على أن يحيا الإنسان هذه الحياة الدنيا إلى أبعد مدى ، ينعم بها ويزينها كل يوم . ولم تكن نموذجا للفضيلة ، ولكن كانت مثالا للحيوية والنشاط . ان سيرجون هايوارد الذى كانت قد زجت به فى السجن لتزويده اسكس الأصغر ببعض الأفكار الثورية ، غفر لها ذلك فكتب عنها : بعد تسع سنوات من مكافأتها إياه (بالادراج عنه) - كتب يقول : -

إذا كان ثمة إنسان أوتى من الموهبة أو الأسلوب ما يستطيع أن يكسب به قابوب الناس ، فهو هذه الملكة . وإذا أظهرت شيئا مثل هذا يوما ، فقد ظهر فى أنها تجمع بين اللطف والحلال كما كانت تفعل : وفى تواضعها الموسوم بالفخامة حتى مع أقل الناس شأنًا . وكانت كل قدراتها فى حركة دائبة ، وهدت وكأن كل حركة بمثابة

عمل موجه أحسن توجيه . فقد تكون عيناها عالقتين بشخص ما ، على حين أرهفت أذنيها لآخر وأصدرت أمرا لشخص ثالث ، ووجهت حديثها لرابع ، وكأنما روحها تحوم في كل مكان ، ومع ذلك تبدو منطوية على نفسها وكأنها غير موجودة في أى مكان آخر . وكانت ترى لبعض الناس ، وتطرى آخرين ، وتقدم الشكر لغيرهم ، وتداعب فريقا آخر في سرور وسخرية ، دون أن تزدري أحداً ، أو تغفل واجبا ، وكانت توزع ابتساماتها ونظراتها ولفطاتها بقدر من الدهاء والفتنة يضاعف معه الناس من مظاهر اغتباطهم وابتهاجهم (٢٧) .

وتطبعت حاشيتها بطباعها - يحبون ما تحب ، ويقوه من ميلها إلى الموسيقى والروايات والعبارات المشرقة ، ويرفون به إلى نشوة القصيد والغزليات والتمثيلات وحفلات الرقص ، والنثر الذى لم تشهد إنجلترا مثيلا له فيما بعد . وفي قصورها - هويتبول ، وند سور ، جرينتش ، رتشموند ، هامبتون كورت ، تنقل اللوردات والسيدات والفرسان والسفراء والمغنون والخدم والحشم بين ألوان عدة من المراسم الملكية والمرح الأنيق . وكان ثمة دائرة خاصة تعد ألوان التسلية لإبتداء بالاحاجى والرد إلى حلقات الرقص الصاخبة وروايات شكسبير ، وأقيمت الاحتفالات بانتظام في عيد الصعود وعيد الميلاد وعيد رأس السنة والليلة الثانية عشرة ، وكاندلماس (عمد العذراء) ، وشروفتيد (عيد قبل الصوم الكبير) ، وزخرت بألوان الملاهى والتسلية ، والمباريات الرياضية ، والمقارعة بالسيوف ، والتمثيل التنكرى والمسرحيات وحفلات الرقص . وكانت الحفلات التنكرية شيئا من الأشياء الكثيرة التى استوردت من إيطاليا إلى إنجلترا في عهد إليزابث ، وكانت خليطا براقا من المهرجانات والشعر ، والموسيقى والقصص الرمزية والتأريخ والباليه ، ضمها بعضها إلى بعض الروائيون والفنانون ، وكانت تقدم في البلاط أوفى ضياع الأثرياء ، بأجهزة ووسائل وحركات معقدة ، تؤديها سيدات ورجال متنكرون يرتدون أغلى الثياب في تصميم بسيط ، وكانت إليزابث مولعة بالتمثيلات ، وبخاصة الهزلية منها . ومن بدرى كم من روايات شكسبير كان يصل إلى المسرح أو إلى الأعقاب والأجيال القادمة ، لو لم تقف الملكة وليستر إلى جانب

المسرح وتدعمانه ضد كل الهجمات التي شنها عليه البيوريتانز .

ولم تقنع اليزابث بقصورها الخمسة ، فانطلقت كل صيف تقريبا في جولات تجوب البلاد ، لترى الناس ويروها وتراقب اللوردات التابعين وتستمتع بما يبذلون لها من اجلال وتكريم كاردين . وكان يتبعها بعض رجال البلاط ، فرحين بالتغيير ، متذمرين لعدم توفر وسائل الراحة والبرية . وارتدى أدا الى المدن ثيابا من القطيفة والحرير ليرحبوا بها بالخطب والهدايا ، وكم أفلس النبلاء في سبيل الاحتفاء بها ، وابتهل اللوردات المعسرون إلى الله ألا تعرج عليهم . وامتطت الملكة في جولاتها صهوة جواد أو تنقلت في محفة مكشوفة ، تحي في فرح وسرور الجموع التي احتشدت على الطريق . وابتهج الناس لرؤية مليكتهم التي لا تقهر ، وافتتنوا بتحياتها الكريمة وسعادتها التي انتقلت إليهم فحمرتهم ودفعتهم إلى تجديد الولاء لها .

وانتهجت الحاشية نهجها في مرحها وحريتها في السلوك ، وترفها في الثياب . وولعها بالمراسم ، ومثلها الأعلى في الكياسة ، فقد أحبت أن تسمع خشخشة المجوهرات ونافس الرجال المحيطون بها النساء في تشكيل ما يحصلون عليه من منتجات الشرق على طرز إيطالية . وكان السرور واللهاو يشكلان البرنامج المعتاد ولما كن على المرء أن يكون على أهبة الاستعداد في أية لحظة لأية مغامرات عسكرية نيا وراء البحار . وينبغي على من يقدم على اغواء الفتيات أن يكون على أشد الحذر ، لأن اليزابث كانت تحس بأنها مسئولة أمام آباء وصيقات الشرف اللأني يعملن لديها عن شرفهن . ومن ثم أبعدت ازل بمبروك عن البلاط لأن ماري فتون حملت منه سفاحا (٢٨) . وفي بلاطها - مثل أي بلاط آخر ، حيكت الدسائس مثل نسيج العنكبوت ، وتنافس النساء على الرجال ، وتنافس الرجال على النساء ، دون وازع من ضمير أو خلق ، وكل ذلك ارضاء للملكة وكسبا لعطفها ، وللمنح التي تغدقها نتيجة لذلك . ان هؤلاء السادة الذين رفعوا ، شعرا ، من شأن نقاوة الحب والأخلاق ، تلهفوا نثرا على المناصب الكبيرة التي تدر ربحا بلا عمل ، وقعدوا الرشاوى أو أخذوها ، وعضوا بالنواجذ على الاحتكارات ، وشاركوا في أسلاب القرصنة ، ونظرت الملكة الشرهة بعين التسامح إلى الرشوة التي تزيد من الأجر

الضئيل الذى يحصل عليه خدماها . وبفضل هباتها أو باذن منها أصبح ليسستر أغنى لوردات إنجلترا ، واستولى سير فيليب سدن على أراض شاسعة فى أمريكا ، وأخذ رالى أربعين ألف فدان فى إيرلنده ، ونعم ارل اسكس الثانى باحتكار استيراد النبيذ الحلو ، وارتفع سيركرستوفر هاتون من مجرد « كلب مدلل » لدى الملكة إلى أكبر منصب فى الدولة وحامل خاتم الملكة . ولم تعد اليزابث تحس بالعقول البخارة قدر احساسها بالسيقان الرشيقة — لأن عمد المجتمع هؤلاء لم يكونوا قد غطوا سيقانهم بالبنطلونات بعد ، وعلى الرغم من كل أخطاء الملكة ، فإنها اتخذت خطوة وشقت الطريق بغية ابراز الطاقات المخزنة فى رجال إنجلترا الأفذاذ ، واستثارت همهم وشجاعتهم للقيام بالمشروعات الضخمة ، وعقولهم إلى التفكير الحر ، وسلوكهم نحو الكياسة والنفطنة ، وإلى نظم الشعر والدراما والفن . وحول هذه الخاشية ، وهذه المرأة تكاد تكون قد تجمعت كل عبقرية إنجلترا فى أزهى عصورها .

٥ — اليزابث والدين

احتدمت معركة الاصلاح الدينى المريرة داخل البلاط الملكى والأمة ، وأثارت مشكلة اتجه تفكير كثير من الناس إلى أنها ستربك المملكة وتدمرها ، فقد كان ثلثا إنجلترا : وربما ثلاثة أرباعها من الكاثوليك^(٢٩) . وكان معظم القضاة والحكام وكل رجال الدين من الكاثوليك . وكان البروتستانت محصورين فى الثغور الجنوبية والمدن الصناعية ، وكانت لهم الغلبة فى لندن حيث تضخم عددهم بسبب اللاجئين إليها من وجه الظلم فى القارة . أما فى المقاطعات الشمالية والغربية — وكلها زراعية تقريبا — فكان عددهم لا يكاد يذكر^(٣٠) . وكانت روح البروتستانت على أية حال ، أشد حماسا وغيره من الكاثوليك بشكل لا يقاس . وفى ١٥٥٩ نشر جون فوكس كتابا يصف فيه ، فى غضب شديد ، معاناة البروتستانت فى العهد السابق ، وترجمت مجلدات الكتاب فى ١٥٦٣ تحت اسم *Aclesand Monuments* (الأعمال والآثار) ، وكانت معروفة بين الناس باسم « كتاب الشهداء » وكان لها أثر مثير فى نفوس البروتستانت الإنجليز لأكثر من قرن من الزمان . وكان لبروتستانتية

فى القرن السادس عشر الطاقة المحمومة لفكرة جديدة تناضل من أجل المستقبل ،
عل حين كان للكاثوليكية قوة المعتقدات والأساليب التقليدية المتأصلة فى
أعماق الماضى .

وفى الأقلية الآخذة فى الانتشار زاد الاضطراب الدينى من نزعة الشك ، بل حتى
الاحاد ، هنا وهناك . وباتت العقول العملية الواقعية شكافة فى كل النظريات
اللاهوتية ، بسبب الصراع بين المذاهب ، والنقد المتبادل بينها ، وتعصبها الدامى
والتناقض بين الإيمان الذى يجهر به المسيحيون وبين سلوكهم . وإليك ما قال روجر
أسكام فى « المعلم » ١٥٦٣ :

ان الإيطالى الذى ابتدع لأول مرة المثل الإيطالى ضد رجالنا الإنجليز الذين
تشبهوا بالإيطاليين ، لم يعد يقصد زهوهم وخيلاءهم فى حياتهم أكثر مما يقصد رأيهم
القيس فى الدين . ولأنهم لأشد اعتدادا بعظات شيشرون منهم برسائل القديس
بولس ، وبقصص من بوكاشيو منهم بقصص الكتّاب المقدس ، وأنهم ليعتبرون
أسرار انديانة المسيحية من قبيل الأساطير الخرافية ، ويجعلون المسيح وانجيله
فى خدمة السياسة المدنية ، ثم إن المذهبيين كليهما (البروتستانتية والكاثوليكية)
لا يأتیان خطأ إليهم . وفى الوقت المناسب يرفعون من شأنهما علانية ، وبين الحدران
يسخرون منهما سرا وانى استطاعوا سبيلا ، ومع رفاقهم ، يضحكون
أو يزدرون البروتستانتية واليابوية . ولا يلقون بالا إلى الكتب المقدسة ، وأنهم
لهزأون بالبابا ، ويشكون مر الشكوى ، وبألفاظ جارحة ، لوثر ان
المعبود الذى يرتضون ليس إلا مسرتهم الشخصية ونفعهم الخاص . ومن ثم فإنهم
يعلنون فى وضوح أنهم يتبعون فى حياتهم مدرسة الأبيقوريين ، وأنهم من الناحية
النظرية ملحدون (١) .

وشكا سيسل (١٥٦٩) من « أن الساخرين من الدين والأبيقوريين والملحدین
موجودون فى كل مكان (٢) » . وفى ١٥٧١ صرح جون ستريب Strype « هناك
كثيرون تخلوا عن الكنيسة تماما ، ولم يعودوا يحضرون لآداء واجباتهم الدينية (٣) »
وذهب جون ليلي Lyle (١٥٧٩) إلى أنه « لم يكن بين الوثنيين الهمجيين مثل هذه

الفرق الدينية ، ولا مثل هذه المعتقدات الخاطئة بين الكفار ، مثل ما هو حادث الآن بين العلماء (٤٤) » . وألف علماء اللاهوت وغيرهم كتباً كثيرة ضد « الاتحاد » وهو يعنى على أية حال الإيمان بالله ، وعدم الإيمان بالوهية المسيح . وفى ١٥٧٩ ، ١٥٨٣ ، ١٥٨٩ أحرق بعض الأفراد لانكارهم ألوهية المسيح (٤٥) : واشتهر عدد من الروائيين - جرّين ، كد Kyd ومارلو - بأنهم ملحدون . إن الدراما فى عصر اليزابث - وهى فيما عدا ذلك تصور الحياة تصويراً شاملاً - تتضمن أقل القليل عن صراع المعتقدات ، ولكنها تعرض الأساطير الوثنية أكبر عوض .

وفى رواية شكسبير Love's Labour's Lost هناك بيتان غامضان :

أى تناقض هذا ؟ السواد شارة الجحيم ،

ولون السجن ومدرسة الليل .

وفسر كثيرون (٤٦) العبارة الأخيرة على أنها تشير إلى الاجتماعات التى كان يعقدها والتر رالى ، والعالم الفلكى توماس هاريوت ، والعالم لورنس كيمس ، وربما الشاعران مارلو وتشابمان ، وغيرهم ، فى دار رالى الريفية فى شربورن ، لدراسة الفلك والجغرافيا والكيمياء والفلسفة واللاهوت . وقال أنتونى رود عالم الآثار عن هاريوت - ومن الواضح أنه الزعيم الفخرى لهذه الجماعة - « إنه كانت لديه أفكار غريبة عن الكتب المقدسة . وكان دائماً يحط من قدر القصة القديمة عن الخلق (التكوين) وألف لاهوتاً نبذ فيه التوراة » . لقد آمن بالله ، ولكنه أنكر الوحي وألوهية المسيح (٤٧) » وكتب زوبرت بارسونز - وهو من الجزويت - فى ١٥٠٢ عن « مدرسة والتر رالى للاتحاد حيث كانت السخرية من موسى وعيسى الخالص ، والتوراة والإنجيل على حد سواء ، ولقن التلاميذ أن يطرحوا الرب وراء ظهورهم (٤٨) » واتهم رالى بأنه استمع إلى بحث قرأه مارلو عن « الاتحاد » . وفى مارس ١٥٩٤ أجمعت لجنة حكومية فى Cerne Abbes فى دورست ، للتحقيق فى شائعات راجت عن مجموعة من الملحدون فى الأماكن المجاورة ، ومن بينها موطن رالى . ولم يؤد التحقيق إلى إجراء معروف لدينا اليوم . ولكن تهمة الاتحاد وجهت إلى رالى أثناء محاكمته (١٦٠٣) (٤٩) . وفى

مقدمة كتابه « تاريخ العالم » أشار إلى إيمانه بالرب ، على أنه نقطة يتناولها بالتفصيل فيما بعد .

وحامت الشبهات في حرية الفكر حول اليزابث نفسها . ويقول جون ريتشارد جرين « لم توجد قط امرأة مثلها مجردة تجردا تاما من أية عاطفة نحو الدين (٥٠) » . ويقرر المؤرخ الإنجليزي فرود « أن اليزابث لم يكن لديها اقتناع عاطفي واضح . . وأنها ، وهي التي كان إيمانها بصدق المذهب البروتستانتي والمذهب الكاثوليكي ضعيفا على حد سواء ، كانت تنظر باحتقار موسوم بالتسامح إلى كل الأفكار والنظريات اللاهوتية (٥١) » . لقد دعت الله بأغظ الأيمان التي أزعجت وزراءها . أن يدمرها إذا هي نقضت عهدها بالزواج من ألدسون ، على حين أنها فيما بينها وبين نفسها سخرت من مزاعمه بطلب يدها (٥٢) . وصرحت الملكة لمبعوث أسباني بأن الفرق بين المذاهب المسيحية المتناحرة لم يكن سوى « شيء تافه » ، ومن ثم استخلص أنها ملحدة (٥٣) .

وعلى الرغم من كل شيء ، فإنها ، مثل كل الحكومات تقريبا قبل ١٧٨٩ ، اعتبرت كقضية مسلم بها ، أن شيئا من الدين وشيئا من مصدر القوة الخارقة وشيئا من الوازع الأخلاقي ، كل أولئك أمور لا يمكن الاستغناء عنها من أجل النظام الاجتماعي والاستقرار في الدولة . ولفترة من الوقت ، حتى دعمت مركزها ، بدا أنها تردد ، وتلاعبت على آمال زعماء الكاثوليك في احتمال أن يكسبوها في مذهبهم العام ، لقد أحبت الطقوس الكاثوليكية وعزوبة رجال الدين الكاثوليك . ودراما القداس ، ولربما كان من المحتمل أن تعقد أواصر السلام مع الكنيسة ، لولا أن هذا كان يحمل في طياته الخضوع للبابا . وارتابت في الكاثوليكية على أنها قوة أجنبية يمكن أن تؤدي بالإنجليز إلى وضع اخلاصهم للكنيسة فوق ولائهم للملكة . ولقد ترعرعت في أحضان بروتستانتية والدها ، وهي تعني الكاثوليكية بغير البابوية ، وهذا ، أساسا ، هو ما عقدت العزم على إقراره من جديد في إنجلترا . وراودها الأمل في أن تهدي الطقوس شبه الكاثوليكية في كنيسها الإنجليزية من روع الكاثوليك في الريف . على حين يرضى نبذ البابوية البروتستانت في المدن ، وتشكل

الرقابة الحكومية على التعليم الجليل وفق هذه التسوية التي دبرتها اليزابث ، فبدأ هذا الصراع الدينى الذى يمزق البلاد ، ويستتب السلام . انها اتخذت من تردها فى موضوع الدين ، مثل تردها فى أمر الزواج ، وسيلة لخدمة أغراضها السياسية ، وأبقت على أعدائها الأقوياء مذهولين ممزقين حتى أصبح فى مقدورها أن تواجههم بحقيقة بارعة كاملة .

وحرصتها قوى كثيرة على استكمال الاصلاح الدينى . وكتب إليها المصلحون الدينون فى أنحاء القارة شاكرين لها سلقا اعادة العبادة الجديدة . وأثرت فيها رسائلهم . وكان الذين استولوا على الأراضي التى كانت ملكا للكنيسة من قبل ، يرجون تسوية بروتستانتية . وأغرى سيسل اليزابث بأن تجعل من نفسها زعيمة لأوربا البروتستانتية . وأبدى البروتستانت فى لندن مشاعرهم بتعظيم تمثال للقديس توماس والقائه فى عرض الطريق . وكان أول برلمان فى عهدها — ٢٣ يناير — ٨ مايو ١٥٥٩) بروتستانتيا بأغلبية ساحقة ، وتمت الموافقة على الاعتمادات التى طلبتها دون تحفظ أو ابطاء . ومن أجل توفيرها فرضت ضريبة على كل الأفراد ، دينين أو علمانيين . وصدر قانون التنسيق الجديد Act of Uniformity (١٨ أبريل ١٥٥٩) وبمقتضاه أصبح « كتاب كرامر للصلوات العامة » ، بعد مراجعته ، هو قانون الطقوس الانجليزية ، وحرّم كل ما عداه من الطقوس الدينية ، وألغى القداس ، وطلب إلى كل الانجليز حضور صلوات يوم الأحد فى الكنيسة الانجليكانية ، أو دفع غرامة قدرها شلن لمعونة الفقراء . وفى ٢٩ أبريل صدر « قانون السيادة » الجديد الذى نص على أن تكون اليزابث الحاكم الأعلى لانجلترا فى المسائل الروحية والزمنية على السواء . ووضع « قسم السيادة » يعترف بالسيادة الدينية للملكة ، وكان من الحتم أن يؤدى هذا القسم كل رجال الدين والمحامين والمعلمين ، والمتخرجين فى الجامعات والحكام والقضاة وكل موظفى الكنيسة والتاج ، وعهد إلى محكمة كنسية ذات سلطة عليا ، تختار الحكومة أعضائها ، باجراء التعيينات الكبرى فى الكنسية واتخاذ القرارات الكنسية . وأى دفاع عن سلطة البابا على انجلترا كان عقابه السجن مدى الحياة لأول مخالفة والموت للثانية (١٥٦٣) . ولم تأت سنة ١٥٩٠ حتى كانت

كل الكنائس الانجليزىة بروتستانتية .

وزعمت اليزابث أنها لم تضطهد حرية الرأى . فقالت ان لكل إنسان أن يتمتع بحرية الفكر وحرية العقيدة كما يشاء . شريطة أن يطيع القانون ؛ وان كل ما تتطلبه هو الانسجام الخارجى : حرصا على وحدة الأمة . وأكد لها سيسل : « أن هذه الدولة لن تستشعر الأمان والاطمئنان ، ما دام فيها تسامح نحو عقيدتين (٥٤) » — ولو أن هذا لم يمنعها من طلب التسامح مع البروتستانت الفرنسيين فى فرنسا الكاثوليكية (٥٥) . ولم يكن لديها اعتراض على الرأى المسالم ، على ألا تكون حرية الرأى هى حرية الكلام . ومن ثم فإن الوعاظ الذين لم يشاركوها وجهات نظرها فى أى موضوع هام كان مصيرهم أن تخرس ألسنتهم أو يطردوا (٥٦) . وحددت من جديد قوانين الهرطقة وطبقت . وحرم من حماية القانون طائفة الموحدين (الذين يقولون بالتوحيد لا الثلاثية) والقائلين باعادة تعميد البالغين (٥٧) . وأعدم أثناء حكم الملكة خمسة من المهرطقين ، وهذا رقم متواضع فى ذاك الزمان .

وحدد مجمع من رجال اللاهوت فى ١٥٦٣ المذهب الجديد . واتفق رأى الجميع على « القضاء والقدر » . فان الله بمحض مشيئته ، قبل خلق الدنيا . ودون اعتبار لمزايا الإنسان أو مثالبه . كان قد اصطفى أفرادا ليكونوا من الصفوة التى كتب لها الخلاص ، على حين ترك بقية البشر من الهالكين الملعونين . وتقبلوا فكرة لوثر عن الخلاص بالإيمان بنعمة الله ، ودم المسيح المخلص ، على أنهم فسروا « القربان المقدس » بالمعنى الذى ذهب إليه كلفن ، أى أنه اتصال روحى أكثر منه مادى بالمسيح . وبمقتضى قرار من البرلمان (١٥٦٦) انتظمت المواد التسع ، والثلاثون العقيدة الجديدة . وأصبحت اجبارية على كل رجال الدين فى إنجلترا ، ولا تزال تعبر عن المذهب الانجليكانى الرسمى .

وكذلك كانت الطقوس الجديدة حلا وسطا . فالغنى القداس ، ولكن مما أزعج البيوريتانز أن صدرت التعليمات إلى رجال الدين بارتداء الملابس الكهنوتية البيضاء عند تلاوة الصلوات وعند تقديم القربان المقدس . وكان يجب تناول القربان ركوعا — فى شكل الخبز والنبذ . واستبدل بالتوسل بالقدسين الاحتفال سنويا بذكرى أبطال

البروتستانتية ، واستبقى تثبيت العماد ورسامة الكهنة على أنهما طقوس مقدسة ، ولكن لا يعتبران من الأسرار المقدسة التي عينها السيد المسيح ، وشجع الاعتراف للكاهن في حالة دنو الأجل فقط . واحتفظ كثير من الصلوات بصيغته الكاثوليكية الرومانية ، ولكنها اكتست بالرداء الانجليزى ، وأصبحت جزءا بارزا عظيما من آداب الأمة . ولمدة أربعمئة سنة ، نفخت هذه الصلوات والتراتيل التي تتلوها الفرق أو الكاهن في الكاتدرائيات الفسيحة الفخمة ، أو في كنيسة الأبرشية البسيطة — نقول نفخت في روح الاسرار الانجليزية وحياتها ، وزودتها بالسلى والتهديب الخلقى والهدوء العقلى .

٦ — الزايت والكاثوليك

والآن جاء دور الكاثوليك ليعانوا من الاضطهاد . فقد كان محرما عليهم — ولو أنهم كانوا لا يزالون يشكلون الأغلبية — أن يقيموا الصلوات الكاثوليكية ، أو يكون لهم أدب كاثوليكي . وحطمت الصور المقدسة في الكنائس بأمر الحكومة ، كما أزيلت المذابح . وأرسل ستة من طلبة اكسفورد إلى « البرج » لمقاومتهم لإزالة صليب يمثل صلب المسيح من كنيسة كليتهم^(٥٨) ، وخضع معظم الكاثوليك للتعليمات الجديدة في حزن وأسى ، ولكن عددا كبيرا منهم آثر دفع الغرامة على حضور الطقوس الانجليكانية . وجمع المجلس الملكى نحو خمسين ألفا من هؤلاء « العصاة المتمردين » في إنجلترا (١٥٨٠) (٥٩) . وشكا الأساقفة الانجليكانيون إلى الحكومة من أن القداس كان يقام في بيوت خاصة ، وأن الكاثوليكية بدأت تكون عبادة عامة ، وأنه كان من الخطر في بعض الجهات المتحمسة أن يكون المرء بروتستانيا^(٦٠) . ووبخت الزايت رئيس الأساقفة باركر على تراخيه (١٥٦٥) ، ومن ثم طبقت القوانين بشكل أشد صرامة . وأودع السجن الكاثوليك الذين حضروا القداس في كنيسة سفير أسبانيا ، وفنشت البيوت في لندن — وأمر الأجانب الذين وجدوا فيها بالادلاء ببيان عن ديانتهم ، وطلب إلى الحكام أن يعاقبوا كل من يوجد في حوزته كتب المذهب الرومانى الكاثوليكي (١٥٦٧) (٦١) .

ويجدر بنا ألا نحكم على هذا التشريع على أساس التسامح الديني النسبي الذي أكسبنا إياه الفلاسفة والثورات في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فإن المعتقدات آنذاك كانت تحارب بعضها بعضا ، وكانت تشابكة بالسياسة ، وفي هذا المجال كان التسامح محدودا . فقد اتفقت كل الأحزاب والحكومات في القرن السادس عشر على أن الانشقاق الديني كان شكلا من التمرد السياسى . وأصبح الصراع الدينى - عندما أصدر البابا بيوس الخامس - بعد احساسه بأنه تأخر تأخيرا طويلا مملا - مرسوما (١٥٧٠) ، لم يحرم الزنا من الكنيسة فحسب ، بل أحل رعاياها من الولاء لها كذلك ، وحرم عليهم الامتثال لتنبيهاتها وأوامرها وقوانينها . ومتع انتشار المرسوم في أسبانيا وفرنسا اللتين كانتا تخطيان ود إنجلترا آنذاك ، ولكن نسخة منه وضعت بطريقة سرية على باب مقر الأسقف البروتستانتي في لندن وسرعان ما كشف المحرم وأعدم ، وعندما ووجه وزراء الملكة بهذا الإعلان للحرب ، طلبوا إلى البرلمان سن قوانين أشد صرامة ضد الكاثوليك ، وصدرت تشريعات تنص على أنه يعتبر من الجرائم التي يعاقب مرتكبوها بالاعدام : قذف الملكة بأنها هرطقة أو منشقة أو مغنصبة . أو طاغية : أو ادخال مرسوم بابوى إلى إنجلترا ، أو تحويل بروتستانتي إلى الكنيسة الرومانية (٦٢). وفوضت المحكمة العليا في اختبار آراء أى فرد مشتبه فيه ، وأن تعاقبه على أية مخالفة لأى قانون ، لم يعاقب عليها من قبل ، بما في ذلك الفسق أو الزنى (٦٣) .

ولم يجد ماوك أوربا الكاثوليك لديهم من الجرأة ما يحتاجون به على هذه الاجراءات الظالمة التي شابهت إجراءاتهم إلى حد كبير ، واستمر معظم كاثوليك إنجلترا على الخضوع في سلام ، وأملى حكومة الزنا في أن تؤدي العادة إلى القبول والرضا ، ثم الإيمان في الوقت المناسب ، ولكن حال دون هذا أن وليم ألن Allen المهاجر الانجليزى أسس في دوى Douai (مدينة في شمال فرنسا) ثم في الأراضى الوطيفة الأسبانية ، كلية ومعهدا لاهوتيا لتدريب المبعوثين الانجليز الكاثوليك لارسالهم إلى إنجلترا . وأفصح عن غرضه في حماسة قائلا :

إن دراستنا في المقام الأول . . . تقوم على أن نثير في عقول الكاثوليك الحماسة

والازدراء المبني على الحق بالهرطقة . ولنا لنفعل هذا بأن نضع أمام أعين الطلاب الجلال الفريد الذي تتميز به طقوس الكنيسة الكاثوليكية في المكان الذي نعيش فيه . . . وفي نفس الوقت نعيد إلى الذاكرة النقيض الحزن الذي يحدث في وطننا ، ألا وهو الدمار الشامل الذي حل بكل الأشياء المقدسة هناك . . . وأصدقائنا وأقربائنا ، وأعزائنا ، إلى جانب الأرواح التي لا تحصى ، ممن هلكوا في الانشقاق والكفر ، وفي الأبراج المحصنة والسجون المكتظة عن آخرها ، لا باللصوص والأشرار ، بل بكهنة المسيح وخدامه ، بل كذلك بآبائنا وأنسابنا وعشيرتنا . ومن ثم فليس هناك شيء يجدر بنا ألا نكابده ، أكثر من أن نتعهد بعلاج ما تعانيه أمتنا من علل (٦١) .

وعملت الكلية في دوى حتى ١٥٧٨ ، حين استولى الكلفينيون على المدينة ، ثم في ريمس ؛ ثم في دوى ثانية (١٥٩٣) . وأخرج لإنجيل دوى - وهو ترجمة إنجليزية عن الأصل اللاتيني الذي وضعه جيروم - في ريمس ودوى (١٥٨٢ - ١٦١٠) وكان مبدأ للنشر قبل طبعة الملك جيمس بسنة واحدة . وفيما بين عامي ١٥٧٤ و ١٥٨٥ رسمت الكلية ٢٧٥ كاهنا من المتخرجين فيها ، وأرسلت ٢٦٨ منهم للعمل في إنجلترا . واستدعى آلن إلى رومه وعين كاردينالا . ولكن العمل في الكلية استمر ، وأرسلت ١٧٠ كاهنا آخر إلى إنجلترا قبل وفاة اليزابث (١٦٠٣) . ومن مجموع هؤلاء المبعوثين (٤٣٨) عوقب ٩٨ بالاعدام .

وانتقلت رئاسة هذه الارساليات إلى رجل من الجزويت . هو روبرت بارسونز Parsons ، وهو رجل يتقد حماسه وجراة وشجاعة ، قوى الحجة شديد المراس في المناظرة والجدل ، بارع في النثر الانجليزي . وأعلن بصراحة أن مرسوم خلع اليزابث يبرر قتلها . وصعق كثير من الكاثوليك الانجليز لدى سماع هذا التصريح ، ولكن تولوميو جالي ، أحد مستشاري البابا جريجوري الثالث عشر السياسيين أبدي موافقته على هذه الفكرة (٦٢) (*) . وحرص بارسونز الدول الكاثوليكية على غزو

(*) يضرب مؤرخ كاثوليكي إلى ذلك قوله . « إذا كان مستشار البابا أقر قتل اليزابث فان هذا يتفق مع القانون الذي كان نافذا آنذاك . كما أن جريجوري أيضا - ولا بد أن مستشاره كان قد عرض عليه الأمر قبل ارسال كتابه . وافق على هذه الفكرة (٦٦) »

إنجلترا . ولكن السفير الأسباني في إنجلترا استنكر هذه الحطة على أنها « حماقة إجرامية » ، وحرّم افرار مركوريان Everard Mercurian رئيس طائفة الجزوبث - على بارسونز التدخل في السياسة (٦٧) . ولم يرتدع ، وعقد العزم على أن يغزو إنجلترا شخصيا . وتذكر في زى ضابط لإنجليزى عائد من الخدمة في الأراضي الوطنية . وهيات له عصاه العسكرية وسترته الموشاة بالحيوط الذهبية وقبعته ذات الريش ، الوصول إلى موظفى الحدود (١٥٨٠) ، بل انه كذلك مهد الطريق لرجل آخر من الجزوبث ، ادموند كامبيرون ، ليتبعه في زى تاجر مجوهرات ، وأقاما سرا في قلب لندن .

وزار الرجلان الكاثوليك المسجونين ، ووجدا أنهم يعاملون معاملة حسنة . وقد جندا معاونين علمانيين وروحانيين ، وشرعا في العمل ، يحثان ويشجعان الكاثوليك على أن يبقوا مخلصين للكنيسة ، ويردان البروتستانت الحديثين إلى مذهبهم الأول . ولكن القساوسة المدنيين المحتفين في إنجلترا ، الذين روعتهم جرأة الرجلين ، أنذروهما بأنهما لا بد أن يكشف أمرهما ويقبض عليهما سريعا ، وان اكتشافهما سوف يسىء أكثر إلى الكاثوليك ، وتوسلوا إليهما أن يعودا إلى القارة . ولكن بارسونز وكامبيرون تمسكا بموقفهما . وانتقلا من بلد إلى بلد ، يعقدان الاجتماعات سرا ويسمعان الاعترافات ، ويقيان القداس ، ويمنحان البركات للمصلين الهامسين الذين نظرا إليهما على أنهما رسولان من عند الله . وقيل لهما في بحر سنة من قدومهما حولا عشرين ألف مرتد (٦٨) ، وانشأ مطبعة ونشرا الدعاية ، ولقد وجدت في شوارع لندن نشرات جاء فيها أنه ما دامت اليزابث قد حرمت من الكنيسة ، فانها لم تعد الملكة الشرعية لإنجلترا (٦٩) . وأرسل رجل جزويقي ثالث إلى ادنبره ليحرض الاسكتلنديين الكاثوليك على غزو إنجلترا من الشمال . ولبي ارل وستمورلاند نداء من الفاتيكان ، وأحضر معه من رومه إلى الفلاندرز مجموعة من السبائك الذهبية لتمويل الغزو من الأراضي الوطنية . وفي صيف ١٥٨١ اعتقد كثير من الكاثوليك أن قوات دوق ألفا الأسبانية سوف تعبر البحر إلى إنجلترا (٧٠) .

وتلقت الحكومة الإنجليزية تحذيرات من جواسيسها ، فضاعفت جهودها للقبض

على الجزويت . أما بارسونز فقد شق طريقه عبر القنال الإنجليزي ، ولكن قبض على كامبيون في يولية ١٥٨١ . ونقل إلى « برج لندن » عبر القرى المتعاطفة ولندن المعادية . وارسلت اليزابث في طلبه وحاولت انقاذه . وسألته : هل يعتبرها عاهله الشرعى ؟ فرد بالإيجاب . وكان سؤالها الثانى هل يستطيع البابا قانونا أن يحرمها من الكنيسة ؟ فأجاب بأنه لا يستطيع أن يبت فى مسألة اختلف عليها أولو العلم . فأعادته إلى البرج ، مع توجهات بحسن معاملته ، ولكن سيسل أصدر أوامره بتعذيبه حتى يعترف بأسماء رفاقه المتآمرين . وبعد يومين من الكرب والألم المبرح استسلم وأدلى ببضعة أسماء ، فألقى القبض على عدد آخر من الأفراد . فلما استعاد جراته تحدى رجال الدين البروتستانت أن يشهدوا معه حوارا عاما . وعقد الحوار فى كنيسة برج لندن ، باذن من مجلس شورى الملكة ، وسمح لرجال البلاط والمسجونين والجمهور بحضوره ، ووقف الجزويتى على ساقيه الواهنتين عدة ساعات يدافع عن المذهب الكاثوليكي . ولم يقنع أحد الطرفين الآخر . ولكن عند ما قدم كامبيون إلى المحاكمة لم يتهم بالزندقة ، بل وجهت إليه تهمة التآمر على قلب الحكومة عن طريق التخريب الداخلى والغزو الخارجى . وأدين كامبيون وأربعة عشر شخصا معه ، وشنقوا فى أول ديسمبر ١٥٨١ .

إن أولئك الكاثوليك الذين تنبأوا بأن بعثة الجزويت سوف تغضب الحكومة وتؤدى بها إلى مزيد من الاضطهاد ، اثبتوا أنهم كانوا على حق . وأصدرت اليزابث نداء إلى رعاياها ، ليفصلوا بينها وبين أولئك الذين إبتغوا سيلا إلى عرشها أو حياتها واصدر البرلمان (٥٨١) قانونا ينص على أن الارتداد إلى الكاثوليكية سوف يعاقب بتهمة الخيانة العظمى ، وأن أى قسيس يقيم قداسا يعاقب بغرامة قدرها مائتا مارك مع السجن لمدة عام ، وأن من يمتنع عن حضور الصلوات الأنجليكانية يعاقب بدفع عشرين جنيها فى الشهر (٧١) ، وهذا يكفى لافلاس الناس اللهم إلا أثرياء الكاثوليك . وكان العجز عن دفع الغرامة يستتبع الاعتقال ومصادرة الأملاك . وسرعان ما امتلأت السجون بالكاثوليك إلى حد أن القلاع القديمة استعملت بمثابة سجون (٧٢) . وساد التوتر كل الجوانب ، وزاد من حدته ما كان مرتقبا من إعدام مارى ستيوارت ،

والصراع المتزايد مع أسبانيا ورومه . وفى يونية ١٥٨٣ قدم أحد سفراء البابا إلى جريجورى الثالث عشر خطة تفصيلية لغزو إنجلترا بثلاثة جيوش فى وقت واحد ، من إيرلنده وفرنسا وأسبانيا وأبدى البابا تقديره وتأييده لمشروع غزو إنجلترا ، واتخذت الإجراءات اللازمة له (٧٣) . ولكن الجواسيس الإنجليز تنسموا أخبار هذه التدابير ، واتخذت إنجلترا ترتيبات مضادة ، وأجل الغزو .

وثار البرلمان بمزيد من تشريعات القمع . فكل القساوسة الذين رسموا منذ يونية ١٥٥٩ وظلوا على امتناعهم عن أداء « قسم السيادة » ، طلب إليهم أن يغادروا البلاد فى بحر أربعين يوما ، وإلا أعدموا بتهمة التآمر الموسوم بالخيانة العظمى ، وشنق كل من آوهم أو أخفهم (٧٠) . وبمقتضى هذا القانون وغيره من القوانين أعدم فى عهد اليزابث ١٢٣ قسيسا و٦٠ من العلمانيين ، وربما قضى مائتان آخرون نحبهم فى السجن (٧٥) . واحتج بعض البروتستانت على قساوة هذا التشريع ، وارتد بعضهم إلى الكاثوليكية . وفر وليم ، حفيد سيسل إلى رومه (١٥٨٥) واقسم بيمين الطاعة للبابا (٧٦) .

وكان معظم الكاثوليك الإنجليز يعارضون أى إجراء عنيف ضد الحكومة . وفى ١٥٨٥ وجهت زمرة منهم إلى الملكة اليزابث نداء أكدوا فيه ولاءهم ، واتسموا « النظر بعين العطف والرحمة إلى ما يعانون من شقاء » . ولكن - وكأنما كان يؤيد ما زعمته الحكومة من أن إجراءاتها إنما تبررها الحرب - أصدر الكاردينال ألن (١٥٨٨) منشورا قصده به شحذ همم الإنجليز الكاثوليك لمساندة هجوم أسبانيا الوشيك على إنجلترا . ودمغ الملكة بأنها « ابنة زنى حمل بها وولدت فى الخطيئة لأم سيئة السمعة من محظيات البلاط » واتهمها « بأنها باعت جسدها ولوثته مع ليستر وكثيرين غيره ، . . . مما يندى الجبن لذكره ، وبما لا يصدق من ألوان الشهوة والفسق » ، وأهاب بالكاثوليك فى إنجلترا أن يهبوا فى وجه هذه المهرطقة الفاسقة اللعينة المحرومة من الكنيسة » ، « ووعدهم بأكبر التسامح والغفران كل من يعاون فى خلع » رأس الخطيئة والمقت فى هذا العصر (٧٧) « ، فإلى جواب الكاثوليك فى إنجلترا إلا أن قاتلوا بمثل البسالة التى قاتل بها البروتستانت ضد الأسطول الأسبانى « الأروادا » .

واستمر الاضطهاد بعد هذا الانتصار، كجزء من الحرب المستمرة ، وشنق ٦١ قسيسا و ٤٩ علمانيا فيما بين عامي ١٥٨٨ - ١٦٠٣ . واقتل كثير من هؤلاء من المشقة وسحبوا ونزعت أحشاؤهم وقطعوا أربا - وهم أحياء (٧٨) . وفي خطاب شهير قدم إلى الملكة في عام وفاتها ، التمس ١٣ قسيسا الترخيص خم بالبقاء في إنجلترا . وتبرأوا من كل عدوان على حقها ، وانكروا أى سلطان للبابا في خلعها ، ولكنهم لم يستطيعوا ، في ضمايرهم ، أن يعترفوا بغير البابا على رأس الكنيسة لمسيحية (٧٩) . ووصلت هذه الوثيقة إلى الملكة قبل وفاتها بأيام قلائل ، ولم يرد ذكر شيء عن نذيجتها ، ولكنها ، عن غير عمد ، ولمدة قرنين من الزمان ، رسمت المبادئ التى يمكن على أساسها حل المشكلة . ووافى الملكة أبولها انتصرة فى أعظم صراع شابه عهد لم يُلطخ بشيء أسوأ من هذا الانتصار .

٧ - اليزابث والبيوريتانيون (المنتطهرون)

لم تنصير اليزابث على اندراج أى كان من الواضح أنه أشد ضعفاً ، وهم حفنة من البيوريتان . وكانوا رجالا أحسوا تأثير كهن . وكان بعضهم قد زار جنيف فى أيامه بوصفهم لاجئين مريميين ، وقرأ كثير من الانجيل الذى ترجمه وزوده بالملاحظات والتعليقات جماعة من أتباع كلان بجنيف ، وكان بعضهم قد سمع أو قرأ عن نفخات بوق جون نوكس (واعظ ومصاح دينى بروتستانتي اسكتلندى فى القرن / ١٦) ، وربما كان بعضهم قد سمع أصداء حركة ويكلف وأتباعه « القساوسة النقرء » . وقد اتخذوا من الانجيل دليلا لا يخطئ ، فلم يجدوا فيه شيئا عن الممارسات الأسقفية والملابس الكهنوتية التى نقلتها اليزابث عن الكنيسة الرومانية إلى الكنيسة الأنجليكانية ، بل إنهم على النقيض من ذلك وجدوا كثيرا عن المشايخ (الكهنة) الذين لم يكن لهم سيد أو ملك غير المسيح وأقروا بأن اليزابث رأس الكنيسة فى إنجلترا ، لا لشيء إلا لغل يد البابا ، ولأنهم فى أعماق قلوبهم ، رفضوا أية رقابة من الدولة على الكنيسة ، وتمنوا أن تكون لديانتهم الرقابة على الدولة . وبدئى حسوالى ١٥٦٤ بتسميتهم « البيوريتانز » (المنتطهرون) وهولفظ أسئ استخداماه ، لأنهم ضالوا بتطهير المذهب البروتستانتي الإنجليزى من كل الطقوس والعبادات غير الوارة

في العهد الجديد - الانجيل . واستمسكوا كل الاستمساك بنظريات النضاء والقدر ، والاصطاء ، واعنة الأبدية ، وأحسوا أنه لا مهرب من الجحيم إلا باخضاع كل ناحية من نواحي الحياة للدين والأخلاق . وكلما قرأوا الانجيل في أيام الأحد المقدسة المهيبة في بيوتهم ، كاد أن يتوارى شكل المسيح أمام الرب الحقود المحب للانقام « يهوه » الوارد ذكره في التوراة (اشارة إلى تشدهم وقسوتهم) .

وبدأت حملة البيوريتانز على اليزابث في الظهور (١٥٦٩) عندما ألحت محاضرات توماس كارتريت أستاذ اللاهوت في كمبردج ، على أوجه التناقض بين نظام المشيخة في الكنيسة المسيحية القديمة والكين الأسقفي في الكنيسة الرسمية الانجليكانية . وأيد كثيرون في الكلية كارتريت ، ولكن جون ونجفت Whitgift رئيس كلية ترنتي ، أبلغ الملكة بما كان من أمر كارتريت ووشى به لديها ، وحصل على موافقتها ، على فصله من هيئه التدريس (١٥٧٠) . وهاجر كارتريت إلى جنيف حيث نهل - تحت رياسة تروودور دي بيز de Bèze - أصول التوقراطية الكلفنية في أقوى صورها . ولى عودته إلى إنجلترا ، أسهم مع والتر ترانرس وآخرين في صياغة فكرة البيوريتانز عن الكنيسة . ومن رأيهم أن السيد المسيح كان قد استن أن يعهد بالسلطة الكنسية إلى السكينة وكبار السن من العلمانيين . كل أولئك تنتخبهم كل أبرشية ومديرية ودولة . وتقرر الهيئة المشكلة على هذا النحو ، المذهب والطقوس والقانون الأخلاقي ، بما يتسق مع ما جاء في الكتاب المقدس . وكان ينبغي أن يكون لهم حق الدخول إلى كل بيت ، والسلطة التي يرضون بها الالتزام « بالحياة الربانية أو بأوامر الرب ونواهي » ، من حيث المظهر الخارجى على الأقل ، كما يكون لهم الحق في حرمان المتمردين من الكنيسة ، ولحكم بإعدام الهراطقة . وكان على القضاة المدنيين أن ينفذوا هذه المراسيم التنظيمية ، على ألا يكون للدولة أى سلطان قضائى روحى بأى شكل من الأشكال (٨٠) .

وأُسست أول أبرشية إنجليزية على هسذه المبادئ في واند زورث Wandsworth في ١٥٧٢ ، وقامت كنائس (مشيخيات) مماثلة في المقاطعات الشرقية والوسطى . وفى هذا الوقت كانت أغلبية البروتستانت في لندن وفى مجلس العموم من البيوريتانز

واستحسن الحرفيون في لندن ، الذين تسربت إليهم بقوة مبادئ كلفن ، عن طريق اللاجئين الكلفنيين من فرنسا والأراضي الوطيدة — تقول استحسن هؤلاء الحرفيون ، هجوم البيوريتانز على النظام الأسقفى وعلى الطقوس : ونظر رجال الأعمال في العاصمة إلى البيوريتانية على أنها حصن منيع للبروتستانتية ضد الكاثوليكية التي لا تنظر بعين الرضا بصفة تقليدية إلى « الربا » وإلى الطبقة المتوسطة . وكان كلفن « صارما » بعض الشيء في نظرهم ولكنه كان قد أقر « الفائدة » واعترف بمزايا الصناعة والادخار ، وحتى المقربون إلى الملكة وجدوا بعض الخير لهم في البيوريتانية ، بل أن سيسل ولستر ، وولسنجهام ونولليس راودهم الأمل في أن يستخدموها سيفا يشهرونه في وجه الكاثوليكية إذا وصلت ماري ستيوارت إلى عرش إنجلترا (٨١) .

ولكن الزابث أحست بأن الحركة البيوريتانية تهدد كل التسوية التي دبرتها لتهدئة الصراع الدينى ، وارتأت أن الكلفنية شبيهة بنظرية جون نوكس الذى لم تغفر له الملكة قط احتقاره لحكم النساء . واحتقرت النظريات البيوريتانية المتشددة من كل قلبها ، وربما إلى حد أكبر من كراهيتها للكاثوليكية ، وكان لها ولع قديم بصورة المسيح المصلوب ، وغيرها من الصور الدينية ، وعندما دمرت الثورة ضد الصور المقدسة اللوحات والتماثيل والزجاج الملون في أوائل حكمها (٨٢) ، قدمت التعويضات إلى ضحايا الثورة ، وحظرت اقتراف مثل هذا العمل في المستقبل (٨٣) . ولم تكن تهتم بالتفاصيل الدقيقة في كلامها ، ولكنها استاءت من الوصف الذى نعت به أحد البيوريتانيين « كتاب الصلوات بأنه نفاية مأخوذة من الاقدار البابوية : كتاب القداس » ، وما نعت به محكمة اللجنة العليا من أنها « خندق بغيض صغير » (٨٤) . كما رأت الملكة في الانتخاب العام للكهنة وفي حكومة الكنيسة عن طريق المشايخ والمجالس الكنسية المستقلة عن الحكومة ، شيئا من النظام الجمهورى الذى يهدد الملكية . ورأت أن سلطتها الملكية فحسب هى التي يمكن أن تبقى على البروتستانتية في إنجلترا ، أما الاقتراع الشعبى فيؤدى إلى عودة الكاثوليكية .

وشجعت الأساقفة على التنكيل بمثيرى الفتنة ، فأوقف رئيس الأساقفة باركر (مطبوعاتهم ، وأحرس ألسنتهم في الكنائس ، ومنع اجتماعاتهم . وكان رجال الدين

اليوريتانز ينظمون اجتماعات للمناقشة العامة في نصوص الكتب المقدسة ، فأصدرت الزباث أمرها إلى باركر بوضع حد لهذه « المواظ » ففعل . وحاول خلفه ادموند جرنال أن يحمي اليوريتانز ، ولكن الزباث أوقفته عن العمل . ولما مات (١٥٨٣) عينت في منصب رئيس أساقفة كنتربري ، قسيسا الحديد ، جون وتجت Whitgift الذى نذر نفسه لآخراس ألسنة اليوريتانز . وطلب إلى جميع رجال الدين الانجليز أن يؤدوا قسما بقبول « المواد التسع والثلاثين » ، وكتاب الصلوات ، والسيادة الدينية للملكة ، واستدعى كل المعارضين للمثول أمام محكمة اللجنة العليا ، وهنا تعرضوا لتحقيق تفصيلي ملح عن سلوكهم ومعتقداتهم ، إلى حد أن سيسل وازن بن هذا الاجراء وبين محاكم التفتيش (١٨٥) .

وازدادت حدة الثورة اليوريتانية ، وانشقت أقية ذات عزم أكيد عن حظيرة الكنيسة الأنجليكانية ، وعقدت مجامع مستقلة لانتخاب الكهنة الخاصين بها ، ولم تعترف بأية رقابة أو سيادة أسقفية . وفي ١٥٨١ أقلع إلى هولنده روبرت براون — وكان تلميذ كارتريت (ثم أصبح عدوا له فيما بعد) ، وأول لسان ناطق باسم هؤلاء « المستقلين » أو « الانفصاليين » أو « الأبرشانيين » (الذين يقولون بالاستقلال الذاتى لكل أبرشية) ، وهناك نشر كراستين صاغ فيهما دستورا ديموقراطيا للمسيحية نص فيه على أنه يجب أن يكون لأية جماعة مسيحية الحق فى أن تنظم عبادتها ، وتشكل عقيدتها على أساس الكتاب المقدس ، وتختار رؤساءها وقادتها وتحيا حياتها الدينية متحررة من أى تدخل أجنبى ، ولا تعترف إلا بحكم الكتاب المقدس ، وسلطان المسيح ، وقبض فى إنجلترا على اثنين من أتباع براون وأتهما بالطعن فى السيادة الدينية للملكة ، وشنقا (١٥٨٣) .

وفى الحملات الانتخابية لبرلمان ١٥٨٦ شن اليوريتانز حربا خطابية على كل مرشح غير متعاطف مع مبادئهم . ودمغ مثل هذا الشخص بأنه « مقامر ، مدمن على الخمر ، كما وصم آخر بأنه « أقرب إلى البابوية أو الكثلركة ، قلما يأتى إلى كنيسه وانه داعر خليل للبغايا » وتلك كانت أيام الكلام القوى الحاسم . وعندما اجتمع البرلمان قدم جون بنرى التماسا لاصلاح الكنيسة ، وأتهم الأساقفة بالمسئولية عن مفاسد رجال

الدين وعن الوثنية الشائعة . وأمر وتجفت باعتقاله ، ولكن سرعان ما أفرج عنه .
وتقدم أنطوني كوب Cobe بمشروع قانون بإلغاء الكنيسة الرسمية الأسقفية برمتها
واعادة تنظيم المسيحية الانجليزية على أساس الخطة المشيخية (على أساس الانتخاب) .
وأصدرت اليزابث أمرها إلى البرلمان بعدم عرض مشروع القانون هذا للمناقشة .
وأثار بيتر ونتورث موضوع الحرية البرلمانية ، وأيده أربعة آخرون من الأعضاء .
فما كان من اليزابث إلا أن زجت بالحمسة جميعا في السجن في برج لندن .

ولما خاب فآل البيوريتانز في البرلمان ، انصرف بنرى وآخرون إلى المنشورات ،
وتخلصا من رقابة وتجفت الشديدة على المطبوعات ، وأغرقوا إنجلترا (١٥٨٨ -
١٥٨٩) ، بوابل من الكراسات المطبوعة سرا ، وكلها مملوءة بتوقيع
« Martin Marprelate Gentleman » هاجوا فيها سلطة الأساقفة وخلقهم الشخصي
في نقد لاذع بدئى ممثلى بالسباب . وبث وتجفت واللجنة العليا كل أجهزة التجسس
للكشف عن المؤلفين والطابعين . ولكن هؤلاء كانوا ينتقلون من بلد إلى آخر ،
وساعدتهم تعاطف الجمهور معهم على الإفلات من أيدي الجواسيس حتى أبريل
١٥٨٩ . واستخدم الكتاب المحترفون - مثل جون ليلي ، وتوماس ناش - في الرد
على مارتن (صاحب التوقيع) ونافسوه أيما منافسة في البداية . وأخيرا ، وعندما
نفدت لغة السوق ، خفت حدة الشائتم والتراشق ، ورثى الرجال المعتدلون لامتهان
المسيحية على هذا النحو والانحدار بها إلى فن للمهارة والقدح .

وآلت هذه النشرات الملكة أشد الايلام فأطلقت يد وتجفت في كبج جمساح
البيوريتانز . ونقد عثر على من تولوا طبع Marprelate ، وزاد عدد المقبوض
عليهم ، وتلا ذلك تنفيذ الاعدام ، وصدر الحكم بإعدام كرتريت ، ولكن الملكة
أصدرت عفوا عنه . وفي ١٥٩٣ شق أثنان من زعماء « حركة براون » ، هما جون
جرينلند وهنرى بارو ، وسرعان ما لحق بهما جون بنرى . وأصدر البرلمان (١٥٩٣)
قانونا ينص على أن كل من يعترض على السيادة الدينية للملكة ، أو يتغيب عمدا عن
الصلوات في الكنيسة الأنجليكانية ، أو يشهد « اجتماعات أو صلوات سرية غير
مشروعة أو لقاءات تحت ستار ممارسة العقيدة أو ادعاء لممارستها » يعاقب بالسجن

- فإذا لم يتعهد بالانزاع العقيدة الرسمية ، عليه أن يغادر إنجلترا دون رجعة ، وإلا كان جزاءه الموت^{٨٦} .

وعند هذا الحد . وسط هذا العنف البالغ والاضطراب الشديد ، ارتفع قس متواضع بموضوع النزاع إلى مستوى الفلسفة والتقوى والنثر الرائع . وكان ريتشارد أحد اثنين من رجال الدين عهد إليهما باقامة الصلوات في معبد لندن ، أما الثاني فهو والتر ترافرس : صديق كارتريت . وفي موعظة الصباح دافع هوكر عن سيادة الزناث الدينية ، وفي المساء انتقد ترافرس حكومة الكنيسة من وجهة نظر البيوريتانز ، ووسع كل منهما عظته حتى صارت كتاباً : ولما كان هوكر يكتب أدبا كما يكتب اللاهوت ، فقد توسل إلى أسقفه أن ينقله إلى بيت ريفي هادئ . ومن ثم فإنه في بسكوم Boscombe في واتشير أكمل الأجزاء الأربعة الأولى من مؤلفه « قوانين الدولة الكنسية » (١٥٩٤) ، وبعد ذلك بثلاثة أعوام ، في Bishopsbourne أرسل الكتاب الخامس إلى المطبعة ، وهناك في سنة ١٦٠٠ قضى نحبه ، وهو في سن السابعة والأربعين .

ولقد أدهشت إنجلترا « قوانينه » بالوقار الهادئ غير المتحيز الذي انسمت به مناقشته وحججه ، والعظمة الرنانة التي تميز بها أسلوب كتبه الذي كاد أن يكون لاتينيا . وامتحده الأسقف ألن بأنه خير كتاب أخرجته إنجلترا . وأثنى عليه البابا كليمنت الثامن لفصاحته وغزارة علمه . وقرأته الزناث شاكراً ممتنة على أنه دفاع مجيد عن حكومتها الدينية . وسكن روح البيوريتانز لما رأوا من الوضوح الملهذ في لهجته . وتلقته الأجيال بوصفه مجاملة نبيلة للتوفيق بين الدين والعقل ، وأدهش هوكر معاصريه بتسليمه بأن البابا نفسه يمكن تخايصه . وأذهل هوكر رجال اللاهوت بتصريحه بأن « تأكيد ما نؤمن به بكلمة الرب ليس مقدراً لنا قدر الاقتناع بما ندركه بالعقل^(٨٧) » وأن موهبة التعليل والتعلل ، ان هي إلهية وإلهام من عند الله .

بنى هوكر نظريته في « القانون » على فلسفة العصور الوسطى التي صاغها توماس الأكويني ، وسبق نظرية « العقد الاجتماعي » التي جاء بها هوبز ولوك . وبعد أن أبرز ضرورة التنظيم الاجتماعي ونعمته ، جادل في أن الاشتراك الاختياري

في مجتمع يتضمن قبول الحكم بقوانينه ، ولكن المنبع الأساسي للقوانين هو الجماعة نفسها . وقد يصدر الملك أو البرلمان القوانين بوصفه مفوضا أو ممثلا للجماعة فحسب . « ان القانون يصنع الملك ، وان أية منحة أو منة من الملك تتعارض مع القانون عقبة لا قيمة لها ومن أجل الرضا السلمي من جانب الطرفين ، تبدو موافقة المحكومين ضرورية . . . وليست القوانين هي تلك التي لم يجعل منها الاستحسان للامم قوانين (٨٨) » . وأضاف هوكر نبذة ربما أزعجت شارل الأول :

ان برلمان إنجلترا ، مع التجمع الكنسي الذي انضم إليه ، هو الأساس الذي تعتمد عليه كل حكومة في هذه المملكة . بل انه جسم المملوكة بأسرها ، انه ينظم الملك وكل رعاياه على هذه الأرض ، لأنهم موجودون جميعا هناك بأشخاصهم . أو انهم فوضوه مختارين (٨٩) .

وبدا الدين في نظر هوكر جزءا لا يتجزأ من الدولة ، لأن النظام الاجتماعي ، ومن ثم الازدهار المادي نفسه ، يعتمدان على التنظيم الاخلاقي الذي ينهار إذا لم يغرسه الدين ويدعمه . ولذلك ينبغي على كل دولة أن توفر التعليم الديني لشعبها . وقد يشوب الكنيسة الأنجليكانية بعض الشوائب . ولكن هذا هو ما ينتظر من أية نظم يقبها بنو آدم أو يعلمون بها . « ان هذا الذي يجوب الآفاق ليقنع الناس بأنهم ليسوا كما ينبغي أن يكونوا عليه ، من أوضاع مرضية ، لن يعوزه من ينصتون إليه ويتعاطفون معه ، لأنهم يعرفون النقائص البشرية التي تتعرض لها أية حكومة أيا كان نوعها . أما العوائق والصعاب الخفية التي لا تحصى والتي لا يمكن تفاديها في مجريات الأمور العامة ، فليس من المألوف أن يكون لأناس من الله بيز والعقل ما يمكنهم من النظر إليها وتقديرها (٩٠) » .

وكان منطق هوكر غير مباشر بدرجة كان معها غير مقنع كما كان علمه تقليديا قديما بحيث لم يواجه قضايا عصره ، كما كان يلتزم الحذر والتحفظ إلى حد شكر معه النظام وامتدحه فلم يدرك الالهة على الحرية . وأقر البيوريتانز بفصاحته ، ولكنهم ساروا في طريقهم واضطروا إلى الخيار بين وطنهم وعقيدتهم ، فهاجر كثير منهم ، مؤيدين الحركة البروتستانتية في القارة على إنجلترا ، ورحبت هولنده بهم وقامت

المجامع الإنجليزية في مدلبرج وليدن وامستردام ، وهناك عمل المنفيون وذرياتهم
بجد وعلموا ووعظوا وكتبوا ، وبذلك مهدوا الطريق في شغف هادئ لانتصاراتهم
في إنجلترا وتوفيقهم في أمريكا .

٨ - اليزابث وايرلنده

غزا الإنجليز أيرلنده بين عامي ١١٦٩ - ١١٧١ ، ووضعوا أيديهم عليها منذ
ذلك الوقت ، على أساس أنها ، بغير ذلك ، سوف تستخدمها فرنسا وأسبانيا كقاعدة
لشن الهجمات على إنجلترا . وعند اعتلاء اليزابث العرش كان الجسم الإنجليزي
المباشر في أيرلنده مقصورا على الساحل الشرقي ، حول دبلن وفي جنوبها «The Pale» .
أما باقي الجزيرة فكان يحكمه شيوخ القبائل الأيرلنديون الذين اعترفوا لإنجلترا
بالسيادة الاسمية فقط . وعوق الصراع الدائم مع الإنجليز الإدارة القبلية التي كانت
قد جلبت لأيرلنده الفوضى والعنف ، ولكنها كذلك هيأت لها الشعراء والعلماء
والقديسين ، وكانت الغابات والمستنقعات تغطي معظم الأرض ، وكان النقل
والمواصلات بمثابة مغامرات بطولية ، وعاش السكان الأصليون الكلتيون وعددهم
نحو ٨٠٠.٠٠٠ نسمة ، في بؤس على حافة الهمجية لا يكاد يسود فيهم قانون . وكاد
الإنجليز في إقليم «البال» أن يكونوا على مثل هذه الحال من الفقر ، وازدادت مشكلة
اليزابث سوءا بفسوقهم واختلاساتهم وجرائمهم ، ودأبوا على اغتصاب أموال
حكومة لندن ، مثل دأبهم على سلب الفلاحين الأيرلنديين . وأثناء حكم اليزابث
أخرج المستوطنون الإنجليز ملاك الأراضي والمستأجرين عن أراضيهم عن طريق
«بيع التصفية» ، وناضل من انتزعت أملاكهم إلى حد ارتكاب جريمة القتل ،
وأصبحت حياة الغالبين والمغلوبين ، على حد سواء ، جحما لا يطاق من العنف
والكراهية . وذهب سيسل نفسه إلى حد القول بأن «الفلمنكيين لم يكن لديهم ما
يحملهم على الثورة على ظلم الأسبان ، مثل ما كان لدى الأيرلنديين للثورة ضد
الحكم الإنجليزي» (٩١) .

وقامت سياسة اليزابث في أيرلنده على اقتناعها بأن أيرلنده الكاثوليكية سوف

تكون خطرا يهدد لإنجلترا البروتستانتية ، فأمرت بفرض البروتستانتية فرضا كاملا في أنحاء الجزيرة . وحرم القديس ، وأغلقت الأديرة وتوقفت الصلوات العامة خارج اقليم « البال » الضيق . وظل القساوسة مخنفين عن الأنظار ، وأدوا الأسرار المقدسة لقليل من الناس خفية . وكادت الأخلاق أن تختفى بعد الحرمان من الدين والسلام ، وانتشر القتل والسرقة والزنى والاعتصاب والسلب ، وغير الرجال زواجهم دون تدمير أو وخز من الضمير ، واستصرخ الزعماء الايرلنديون البابا وملك أسبانيا لحمايتهم أو نجاتهم . وخشى فيليب الثاني أن يغزو أيرلنده حتى لا يغزو الانجليز الأراضي الوطیئة ويساعدوا ثوارها ، ولكنه أسس مراكز وكليات للاجئين الايرلنديين في أسبانيا . وبعث بيوس الرابع إلى أيرلنده بعزويتي أيرلندي (١٥٦٠) هو دافيد ولف الذي جمع بين الشجاعة والاخلاص اللذين تميز بهما النظام الجزوي . وأسس ولف بعثات سرية ، واستقدم أفرادا آخرين من الجزويت متنكرين واستعاد للكاثوليكية تقواها وآمالها ، وتحمس شيوخ القبائل وثاروا ، الواحد بعد الآخر ، ضد الحكم الانجليزى .

وكان أقوى الشيوخ هو شين (أى جون) أونل أوف تيرون . وكان رجلا يمكن أن تتغنى به الأساطير ويقا تل الأيرلنديون من أجله . ولقد دافع بضراوة عن لقبه (أونل) ضد أخ مغتصب . وتجاهل كل « الوصايا » وعبد الكنيسة ، وأحبط كل جهود الانجليز لإخضاعه . وغامر برأسه ليزور لنسدن ويكسب التحالف مع اليزابث وتأييدها له ، وعاد ظافرا ليحكم ألستر كما كان يحكم نيرون ، واشتبك في حرب ضروس مع عشيرة « أودونل » المنافسة ، وأخيرا هزم أمامها (١٥٦٧) ، عندما التجأ إلى آل مكدونل ، وهم المهاجرون الاسكتلنديون الذين سبق له أن هاجم مستوطناتهم في أنتريم .

وكان تاريخ أيرلنده بعد موته عرضا من الثورات والمذابح والمندوبين السامين (ممثلى الملكة) . وخدم سير هنرى سدنى (والد فيليب) اليزابث في هذا المنصب الجحود تسع سنين . واشترك في هزيمة أونل ، وتعقب رورى أو مور حتى الموت ، واستدعى في ١٥٧٨ لأن انتصاراته كانت باهظة التكاليف . وفي عامين من تولى

والتر دفرية - وكان ارل اسكس من قبل - هذا المنصب ، اشتهر اسمه بمذبحة في جزيرة راتلين بعيدا عن شاطئ انتريم . وكان الثوار هناك - وهم آل مكدونل السابق ذكرهم ، قد أبعدوا زوجاتهم وأطفالهم وشيوخهم ومرضاهم ، حرصا على سلامتهم ، مع حرس يحميهم . وأرسل اسكس قوة للاستيلاء على الجزيرة . وعرضت الحامية الاستسلام إذا سمح لها بالابحار إلى اسكتلنده . ورفض هذا العرض ، واستسلمت الحامية . فأعمل السيف فيهم وفي النساء والأطفال والشيوخ والمرضى . وكان عددهم نحو ستائة شخص (١٥٧٥) (٩٣)

أما الثورة العظمى التي قامت في أثناء حكم الملكة في أيرلنده فهي ثورة عشيرة جيرالدين في مونستر Munsier فان جيمس فتموريس فزجيرالد وقع في الأسر وهرب مرات كثيرة ، استطاع بعدها أن يعبر إلى القارة ، حيث شكل فرقة من الأسبان والايطاليين والبرتغاليين والفلمنكيين والانجليز الكاثوليك المهاجرين ، ونزل بهم على ساحل كرى Kerry (١٥٧٩) ، وكل الذي حدث أنه لقي حتفه في قتال طارئ نشب بينه وبين عشيرة أخرى . وقاد الثورة من بعده ابن عمه جيرالد فزجيرالد - الارل الخامس عشر لدموند Desmond ، ولكن عشيرة بتار انجاورة بزعامه ارل أورمند البروتستانتي انخازت إلى إنجلترا . ونظم الكاثوليك في اقليم البال جيشا وهزموا قوات نائب الملكة الجديد ، آرثر لورد جراى (١٥٨٠) . ولكنه بعد أن وصلته الامدادات حاصر قوات دسموند الرئيسية برا وبحرا من نتوء جبى في خليج سمروك Smerwick . ولما وجد الثوار الباقون على قيد الحياة وعددهم نحو ٦٠٠ ، أنهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم ضد مدفعية جراى ، استسلموا واتمسوا العطف والرحمة ، ولكن كان مصيرهم القتل ، رجالا ونساء ، اللهم إلا بعض الضباط الذين يمكن أن يعدوا بدفع فدية كبيرة (٩٣) . وخربت مونستر الحرب بين الانجليز والاييرلنديين . وبين العشائر بعضها البعض ، إلى درجة قال عنها كاتب حوليات أيرلندى : « لم يسمع خوار بقرة أو صوت رجل يحرق الأرض طوال هذه السنة من دنجل إلى صخرة كاشل » . وكتب أحمد الانجليز (١٥٨٢) : « أودت المجاعة بخياة ٣٠ ألفا في مونستر في أقل من نصف عام . غير

الذين شنفوا وقتلوا^(٩٤) ، وكتب مؤرخ إنجليزي كبير « إن قتل أيرلندي من أهالي هذه المنطقة لم يكن ينظر إليه إلا على أنه قتل كلب مسعور^(٩٥) » . وكادت مونستر أن تخلى من الأيرلنديين وقسمت إلى مستعمرات ومزارع للمستوطنين الانجليز (١٥٨٦) ، ومنهم ادموند سبنسر الذي أكمل هناك رواية *The Faerie Queen* .

وثار الأيرلنديون البائسون مرة أخرى في ١٥٩٣ ، وانضمت قوات هيو أودونل إلى قوات هيو أونل ارل تيرون الثاني . ووعدت أسبانيا بالمساعدة ، حيث كانت آنذاك في حرب مكشوفة مع إنجلترا . وفي فترة خلا فيها منصب نائب الملكة هزم أونل جيشا إنجليزيا هزيمة منكرة في أرماغ ، واستولى على بلاكووتر ، وهو معقل إنجليزي في الشمال (١٥٩٨) ، وأرسل قوة تعمل على إشعال نار الثورة من جديد في مونستر ، ولذا المستعمرون الانجليز بالفرار تاركين مزارعهم ، وعم الأمل والفرح أيرلنده ، بل إن الانجليز أنفسهم توقعوا أن تسقط دبلن نفسها .

تلك هي الأزمة التي عينت فيها اليزابث الشاب روبرت ديفريه ارل اسكس الثاني نائبا للملكة في أيرلنده (مارس ١٥٩٩) . وزودته بجيش قوامه ١٧٥٠٠ رجل ، وهو أكبر جيش أرسلته إنجلترا إلى الجزيرة . وأمرته بمهاجمة أونل في تيرون ، وألا يبعد صلحا إلا بعد استشارتها ، والا يعود إلا بترخيص منها . وضع ديفريه الوقت سدى أثناء الربيع ، وقام بمناوشات قليلة ، وفنى جيشه بسبب الأمراض ، ووقع مع أونل هدنة لم يكن لديه السلطة لإبرامها ، وعاد إلى إنجلترا في سبتمبر ١٥٩٩ ، ليفسر للملكة أسباب اخفاقه . وسرعان ما خلفه في منصبه شارل بلونت ، لورد مونتهجوى الذى واجه في بسالة وبراعة تكتل أونل الداهية مع أود ونل غير الهياب ، وأسطولا راسيا في كينسال Kinsale يحمل جنوداً وأسلحة من أسبانيا . وغفرانا من البابا كليمنت الثامن لكل من يدافع عن أيرلنده وعن العقيدة . وأسرع مونتهجوى إلى الجنوب ليقابل الأسبان ، فهزمهم في معركة فاصلة إلى حد أن أونل استسلم ، وانهارت الثورة وصدر عفو عام أدى إلى سلام مزعزع (١٦٠٣) وفي تلك الأثناء كانت اليزابث قد ماتت .

وانتقص سجل تاريخ اليزابث في أيرلنده من مجدها وعظمتها . لقد أساءت تقدير صعوبة الغزو في بلد تكاد تنعدم فيه الطرق ، وسط شعب لا يربطه بالحياة

وبالوقار لإلا حبه لبلده ولعقيدته . وأنحت باللائمة على نوابها لاختلافهم الذي كان من أسبابه تقتيرها هي ، حيث عجزوا عن دفع رواتب الجند الذين وجدوا أنه من الأرجح لهم أن يسلبوا الإيرلنديين من أن يحاربوهم . وتذبذبت بين المهادنة والإرهاب ، ولم تلتزم قط سياسة واحدة إلى نقطة حاسمة . وأسست كلية ترنتي وجامعة دبلن (١٥٩١) ولكنها تركت الإيرلنديين أميين كما كانوا من قبل . وبعد اتفاق عشرة ملايين من الجنيهات ، تمخض السلام الذي أمكن الوصول إليه عن بידاء قاحلة غطت نصف الجزيرة الجميلة ، وعن روح كراهية لا توصف سادت الجزيرة بأسرها ، تنتظر الفرصة الملائمة لتستأنف القتل والتخريب من جديد .

٩ - الزباث وأسبانيا

كانت الملكة في خير حال لدى تدبير الأمر مع أسبانيا ، لقد مدت للملك فيليب حبل الأمل في أن تكون زوجها له أو لابنه ، وحبل الأمل في الظفر بإنجلترا مقابل خاتم العرس . وتذرع فيليب بالصبر حتى نفر منه أصدقاؤه وابتعدوا عنه ، وقويت الزباث ، فلربما رجاء البابا والإمبراطور وملكة اسكتلندة المنكودة الطالع أن يغزو إنجلترا ، ولكنه كان شديد الارتياح في فرنسا ، وكان يلاق أشد المتاعب في الأراضي الوطیئة ، إلى حد لا يجرؤ معه على أن يوجه ضربة لا يمكن التنبؤ بنتائجها في لعبة السياسة . ولم يكن يضمن ألا تنقض فرنسا على الأراضي الوطیئة الأسبانية في اللحظة التي يتورط فيها مع إنجلترا . وكان يردد في تشجيع الثورة في أي بلد ، أو على طريقته في التباطؤ الثقيل ، وثق بأن الزباث قد تجد في الوقت المناسب مخرجاً أو آخر من المخرج التي وهبتها إيانا الطبيعة الحاذقة في حياتنا ، ومع ذلك لم يتعجل تسليم عرش إنجلترا إلى فتاة اسكتلندية وقعت في غرام فرنسا . ومنع لعدة سنوات ، البابا من إعلان قرار حرمان الزباث من الكنيسة . وحتمل في صمت كثيب معاملتها للكاثوليك في إنجلترا ، واحتجاجاتها على معاملة الإنجليز البروتستانت في أسبانيا ، وحافظ ، قرابة ثلاثين عاما ، على السلام ، بينما شن القراصنة الإنجليز ، بأمر من الحكومة ، الحرب على مستعمرات أسبانيا وتجارها .

إن طبيعة الإنسان لتكشف عن نفسها في سلوك الدول ، لأن هذه الدول ليست إلا أشخاصاً في جملتها ، وهي تتصرف على نفس النسق الذى يحتمل أن الإنسان كان يتصرف عليه قبل أن يفرض الدين والقوة أخلاقاً وقوانين . وإن الضمير ليس وراء رجل الشرطة ، ولكن لم يكن ثمة رجال شرطة من أجل الدول . ولم يكن ثمة « وصايا عشر » على البحار ، وإنما قامت التجارة بإذن من القراصنة ، واستخدمت مراكب القرصنة الصغيرة مداخل الشاطئ الإنجليزى مخبئاً لها ، ومنها انطلقت لتستولى على كل ما يمكن أن تستولى عليه — وإذا كان الضحايا من الأسبان كان للإنجليز أن ينعموا بالحفاصة الدينية التى يجدونها في سلب ونهب رجل ينمى إلى البابا . ودرب رجال جسورون من أمثالك جون هوكنز وفرانسيس دريك عدداً كبيراً من القراصنة وكأن البحار ملك لهم . وتبرأت اليزابث منهم وأنكرتهم ، ولكنها لم تعكر صفوهم أوزعجهم ، لأنها رأت في القراصنة نواة أسطول لها ، وفي هؤلاء المغامرين أمراء البحر لها في المستقبل : وصار ثغر الهيجونوت « لاروشيل » مكاناً أثيراً للقاء بين قوارب الإنجليز والهولنديين والهيجونوت ، « تنقض منه على تجارة الكاثوليك أياً كان العلم الذى ترفعه (٩٦) » ، وعلى تجارة البروتستانت أيضاً ، عند الحاجة

ومن هذه القرصنة عبر هؤلاء المغامرون إلى تجارة الرقيق الرائجة التى كانت قد بدأها البرتغاليون قبل ذلك بقرن من الزمان . وكان المواطنون في المستعمرات الأسبانية في أمريكا يموتون تحت تأثير الكدح المضنى الذى لا يتناسب مع بينهم أو مع المناخ الذى يعيشون فيه . واقتضى الأمر المطالبة بسلالة من العمال أشد وأقوى . واقترح المدافع عن المواطنين : لاس كاساس ، نفسه ، على شارل الأول ملك أسبانيا أن زنوج أفريقية أقوى من هنود البحر الكاريبي ، ويجب نقلهم إلى أمريكا لينهضوا بالعمل الشاق من أجل الأسبانيين هناك (٩٧) . ووافق شارل ، ولكن فيليب استنكر هذه التجارة ، وأمر الحكام الأسبان في أمريكا أن يمنعوا استيراد العبيد إلا بترخيص من الإدارة المحلية في أسبانيا (٩٨) — وهذا أمر عسير وباهظ التكاليف . وقاد هوكنز وهم يعلم أن بعض الحكام الأسبان دراوغون في هذه القيود — ثلاث سفن إلى أفريقية (١٥٦٢) وقبض على ٣٠٠ من الزنوج ، وأخذهم إلى جزر الهند الغربية ، وباعهم

إلى المستوطنين الأسبان ، مقابل السكر والتوابل والعقاقير . ولما عاد إلى إنجلترا أغرى لورد بمبروك وآخرين غيره ، بأن يسهموا بأموالهم في مغامرة ثانية ، وحرص اليزابث على أن تضع سفينة من أحسن سفنها تحت تصرفه ، وفي ١٥٩٤ انطلق جنوباً بأربع سفن ، وأمسك بأربعمائة من زنوج أفريقية ، وأبحر إلى جزر الهند الغربية ، وباع العبيد إلى الأسبان ، تحت التهديد بضربهم بدفاعه إذا هم رفضوا الشراء . وعاد إلى إنجلترا حيث رحبوا به بوصفه بطلا ، واقتسم الغنائم بينه وبين أنصاره وبين الملكة التي حصلت على ٦٠ ٪ نظير استثماراتها (٩٩) . وفي ١٥٦٧ أعارته سفينتها « يسوع » . وأبحر بها مع أربع سفن أخرى إلى أفريقية ، ووضع يده على كل ما أمكنه من العبيد ، وباعهم في أمريكا الإسبانية بمائة وستين جنيا للواحد ، وفي طريق عودته ، ومعه غنمة تقدر قيمتها بنحو مائة ألف جنيه ، اعترضه أسطول أسباني بعيداً عن شاطئ المكسيك : عند سان جوان دي ألوا ، ودمر أسطوله فيما عدا مركبتين صغيرين عاد فيهما هوكنز إلى إنجلترا صفر اليدين (١٥٦٩) ، بعد أن لاقى آلاف الأهوال والأخطار .

وكان ممن بقوا على قيد الحياة بعد هذه الرحلة ، أحد أقرباء هوكنز الصغار ، وهو فرنسيس دريك . ولما كان قد تربى على نفقة هوكنز ، فقد قيل عنه إنه من سكان البحر . وفي سن الثانية والعشرين تولى إمرة سفينة في رحلة هوكنز الفاشلة . وفي سن الثالثة والعشرين ، بعد أن فقد كل شيء إلا اشتهاره بالبسالة ، أقسم أن ينتقم من الأسبان ، وفي سن الخامسة والعشرين حصل من اليزابث على براءة بالقرصنة . وفي ١٥٧١ ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، أسر قافلة من السفن الإسبانية محملة بسبائك الفضة قرب شاطئ بنما . وعاد إلى إنجلترا ثريا منتقما من أسبانيا ، وأخفاه مستشارو اليزابث عن الأنظار لمدة ثلاث سنوات . عل حين كانت أسبانيا تطالب برأسه . ثم جهز له لستر وولسنهام وهاتون أربع سفن صغيرة يبلغ مجموع حمولتها ٣٧٥ طناً ، أبحر بها من بليموث في ١٥ نوفمبر ١٥٧٧ ، فيما صار فيما بعد ثاني طواف حول الكرة الأرضية . ولما خرج أسطوله من مضائق ماجلان إلى المحيط الهادى واجهته عاصفة هوجاء . أطاحت بالسفن بعيداً بعضها عن بعض : ولم يلتئم شملها ثانية قط ، وسار

دريك وحده بالسفينة « بليكان » على الساحل الغربى الأمريكتين إلى سان فرنسيסקو مهاجماً كل السفن الأسبانية في طريقه ، ثم انعطف غرباً في جراًة وبسالة ، إلى الفلبين وأبحر من جزر ملقا إلى جاوه ، وعبر المحيط الهندي إلى أفريقية ، وحول رأس الرجاء الصالح صعبداً في المحيط الأطلسي ، ليصل بليموث في ١٦ سبتمبر ١٥٨٠ ، أى بعد مغادرتها بأربعة وثلاثين شهراً . ومعه من الأرباح ٦٠٠,٠٠٠ جنيه سلم الملكة منها ٢٧٥,٠٠٠ (١٠٠) ، وحيته إنجلترا على أنه أعظم ملاح وقرصان في عصره وتناولت الزباث العشاء على ظهر سفينته ، ومنحته لقب فارس .

ومن الوجهة الفنية ، كانت إنجلترا طوال هذا الوقت في سلام مع أسبانيا . وكم قدم فيليب إلى الملكة من احتجاجات ، فقدمت هي الاعتذارات ، وتشبثت بغنائمها ، وأشارت إلى أن الملك نفسه كان هو أيضاً يخرق « القانون » الدولي بإرساله المساعدات إلى الثوار في أيرلنده . ولما هدد السفير الأسباني بالحرب ، هددت هي بالزواج من النسون وبالتحالف مع فرنسا . ولما كان فيليب مشغولاً بغزو البرتغال ، فقد أصدر أمره إلى سفيره بالإبقاء على السلام . وكما هي العادة ، انضم حسن حظ الملكة إلى عبقريتها الموسومة بالتردد ، فإذا كان عساه يحدث لها لو لم تشطر الحرب الأهلية فرنسا الكاثوليكية إلى شطرين ، ولو لم يرهق الأتراك بغاراتهم المتكررة الإمبراطور والنمسا الكاثوليكية ، ولو لم تكن أسبانيا متورطة مع البرتغال وفرنسا والبابا ورعاياها الثائرين في الأراضي الوطيفة ؟

ولعدة سنوات كانت الزباث تناور وتداول في مكر وخداع في الأراضي الوطيفة ، وتغير سياستها وفق الظروف المائعة . ولم تكن أية اتهامات بالتردد أو الخيانة تجعلها تسبر في طريق مستقيم واحد لا تحيد عنه . ولم تكن تحب الكلفنية في الأراضي الوطيفة أكثر من حبها للبيوريتانية في إنجلترا ، كما لم تكن تحب التحريض على الثورة أكثر من حب فيليب له . وأدركت أهمية التجارة المنتظمة مع الأراضي الوطيفة للاقتصاد الإنجليزي ، فعملت على تأمين الثورة ومساعدتها هناك بشكل يحفظها من الاستسلام لأسبانيا أو الارتقاء في أحضان فرنسا ، وما دامت الثورة قائمة ، انشغلت أسبانيا بها بعيداً عن إنجلترا .

وحانت لحظة مباركة ابتسم فيها الحظ السعيد للملكة ، فهيأ لها الفرصة لمساعدة النوار مقابل كسب مغر يدخل إلى خزائنها . ذلك أن القراصنة الإنجليزي ساقوا في ديسمبر ١٥٨٨ إلى موانئ القنال الإنجليزي عدة سفن أسبانية كانت تحمل ١٥٠,٠٠٠ جنيه لدفع رواتب جنود دوق ألفا في الأراضي الوطيفة ، ورأت اليزابث — وكانت قد ترامت إليها لتوها أنباء الكارثة التي وقعت لهوكنز في سان جوان دي ألوا — رأت أن العناية الإلهية هيأت لها هذه الفرصة لتعويض إنجلترا عما فقدته بسبب تلك الهزيمة . وسألت الأسقف جول Jewel : هل لها حق في الأموال الأسبانية ؟ فحكم بأن الرب ، وهو بروتستانتي قطعاً ، يسره أن يرى البابويين يسلبون . وفوق ذلك ، علمت الملكة أن فيايب كان قد اقترض هذا المبلغ من مصارف جنوه ، ورفض الاعتراف بملكيتها حتى يصل سالماً إلى أنتورب . ونقل المال إلى خزائن الملكة ، وجأر فيليب بالشكوى وقبض دوق ألفا على كل ما وصلت إليه يده من رعايا إنجلترا وبضائع إنجليزية في الأراضي الوطيفة ، واعتقلت اليزابث كل الأسبان في إنجلترا . ولكن مقتضيات التجارة أعادت بالتدريج العلاقات الطبيعية بين الطرفين . وأبى دوق ألفا أن يستحث اليزابث على التحالف مع الثوار ، والتزم فيليب الهدوء والصبر ، واحتفظت اليزابث بالمال .

واستمر السلم المزعزع يجرأ أذياله ، إلى أن ورطت الحملات الإنجليزية المتكررة على السفن الأسبانية وصرخات أصدقاء ماري ستيوارت المسجونين ، نقول ورطت هذه وتلك فيليب في مؤامرة لقتل الملكة (١٠١) ، وكانت اليزابث مقتنعة بأشترাকে فيها ، فطردت السفير الأسباني (١٥٨٤) وساعدت الثوار علانية . ودخلت الجيوش الإنجليزية فلشنج ، بريل ، أوستند ، سليس Sluys ، وأرسل لستر ليتولى قيادتها . ولكن الأسبان هزموهم في زوتفين Zuiphen (١٥٨٦) . ولكن الآن ، على الأقل بلغ السيل الزبي ، وحانت ساعة الفصل . فقد استعد فيليب واليزابث بكل ما أوتيا من قوة للحرب التي قد تحدد لأيهما تكون السيادة على البحار ، كما تحدد ديانة إنجلترا ، وربما ديانة أوروبا ، وربما ديانة الدنيا الجديدة .

وأثرت أسبانيا ثراء واسعاً بفضل كولمبس والبابا اسكندر السادس وقرارات للتحكيم التي أصدرها (١٤٩٣) والتي منحت وطنه أسبانيا كل الأمريكتين تقريباً :

وبهذه الرحلات والمراسيم لم يعد البحر المتوسط مركز حضارة الرجل الأبيض وقوته ، وبدأ عصر الأطلنطي . ومن بين دول أوروبا العظمى الثلاث المطلة على المحيط ، كانت فرنسا مغاولة اليبدين بسبب الحرب الأهلية فلم تشارك في الصراع الدائر حول السيادة على المحيطات . أما إنجلترا وأسبانيا فقد استمر الصراع بينهما ، وصارت كل منهما تمتد نحو الأرض الموعودة مثل الصخرة النائمة في البحر . وبدأ من العسبير زحزحة أسبانيا عن مكان الصدارة والغلبة في أمريكا ، فما واف ١٥٨٠ حتى كان لها فيها مئات المستعمرات ، على حين لم يكن لإنجلترا شيء قط . وتدفقت الثروات الهائلة من مناجم المكسيك وبيرو إلى أسبانيا ، وبدأ قديراً محتوماً أن تحكم أسبانيا نصف الكرة الغربي ، وتدخل الأمريكيتين في نطاق كيائها السياسي والديني .

ولم يكن دريك راضياً عن هذا المشهد الذي توقعه ، أوقانعاً به . وكانت الحرب من أجل السيطرة على العالم ، لفترة من الوقت ، محصورة بينه وبين أسبانيا . وفي ١٥٨٥ أمده أصدقاؤه والملسكة بالمال اللازم ، فجهز ثلاثين سفينة انقض بها على الإمبراطورية الأسبانية . ودخل مصب نهر فيجور في شمال غرب أسبانيا ، وأعمل السلب والنهب في ثغرفيجو ، وعرى تمثالاً للعداء ، وحمل معه المعادن النفيسة والملابس الثمينة من الكنائس . وأبحر إلى جزر الكنارى والرأس الأخضر واجتاح أكبرها ، وعبر إلى الأطلنطي ، وأغار على سان دومنجو ، وقبض ثلاثين ألفاً من الخنثيات ، منحة أو رشوة ، لثلا يدمر مدينة قرطاجنه في كيرلميا . وسلب وأحرق مدينة سانت أوجستين في فلوريدا ، وعاد إلى إنجلترا (١٥٨٦) ، لا شيء إلا أن الحمى الصفراء أودت بثلاث بحارته .

تلك كانت حرباً دون أن تحمل اسم الحرب . وفي ٨ فبراير ١٥٨٧ ، أعدمت الحكومة الإنجليزية ملكة اسكتلنده ، وهنا أبلغ فيليب البابا سكستس الخامس أنه على استعداد لغزو إنجلترا وخلع إليزابث . وطلب إليه الإسهام بمليون كراون ذهباً . وعرض سكستس ستائة ألف لا تدفع لأسبانيا إلا إذا وقع الغزو فعلاً . وأصدر فيليب أمره إلى خير عواده ، أمير البحر مركز سانتا كروز . بإعداد أكبر أسطول عرف في التاريخ حتى ذاك الوقت ، وتجمعت السفن أو بنيت في لشبونه وأعدت المخازن والمستودعات في قادس .

وألح دريك على الزباث لتزوده بأسطول يدمر الأرمادا قبل أن يتخذ وضعاً تتعذر معه مقاومته ، فوافقت ، وفى الثالث من أبريل ١٥٨٧ انطلق مسرعاً من بليموث ومعه ثلاثون سفينة ، قبل أن تغير الملكة رأيها . وهذا ما حدث فعلاً ، ولكن بعد فوات الأوان ، فلم تدركه . وفى ١٦ أبريل أسرع بأسطوله إلى ميناء قادس ، وأجرى مناورة بعيداً عن سرى مدفعية الشاطئ ، وأغرق بارجة أسبانية ، وهاجم سفن النقل والتموين ، واستولى على حمولتها ، وأشعل النار فى كل سفن العدو ، وارتحل دون أن يمسه أذى . وألقى مراسيه بالقرب من لشبونة وتحدى سانتا كروز أن يخرج لملاقاته . فأبى المركز أن يفعل ، لأن سفنه لم تكن قد زودت بالسلاح بعد ، فسار دريك شمالاً إلى لاكورونا واستولى على سؤن وذخائر كثيرة كدست هناك ، ثم إلى جزر الآزور حيث استولى على سفينة أسبانية ضخمة (غليون) ، وعاد بها إلى إنجلترا بين سفنه . وعجب الأسبان أنفسهم لجراته ومهارته البحرية وقالوا « لو لم يكن لوثرىا ، بروتستانيا ، لما كان له نظير فى العالم (١٠٢) » .

وأعاد فيليب بناء أسطوله ، فى صبر ، ومات المركز سانتا كروز فى يناير ١٥٨٨ ، فعين مكانه دوق مدينا — سيدونيا ، وهو نبيل يتميز بكرم المعتقد أكثر منه بالكفاية والقدرة . ولما اكتمل الأرمادا آخر الأمر ، كانت عدة سفنه ١٥٠ سفينة حمولة كل منها فى المتوسط ٤٤٥ طناً ، وكان نصفها من سفن البضائع ، ونصفها الآخر من البوارج الجريبة ، مزودة بثمانية آلاف وخمسين بحاراً ، وأبحر عليها تسعة عشر ألف جندى . وفكر فيليب وقواده فى اتباع الطريقة القديمة فى الحروب البحرية — وهى القفز فوق ظهر سفن العدو . ومصارعة الرجل للرجل ، على حين كانت خطة الإنجليز أن يغرقوا سفن العدو بمن احتشد عليها من بحارة ، واطلاق النيران عليها دفعة واحدة من الجوانب ، وأصدر فيليب تعليماته إلى الأسطول ألا يجرد فى طلب السفن الإنجليزية ويهاجمها ، بل لا بد من الاستيلاء على رأس جسر ساحلى فى إنجلترا ، والعبور إلى الفلاندرز ، لينقل إلى المراكب الثلاثون ألف جندى الذين كانوا قد أعدهم هناك دوق بارما ، والسير إلى لندن بعد الحصول على هذا المدد . وفى نفس الوقت هرب إلى إنجلترا (أبريل ١٥٨٨) رسالة دبحها كاردينال ألن

يأمر فيها الكاثوليك بالانضمام إلى الأسباب لخلق مليكتهم « المغتصبة الهريطية البغي (١٣) ». ورافق الأرمادا للمعاونة في إعادة الكاثوليكية إلى إنجلترا مئات من الرهبان تحت رئاسة النائب الأسقفى العام لحاكم التفتيش (١٠٤). وهزت روح دينية مخلصه مشاعر البحارة الأسباب وسادتهم ، وآمنوا إيماناً عميقاً مخلصاً بأنهم كانوا يؤدون مهمة مقدسة ، فأبعدوا البغايا ، وانقطع التجديف والدنس ، وامتنع القمار ، وفى صباح اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٥٨٨ ، حين ألق الأسطول من لشبونة ، تناول القربان المقدس كل من كان على ظهر السفن ، وأقامت كل أسبانيا الصلوات .

وواتت الرياح اليزابث ، على حين واجه الأرمادا عاصفة مدمرة ، فالتجأ إلى ميناء لاكورونا ، حيث ضمد جراحه ، وألق ثانية (١٢ يولييه) . وانتظرت إنجلترا فى مزيج محموم من الآراء المنقسمة والاستعدادات المتعجلة والعزيمة اليائسة ، والآه حانت الساعة لتنفق اليزابث الأموال التى كانت قد كنزتها فى ثلاثين عاماً من التقدير والتهور والشروع ، وهب شعبها فى شجاعة وتصميم ، كاثوليك وبروتستانت على السواء ، لتجديتها ، وتدريب الحرس الوطنى المتطوع فى المدن ، وأمد تجار لندن الفرق بالمال اللازم ، وطلب إليهم أن يجهزوا خمس عشرة سفينة ، فأمدوها بثلاثين . وكان قد مضى على هوكنز عشر سنوات وهو يبني السفن لبحرية الملكة . وأصبح دريك الآن نائباً لأمير البحر ، وأتى قراصنة البحر بسفنهم فى انتظار اللقاء الحاسم . وفى أوائل يولية ١٨٨ احتشد فى بليموث للقاء العدو القادم ، اثنان وثمانون سفينة كاملة العدة ، تحت إمرة شارل ، لورد هوارد افنجهام ، أمير البحر العام فى إنجلترا .

وفى ١٩ يولية (*) شوهدت طلائع الأرمادا عند مدخل القنال الإنجليزي . وألق الأسطول المدافع من بليموث ، وفى اليوم الحادى والعشرين بدأ العمل . وانتظر الأسباب حتى يقترب الإنجليزي منهم إلى حد يكفى ليناوش الواحد منهم الآخر . ولكن

(*) التتويم القديم ، وهو أسبق بهرة أيام من الجريجورى الذى اقبس فى أسبانيا ١٥٨٢ ، ولكن لم يؤخذ به فى إنجلترا إلا فى ١٧٥١ .

على العكس من ذلك ، فإن السفن الإنجليزية الخفيفة المبينة خصيصا للمياه الضحلة والمسالك الضيقة ، انطلقت بسرعة حول البوارج الأسبانية الثقيلة ، تمطرها بوابل من النيران من كل جانب ، وكانت سطوح المراكب الأسبانية عالية ، ويكانت مدافعها تطلق قذائفها على بعد مرتفع فوق السفن الإنجليزية محدثة بها أقل الأضرار ، وجرت السفن الإنجليزية تحت النيران ، وتركت قدرتها على المناورة وسرعتها ، الأسبان عاجزين حيارى مضطربين . وعندما جن الليل هرب الأسبان في اتجاه الريح ، تاركين احدى سفنهم ليأخذها دريك ، وأخرى نسفها أحد رجال المدفعية الألمان المتمردين ، ووقع حطامها في أيدي الإنجليز . ولحسن الحظ كانت كلتاها تحمل مؤنا وذخائر سرعان ما نقلت إلى أسطول الملكة . وجاء مزيد من المؤن والذخائر . ولكن الإنجليز لم يكن لديهم منها حتى الآن إلا ما يكفي لقتال يوم واحد فقط . وفي الخامس والعشرين ، وبالقرب من جزيرة وايت ، قاد هوارد هجوما ، وسارت سفينة قيادته إلى قلب الأرمادا ، وتبادلت النار مع كل بارجة مرت بها ، وحطم تفوق النار الإنجليزية الروح المعنوية لدى الأسبان . وكتب مدبنا سيدونيا في تلك الليلة إلى دوق بارما : « ان العدو يطاردنى . إنهم يرموننى بالنيران من الصباح إلى المساء ، ولكن السفن لن تلقى مراسيها . . . وليس ثمة من علاج ، فهم سريعو الحركة ونحن بطيئون(١٠٥) » . وتوسل إلى بارما أن يرسل إليه ذخيرة ومدا ، ولكن ثغور دوق بارما كانت تحاصرها وتعترض سبيلها السفن الهولندية .

وفي اليوم السابع والعشرين ألقى الأرمادا مراسيه في مداخل كاليه . وفي الثامن والعشرين أشعل دريك النار في ثمان سفن صغيرة غير ضرورية يمكن الاستغناء عنها ، ووضعها في مهب الريح لتسير وسط الأسطول الأسباني . وتوجس مدبنا سيدونيا شرا ، فأمر سفنه بالخروج إلى عرض البحر . وفي اليوم التاسع والعشرين هاجمها دريك في جرافلين ، بعيدا عن الشاطئ الفرنسي ، في حرب حقيقية . وقاتل الأسبان في بسالة ، ولكن كان يعوزهم المدفعية والبراعة في فن الملاحة . وظهر أسطول هوارد وصب الأسطول الإنجليزي بكامل عدده من النيران على الأرمادا ما أعجز بعض سفنه عن العمل وأغرق بعضها الآخر . واخترقت طلقات الإنجليز أبدان سفن

الأرمادا على الرغم من أن سمكها يبلغ ثلاثة أقدام ، وقتل آلاف من الأسبان ، وشوهدت الدماء تسيل من ظهور السفن إلى البحر . وما أن غربت شمس ذلك النهار حتى كان قد فقد من الأسبان أربعة آلاف رجل وجرح أربعة آلاف آخرون ، وأمكن بصعوبة الاحتفاظ بالسفن الأسبانية الباقية عائمة على سطح الماء . ولما رأى مدينا سيدونيا أن بحارته لا يستطيعون احتمال شيء بعد ما حدث ، أصدر أوامره بالانسحاب . وفي اليوم الثلاثين من يولية حملت الريح حطام الأرمادا إلى بحر الشمال . وتبعه الإنجليز شمالا إلى مصب نهر فورت ، وكانت تعوزهم الأغذية والذخيرة فعادوا إلى مراسيمهم ، وكانوا قد فقدوا ستين رجلا ، ولم يبقوا سفينة واحدة .

أما بالنسبة لبقايا الأرمادا ، فلم يكن ملاذ أقرب من أسبانيا نفسها . فقد كانت اسكتلنده معادية ، وثلغور أيرلنده في أيدي القوات الإنجليزية . واستماتت السفن المصابة والرجال الذين يتضورون جوعا في شق طريقهم حول الجزر البريطانية ، وكانت المياه هائجة والرياح عاصفة ، فتحطمت الصواري وتمزقت الأشعة ، وما كان يمر يوم حتى يغرق مركب أو يغادره ملاحوه ، وألقيت جثث ألوف في البحر . وتحطمت سبع عشرة سفينة على شواطئ أيرلنده الوعرة . وفي سليجو Sligo وحدها ظهر على شاطئها الرمل جثث ١١٠٠ من الغرق الأسبان . ونزل بعض البحارة إلى أير في أيرلنده يلتمسون بعض الطعام والشراب ، فلم يصيبوا شيئا ، وبلغ المئات منهم من الهزال جدا لم يستطيعوا معه القتال ، فكان مصيرهم الذبح بأيدي أشباه المتوحشين من سكان السواحل من كل جنس . ومن المائة والثلاثين سفينة التي كانت قد غادرت أسبانيا أول الأمر ، عاد ٤٥ فقط ، ومن السبعة والعشرين ألفا من الرجال عاد عشرة آلاف معظمهم جريح أو مريض . ولما كان فيليب يحاط غلما بأنباء هذه الكارثة الطويلة الأمد يوما بيوم ، فقد حبس نفسه في صومعة في الاسكوريال ، ولم يكن أحد يجروؤ على التحدث إليه . أما البابا سكستس الخامس فقد دفع بأنه ما دام لم يحدث غزو على إنجلترا قط ، فإنه لن يرسل إلى أسبانيا الفلسفة بدوكات واحد .

وكانت اليزابث حريصة على المال قدر حرص البابا عليه . وكانت يقظة إلى أية اختلاسات في البحرية ، وطالبت بحساب عن كل شلن انفقته البحرية والجيش . قبل المعركة وفي اثنائها وبعدها . وعوض كل من هوارد وهوكنز من جيبه الخاص عن أى تناقض أو تضارب لم يستطيعا له تفسيراً (١٠٦) . وكانت اليزابث تتوقع حرباً طويلة الأمد ، ومن ثم كانت تصرف للملاحين والجنود موطناً قليلاً ، ورواتب ضئيلة ، وانتشر الآن مرض فتاك ، أشبه بالتيفود ، بين الرجال العائدين ، قضى في بعض المراكب على نصف من فيها من الملاحين أو أقعدهم عن العمل ، حتى تعجب هوكنز قائلاً : ماذا كان عساه أن يكون مصير إنجلترا لو أن الوباء سبق العدو ؟

واستمرت الحرب البحرية حتى موت فيليب ١٥٩٨ . وسار دريك بأسطول وخمسة عشر ألفاً من الرجال لمساعدة البرتغاليين في ثورتهم ضد الأسبان (١٥٨٩) ولكن البرتغاليين أحسوا ببغض أكثر للبرتغاليين منه للأسبان . وأفرط الإنجليز في احتساء التبيذ الذي استولوا عليه إلى حد التمل ، وباءت الحملة بالفشل والعار . وقاد لورد توماس هوارد أسطولاً إلى جزر الآزور ليغترض طريق الأسطول الأسباني الذي يحمل الفضة والذهب إلى أسبانيا ، ولكن أسطول فيليب الجديد أرغم السفن الإنجليزية على الفرار ، فيما عدا السفينة « ريفنج » *Revenge* التي أمسكوا بها وتسكع خلف سائر السفن ، فقاتلت قتالاً بطولياً حتى تغلب عليها الأسبان (١٥٩١) . وقام دريك وهوكنز بحملة أخرى على جزر الهند الغربية (١٥٩٥) ولكنهما تنازعا وماتا في الطريق . وفي ١٤٩٦ أرسلت اليزابث أسطولاً آخر لتدمير السفن في الثغور الأسبانية مثل قادس ، فوجد هناك ١٩ بارجة حربية و ٣٦ سفينة تجارية . ولكنها جميعاً هربت إلى عرض البحر ، على حين أعمل اسكس السلب والنهب في المدينة . وأخفقت هذه الحملة كذلك ولكنها أظهرت من جديد سيادة إنجلترا على الأطلنطي .

وكان لهزيمة الأرمادا أثرها على كل شيء تقريباً في مدينة أوروبا الحديثة . فكانت بداية تغير حاسم في تكتيك البحرية ، وأخلى القفز إلى سفن العدو ومصارعة الرجل الرجل مكانهما للترشق بالمدافع من جوانب السفينة وظهرها . وساعد

إضعاف أسبانيا الهولنديين على نيل استقلالهم ، وارتقى بهنرى الرابع إلى عرش فرنسا ، وفتح أمريكا الشمالية أمام المستعمرات الإنجليزية . وبقيت البروتستانتية وقوية . ونضاعل شأن الكاثوليكية . وكف جيمس السادس ملك اسكتلنده عن مصادقة البابوات ومجاملتهم . ولو أن الأرمادا بنى بطريقة أحكم ، وسارت قيادته على وجه أكمل ، فلربما كانت الكاثوليكية قد استعادت إنجلترا ، وسادت أسرة جيز في فرنسا . وخضعت هولنده ، ولم يظهر قط شكسبير ويكون وهما رمزان لإنجلترا الظافرة وثمرتان من نتاجها ، ولربما كان على النشوة الغامرة في عهد اليزابث أن تواجه محكمة التفتيش الأسبانية . وهكذا تحدد الحروب مصير اللاهوت والفلسفة ، كما أن القدرة على القتل والتدمير شرط أساسى للحصول على الترخيص بالحياة والبناء .

١٠ — رالى واسكس

على الرغم من أن سيسل وولسهايم ودريك وهوكنز كانوا الأدوات المباشرة للمجد والنصر ، إلا أن اليزابث هى التى تجسدت فيها إنجلترا الظافرة المنتصرة ، وكانت وهى فى سن الستين فى ذروة الشهرة والقوة والسلطان ، وتجمد وجهها قليلا ، وتساقط شعرها ، وفقدت بعض أسنانها ، وأسود البعض الآخر ، ولكنها فى مجوهراتها التى تبعث الرهبة فى النفوس ، من غطاء الرأس المحرم وطوق الرقبة المكشكش المفهف ، والأكام المحشوة ، والتنورة المطوقة وكلها تتألق بالجواهر والآلئ ، وقفت مزهوة رافعة الرأس ، ملكة بلا منازع . وتدمر البرلمان من أساليبها الملكية ولكنه خضع واستسلم ، وقدم المستشارون القدامى نصائحهم فى رعدة الشباب الغض الذى يطلب يد المرأة ، ولكن الطلاب الشبان الذين انطلقت ألسنتهم بالتمجيد والتسبيح أحاطوا بالعرش . وقضى لستر وولسهايم نحبهما ، وسرعان ما يتلع البحر دريك وهوكنز ، وقد ظنا أنهما سيحكمانه . أما سيسل الذى أطلق عليه ليكون (١٠٧) « نصف الإله الذى يحمل السماء على كتفيه Atlas فى هذه الدولة » ، فقد كبرت الآن سنه ، وكان يثن ويذبل بداء النقرس ، وكان على اليزابث الآن أن تتولى تمريره فى مرضه الأخير وتطعمه لقياته الأخيرة بيديها (١٠٨) واعتراها الحزن لفقدان

هؤلاء الرجال ، ولكنها لم تدع هذا كله يشوه فخامة جلالها أو يقلل من حيوية بلاطها ومرحه ونشاطه .

وتألفت حولها وجوه جديدة ، جلبوا إليها شبابا بديلا . وكان كرسوفر هاتون رشيقا للدرجة أنها عينته مستشارا (١٥٨٧) . وظلت مترددة تسع سنوات في قبول نصيحة برجلى في تعيين ابنه الحبيب الأحدث روبرت سيسل وزيرا لها . وكانت أكثر استساعة لقسمات والتر رالى الجميلة وقعقة سيفه ، ولم تعبأ بشكوكه الدينية الخاصة ، فقد كانت لها هي الأخرى شكوكها الخاصة كذلك .

ويكاد رالى أن يكون رجل عصر الزباث الكامل : سيد مهذب ، جندى ، ملاح ، مغامر ، شاعر ، فيلسوف ، خطيب ، مؤرخ ، شهيد ، فكان « الرجل العالمى » الذى صورته أحلام النهضة الأوربية ، والذى جمع العبقرية من أطرافها ، ولكنه لم يدع الجزء قط ليكون كلا . ولد رالى في ديفونشير في ١٥٥٢ ، والتحق بجامعة اكسفورد في ١٥٦٨ ، ولكنه فر من الكتب إلى الحياة ، وانضم إلى مجموعة شهمة من المتطوعين ذوى الأصل الكريم ، عبروا البحر إلى فرنسا ليناضلوا في صفوف الهيجونوت . وربما كانت الأعوام الستة التى قضها في تلك الحروب قد علمته شيئا من العنف المجرى من المبادئ الخلقية في العمل والجرأة غير المكترثة في الحديث مما شكل مصيره في مستقبل أيامه ، وعاد إلى إنجلترا ١٥٧٥ وألزم نفسه بدراسة القانون ، ولكنه غادر البلاد ثانية في ١٥٧٨ متطوعا لمساعدة الهولنديين ضد الأسبان . وبعد ذلك بعامين كان في أيرلنده رئيسا في الجيش الذى أخذ ثورة دسموند ، ولعب دورا فعالا في مذبحة سمروك Smerwick . وكافأته الزباث باثنى عشر ألف فدان في أيرلنده ، وبضمه إلى بلاطها . ولابتهاجها بقوامه ومديحه لها وتملقه إياها « وذكائه . أصغت إليه في شك أقل ما اعتادت أن تنظر أو تسمع به إلى الناس ، عندما اقترح عليها إنشاء مستعمرات إنجليزية في أمريكا ، ومنحته امتيازا بذلك ، وفي ١٥٨٤ أرسل - ولكنه لم يصحب - أول حملة من عدة حملات ، حاولت

تأسيس مستعمرة في فرجينيا ، ولكنها أخفقت ، وبقي الاسم تذكارا خالدا لعدم وصول الملكة إلى مبتغاها ، وأثبتت اليزابث تركورتون Throckmorton — وهي وصيفة شرف في البلاط — أنها أقرب منالا ، وارتضت رالى عشيقا لها ، وتزوجت منه سرا (١٥٩٣) . ولما كان محظورا على أى عضو في البلاط أن يتزوج دون موافقة الملكة ، فان العروسين المتيمين قضيا شهر غسل غير متوقع في برج لندن (السجن) . وظفر رالى باطلاق سراحه — مع اقصائه عن البلاط — بارساله كتابا إلى برجلي يصف فيه الملكة بأنها مزيج من كل ألوان الكمال والقداسة في التاريخ .

وآوى رالى إلى ضيعته في شربورن ، ونظم رحلات واكتشافات ، وتلاعب بالإلحاد ، ونظم شعرا كان لكل بيت فيه رنين متميز ولذع خاص . ولكن عامين من الهدوء والدعة استنفدا ثباته واستقراره ، ويفضل مساعدة أمير البحر هوارد وروبرت سيسل جهاز خمس سفن وأقلع بها إلى أمريكا الجنوبية بحثا عن ألدرادو — وهي أرض أسطورية فيها قصور من ذهب ، وأنهار يجري فيها الذهب ، ونساء محاربات (أمازونات) لا تدبل مفاتنهن . وسار مائة ميل صعدا في نهر أورينوكو ، ولكنه لم يعثر على نساء محاربات ولا على ذهب ، ولقد حيرته وعوقته مساقط المياه وسرعة جريانها فعاد إلى إنجلترا صفر اليدين ، ولكنه روى كيف أن السكان الأمريكيين دهشوا وأعجبوا بجمال الملكة حين أراهم صورتها . وسرعان ما أعيد إلى البلاط . وأكد بيانه الفصيح عن « امبراطورية جويانا الشاسعة الغنية الحميلة » نقول أكد من جديد إيمانه بأن الشمس لا تشرق على أية ثروات في أى جزء في العالم . « أكثر منها في إقليم الأورينوكو » . وألح دون كلل أو ملل في إثارة الرغبة في انتزاع ثروات أمريكا من أيدي الأسبان إلى أيدي الإنجليز ، وشرح نظرية سيادة البحار أكمل شرح ، « أن من يسيطر على البحار يسيطر على التجارة ، ومن يسيطر على تجارة العالم يسيطر على ثرواته ، ومن ثم يسيطر على العالم نفسه (١٥٩٩) » .

وفي ١٥٩٦ انضم إلى الحملة على قادس . وقاتل ببسالة — كما قال ، وأصيب بجرح في رجله . وعاملته الملكة يومئذ « معاملة كريمة » وعينهتة قائدا للحرس . وفي ١٥٩٧ قاد قسما من الأسطول الذي كان تحت امره اسكس إلى جزر الآزور ، وفصلت

الماصفة بينهما . ولكن أسطول رالى التحم مع العدو وهزمه ، ولكن اسكس لم يغفر له قط انتزاع قصب السبق منه .

وفاق روبرت دفريه ارل اسكس الثانى ، حتى رالى نفسه ، فتنة وسحرا . وكان له طموح رالى وحيويته وزهوه ، ويزيد عنه حدة فى الطبع ، ويقل عنه ذكاء ، ويفوقه كثيرا فى الكرم والنبيل . وكان رجل عمل مفتونا بالذكاء والفتنة ، يخالفه النصر فى المقارعة بالسيف وفى ميدان الألعاب الرياضية ، يتميز بالبسالة والجرأة فى الحرب ، إلى جانب أنه كان مع ذلك صديقا نافعا للشعراء والفلاسفة مقلدا لهم . ولما أصبحت أمه الزوجة الثانية لارل لستر ، رفع مكانته فى البلاط ليتكافأ مع ما تميز به رالى من فتنة سارة مدهنة . ووقعت الملكة ، وهى فى سن الثالثة والخمسين ، فى حب الأمومة مع ابن العشرين الوسيم الشديد الحساسية (١٥٨٧) ، فهنا ولد بمزيتها عن عدم انجابها أولادا ، وتجاوزا أطراف الحديث واستمعا إلى الموسيقى ، ولعبا الورق معا ، وانتشر القيل والقال : « إن سيدى اللورد لا يعود إلى مسكنه قل صباح الديكة عند الفجر (١١٠) » . وتوقع قلبها الهرم حين تزوج سرا من أرملة فبليب سدنى ، ولكن سرعان ما اغتفرت له هذا . وفى ١٥٩٣ صار عضوا فى مجلس شورى الملكة ، ومهما يكن من أمر فانه كان قليل الصلاحية لحياة البلاط وعمل رجل الدولة . وقال عنه خادمه كوف : « ان وجهه نهم دوما بوضوح عما يكنه من حب وبغض ، ولم يعرف قط كيف يخفى هذا أو ذاك (١١١) » . وجلب عداوة رالى ، ووليم سيسل وروبرت سيسل ، وأخيرا عداوة سيكون العاق والمملكة المستناة الكارهة .

أما فرانسيس بيكون الذى قدر له أن يكون أكبر أثرا على الفكر الأوربى من أى شخص عداه من رجال عصر اليزابث . فقد ولد فى ١٥٦١ فى قلب البلاط الملكى ، فى بورك هاوس ، المقر الرسمى للورد حامل خاتم الملكة ، وهو أبوه ، سير نيقولا ، وأطلقت اليزابث على الابن « حامل خاتم الملكة الصغير » وقد صرفه ضعف بنيه عن الألعاب الرياضية إلى الدراسة . وساعده ذكاؤه المتقدم على التقاط العلم والمعرفة فى نهم . وسرعان ما باتت سعة اطلاعه إحدى عجائب تلك « الأزمنة

المترفة . وبعد سنوات ثلاث قضاهما في كمبردج أرسل إلى فرنسا مع السفير الإنجليزي ليتيح له الفرصة ليتعلم فنون السياسة والحكم . وفي أثناء وجوده هناك مات أبوه فجأة (١٥٧٩) قبل أن يشتري الضيعة التي كان قد قصد شراءها لابنه فرانسيس ، وكان من أصغر أولاده . وفجأة ضعفت موارد فرانسيس فعاد إلى إنجلترا ليدرس القانون في Gray's Inn . ولما كان ابنا لأخت ولیم سيسل ، فقد توسل إليه أن يعينه في منصب سياسي ، وبعد أربع سنوات من الانتظار أرسل إليه كتابا غريبا يذكره فيه بموضوعه جاء فيه « أن الاعتراض على سني سوف يزول مع طول سترتي (١١٢) » . وبطريقة ما انتخب في تلك السنة (١٥٨٤) عضوا في البرلمان ، ولو أنه كان في سن الثالثة والعشرين . واشتهر بتأييده لمزيد من التسامح مع البيوريتانز (وكانت أمه منهم) وتجاهلت الملكة حججه ، ولكنه أعاد اثباتها في شجاعة ، في منشور وزع سرا . مس فيه تناقضات كنيسة إنجلترا (١٥٨٩) واقترح فيه ألا يضار إنسان بسبب عقيدته الدينية إذا تعهد بالدفاع عن إنجلترا ضد أية سلطة أجنبية — بما في ذلك البابوية — تهدد سيادة إنجلترا أو حريتها الكاملتين . ورأت الملكة وسيسل أن الفيلسوف الشاب قد تقدم قليلا . والحق أنه كان سابقا لزمانه .

واطمأن اسكس إلى حدة ذهنه بكون وطلب مشورته . وأشار الحكيم الصغير على النبيل الصغير أن يتظاهر بالتواضع ، أن لم يستطعه ، ويخفف من انفاقه ، ويلتزم وظيفه مدنية أكثر منها حرية ، حيث أن التخلص من آثار النكسات السياسية والتعويض عنها ، ميسوران أكثر منهما في الهزائم العسكرية . كما أشار عليه بأن يعتبر أن كب حب الناس خطر عليه لدى الملكة (١١٣) . وكان بكون يراوده الأمل في أن ينضج اسكس فيصبح من رجال الدولة ويهيئ لناصره المخلص أو معلمه الخاص فرصة للارتقاء والظهور .

وفي ١٥٩٢ ناشد سيسل مرة ثانية في سطور مشهورة قال فيها : —

لقد أصبحت الآن أكبر سنا إلى حد ما . وإن إحدى وثلاثين سنة ليست بالشيء اليسير في عمر الإنسان وإن صغر ضيعتي يقلقني بعض الشيء . واعترف أن عندي من الغايات التأملية الفكرية الواسعة قدر ما عندي من الغايات الدنيوية المتواضعة

أو المعتدلة ، أى أن ما عندى من التطلع إلى العلم والمعرفة يفوق كثيرا تطلعى إلى أى
جاه مادى . لأنى اعتبرت العلم والمعرفة هما دنياى أو مجالى الخاص . وإذا كان هذا
فضولا ، أو عظمة جوفاء ، أو طبيعة فى ، فهو راسخ فى ذهنى ، ولا يمكن
محوه (١١٤) .

وعندما ألح اسكس على وليم سيسل وروبرت سيسل والملكة لتعيين بكون
فى وظيفة المدعى العام الشاغرة ، ذهبت توسلاته أدراج الرياح ، واختير بدلا منه
ادوارد كوك Coke وهو أكبر منه سنا وأكثر صلاحية من الناحية الفنية . وتحمل
اسكس اللوم فى رقة وكياسة ، وأقطع بكون ضيعة فى توكنهام تدر ١٨٠٠
جنيه (١١٥) . وقبل أن يستطيع بكون الإفادة من هذه المنحة عانى من سجن قصير
الأمَد بسيط من أجل الديون (١١٦) . وفى ١٥٩٧ عين فى « المجلس العلمى » الذى
يضم المحامين الذين كانوا يقدمون المشورة إلى مجلس شورى الملكة (١١٧) .

وعلى الرغم من نصيحة بكون انضم اسكس إلى جماعة الحرب ، ودبر أن
يكون على رأس الجيش . وهيات له بسالته المندفعة فى قادس شعبية بالغة لدى
المجلس ، ولكن اخفاقه فى الآزور ، وكبرياه لم تتضاءل قط ، وتبذيره ،
ولسانه السليط ، كل أولئك نفر منه المجلس واهاج نائرة الملكة . ولما رفضت
صراحة توصيته بتعيين سير جورج كارو فى إحدى الوظائف فى أيرلنده ، أدار لها
ظهره ، بإيماءة ثم على الاحتقار والزراية . فاستشاطت غيظا ولكمته على أذنيه
صارخة : « اذهب إلى الشيطان » . فأمسك بسيفه وصاح فيها « هذه اساءة لن
أصبر عليها ، وما كنت لأحتملها من يدى أيبك » . واندفع غاضبا من الغرفة ،
وتوقع كل رجال البلاط أن يعجل بزجه فى السجن فى برج لندن (١٥٩٨) (١١٨) .
ولكن الزابث لم تفعل شيئا . بل على النقيض من ذلك ، وربما لتخلص منه ،
عينته بعد عدة أشهر من هذا الحادث ، نائبا للملكة ، فى أيرلنده .

وكان بكون قد حذر اسكس من اللجوء إلى هذا العمل البغيض ، ألا وهو
مقاومة العقيدة بالقوة . ولكنه طلب جيشا : وفى ٢٧ مارس ١٥٩٩ ارتحل إلى

دبلن ؛ وسط تهليل الجماهير ، وهو اجس أصدقائه وريبهيم ، وارتياح أعدائه ورضاهم . وأخفق في مهمته ، وبعد ستة أشهر عاد مسرعا إلى لندن دون إذن من الملكة ، واندفع ، دون أن يعلن عن قدومه ، إلى غرفة ملابسها ، وحاول أن يفسر أعماله في أيرلنده ، فأصغت إليه في غضب مكظوم ، ثم أمرت بنقله إلى سجن قصر حامل الاختام في يورك هاوس حتى يمكن الاستماع إلى التهم الموجهة إليه .

وتذمر الناس في لندن لأنهم كانوا يجهلون اخفاقه ويذكرون انتصاراته . وأمر مجلس شورى الملكة ، بمحاكمة شبه علنية ، وفوض بيبكون بوصفه عضوا في مجلس العلماء ومحاميا تعهد بالدفاع عن الملكة ، في أن يعد قرار الاتهام ، وطلب بيبكون اعفائه . ولكنهم ألحوا لقبول . وكان الاتهام الذي أعده معتدلا ، أقر اسكس بصحته ، وعرض خضوعه المتواضع وقد جرد من جميع وظائفه ، وأبلغ أن يلزم داره حتى تفضل الملكة باطلاق سراحه (٥ يونيه ١٦٠٠) ودافع بيبكون عنه ، فأعيدت إليه حريته في ٢٦ أغسطس .

والآن وهو في قصر اسكس ظل يواصل السعي وراء السلطة . فأرسل صديقا حميلا له ، حامى شكسبير وراعيه هنري ريوتسلي Wriothesley ، ارل سوثمبتون — أرسله إلى أيرلنده ليقتراح على موننجوى نائب الملكة هناك ، أن يعود إلى إنجلترا مع الجيش الإنجليزي . ويعاون اسكس في تولي حكم أيرلنده . ورفض موننجوى . وفي أوائل ١٦٠١ كتب اسكس إلى جيمس السادس ملك اسكتلنده طالبا مساعدته مع وعد بتأييده خلفا لاليزابث على عرش إنجلترا . ورد عليه جيمس بكتاب مشجع ، وراجت الاشاعات الفظيعة في العاصمة المهتاجة بأن روبرت سيسل كان يخطط ليضع ابنة ملك أسبانيا Infanta ملكة على عرش إنجلترا ، ويزج باسكس في برج لندن ، وأن رالى أقسم ليقتلنه . وحث سيسل الأصغر الملكة على أن تبث برسالة إلى اسكس تطلب إليه الحضور إلى المجلس ، وربما كان الغرض من ذلك ارغامه على الافصاح عن نياته ، وحذره أصدقائه بأن هذا ربما كان خدعة للقبض عليه . وحجز أحد الأصدقاء وهو سير جيللى مرك للمستشار وصحبه مقاعد في المسرح حيث كانت تمثل ذاك المساء في سوثوارك Southwark ، رواية شكسبير

«ريتشارد الثانى» ، وهى تظهر كيف أن ملكا خلع عن عرشه عدلا وحقا (١١٦) .

وفى اليوم التالى (٧ فبراير ١٦٠١ احتشد ثلثمائة من أنصار اسكس المتحمسين المسلحين فى فناء داره . وعند ما خرج إليهم اللورد حامل الأختام وثلاثة من الشخصيات الكبيرة ليسألوهم عن سبب هذا التجمع غير المشروع أغلق عليهم الحشد الأبواب وساقوا الارل الحائر معهم إلى لندن وإلى الثورة ، وكان يرأوده الأمل فى أن يهب الناس لمساعدته ، ولكن الخطباء أمروهم بالتزام بيوتهم فامثلوا . وكانت قوات الحكومة لهم بالمرصاد ، فتعقبوا المتمردين ، وقبض على اسكس وزج به فى برج لندن .

وسرعان ما قدم للمحاكمة بتهمة الخيانة . وأمر المجلس بىكون بمساعدة كوك فى إعداد قرار الحكومة . وربما كان رفضه يؤدى إلى تدمير حياته السياسية ، وقبوله إلى انهيار سمعته التى واثته بعد وفاة أبيه ، فلما تلغثم كوك فى عرض التهمة نهض بىكون وعرض المسألة فى وضوح مقنع يدين المتهم ، واعترف اسكس بجرمه ، وذكر أسماء شركائه (١٢٠) . وقبض على خمسة من هؤلاء وقطعت رؤوسهم ، وحكم على سوثمبتون بالسجن مدى الحياة ، وأفرج عنه جيمس الأول فيما بعد . وتروى أسطورة أن اسكس بعث إلى الملكة بخاتم كانت قد أعطته إياه يوما مع الوعد بأن تهب لنجدته إذا أعاده إليها فى ساعة العسرة . ولكن الخاتم لم يصل إليها ، ولو كان قد أرسل (١٢١) . ففى الخامس والعشرين من فبراير ١٦٠١ ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، ذهب اسكس فى بسالة إلى المصير الذى كان طابع شخصيته . وبكى عدوه رالى عندما هوت الضربة على عنقه ، وعرض برج لندن ، لمدة عام ، الرأس المفصول عن جسده ، والذى أصابه الانحلال والعفن .

١١ - السحر يلى ويذبل ١٦٠٠ - ١٦٠٣

إن منظر رأس اسكس ، أو ادراك الزباث أن الرأس كان يحدق النظر إليها ليل نهار ، لا بد أن يكون قد شارك فى الكتابة التى خيمت على الملكة فى سنواتها الأخيرة : فكانت تقضى الساعات الطوال جالسة وحيدة فى صمت ، حزينه تظيل

التفكير ، وأبقت على ملاهى حاشيتها ، وتظاهرت أحيانا ، نظارا جريئا بالمرح ، ولكن اعتلت صحتها ومات قلبها . ولم تعد لإنجلترا تحبها ، حيث أحست بأنها عمرت أكثر مما ينبغي لها ، وأنه يجدر بها أن تخلى الطريق للملكية الفتية . وثار آخر البرلمانات فى عهدها ثورة اتسمت بعنف أكثر من ذى قبل ، ضد انتهاكها خرية البرلمان واضطهادها لليبيريتانية ، وطلباتها المتزايدة للاعتمادات ، واغداقها احتكارات التجارة على ذوى الخطوة لديها . ودهش الجميع حين استلمت الملكة فى آخر لحظة ، ووعدت بوضع حد لهذا الخلل . وذهب كل أعضاء مجلس العموم ليقدموا لها الشكر ، وجثوا بين يديها حين وجهت إليهم الخطاب . وكان آخر خطاب لها (٢٠ نوفمبر ١٦٠١) ، وهو « خطابها الذهبى » الحزين ، قالت : ليس ثمة جوهرة ، ارتفعت قيمتها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، أوترها على حبكم . . . ان تقديرى له ليفوق تقديرى لأى كثر . . . ولتد رفعا الله إلى أعلى عليين ، ولكنى أحسب أن عظمة عرشى هى أنى حكمت بفضل حبكم لى (١٢٢) .

وطلبت إليهم أن ينهضوا ثم استطردت فى الحديث قائلة :

لأن يكون الإنسان ملكا ويلبس التاج شئ سار لمن يراه ، أكثر مما هو سار لمن يحمله . . . ومن ناحيتى أنا ، إذا لم يكن ارضاء لضميرى أن أنهض بالواجب الذى فرضه الله على ، وأن أحافظ على « مجده » وأوفر لكم الأمن والسلامة ، لوددت ، استجابة لطبيعتى ، أن أترك هذا المكان لغيرى ، وسعدت بالتححرر من هذه العظمة التى تتمضى جهودا مضيئة ، لآنى لست راغبة فى أن أحيأ أو أحكم أطول من عمرى ، وسيكون الحكم من أجل خيركم . وعلى الرغم من أنه قد حكمكم من قبل ، ولسوف يحكمكم من بعد ، ملوك أقوى وأعقل منى . من فوق هذا العرش ، فانكم لم تشهدوا ، ولن تشهدوا من هو أعظم حبا لكم منى (١٢٣) .

وكانت اليزابث تؤجل ما وسعها الجهد موضوع وراثه العرش ، فادامت مارى ملكة اسكتلنده باقية على قيد الحياة ، وريثة شرعية لعرش إنجلترا . فان

اليزابث لم يهدأ لها بال ، خشية أن تفسد ماري السنوية التي انتهت هي إليها مع البروتستانت ، أما الآن وقد ماتت ماري ، وكان جيمس السادس ملك اسكتلنده هو صاحب الحق الذي لا ينازع في وراثة العرش ، فقد اطمأنت اليزابث إلى ذلك ، لعلمها بأن جيمس ، مهما كان مترددا أو مراوغا ، فهو بروتستانتي . ووصل إلى علمها أن روبرت سيسل وآخرين من رجال البلاط كانوا يتفاوضون سرا مع جيمس لتيسير ارتقائه العرش ، وليصيبيوا المغنم المرتقبة في هذه المناسبة ، وأنهم كانوا يعدون الأيام الباقية على موتها .

وانتشرت الاشاعات في كل أنحاء أوروبا أن السرطان سيقضى عليها . ولكنها كانت تموت من امتداد حياتها إلى أكثر مما ينبغي ، وما كان جسمها ليحتمل مزيدا من الأفراح والأتراح ، أو من أعباء وضربات السنن القاسية التي لا ترحم ، وعندما حاول ابنها بالمعمودية سيرجون هارنجتون ، أن يسرى عنها بأشعاره الفكهة الظرفية أخرجته من حضرتها وقالت « إذا أنت أحسست بالوقت يزحف زحفا نحو بابك ، أي بدنو الأجل ، قل ابتهاجك بمثل هذه الحقايات (١٢٤) » . وفي مارس ١٦٠٣ ، وكانت قد عرضت نفسها في جرأة لبرد الشتاء ، انتابها حمى انهكتها لمدة ثلاثة أسابيع ؛ وقضت معظم الوقت جالسة على كرسي أو مستندة إلى الوسائد ، ولم ترتض أن يعود لها طبيب ، ولكنها رغبت في الاستماع إلى الموسيقى ، فجاء بعض العازفين أخيرا . واقتنعت بالتزام الفراش ، وتمنى لها رئيس الأساقفة وتجنبت أن تطول حياتها فانتهرته ، وسجد إلى جانب سريرها وصلى ، وظن أنه أدى قدرا كافيا من الصلوات وحاول أن ينهض ، ولكنها أمرته أن يتابع الصلاة . ومرة ثانية « تعبت ركبتنا الرجل العجوز » . فأشارت إليه أن يؤدي مزيدا من الصلوات . ولم ينقذه إلا أن غلبه النعاس في ساعة متأخرة من الليل ، ولم تصح من رقدتها هذه قط ، وفي اليوم التالي (٢٤ مارس) كتب جون مانجهام في مفكرته : « في نحو الساعة الثالثة من صباح اليوم فارقت جلالتها الحياة ، في وداعة مثل الحمل ، ويسر مثل قطف التفاحة الناضجة من شجرة (١٢٥) » . وهكذا كان يبدو .

وأحسست إنجلترا بهول المصيبة ، على الرغم من أنها كانت قد طال انتظارها

لموتها . وأيقن الكثيرون أن عهدا عظيما قد انقضى ، وأن يدا جبارة قط سقطت عن دفة السفينة . وخشى بعضهم ، مثل شكسبير ، حدوث الفوضى (١٢٦) . أما ليكون فقد قال إنها ملكة عظيمة إلى حد :

إنه لو كان يلوتارك الآن على قيد الحياة ، ليكتب عن سير الحياة بالتناظر ، فقد يجد مشقة في أن يجد لها شيئا بين النساء . لقد وهبت هذه السيدة معرفة فريدة بين بنات جنسها ، بل حتى نادرة بين الأمراء والرجال

أما بالنسبة لحكومتها . . . فان هذا الجزء من الجزر البريطانية لم يشهد قط خمسا وأربعين سنة خيرا من هذه ، لا في هدوء هذه الفترة فحسب ، بل في الحكمة التي سادت الحكم . فلو نظرنا ، من ناحية . إلى صدق العقيدة التي رسخت قواعدها ، والسلام والأمن الدائمين ، والإدارة الحسنة للعدالة . والتصد والاعتدال في استخدام الحقوق الملكية وازدهار المعرفة ثم لو نظرنا ، من ناحية أخرى ، إلى الخلافات الدينية ، ومتاعب البلاد المجاورة ، وأطباع أسبانيا ، ومعارضة روما ، ثم إلى أنها — أى الملكة — كانت وحيدة ، بنفسها ، أقول لو نظرنا بعين الاعتبار إلى هذه الأشياء كلها ، لما كان في مقدورى أن أختار مثالا آخر حديثا ومناسبا إلى مثل هذا الحد ، وكذلك أظن أنه ما كان في مقدورى أن أختار شيئا أروع أو أبرز من اقتران المعوفة لدى الأمير بالسعادة التي عاش في ظلها الشعب (١٢٧) .

والآن ونحن ننظر إلى الوراء ، نتأمل طبيعة أحداث ذلك الزمان بعد وقوعها ، لا بد لنا من أن نظل الصورة بعض الشيء ، ذاكرين أخطاء الملكة التي لا تضاهيها بملكة ، غافرين لها هذه الأخطاء . إنها لم تكن قديسة ، أنها لم تؤت الحكمة ، ولكنها سيدة ذات مزاج وذات هوى مفعمة بحب الحياة . ولم تركز تماما « حقيقة العقيدة » ، ولم يكن كل رعاياها ، كما زعم شكسبير ، « يأكلون في ظل كرومهم التي زرعوها بأيديهم ، آمنين مطمئنين . وينشدون أغنيات السلام البهيجة (١٢٨) » وإن شيئا من رشاد حكمها ليعود إلى حكمة معاونيها ، وكان تذبذبها في الرأي

يقترن في غالب الأمر بحسن الطالع ، وربما كان ذلك بسبب ما يحدث مصادفة من
تغيير ، وأدى هذا التذبذب أحيانا إلى ضعف في السياسة إلى حد أن المتاعب الداخلية
لدى أعدائها هي التي ساعدتها على البقاء بعد النكسة . ولكنها استطاعت البقاء ، بل
وحققت نجاحا ، بوسائل مشروعة أو ملتوية ، لقد حررت اسكتلنده من ربة فرنسا
وربطتها بإنجلترا ، ومكنت هنرى نافار من إيجاد التوازن بين قداسه في باريس وبين
مقتضيات مرسوم نانت . ولقد وجدت إنجلترا مفلسة محترقة ، وخلفتها غنية قوية ،
وترعرعت ونمت منابع المعرفة والآداب في ظل الثروة التي كان يرفل فيها شعبها ،
وتابعت الحكم الاستبدادى المطلق على عهد أبيها ، ولكنها لطفت من حدته
بالإنسانية والفتنة . لقد حرمت الزوج والولد ، وتبنت إنجلترا وجعلت من نفسها
أما لها ، وأحبها حبا خالصا ، وأفنت نفسها في خدمتها ، فكانت أعظم حاكم
عرفته إنجلترا .

فصل ثانى

إنجلترا المرحمة^(١)

١٥٥٨ - ١٦٠٣

١ - فى العمل

أى نوع كانت لإنجلترا تلك التى أمدت اليزابث بالقوة وهيات لها النصر .
ووهبت شكسبير اللغة والإلهام ؟ وأى صنف من الناس كان هؤلاء الإنجليز فى عصر
اليزابث ، أولئك المغامرون فى تهور ، الصرحاء الممثلون حيوية ونشاطا ؟ كيف
عاشوا وعملوا ولبسوا وفكروا ، وأحبوا وشادوا وغنوا ؟

فى ١٥٨١ بلغ عدد السكان نحو خمسة ملايين ، معظمهم مزارعون ، ومعظم
هؤلاء يفلحون الأرض لمصلحة المالك نظير جزء من المحصول ، وبعضهم يستأجر
الأرض مقابل إيجار محدد يدفعه ، وكان ثمة عدد متزايد من صغار المزارعين
الأحرار الذين يمتلكون الأرض ملكية مطلقة ، وبقيت مساحات من الأرض على
المشاع حيث ثبت أن أرض المراعى تدرجأ أكثر من الأرض المحروثة ، وكاد
الرقيق أن ينقرض ، ولكن طرد المستأجرين عن طريق المساحات المشتركة المسورة
وعن طريق الضم كان يخلق طبقة بائسة من العمال الذين غامروا ببيع عضلاتهم من
مزرعة إلى مزرعة ، ومن حانوت إلى حانوت فى المدن الآخذة فى التوسع (التنقل
من أجل الحصول على عمل نظير أجر) .

وباستثناء العاصمة ، كانت المدن لا تزال صغيرة ، على أية حال ، وزاد عدد
السكان قليلا عن عشرين ألفا فى كل من نوروك Norwich وبرستول ، وهما أكبر
مدينتين بعد لندن . وكان لهذه المسألة جانبها المشرق : ذلك أن سكان المدن كانوا
متوادين متحابين ينعمون بحسن الجوار . وحتى فى لندن نفسها ، كان لمعظم البيوت

حداائق ، أو أنها كانت قريبة من الحقول المكشوفة ، ومن ثم يمكن جمع مختلف أنواع الأزهار التي ترثم بها شكسبير . وحصلت البيوت على التدفئة بإحراق الخشب ، واستخدمت معظم المصانع الفحم لتوليد الطاقة ، ولكن أسعار خشب التدفئة ارتفعت كثيرا في القرن السادس عشر ، وحدا ازدياد الطلب على الفحم بملك الأراضي إلى التنقيب عن الرواسب في أراضيهم . وجيء بالعمال الألمان لتحسين التعدين وعلم المعادن . وحرمت اليزابث استخدام الفحم في لندن ، ولكن ثبت أن أوامرها كانت أقل حسما من الضرورة الاقتصادية^(٢) . وزادت محلات النسيج واتسعت بعد لجوء النساجين والقصارين إلى إنجلترا هربا من جور دوق ألفا في الأراضي الوطيفة ، وجلب الهيجونوت من فرنسا مهاراتهم الحرفية والتجارية ، على أن رجلا إنجليزيا هو الكاهن الموقر « وليم لى » هو الذى اخترع (١٥٨٩) « جهاز الحوارب » شبه الآلى للحياكة . وكان صيد السمك أكثر الصناعات ازدهارا ، لأن الحكومة شجعتها بغية تعويد الناس على ركوب البحر والملاحة ، ومن ثم تهيئ احتياطيا للبحرية . ومن ثم انحنت اليزابث إجلالا للكنيسة الكاثوليكية ، وأمرت رعاياها أن يمتنعوا عن أكل اللحم يومين في الأسبوع ، وأيام الصوم التقليدية في الصيام الكبير .

وكانت نقابات التجار والصناع قد سلبتها القوة والفعالية قيود العصور الوسطى وتوجيهاتها ، ومن ثم ظلت النقابات تفقد أسواقها في عصر النزعة الفردية والتجديد . وجمع المتعهدون المهرة رأس المال ، واشتروا المواد الخام ، ووزعوها على المتاجر والأسرات ، واشتروا الإنتاج ، ثم باعوه ، قدر ما تحتمل ظروف التجارة والمقايضة . وبدأت الرأسمالية في إنجلترا في البيت ، بعمل الأب والأم والابنة والابن ، للمفاول أو الملتزم . أما وقد نشأ الآن « هذا النظام المنزلى » فقد سار حتى أواخر القرن الثامن عشر . وكان كل بيت تقريبا ، بمثابة مصنع مصغر ينسج فيه النساء ، ويغزلن الكتان والصوف ، ويحكن ويطرزن ، ويقمن بتحضير الأدوية من الأعشاب وتقطير المشروبات ، ونجحن إلى حد كبير في النهوض بفن الطبخ ، في إنجلترا .

وسنت حكومة اليزابث القوانين للاقتصاد بمثل ما سنت به للعقيدة ، من غيرة

وحاس . وأدركت أن القيود البلدية على الصناعة والتجارة ، تعوق النشاط التجارى والصناعى ، فاستبدلت بأنظمة الوحدات الإدارية نظاما قوميا واحدا . وقرر تشريع التلمذة الصناعية ، المشهور (١٥٦٣) مجموعة قواعد ومبادئ هامة للرقابة والإلزام الحكوميين ، وقد ظل قانون إنجلترا حتى ١٨١٥ . ومنذ كان القانون يهدف إلى القضاء على الخمول والتعطل ، فإنه تطلب من كل شاب قوى الجسم قادر على العمل أن يخدم كتلميذ لمدة سبع سنوات ، لأن الرجل « حتى يبلغ الثالثة والعشرين ، يكون فى أغلب الأحوال ، وليس دائما ، متهورا طائشا لا يحسن التمييز ، لم يؤت من التجربة والخبرة ما يستطيع معه أن يحكم نفسه (٢) » . وكل منعتل عن عمد قبل الثلاثين من العمر ، ليس له دخل سنوى مقداره أربعون شلنا ، يكت إجباره على العمل ، وفقا لتوجيه السلطات المحلية . وكل الأصحاء الذين لم يبلغوا الستين فى الريف يمكن إلزامهم بالعمل فى جمع المحاصيل . ويجب تأجير العمال بعقود سنوية نظير نوع من أجر سنوى مضمون . ونحول قضاة الصالح سلطة تنفيذ الحد الأقصى والحد الأدنى لمكافأة كل عمل فى المنطقة التى يعمل بها كل منهم . وحدد أجر العامل فى لندن بتسعة بنسات يوميا . وفرضت غرامة قدرها أربعون شلنا على أصحاب العمل الذين يفصلون العمال بشكل تعسفى . أما المستخدمون الذين يتركون أعمالهم بغير سبب مشروع فكان يزج بهم فى السجن . وكان محظورا على أى مستخدم أن يترك مدينته أو أبرشيته دون إذن من رب العمل أو الحاكم المحلى . وحددت ساعات العمل باثنتا عشرة ساعة يوميا فى الصيف ، وبساعات ضوء النهار فى الشتاء . وكان الاضراب أيا كان نوعه محظورا ، وكانت عقوبته السجن أو الغرامة الثقيلة (٤) .

وعموما كان لهذا التشريع مفعوله فى حماية أرباب العمل ضد من يستخدمون من العمال ، والزراعة ضد الصناعة ، والدولة ضد الثورة الاجتماعية . وكتبت نقابة البنائين بالأجر فى مدينة هل فى صدر قانونها المحلى هذه العبارة : « كل الناس متساوون بالطبيعة ، خلقهم خالق واحد من طينة واحدة » . ولكن لم يؤمن بهذا أحد ، وفى أقل القليل سيسل واليزابث ، ويحتمل أن يكون سيسل هو الذى

وجه التشريع الاقتصادى فى ١٥٦٣ ومن نتائجه بالنسبة للطبقات العاملة أنه جعل الفقر أمرا إجباريا . واقترح إعادة تحديد الأجور بصفة دورية وفقا لأسعار المواد الغذائية الأساسية ، ولكن الحكام المكلفين بهذا العمل كانوا ينتسبون إلى طبقة المستخدمين (أرباب العمل) . وارتفعت الأجور ، ولكن بمعدل أبطأ كثيرا من الأسعار . وفيما بين عامى ١٥٨٠ و ١٦٤٠ ارتفعت الأسعار بنسبة ١٠٠ ٪ ، على حين ارتفعت الأجور فى نفس الفترة ٢٠ ٪ فقط (٦) .

وفى خلال القرن من الزمان الذى يمتد من ١٥٥٠ إلى ١٦٥٠ كانت أحوال المهنيين والعمال تزداد سوءا يوما بعد يوم (٧) . وامتألت ضواحي لندن « بطبقة فقيرة نسبيا ، شريرة غالبا ، تقطن فى أحقر المساكن (٨) » ، تعيش فى بعض الأماكن على السرقة والتسول ، وفى جنازة ارل شروزبرى (١٥٩١) جاء نحو عشرين ألفا من المتسولين يلتمسون الصدقات (٩) .

وشنت الحكومة حملات على هذه الرذائل بمجموعة من القوانين الضارمة ضد التسول والاستجداء ، وبمجموعة إنسانية نسبيا من « قوانين الفقراء » (١٥٦٣ - ١٦٠١) التى اعترفت بمسئولية الدولة عن حماية رعاياها من الموت جوعا . وفى كل وحدة إقليمية جمعت ضريبة لرعاية الفقراء غير القادرين على العمل ، وتشغيل القادرين على العمل فى مصانع تديرها الدولة .

وتبين أن ارتفاع الأسعار كان حافزا للصناعة والتجارة قدر ما كان مأساة وكارثة على الفقراء . والأسباب الرئيسية فى هذا هو استخراج الفضة فى أوروبا ، واستيراد المعادن النفيسة من أمريكا ، وغش الحكومات للعملة (تخفيض قيمتها بزيادة ما تحتويه من معدن خسيس) وفيما بين سنتى (١٥٠١ - ١٥٤٤) كانت جملة مقادير الفضة المستوردة أو المستخرجة فى أوروبا تساوى نحو ١٥٠ مليونا من الدولارات بمعدلات ١٩٥٧ ، وفيما بين عامى ١٥٤٥ - ١٦٠٠ نحو ٩٠٠ مليون (١٠) . وكافحت اليزابث بشرف غش النقد الإنجليزى ، وتقبلت نصيحة مستشارها البعيد النظر ، سيرتوماس جريشام ، الذى حذرها (١٥٦٠) فى عبارة أصبحت « قانون جريشام » ، وهى

أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة ، وأن العملة التي تحتوى على النسبة الصحيحة من المعدن النفيس قد تحتزن أو ترسل إلى الخارج ، على حين أن العملة التي لا تحتوى على النسبة المقررة الصحيحة من المعدن النفيس تستعمل لسائر الأغراض الأخرى ، وبخاصة في تسديد الضرائب أى « أن يدفع للحكومة النقد الذى سكتته هي (وغشته) » ، وأصلحت اليزابت وسيسل النقد الذى كان قد غشه أبوها وأخوها ، وأعادت إلى العملة الإنجليزية النسبة الصحيحة من الذهب أو الفضة . وارتفعت الأسعار على الرغم من هذا ، لأن تدفق الذهب والفضة أو إنتاجهما ، وتداول العملة ، فاقا سرعة إنتاج السلع .

وأسهمت الاحتكارات في رفع الأسعار . ورخصت اليزابت في احتكار صناعة أو بيع الحديد والزيت والخل والفحم والرصاص ونترات البوتاسيوم أو الصودبوم (الملح الصخري) والنشا والخيوط والجلد ، والجلود المدبوغة والزجاج ، ولقد مكنت هذه التراخيص ، من جهة لتشجيع رأس المال على تحسين الإنتاج ، وإقامة صناعات جديدة ، ومن جهة أخرى كتعويض أو مكافأة للوظائف والخدمات التي لا تحصل بدونها (أى تراخيص الاحتكار) على أجر كاف . ولما ارتفعت الشكوى من هذه الاحتكارات إلى حد أن البرلمان كاد أن يثور ، وافق اليزابت على وقفها حتى يتم التحقيق فيها والتصديق عليها (١٦٠١) ، ومن ثم كان الاحتفاظ ببعضها .

ونتيجة لهذا التعويق تمت التجارة الداخلية بخطى أبطأ من تقدم التجارة الخارجية . وفيما عدا أيام المناسبات والأعياد ، لم يكن يسمح لأى إنسان أن يبيع السلع في أية مدينة لا يكون هو من سكانها ، وكانت هذه المناسبات دورية في كثير من المراكز ، وبلغت أكثر من مائة يوم في السنة . وكان أكثرها شيوعا ، « يوم القديس برثلميوس » الذى يقام في شهر أغسطس من كل عام بالقرب من لندن ، مع « سيرك » يجذب الناس إلى السلع ، وكان انتقال البضائع على الماء أكثر منه بالبر ، وكانت الأنهار تعج بالحركة ، وكانت الطرق رديئة ، ولكنها آخذة في التحسن . ويمكن السير فيها ركوبا لمسافة مائة ميل في اليوم ، وقطع الرسول الذى حمل إلى ادنبره نبأ وفاة اليزابت

١٦٢ ميلا في يومه الأول . وكانت الخدمات البريدية التي انشئت في ١٥١٧ مقصورة على الحكومة وحدها . أما البريد الخاص فكان يرسل مع الأصدقاء أو الرسل أو السعاة أو أى مسافرين آخرين . وكان معظم السفر بالبر على ظهور الخيل ، أما المركبات فأدخلت حوالى ١٥٦٤ ، وظلت حتى ١٦٠٠ لونا من الترف لدى قلة من الناس ، وما جاءت سنة ١٦٣٤ حتى كثر عددها إلى حد إصدار بلاغ بتحريم استخدام الأفراد لها استخداما خاصا ، بسبب ازدحام حركة المرور^(١١) . وكانت الأنزال (الفنادق) حسنة ، كذلك كانت النادلات فيها ، اللهم إلا عند الدفع . لكن كان ينبغي على عابر السبيل أن يحرص على كيس نقوده ، وأن يخفى وجهته^(١٢) . لقد كان على المرء في إنجلترا على عهد اليزابث أن يكون نشيطا حنرا مستعدا .

ونمت التجارة الخارجية بتقدم الصناعة . وكان تصدير المنتجات الكاملة الصنع هو الوسيلة المفضلة لتسديد ثمن ما يستورد من المواد الخام ومواد الترف الشرقية . وتوسعت السوق من الوحدة الإقليمية إلى الأمة بأسرها ، ثم إلى أوروبا ، بل حتى إلى آسيا وأمريكا . واتسعت مجالات الحكومات الوطنية وأهدافها وسلطانها مع اتساع مدى التجارة ومشاكلها ، وقد رغبت إنجلترا — مثلما رغبت أسبانيا وفرنسا — في تصدير السلع واستيراد الذهب . لأن « النظرية التجارية(*) » التي سادت آنذاك ، كانت تقيس ثروة الأمة بمقدار ما لديها من المعادن النفيسة . وواضح أن فرانسس بيكون كان أول من تحدث عن « ميزان تجارى^(١٣) » مرض ، قصد به زيادة الصادرات على الواردات ومن ثم امتصاص الفضة أو الذهب ، أو تبرئهما إلى داخل البلاد . وأعلن سيسل عن هدفه بقوله : « يجب ، بكل الوسائل ، أن نقصر استخدامنا للسلع الأجنبية على ما هو ضرورى لنا^(١٤) » ولقد أدرك أن الفضة والذهب لا يؤكلان ولا يلبسان ، ولكنهما كانا نقدا دوليا ، يمكن أن يشتري به عند الضرورة

(*) **Mercantilism** وهو النظام الاقتصادى الذى نشأ في أوروبا خلال تفسخ الاقطاع لتعزيز ثروة الدولة ب طريقتي تنظيم حكومى صارم للاقتصاد الوطنى في جميع نواحيه ، واثناج سياسة تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية . (المترجم نقلا عن قاموس المورد ، بيروت ١٩٧١) .

أى شىء تقريبا ، حتى الأعداء ، وتجب حماية الصناعة الوطنية زمن السلم ، حتى لا تعتمد الأمة على المنتجات الأجنبية زمن الحرب ، ومن ثم عوقت الحكومات الاستيراد عن طريق الرسوم الجمركية ، وشجعت التصدير عن طريق الإعانات ، وتكونت « شركات التجارة » لبيع المنتجات الإنجليزية في الخارج وهى « التجار المغامرون » . الإنجليز منفذا للصادرات في همبرج . ورأس أنطونى جنكنسون بعثة تجارية إلى روسيا (١٥٥٧) وأخرى إلى إيران (١٥٦٢) ، وذهبت بعثة أخرى إلى الهند (١٥٨٣ - ١٥٩١) . وأنشئت لجنة إنجليزية تركية (١٥٨١) . وأسست الشركة المسكوفية في ١٥٩٥ ، وشركة الهند الشرقية الشهيرة في التاريخ في ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ ، وكان المسرح ممهدا لهستنجز وكليف . وقام عشاق البحر أو المال بمغامرات عبر المحيطات بحثا عن طرق جديدة للتجارة . وكان علم الجغرافيا . من بعض النواحي ، نتيجة غير مقصودة لحماستهم . وقامت حركة ضخمة لبناء السفن ، بحثا عن الأسواق والمستعمرات . وتحولت أخشاب غابات إنجلترا إلى سفن وصوار . وشرعت بريطانيا تحكم في الأمواج وتحكم البحار ، وولدت الامبراطورية البريطانية قولا وعملا .

ولما انتشرت التجارة واتسع مجالها ، تطورت النظم المالية لتيسير عملياتها وتعجيلها . وتضاعف عدد المصارف . وفي ١٥٥٣ أنشأ « التجار المغامرون » شركة مساهمة مشتركة للتجارة مع روسيا ، أصدرت ٢٤٠ سهما قيمة كل منها ٢٥ جنيها ، وكانت الأرباح توزع بعد كل جولة ، وبعد رأس المال المستثمر^(١٥) . ومولت شركة الهند الشرقية رحلاتها بمثل هذه الطريقة . وأدت الأرباح التى بلغت ٨٧ ٪ فى أول رحلة إلى اندفاع المساهمين إلى الاشتراك فى المشروع أو المغامرة الثانية — ومنهم رجال البلاط ، والقضاة ، ورجال الدين ، والفرسان ، والأرامل ، والعوانس ، والحرفيون . وأحب الرجال والنساء آنذاك المال حبا جما ، كما هو الحال اليوم تماما . وكان البرلمان قد حرم الفوائد على القروض حتى ١٥٥٢ ، بوصفها « رذيلة ما أقبحها »^(١٦) ، ولكن القوة المتزايدة لرجال الأعمال فى مجلس العموم ، أدت إلى صدور « قانون الربا » فى ١٥٧١ ، وقد ميز هذا القانون بين الفائدة والربا ،

وأجاز نسبة ١٠ ٪ سعرا للفائدة . ولما ازداد التعامل في الأسهم أنشئت سوق الأوراق المالية (البورصة) لتبادل ملكية الأسهم والبضائع . وسك مزيد من النقود المتداولة ليتسنى شراء السلع وبيعها . وفي ١٥٦٦ أسس جريشام « البورصة الملكية » لتقوم بمثل هذه العمليات التجارية والمالية . وفي ١٥٨٣ أصدرت أقدم « بوليصة » تأمين على الحياة (١٧) .

ونمت الروح التجارية منذ أصبحت لندن واحدة من أسواق ومراكز العالم المزدهرة . وتألفت الشوارع غير المضاعة بما تكدر فيها من بضائع . وحكم جواب آفاق طاف بأقطار كثيرة ، بأن منشآت الصياغ في لندن أفخم مثيلاتها في أى مكان آخر في العالم (١٨) . وجن جنون أصحاب الأعمال للحصول على دور لهم ، واستعمل بعضهم صحن كاتدرائية سانت بول مقرا مؤقتا لمكاتبهم ، وكلهم ثقة بأن « المسيح » كان قد غير رأيه منذ ظهر كلفن ، وهناك تعامل المحامون مع عملائهم ، وأحصى الناس المال فوق المقابر ، وفي الفناء باع الباعة المتجولون الخبز واللحم والسمك والفاكهة والجمعة والبيرة ، وتدافعت حشود المشاة والباعة المتجولون والمركبات وعربات النقل في الشوارع الضيقة الموحلة . واستخدم نهر التاميز كطريق رئيسي تمر به مراكب نقل البضائع والمعدات ومراكب التزهة ، وكاد يوجد في كل تقطة فيه مجدف أو معدة معه قارب ، مستعد لنقل البضائع أو الركاب عبر النهر ، ضد التيار ، أو مع التيار . ومن ثم كانت صيحاتهم العالية (نداءاتهم للركاب) : « شرقا » أو « غربا » ، التي أخذت عنها عنوانات « روايات جاكوب » . وكان النهر ، إذا زالت عنه رائحته — نعمة كبرى للتجارة والتزهة والعشاق ، وخلفية للمشاهد المسرحية الفخمة والمساكن الفاخرة . وكان جسر لندن الذى بنى في ١٢٠٩ مفخرة المدينة ، والطريق الوحيد بين طرفيها الشمالى والجنوبى . وتخصص الجنوب في الحانات والمسارح والمواخير والسجون . أما الشمالى فكان المركز الرئيسى للأعمال . وهنا كان التاجر هو السيد ، وكان اللورد صاحب اللقب يدخل بعد السماح له بالدخول . وكانت الشخصيات الملكية والنبلاء يقطن معظمهم في قصور خارج لندن . وكان حتى وستمنستر ، مقر البرلمان آنذاك : مدينة منفصلة . وهناك أيضا أجبرهم رجل الأعمال

على سماع صوته ، وما وافت سنة ١٦٠٠ حتى بات في مقدوره أن يزجج الملكة ، وبعد نصف قرن تقريبا (حوالى ١٦٥٠) قطع رأس الملك .

٢ - فى المدارس

لم يكن عصر شكسبير متوفرا على التعليم . فتعلم العصر قليلا من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية ، مع قدر أكبر من الإيطالية والفرنسية ، وقرأ الكتب بنهم . ولكن بسرعة ، واندفع يحكم عليها بالتجربة والاختبار ، وتعلم من مدرسة الحياة ، وأجاب معلمه بوقاحة لم يسمع بمثلا .

ولم تكن اللغة التى استعملها هذا العصر هى لغة المدارس ، ولكنها كل لغة الحديث الموروثة عن عهود الكلث والرومان والسكسون والنورمانيين فى إنجلترا ، مزينة بالغانم اللغوية من فرنسا وإيطاليا ، كما انتزعت بعض الألفاظ العامة من شوارع لندن ، ومن اللهجات فى المقاطعات ؛ ولكن لغة العصر لم تقنع بهذا ، فجعات الكلمات تلد كلمات ، وجعلت الخيال الواسع يتخبط فى الكلام الخلاق . وهل كان ثمة لغة حية قوية مرنة غنية مثلها ؟ ولم تتوقف لتضع لهجائها القواعد ، وقبل ١٥٧٠ لم توجد قواميس للإرشاد إلى ضبط الهجاء والإملاء ، ولم يحدد شكسبير يوما كيف يتهجى اسمه . واستخدم الاختزال ، ولكنه لم يهدى من روع أصحاب الأعمال المهتاجين ، ولم يسعف الشعر .

وقضى هنرى الثامن على تعليم البنات المنظم حين حل أديار الراهبات . أما التعليم الابتدائى فكان ميسورا مجانا لأى ولد يمكنه الوصول إلى إحدى المدن . وفتحت اليزابث مائة مدرسة متوسطة مجانية Grammar School ، وأضاف إليها جيمس الأول وشارل الأول ٢٨٨ مدرسة أخرى . أما الأولاد (البنين) من ذوى الأصل العريق فقد كانت قد أسست لهم بالفعل مدارس خاصة Public School (مدارس ثانوية داخلية) فى ونشستر ، وايتون ، وسانت بول ، وشروزبرى ، وأضيف إليها الآن رجبى (١٥٦٧) ، وهارو (١٥٧١) ، ومدرسة Merchant Taylor's (١٥٨١) حيث لمع الاسم التربوى العظيم ريتشارد مولكاستر . وكان المنهج تقليديا ،

بالإضافة إلى الضرب ، وكان تعليم المذهب الأنجليكاني إجباريا في جميع المدارس .
وفي وستمنستر كانت الدراسة تبدأ في السابعة وتنتهى في السادسة ، مع فترات فيها
شيء من الشفقة : لطعام الإفطار في الثامنة ، ولسنة من النوم والحلوة بعد الظهر .
وكان الآباء يصرون على أن تنهض المدرسة على أكل وجه ، بإحدى مهامها
الرئيسية ، ألا وهى تخليصهم من أبنائهم .

وظلت اكسفورد وكبردج تحتكران التعليم الجامعى . وكانتا قد فقدتا هيئتهما
والثقة بهما في أثناء الاصلاح الدينى وما اقترن به من هياج وشغب ، كما انصرف
عنهما آلاف الطلاب ، ولكنهما كانتا تستردان مكانتهما ، وفي ١٥٨٦ كانت
كل جامعة منهما تضم نحو ١٥٠٠ طالب . وفي جامعة كبردج تبرع سير والتير ميلدماي
Mildmay بكلية عمانويل في ١٥٨٤ ، وأسست فرانسس ، كونتييسة سسكس وعمه
فيليب سدن ، كلية سيدنى سسكس في ١٥٨٨ . وفي اكسفورد أسست كلية يسوع
بأموال حكومية وغير حكومية ١٥٧١ ، وأضيفت كليتا وادهام (١٦١٠) وبمبروك
(١٦٢٤) في عهد جيمس الأول . وشرفت كبردج في ١٥٦٤ بزيارة الملكة التى
استمعت في وقار وتواضع إلى خطاب رسمى باللاتينية في مدحها ، وفي كلية ترنتي
ردت باليونانية على خطاب باليونانية ، وفي الطرقات تبادلت الحديث مع الطلبة
باللاتينية ، وفي نهاية الزيارة وجهت خطابا باللاتينية أعربت فيه عن أملها في أن
تفعل شيئا من أجل التعليم ، وبعد ذلك بعامين زارت اكسفورد مبهجة مفاخرة
بقاعاتها وملاعبها ، وعند مغادرتها الجامعة صاحت في حماس : «وداعا رعاياي
الأفاضل ، وداعا أبنائي الطلبة الأعزاء ، وفقكم الله في دراستكم» (١٩) . لقد
عرفت كيف تكون ملكة .

ونافست نساء إنجليزيات أخريات اليزابث في مجال العلم والمعرفة . فاشتهرت
بنات سير أنطوني كوك بعلمهن . واتخذت ماري سدن كونتييسة بمبروك من بيتها ،
في ولتن منتدى للشعراء ورجال السياسة والفنانين الذين تبنوا فيها عقلا ناضجا يمكنها
من تقدير أحسن ما يمكن أو يقدمون . وتلقى مثل هؤلاء السيدات معظم تعليمهن

على أيدي معلمين خاصين في البيت . وكانت المدارس المتوسطة مفتوحة للجميع ، أما الثانوية الخاصة والجامعات فكانت مقصورة على الذكور فقط .

وكان من أبرز سمات العصر أن أقدر الممالين في عهد اليزابت أسس في لندن (١٥٧٩) « كلية جريشام » للقانون والطب والهندسة وعلوم البلاغة وغيرها من الدراسات النافعة لطبقة أصحاب الأعمال ، وحدد أن تكون المحاضرات بالإنجليزية واللاتينية على حد سواء ، طالما أن التجار وغيرهم من المواطنين سيلتحقون بها (٢٠) . وأخيرا كان تعليم طبقة ذوى اليسار أو ذوى الألقاب يكمل بالسياحة والرحلات . وقصد الطلبة إلى إيطاليا لاستكمال تدريبهم الطبي والجنسى ، وللتعرف على آداب الإيطاليين وفنونهم ، وتعلم كثيرون أن يعرجوا على فرنسا في الطريق . ولم تكن اللغة عائقا آنذاك ، لأن كل متعلم في غرب أوروبا ووسطها كان يعرف اللاتينية . وعلى الرغم من ذلك فإن المسافرين العائدين أتوا معهم إلى الوطن بأثارة من الإيطالية والفرنسية ، كما جاءوا بولع شديد بالأخلاقيات الهينة اللينة التي سادت إيطاليا في عصر النهضة .

٣ — الفضيلة والرذيلة

إن كل تلميذ ليعرف تنديد روجر أسكام في ١٥٦٣ بالرجل الإنجليزي الذي يتشبه بالإيطاليين ، حيث يقول : —

أنى لأعتقد أن الذهاب إلى هناك « إلى إيطاليا » خطر ، أى خطر لقد جعلت الفضيلة يوما من هذه البلاد سيدة على العالم . ولكن الرذيلة جعلت منها الآن عبدا لمن كانوا من قبل يلذ لهم أن يخدموها انى على العكس من ذلك ، أعرف رجالا غادروا إنجلترا ممن عرفوا فيها بالحياة البريئة والمعرفة الواسعة عادوا من إيطاليا وقد رغبت نفوسهم عن الاستقامة في الحياة وانصرفوا عن العلم ، ولم يعودوا إلى ما كانوا عليه قبل سفرهم إلى الخارج . وإذا ذهب بك الظن إلى أننا لا نقرر الحقيقة . فاستمع إلى ما يقوله الإيطاليون ان الإنجليزي الذي يتشبه بالإيطاليين ليحمل بين جنبيه شيطانا متجسدا فيه » وكنت أنا نفسى ذات مرة

في إيطاليا ، وأحمد الله اني لم أمكث فيها إلا تسعة أيام فقط . ومع ذلك رأيت في هذا الوقت القصير ، في مدينة واحدة ، من الاباحية والمجون والإثم مالا أكاد أذكره عن مدينتنا الفاضلة لندن في تسع سنوات (٢١) .

ولم يكن معلم الزنايبث هو الوحيد الذي ضرب على هذه النعمة . فقد كتب ستيفن جسون Gosson في كتابه « مدرسة الفساد » (١٥٧٩) « لقد سلبنا إيطاليا دعاتها ، انك إذا قارنت بين لندن ورومه ، وبين إنجلترا وإيطاليا لوجدت أن مسارح الواحدة منهما ومفاسد الأخرى منتشرة انتشارا واسعا بيننا » . ونصح سيسل ابنه ألا يسمح لأولاده أن يعبروا جبال الألب . « لأنهم لن يتعلموا هناك شيئا سوى الغرور وعدم احترام المقدسات والإلحاد (٢٢) » . وفي كتابه « تشريح المفاسد » ، وصم فيليب ستبز Stubbs — وهو بيوريتاني — الإنجليز في عصر الزنايبث — بأنهم أشرار مترفون مزهوون ، يفاخرون بخطاياهم . ونعى الأسقف جول Jewel في موعظة ألقاها أمام الملكة — نعى على الناس في لندن أنهم في سلوكهم وأخلاقهم « هزأون بكتاب الله المقدس ، الإنجيل ، ومن ثم يصبحون أكثر فسقا وأكثر شهوانية وحبا للعنصرية وأكثر دعارة ، مما كانوا عليه في أي وقت مضى . . . وإذا كانت حياتنا تشهد بعقيدتنا وتتم عن ديننا ، فإنها تنادى بأعلى صوت ليس هناك إله (٢٣) (*) » .

إن مشار الضجة والنعي على الأخلاق يرجع في كثير منه إلى أساتذة الأخلاق

(*) يرى أوبري قصة توريد أسكام ، يقول « كان والثر رالي مدعوا إلى العشاء مع شخصية كبيرة . وكان ابنه يجلس إلى جواره ، محتشما غاية الاحتشام ، على الأقل طيلة نصف فترة العشاء . ثم قال : هذا الصباح ، ولم تكن خشية الله ماثلة أمام عيني ، قصدت إلى واحدة من بنات الهوى كنت شديد الهيام بها ، وأردت أن استمتع بها . ولكنها دفعتني عنها وأقسمت ألا أقر بها ، قائلة إن أباك كان يضاجعني منذ ساعة فقط » . فما كان من والثر ، وقد فوجئ مفاجأة مذهلة ، وخاصة في مثل هذه المأدبة العظيمة ، إلا أن لطم ابنه لكمة شديدة على وجهه . ولكن الابن ، رغم فظاظته وغلظته ، لم يضرب أباه ، بل لطم للرجل الذي كان يجلس إلى جواره ، وقال : لكمة هنا وهناك ستصيب أبي حالا . . . » (موجز سير الحياة Brief Lives — ص ٢٥٦) .

الذين نددوا أشد التنديد بالنساء والرجال الذين لم يعودوا يلقون بالآلى أهوال
الحكيم أو يؤمنون بها . ويحتمل ألا يكون الناس فى مجموعهم شرا أو خيرا عما
كانوا عليه من قبل ، ولكن ، كما تشددت الأقلية البيوريتانية فى أخلاقها وقترت
فى أموالها واقتصدت فى بنات شفافها ، كذلك اتفقت أقلية وثنية مع الإيطاليين
على أن التمتع بالحياة ، أفضل من إرهاب أنفسنا بالتفكير فى الموت دون جدوى .
ويمكن أن تكون الأنبذة الإيطالية ، التى كان الناس بقبولون عليها فى إنجلترا ، قد
ساعدت على الإباحية فى الأخلاق ، وبالمثل على توسيع الشرايين ، وكان ذلك أبهى
أثرا . وربما جاء من إيطاليا ومن فرنسا ومن الآداب القديمة ، معنى أصرح احساسا
بالجمال . ولو أن هذا المعنى جلى بشىء من الحزن نتيجة شعور أقوى بقصر عمر
الجمال . وحتى جمال الشاب النضير كان يثير الناس فى عصر اليزابث أشد إثارة .
وأجرى مارلو (فى روايته دكتور فاوست) على لسان ميفستوفيلس . امتداحه لفواست
على أنه أجمل من السموات . وتأرجحت قصائد شكسبير (Sonnet) تتألف من
١٤ بيتا) بين عشق المرء لأفراد جنسه وعشقه لأفراد الجنس الآخر . ولم يعد جمال
المرأة مجرد خيال شعرى ، ولكنه ثمل سرى فى الدم وفى الآداب وفى البلاط ،
وحول القراصنة إلى شعراء . وجمع نساء البلاط الظرف وخفة الدم إلى التجميل
والنظرية فسحرن أبواب الرجال كما أسرن قلوبهم . وكان فى التواضع لإغراء
بالاقتناص ومضاعفة لسلطان الجمال . وضاعت الاهتمامات إلى مريم العذراء وسط
استنكار العذرية والانتقاص من قدرها . وتفجر الحب الرومانتيكى فى الأغاني مع
حرارة الرغبة المتمنعة . وابتهج النساء إذ رأين الرجال يقتتلون من أجلهن ، وأسلمن
أنفسهن ، بالزواج أو بغيره ، لمن تكون له الغلبة . وكان من سمات اضمحلال
سلطان العقيدة أن موافقة الكنيسة أو مراسمتها لم تعد الآن مطلوبة لصحة الزواج ،
ولو أن الاعتراف به كان يعتبر إساءة للناموس العام ، تميزا له عن القانون .
وكانت معظم الزيجات تدبر عن طريق الوالدين . بعد إطراء متبادل لمزايا الطرفين ،
ومن ثم تصبح معبودة للساعة المشدودة ، ربة بيت متحرره من الأوهام . منصرفه
بكليتها إلى أولادها ومهامها الشاقة ، هكذا يعتمر الجنس البشرى .

وثمة انحلال خلقي أسوأ دمغت به الحياة العامة ، فقد نفثى في الوظائف الرسمية ابتزاز الأموال ، قلت أو كثرت ، وتغاضت عنه الزبائث ، كعذر لها عن عدم زيادة الرواتب (٢٥) . وكان أمين صندوق الحرب يحصل على ١٦٠٠٠ جنيه سنويا علاوة على راتبه . وبالاكتيال القديم قدم الأزل ، كانوا يحتفظون بأسماء الجنود الموتي في قوائم الجيش ويضعون مخصصاتهم في جيوبهم ويبيعون الملابس المخصصة لهم (٢٦) . وكان الجندي يساوى وهو ميت أكثر منه وهو حي ، وقبض ذوو المناصب الكبيرة مبالغ ضخمة من فيليب الثاني ليوجهوا سياسة إنجلترا نحو أهداف أسبانيا (٢٧) . ومارس أمراء البحر القرصنة وباعوا الرقيق . وباع رجال الدين رواتب الكنيسة (٢٨) ، وكان يمكن إغراء الصيادلة بتسميم الأدوية والأطباء بوصفها للناس . وغش التجار في البضائع ، ووصل الأمر إلى فضيحة عالمية ، ففي ١٥٨٥ حدث من الغش في الأقمشة الصوفية وغيرها في إنجلترا أكثر مما حدث منه في أوروبا بأسرها (٢٩) ، وكانت الأخلاق العسكرية بدائية ساذجة . وكم من مرة حدث الاستسلام بلا قيد ولا شرط ، فكان جزاؤه أعمال الذبح في الجنود وفي غير المحاربين على حد سواء . وكان السحرة والعرافون يجرقون . كما كان الجزويت يوثخون من فوق المشنقة ليقطعوا أربابا (٣٠) . لقد جرت نتائج الرحمة الإنسانية مستأنية في عهد الملكة الفاضلة إليزابيث .

٤ - العدالة والقانون

مازالت طبيعة الإنسان تنفر من المدنية ، على رغم القرون العديدة التي سادت فيها الديانات وقامت الحكومات . وظلت تعبر عن الاستياء والاعتراض في سلسلة طويلة من الخطايا والجرائم . لم تغلح القوانين والأساطير والعقوبات في وقف سيلها . وكان في قلب مدينة لندن أربع مدارس للقانون هي The Inner Temple, The Middle Temple, Gray's Inn, Lincoln's Inn، تعرف في مجملها باسم دور القضاء وأقام الطلبة فيها كما كانوا يقيمون في قاعات كليسات أكسفورد وكبريدج . ولم يسمح بالالتحاق بها إلا لذوي المعتقد الكريم ، وكان كل المتخرجين فيها يقسمون اليمين على خدمة التاج . وكان البارزون منهم أو الذين يسهل قيادهم يصبحون قضاة في

محاكم الملكة . وارتدى القضاة والمحامون في أثناء تأدية عملهم أردية تدل على الهيبة والوقار ، وكان عظمة القانون وجلاله يكمنان في خياطة الثياب .

وكانت المحاكم ، بالاجماع ، فاسدة . وعرف أحد أعضاء البرلمان قاضى الصلح بأنه : « حيوان يمكنه أن يستغنى بست دجاجات عن اثنا عشر قانونا » (٢٢) . وطلب فرنسيس بيكون مغريات أكبر . وفي رواية شكسبير قال الملك لير الذى روعه الحزن : « اكسوا الخطيئة بالذهب ، يتكسر سيف العدالة القاطع دون أن يؤذى أحدا » (٢٣) ، ولما كان القضاة يعزلون وفق مشيئة الملكة فانهم حسبوا لهذا حسابه فى أحكامهم ، وقبض ذوو الخطوة لديها الرشوة ليغروها بالتدخل فى قرارات المحاكم (٢٤) ، وظل نظام المحلفين معمولاً به ، إلا فى تهمة الخيانة العظمى ، ولكن غالبا ما كان القضاة أو موظفو التاج يخوفون المحلفين ويكرهونهم على قضاء مآربهم بالتهديد (٢٥) . وكان هناك توسع فى تعريف تهمة الخيانة العظمى لتشمل كل عمل يهدد حياة صاحب العرش أو جلاله . وكان نظر مثل هذه القضايا أمام محكمة قاعة النجم (The Star Chamber) - وهو مجلس شورى الملكة منعقدا على هيئة محكمة ليمارس سلطاته القضائية ، وهناك كان المتهم محروما من تحقيق المحلفين لقضيته أو المعارضة فى أمر حبسه ، أو من محام للدفاع عنه ، بل كان عرضة للاستجواب المرهق أو التعذيب ، وكان يحكم عليه عادة بالسجن أو الإعدام .

وقام قانون العقوبات على العوائق أكثر منه على المراقبة والكشف عن الحقيقة . ولما كانت القوانين ضعيفة فقد باتت العقوبات صارمة . وكان الإعدام هو العقوبة القانونية لأية واحدة من مائتى جريمة . منها الابتزاز بالتهديد ، وقطع الأشجار الصغيرة ، وسرقة أكثر من شلن واحد . وبلغ متوسط من شنقوا بسبب الجريمة ، سنويا ، فى إنجلترا المتهجة ، فى عهد اليزابث ، ٨٠٠ شخص (٢٦) . أما الجرائم الصغرى فكان عقابها التعذيب بالمشهرة والخلعة والجلد بالسياط ، وإحراق ثقب فى الأذن أو اللسان ، وقطع اللسان أو إحدى الأذنين أو اليدين (٢٧) . ولما كتب جون ستيبز ، وهو محام بيوريتانى ، نشرة يستنكر فيها اقتراح زواج اليزابث من ألسون ،

باعتبار هذا الزواج خضوعا أو استسلاما للكاثوليكية ، قطعت يده اليمنى بأمر القاضى ، ورفع جون الخدعة الدامية ، ورفع بيده اليسرى قبعته ، ثم هتف « لتحي الملكة (٢٨) » وقدم فيليب سدى إلى الملكة احتجاجا على هذه الوحشية . واستشعر سيسل العار والحجل فعينه فى منصب حكومى ذى راتب كبير وجهد يسير . وكان التعذيب غير مشروع ، ولكن محكمة قاعة النجم استخدمته ، وإنما للنلاحظ أنه برغم أن آداب العصر كانت عميقة قوية ، فإن المستوى العام للمدنية العصر لم يبلغ مستوى المدنية فى إيطاليا أو أفنيون فى عهد بترارك ، وأقل كثيرا منه فى رومه على عهد أغسطس .

٥ - فى البيت

بدأت الحياة الإنجليزية بمحاولة التغلب على مشكلة وفيات الأطفال ، وكانت نسبتها عالية ، وكان سير توماس براون من أعلام الطب ، ومع ذلك مات ستة من أولاده العشرة فى سن الطفولة (٢٩) . ثم كانت الأوبئة ، مثل « مرض العرق » ١٥٥٠ ، والطاعون الذى حل بالبلاد ١٥٦٣ ، ١٥٩٢ - ١٥٩٤ ، ١٦٠٣ . ولا بد أن متوسط الأعمار كان منخفضا ، قدرته بعض الإحصاءات بثمان سنوات ونصف سنة (٤٠) . وكبر الناس وأدركهم الهرم بأسرع مما هو حادث الآن . أما الذين عمروا فهم الشجعان ذوو القدرة على الاحتمال الذين صلبت أعوادهم وقويت أعصابهم بمقارعة الموت ، من أجل الخدع الحربية والأسلاب .

وكانت الرعاية الصحية آخذة فى التحسن . وبدأ الصابون يكون ضروريا بعد أن كان ترفا . وحوالى ١٥٩٦ ابتدع سیرجون هارنجتون مرحاضا فيه ماء جار . وكانت الحمامات الخاصة قليلة . واستخدمت معظم الأسرات حوضا خشبيا موضوعا أمام نار مكشوفة . وكان فى كثير من المدن حمامات عامة . وهى **Bath and Buxton** للطبقة العليا منشآت أنيقة للاستحمام . وقدمت « الدفيئات » (**Hot Houses**) حمام البخار ، وقدمت التسهيلات للأكلات واللقاءات الغرامية غير المشروعة ، وزودت بيوت الموسرين دون غيرهم بموارد مياه خاصة بهم فى منازلهم ، أما معظم الأسرات فكانت تلتمس الماء من قنوات عامة مفتوحة على ينابيع مزخرفة .

وبنيت البيوت في القرى والمدن من الآجر والجص ، تحت سقوف من الفس ، ولا يزال كوخ آن هاثاواى بالقرب من ستراتفورد — أون — أفون ، محتفظا به في حالة جيدة ، كنموذج لهذه المساكن . أما في المدن الكبرى فكانت البيوت متلاصقة عادة ، واستخدم في بنائها قدر أكبر من الآجر والحجر ، وكان لها سقوف من القرميد ، وكانت المشربيات المقسمة بأعمدة من الحجر والأدوار العليا الناتئة تلفت أنظار الذين لم يألفوا رؤيتها . وكانت البيوت من الداخل مزدانة بالنقوش والأعمدة . وكانت المدفأة تضيء على الغرفة الرئيسية أو القاعة الكبرى جلالا وتزودها بالدفء ، كما كان السقف — من الخشب أو الجص — يقسم إلى رسوم متماثلة أو غريبة . وكانت هناك المداخل التي تنفث الدخان إلى الخارج ، وكان من قبل يلتمس له منفذ من ثقب في السقف . وكانت المواقد تساعد على تدفئة البيت . وكانت النوافذ الزجاجية شائعة آنذاك . ولكن ظلت الإضاءة في الليل بالمشاعل أو الشموع . وغطيت أرضية البيوت بالأسل والأعشاب ذات الرائحة الزكية عندما تكون طازجة ، ولكنها لا تلبث أن تصبح كريهة الرائحة ، وتووى الحشرات . وجاء السجاد بعد ذلك بخمسة وأربعين عاما . وكانت الجدران تزدان بالأقمشة المزركشة بالصور والرسوم ، مما مهد الطريق لرسم اللوحات ، في عهد شارل الأول . واستخدم معظم الناس المقاعد الطويلة لخصيين أو أكثر والكراسي ذوات الأرجل الثلاث ، أما الكرسي ذو الظهر فكان ترفا اختص به الضيف الكريم أو رب البيت أو ربه ، ومن هنا جاء التعبير « يأخذ الكرسي ذا الظهر » بمعنى « يتراأس المجلس » ، وفيما عدا هذا كان الأثاث متينا راعا . فكانت ، صواوين المائدة (البوفيه) والمنضدة وخزائن النفائس (دولاب الفضية) والصناديق الثمينة والأسرة ذوات القوائم العالية تصنع وتحفر من خشب الحوز أو البلوط ، لتعمر قرونا طويلة . وكان السرير المزود بحشاي سميك من الريش ، وبأغطية مطرزة ، وظلة حريرية (ناموسية) ، يتكلف ألفا من الجنيهات ، ويعتبر شيئا ثمينا يزهو به أهل البيت ويتوارثونه جيلا بعد جيل . وخلف البيت أو حوله ، في كل الطبقات تقريبا ، كانت توجد حديقة زاخرة بالأشجار والشجيرات ، تهيء لم الطفل ، وتمدهم بالأزهار التي اعتاد النساء أن

يستعملنها في تزئين بيوتهن وشعورهن ، واعتاد شكسبير أن يعطر بهما شعره — زهرة الربيع ، الزنبق ، صريمة الجدى (شجيرة أزهارها غنية بالرحيق) وزهر العايق الحميل ، والقرنفل الملتحي ، والادريون (القطيفة) ، وزهرة كيوييد وزنبقة الوادى ، وغيرها كثير ، بالإضافة إلى الورود البيضاء أو الحمراء ويقول سيكون : « ان الله سبحانه وتعالى غرس حديقة ، لولاها لكانت الأبنية والقصور التى شيدها الإنسان فظة غير مقبولة (٤١) » .

وغالبا ما تسكلفت زينة المرء أكثر كثيرا من زخرفة بيته ولم يبرز أى عصر من العصور عصر اليزابث فى فخامة الثياب . وكان من بين نصائح بولونيوس قوله : « إن ثمن الثياب مرهون بما تستطيع أن تدفع » . وعند الطبقات الموسرة اجتمعت كل الأزياء من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، لتعوض الإنسان عما سلبته إياه الشهوة والزمن . وسخرت بورشيا من الشاب فالكينبرج قائلة : « أظنه اشترى صدره من إيطاليا وسرواله القصير من فرنسا ، وقلنسوته من ألمانيا وسلوكه من كل مكان (٤٢) » . وضربت اليزابث مثلا ونموذجا للتزين ، إلى درجة أنه فى عصرها تغيرت الأزياء مرارا وتكرارا ، لأن محاكاة الناس لها بشكل عام ، كادت تمحو الفروق الطباقية . وتبدى شخصية من شخصيات « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا Much ado about Nothing » « الحزن والأسف على أن » تغير الأزياء يفنى من الثياب أكثر مما يفنيه الإنسان (٤٣) . وحلوت قوانين الانفاق أن تضع حدا لهذا الاضطراب والفوضى فى حياة الملابس ، فصدر قانون ١٥٧٤ ليعالج « التبذير والضياع عند عدد كبير من الشبان » الذين يلبسون ما يملكون من أرض فوق ظهورهم . وحرّم هذا القانون على غير الأسرة المالكة ، والدوق والمركيز والارل ، لبس اللون الأرجوانى ، أو الحرير أو القماش الموشى بالذهب ، أو فراء السمور ، كما حرّم على غير البارونات وذويهم لبس الفراء والمحمل القرمزى . أو الأصواف المستوردة ، والملابس المطرزة بالذهب أو الفضة أو اللؤلؤ (٤٤) ، ولكن سرعان ما أمكن التهرب من هذه القوانين ، لأن البرجوازية الطامعة استنكرتها لأنها مثيرة للاستياء والغضب فحسب ، بل لأنها كذلك تعوق التجارة . فألغيت فى ١٦٠٤ .

واتخذت القبعات على أى شكل ومن أى لون ، من القطيفة أو الصوف أو الحرير أو الشعر الناعم الرقيق ، ووضع الناس قبعاتهم على رؤوسهم دائماً تقريباً ، خارج البيت أو البلاط ، وحتى في الكنيسة كان الرجال يرفعون قبعاتهم — تمسكاً بالمراسم — عند الالتقاء بالسيدات . ولكنهم يلبسونها فوراً . واحتفظ الرجال بشعورهم الطويلة قدر ما احتفظت النساء بها . وأرخوا الحى غزيرة . ووضع الجنسان كلاهما حول الرقبة طوقاً مكشكشا وياقة من الكتان و « الكمبريكى Cambric » (قماش من القطن أو الكتان أبيض ناعم) موضوعة على اطار من الورق المقوى والأسلاك ، تبيست في ثنيات أو طيات عريضة حادة ، « بمادة سائلة سموها النشا (٤٥) » ظهرت في إنجلترا آنذاك لأول مرة . وكانت كثيرين دى مديتشى أدخلت هذه البدعة إلى فرنسا ١٥٣٣ بوصفها شيئاً للترزين والزخرف . ولكن الزى السائد (موضوعة العصر) توسع فيها حتى جعل منها آلة تعذيب تصل إلى الأذنين .

وجعلت الملابس من النساء لغزاً لا يمكن النفاذ إلى كنهه إلى حين . ولا بد أن نصف يومهم كان يستغرق في اللبس والخلع . ويتم تجهيز السفينة وتزويدها بكل ما يلزمها بأسرع مما تزين المرأة (٤٦) . حتى الشعر كان يمكن أن يلبس أو يخلع . لأن اليزابث رسمت لهم نموذجاً في لبس الامة أو الشعر المستعار المصبوغ بلون خصلاتها الذهبية أيام شبابه . وكان الشعر المستعار شائعاً لأن النساء الفقيرات — كما قال شكسبير — كن يبعن خصلات شعرهن « بالميزان (٤٧) » . وبدلاً من القبعات آثر معظم النساء قلنسوة بالغة الصغر أو شبكة شفافة تسمح بإبراز فتنة شعرهن . وكانت أدوات التجميل تصبغ الوجوه وتزجج الحواجب ، والأقراط تتدلى من الآذان ، والمجوهرات تتألق في كل مكان . وكان الطوق المكشكش للنساء . مثل ما هو للرجال ، ولكن كان صدر المرأة في بعض الأحيان عارياً إلى حد ما (٤٨) . ولما كانت اليزابث ضامرة الصدر مستطيلة البطن ، فقد ابتدعت زياً تطول فيه السترة على شكل مثلث إلى رأس دقيق تحت الحصر المشدود . وكانت الثنورة تمتد من الأوراك بواسطة الطوق الموسع . وكانت العباءة المصنوعة من قماش هفهاف بشكل محكم ، تغطي الأرجل ، وابتدعت الملكة الحوارب الحريرية . وكانت الثنورات تتدلى

حتى تمس الأرض ، والأكام مستفخة ، والقفاذات مطرزة معطرة . وكانت السيدة تستطيع في الصيف أن تتحدث بالمروحة المزدانة بالجواهر ، ومن ثم تأتي بأفكار فيها من الرقة مالا تعبر عنه الكلمات .

ولكن الحياة في البيت نادرا ما كانت بملايس كاملة . وكان تناول الإفطار في الساعة السابعة والغذاء في الحادية عشرة أو الثانية عشرة . والعشاء في الخامسة أو السادسة . وهكذا ينقضى النهار . وكانت الوجبة الرئيسية يتناولونها قرب الظهر^٢ ، وكانت وجبة زاخرة بألوان الطعام . وقال أحد الفرنسيين « إن الإنجليز يملأون بطونهم^(١) » . وظلت الأصابع تقوم مقام الشوكة التي بدأ استعمالها في عهد جيمس الأول . وكانت الأطباق الفضية تزين البيوت الموسرة . وكان اختزانها بالفعل وقاء ضد التضخم . أما الطبقات الوسطى الدنيا فانها استخدمت أواني من القصدير (البيوتر) . واستخدم الفقراء أطباقا من الخشب وملاعق من مادة قرنية (من القرون) . وكان اللحم والسمك والخبز هي الأطعمة الرئيسية ، وكان كل من يداوم عليها تقريبا يعاني من داء النقرس . وكانت منتجات الألبان شائعة مألوفا في الريف لأن وسائل التبريد كانت لا تزال غير متوفرة في المدن . وكان الفقراء فقط يستخدمون الحضروات بكثرة لأنهم كانوا يزرعونها في أراضي حدائقهم . وكان البطاطس الذي جاء به والتر رالي أثناء رحلاته في أمريكا ، من إنتاج الحدائق ؛ لأنه لم يكن قد أصبح من محاصيل الحقول . واشتهر الإنجليز « بالبودنج » (نوع من الخلوى) يستطيعون أكله فوق الفاكهة التي يخبثون بها طعامهم . وكان الإنجليز يقبلون على الخلوى ، قدر اقبالهم عليها اليوم . ولهذا كانت أسنان اليزابث سوداء .

وتطلبت هذه الأكلات الشهية بعض السوائل المزلفة : البيرة ، النبيذ أو عصير الفاكهة . ولم يكن الشاي والقهوة قد أصبحتا مشروبات إنجليزية . وشاع شرب الويسكي في أنحاء أوروبا في القرنين السادس عشر والسابع عشر (وكان يسمى ماء الحياة) . وكان تقطيره من الحبوب في الشمال ، ومن النبيذ في الجنوب . وكان شرب الخمر بمثابة احتجاج على المناخ الرطب . وتوحي عبارة « ثمل كأنه لورد » بأن هذا العلاج كان يتدشئ مع السلم الاجتماعي . وأدخل التبغ إلى إنجلترا على يد

جون هوكنز (١٥٦٤) ودريك ، وسير رالف لين ، وجعل رالى من التدخين عادة مألوفة فى البلاط ، وأخذ منه نفثة أو نفثتين قبل ذهابه إلى المشقة ، وكان التبغ فى أيام اليزابث غالى الثمن إلى درجة حالت دون انتشار التدخين ، وفى بعض التجمعات التى تسودها الألفة والبهجة ، كانوا يعمدون إلى تمرير غليون واحد على كل الضيوف حتى يستمتع كل منهم بنصيبه من التدخين وفى ١٦٠٤ شن الملك جيمس « هجوما عنيفا على التبغ » ، ناعيا ادخاله إلى إنجلترا محذرا من « سم معين » فيه . يقول : —

ليس من أشد الحقم والقذارة أنه على المائدة ، وهى محل الاحترام والنظافة والتواضع ، لا ينجل الناس من أن يتقاذفوا الغلايين وينفثوا الدخان ، الواحد منهم فى وجه الآخر . فينبعث الدخان القذر والرائحة الكريهة على الأطباق . ويلوث الهواء ؟ .

لقد انتشر استعماله فى كل زمان وفى كل مكان بين الناس على اختلافهم . . . لأنهم : على الأقل ، اضطروا إلى تناوله ، على كره منهم : خجلا من أن يرموا بالشذوذ . . . وفوق ذلك ، وهذا اثم كبير ، فإن الزوج لا ينجل من أن يكره زوجته الرقيقة الصحيحة الجسم النظيفة البشرة على هذا الخطر العظيم — التدخين — فتفسد بذلك أنفاسها الزكية ، أو توطن النفس على أن تظل دوما فى عذاب المل . . . إنها عادة ضارة بالعينين ، كريهة للأنف ، مؤذية للمخ ، خطيرة على الرئتين . إن هذا الدخان الأسود الكريه أقرب الشبه بنار جهنم التى لا قرار لها (٥٠) .“

وبرغم هذا ، وبرغم الضرائب الباهظة ، كان فى لندن سبعة آلاف خانوت لبيع التبغ . ولم يحل اشعال الغليون ونفث الدخان محل الحديث والمناقشة ، فقد تحدث أفراد الجنسین بصراحة فى موضوعات يقتصر فيها الحديث الآن على قاعات التدخين وماتقى الشوارع ، أو على رجال العلم . وتنافس النساء مع الرجال فى حلف الأيمان التى تقارب الكفر والتجديف على الله . وفى الدراما فى عهد اليزابث يلتصق العهراة بالأبطال . وترقش التورية « المأساة » العنيفة . وكانت آداب السلوك

متكلفة أكثر منها مهذبة . وغالبا ما تدرجت الكلمات إلى لطحات . وجاءت آداب كما جاءت الأخلاق ، من إيطاليا وفرنسا ، كما جاءت الكتيبات التي عالجت قواعد السلوك واللباقة ، وحاولت أن تجعل من الأرستقراطيين سادة أفاضل ، ومن الملكات سيدات فضليات . وكانت أساليب التحية مسرفة في التعبير ، واقتربت بالتقبيل غالبا . وكانت البيوت بما فيها من الأضيواء وحفلات الاتباح الصاخبة ، أكثر مرحا عن ذى قبل ، أيام الارهاب في العصور الوسطى ، وفيما بعد أيام البيوريتانية وما سادها من كآبة . وكانت الأعياد والمهرجانات كثيرة ، فأى شيء يمكن أن يبرر إقامة احتفال أو عرض ، فالزفاف ، أو الولادة ، بل حتى الجنازة ، قد تهين مناسبة للاحتفال ، أو على الأقل للولائم . ومارسوا الألعاب على اختلاف أنواعها في البيوت والملاعب ، وعلى نهر التاميز . وقد ذكر شكسبير « البلياردو » ، وتحدث فلوريو عن « الكركت » وسخر الناس من القوانين الزرقاء وأيام الأحد الزرقاء (قوانين متشددة سنّها البيوريتانز بحرمون بها الرقص والألعاب والمهرجانات يوم الأحد . . .) وإذا كانت الملكة قد خطت الخطوة الحميدة السارة : فلم لا يترسم الناس خطاها ويحذون حذوها ؟ لقد رقص كل الناس تقريبا : بما فيهم كما قال بيرتون « عجائز النساء والرجال الذين كان لهم من أصابع القدمين أكثر مما في الأفواه من أسنان » . وكان كل الإنجليز يغنون .

٦ — الموسيقى الإنجليزية ١٥٥٨ — ١٦٤٩

إن الذين لا يعرفون من إنجلترا إلا الفترة التي أعقبت البيوريتانية ، لا يمكنهم أن يحسوا بالدور البهيج الذي لعبته الموسيقى أيام اليزابث . فمن البيت والمدرسة والكنيسة والشارع والمسرح ونهر التاميز ارتفعت ألحان الموسيقى المقدسة أو الماجنة — القداسات ، الموسيقى الطباقية المتعددة النغمات ، القصائد الغزلية ، الأغاني الشعبية ، وأغاني الحب الرقيقة القصيرة . مثل تلك التي وجدت لها مجالا في روايات عهد اليزابث . وكانت الموسيقى برنامجا أساسيا في مناهج التعليم ، وخصص لها في مدرسة وستمنستر ساعتان في الأسبوع ، وكان في أكسفورد كرسى للموسيقى (١٦٢٧) وكان مفروضا أن يقرأ كل رجل مهذب الموسيقى ويعزف على كل بعض الآلات .

وفى كتاب توماس مورلى : « مقدمة واضحة ميسرة عن الموسيقى العملية » جاء ذكر رجل لإنجليزى خيالى ساذج غير مثقف ، يعترف بنجمله وعاره ، فيقول :

« بعد العشاء جىء بكتب الموسيقى ، كما كانت العادة ، وقدمت إلى سسيده البيت شيئا منها ، وطلبت فى رفق أن أغنى ، فاعتذرت كثيرا ، وامتنعت ، وقلت وأنا صادق فيما أقول ، انى لا أعرف ، فتعجب كل الحاضرين ، وتهامسوا متسائلين : كيف نشأ هذا الرجل ؟ » (١٠١)

وكانت حوانيت الحلاقين تقدم للزبائن المنتظرين آلات موسيقية ليغزفوا عليها . وكانت الموسيقى فى عهد اليزابث ، فى معظمها ، علمانية ، وبقي بعض الملحنين ، من أمثال طاليس وبيرد وبل ، على مذهبهم الكاثوليكيى برغم القوانين ، وألفوا الموسيقى للطقوس الرومانية . ولو أن تلك التأليف لم تكن تعزف علنا . واعترض كثير من البيوريتانيين على موسيقى الكنيسة باعتبار أنها تشتت أذهان المصلين وتصرفهم عن التقوى . وأنقذت اليزابث والأساقفة موسيقى الكنيسة فى إنجلترا ، كما أنقذها بالسترينا ومجلس ترنت فى إيطاليا . وساندت الملكة بعزيمتها المعهودة رؤساء المنشدين الذين نظموا الفرق الموسيقية الكبيرة والموسيقى الرسمية للكنيسة الملكية والكاتدرائيات . وأصبح كتاب الصلوات العامة ، مرجع النصوص الموسيقية الهائل للملحنين الإنجليز ، وكانت الصلوات الأنجليكانية تنافس الصلوات الكاثوليكية فى القارة فى فخامة فن تعدد الألحان ووقاره . وحتى البيوريتانيون أنفسهم ، منهجين نهج كلفن ، أقرروا انشاد جماعات المصلين للترانيم . وسخرت اليزابث منهم قائلة : « ان جنيف ترقص ، أما هؤلاء فقد ارتقوا إلى مستوى التراتيل والتسابيح الكريمة » .

ولما كانت الملكة تحمل بين جنبها روحا دنيوية دنسة ، مولعة بالغزل والملق والملاطفة والتودد ، فقد كان من المعقول أن تكون القصيدة الغزلية هى مفخرة الموسيقى فى عهدها — أغنية حب فى طباق موسيقى — وهى جزء من أغنية لاتصاحبها الآلات الموسيقية . ووصلت القصيدة الغزلية من إيطاليا ١٥٥٣ . ففتحت الطريق .

وحاول مورلى أن يسهم فى هذا المجال ، وشرحها فى حوارهِ السهل الرشيق ، ودعا إلى تقليدها ، وثمة قصيدة غزلية لخمسة مغنين ، وضعها جون دلباى ، توحى بالأفكار الرئيسية فى هذه الأغانى .

واحسرتاه . أية حياة تعسة ، وأى موت هذا ،
حيث المحبوب الظلوم يسيطر ويتحكم !
ان نضارة أيامى تذبل وأنا فى ربيع العمر ،
وتلاشت أحلامى الجميلة تماما ، وحياتى تنصرم .
وتولت أفراحي الواحد بعد الآخر
وتركت أعانى سكرات الموت
من أجل تلك التى تحتقر آهاتى وأناثى .

آه ، انها انتهجرتنى ، وتكبت حى
وهى التى من أجلها ، واحسرتاه ، أموت شاكيا ، وهى متحجرة القلب^(٥٢).
وكان وليم بيرد شكسبير الموسيقى فى عهد اليزابث ، اشتهر بالقداسات والقصاصد الغزلية المفلوطة أو المعزوفة على الآلات ، والألحان على حد سواء . وكرمه معاصروه على أنه « رجل عظيم جدير بالذكر » . وقال عنه مورلى « انه حظى من الاجلال والاحترام ما يستحق معه أن يخلد اسمه بين الموسيقيين^(٥٣) » وكان فى مثل مكانته العالية وتعدد براعاته وجوانبه أورلندوجيون وجون بل Bull ، وهما عازفان على الأرغن فى الكنيسة الملكية . واشترك هذان مع بيرد ١٦١١ فى وضع أول كتاب عن لوحة المفاتيح للموسيقى فى إنجلترا ، وهو كتاب Parthenia ، أو باكورة أول موسيقى طبعت فى إنجلترا للعدراوية « (وهى آلة موسيقية شبيهة ببيان صغير بدون قوائم .) وفى نفس الوقت أكد الإنجليز شهرتهم فى تلحين الأغنية المنفردة (مع آلة واحدة أو مغن واحد) ، ذات العذوبة الجميلة المعبقة بعبير اللريف الإنجليزى ، وحظى جون دولند الذى اشتهر بالعزف على العود ، بالمُدح والثناء من أجل أغانيه ، ونافسه توماس كامبيون منافسة شديدة . ومن ذا الذى لا يعرف مقطوعة كامبيون : « الكرز الناضج — Cherry Ripe ؟ »^(٥٤) .

وكان الموسيقيون ينتظمهم اتحاد قوى : انفصمت عراه بسبب الصراع الداخلى أيام شارل الأول (١٥٥٠) ، وكادت الآلات تتنوع ، كما هي اليوم : العود ، القيثارة ، الأرغن ، العذراوية ، أو البيان الصغير ، موترة المفاتيح (آلة موسيقية وترية مزودة بلوحة مفاتيح) أو البيان القيثارى . الفلوت (آلة نفخ موسيقية) ، الصافرة ، المزمار ، البوق ، المترددة ، النفير . الطبول ، وأشكال كثيرة من الفيول ، حل محلها الكمان الحالى . وكان العود مفضلا فى العزف . وفى مصاحبة الغناء ، أما العذراوية : وهى الأم المتواضعة للبيان ، فكانت محبوبة شائعة لدى السيدات الصغيرات ، وعلى الأقل قبل الزواج ، وألفت الموسيقى الآلية أساسا للعذراوية والفيول والعود . ولحن نوع من الموسيقى الحجرية (موسيقى الحجر : يعزفها بضعة موسيقيين أمام نفر قليل من الناس .) للعزف على عدة فيولات تختلف فى الحجم والطبقة . وفى مسرحية تنكرية للملكة آن زوجة جيمس الأول ، استخدم كامبيون فرقة من عازفى العود وموترة المفاتيح والبوق مع تسعة فيولات . (١٦٠٥) وقد انحدر إلينا كثير من الموسيقى الآلية التى وضعها بيرد ومورلى ودولند وغيرهم . وهى مؤسسة إلى حد بعيد على أشكال الرقص ، كما تتبع النماذج الإيطالية ، وتتفوق فى الجمال الرقيق المرهف أكثر منها فى القوة والطبقة . وتطورت الفوجة وفن مزج الألحان ، ولكن دون تنوع فى الأفكار الرئيسية أو الموضوع ، أو براعة فى تغيير طبقة الصوت والانتقال من نغمة إلى أخرى ، أو نشاز مقصود أو تناغم لوفى . ومع ذلك فإننا عندما ترهق أعصابنا بمشاق حياتنا الحديثة ، نجد فى موسيقى عصر اليزابث ما يخفف عنا ويريح أعصابنا ، فليس فيها كلام طنان منمق ، ولا تنافر مزعج ، ولا خواتيم راعدة ، انك لا تسمع فيها إلا صوت شاب إنجليزى أو شابة إنجليزية تغنى فى حزن أو ابتهاج ، انشودة الحب السرمدى الذى تعترض العوائق سبيله .

٧ — الفن الإنجليزى ١٥٥٨ — ١٦٤٩

لم يكن للفن فى هذا العصر شأن يذكر . وأنتج بعض صناعات المعادن بعض

المشغولات الفضية الجميلة ، مثل مملحة موشين للمائدة ، والنوافذ المصبغة الفاخرة مثل الموجودة في كنيسة سان جورج في وندسور . ودخلت صناعة زجاج الزينة الفينيسي حوالى ١٥٦٠ . وفاقت قيمة الأواني المصنوعة من هذا الزجاج قيمة مثيلاتها من الذهب أو الفضة . ولم يكن النحت وصناعة الخرف مشهورتين . وافتتح نيقولا هليارد مدرسة لرسم المنمنمات ، ومنحته اليزابث احتكار اخراج رسوم لها بهذا الأسلوب . أما رسامو الأشخاص فقد استقدموا من الخارج . فجاء فلدريجوزوتشارو من إيطاليا ، وماركوس جيرار وابنه الذى يحمل نفس الاسم من الأراضى الوطيفة . وخلف لنا الابن صورة مهيبة لوليم سيسل في ثياب متأقفة فضفاضة فخمة ، وهى التى يرتديها الفرسان الذين يحملون وسام ربطة الساق (٥٦) . وفيما عدا هذا لا توجد فى إنجلترا لوحات أو رسوم عظيمة فيما بين هولبين ، وفانديك :

ولكن العمارة كانت فنا عظيما فى إنجلترا فى عهد اليزابث وجيمس . وتكاد تكون علمانية تماما . وبينما كانت أوروبا تناضل من أجل المذاهب الدينية ، أهمل الفن الدين كما أهمله السلوك . وفى القرون الوسطى ، حين تأصلت جذور أعمق للشعر والفن فى السماء ، توفرت العمارة على بناء الكنائس ، وجعلت من الدور شكلا من أشكال سجون الحياة . وفى إنجلترا على عهد أسرة التيودور ، هجر الدين الحياة إلى السياسة ، وذهبت أموال الكنيسة إلى أيدى دنيوية ، وتحولت إلى صروح مدنية وقصور باذخة ، وتبعاً لذلك تغير الطراز . وفى ١٥٦٣ عاد جون شوت Shute من إيطاليا وفرنسا مسرعا مع (أفكار) فتروفينوس وبالاديو ، وسرليو . ونشر على الفور « الأسس الأولى والهامة للعمارة » يمجّد الطرز الكلاسيكية القديمة . ومن ثم انتقل إلى إنجلترا احتقار إيطاليا للفن القوطى ، وكافحت الأعمدة الرأسية القوطية لتجد لها متنفسا وسط أفقيّات النهضة التى تطوقها .

إن هذا العصر يستطيع أن يفاخر ببعض المنجزات الجميلة فى العمارة المدنية : بوابة الشرف فى كلية كايوس ، والساحة الرباعية الزوايا بكلية كلار ، فى كمبردج ، ومكتبة بودليان فى أكسفورد ، وسوق الأوراق المالية فى لندن ، واحدى دور القضاء المسماة Middle Temple . ولما كان المحامون منذ أيام ولزى : قد حلوا

محل الأساقفة في إدارة البلاد في إنجلترا ، فقد كان من اللائق أن تكون تحفة النهضة المعمارية في عهد اليزابث هي القاعة الكبرى في مدرسة الحقوق التي كملت في الدار سابقة الذكر ١٥٧٢ . ولم يكن في إنجلترا كلها أشغال خشب أجمل من الحاجز المصنوع من خشب البلوط في الطرف الداخلي لهذه القاعة . وقد دمرته القنابل في الحرب العالمية الثانية .

وحالما تهيأت الأسباب لأقطاب عصر اليزابث ، شادوا قصورا نافسوا بها قصور الاقطاع الفرنسي على نهر اللوار . فشاد سيرجون ثين Thynne قصر لوندجيت ، واليزابث كونتيسة شروزبرى قاعة Hardwick ، وبني تومارس ارل سفوك Suffolk قصر Audley End الذي بلغت تكاليفه ١٩٠ ألف جنيه « حصل عليها أساسا من الرشا الأسبانية (٥٧) » . وشيد سير ادوارد فيلبس قصر مونتاكوت على طراز عصر النهضة البسيط غير المبالغ في زخرفته ، كما بنى سير فرانسيس Willoughby قاعة Wollaton . كما أنفق وليم سيسل بعض ما جمع من مال في ابتناء قصر ضخم بالقرب من ستامفورد ، وأنفق ابنه روبرت ما يقارب هذا القدر على تشييد قصر هاتفيلد . الذي يعتبر بهوه الطويل القائم على أعمدة ، أضخم الأجزاء الداخلية في العمارة في ذاك العصر . ومثل هذه الأبهة الطويلة المقامة على أعمدة عالية ، حلت في قصور عهد اليزابث محل القاعة الخشبية العظيمة في قصر مالك الأرض . ان المداخلن الكبيرة والأثاث الضخم المصنوع من خشب الحوز أو خشب البلوط ، والمدرج الفخم والدرازين المنقوش ، والسقوف الخشبية — نقول إن هذه كلها ، هيأت لغرف هذه القصور من الدفء والعظمة ما كان ينقص الغرف الأكثر تألقا في القصور الفرنسية ، ومبلغ علمنا أن مصممي هذه القصور كانوا أول من حصلوا على لقب مهندس معماري . ان اللوحة المنقوشة على ضريح روبرت سميثسون Smythshon . الذي أنشأ قاعة وللاتون ، تسميه « البناء البارع » . أما الآن ، وأخيرا ، فقد وجدت المهنة العظيمة اسمها الحديث (الهندسة المعمارية) .

كذلك أصبح الفن الإنجليزي في تلك الأيام فنا شخصيا ، حيث طبع الرجل عمله بطابع شخصيته وإرادته . ولد انيجو جونز في سميثفيلد ١٥٧٣ ، وأظهر في شبابه

ميلاد إلى التصميم حدا بأحد النبلاء (ارل) أن يبعث به إلى إيطاليا (١٦٠٠) ليدر من عمارة عصر النهضة . ولما عاد إلى إنجلترا ١٦٠٥ أعد مناظر كثير من المسرحيات التنكرية للملك جيمس الأول وزوجته الدنمركية ، وزار إيطاليا ثانية (١٦١٢ — ١٦١٤) وعاد متحمسا للقواعد المعمارية القديمة التي سبقت له دراستها في ترجمتها الانجليزية للمهندس المعماري الروماني فتروفوس (القرن الأول قبل الميلاد) ، والتي وجد خير مثال لها في أبنية بللاديو ، وبيروتزي ، وسان ميشيلي ، وسانسوفينو في فينيسيا وفيشنزا . ونبذ هذا الخليط الشاذ من الأشكال الجرمانية والفلمنكية والفرنسية والإيطالية التي كانت قد سيطرت على العمارة في عصر اليزابث . واقترح طرازاً خالصاً ، يمكن فيه الاحتفاظ بالنظم الدورية والآيونية والكورنثية متفرقة أو مجمعة في تتابع ووحدة متجانستين .

وفي ١٦١٥ عهد إليه بكل الإنشاءات الملكية بوصفه مشرفاً عاماً على الأعمال . ولما احترقت قائمة الولايم في قصر هويتهول ودمرت ١٦١٩ ، عهد إلى جونز بتشييد قاعة جديدة للملك . فوضع تصميم مجموعة ضخمة من المنشآت — ١١٥٢ × ٨٧٤ قدماً في جملتها — ولو اكتمل بناؤها لحيأت لعاهل بريطانيا قصراً أوسع بكثير من اللوفر أو التويلري أو الاسكوريال أوفرساي . ولكن جيمس آثر أن يعيش يومه عن أن يبني للقرون . واقتصر الاتفاق على قاعة الولايم الجديدة ، التي لم يتوفر لها ما قصد من أبهة ، فباتت مظهرها كاذباً غير جذاب للخطوط القديمة وخطوط عصر النهضة . ولما طلب رئيس الأساقفة لود من جيمس الأول اصلاح كاتدرائية سانت بول القديمة ، ارتكب المهندس جريمة تغطية صحن الكنيسة القوطي الطراز بمظهر خارجي من طراز عصر النهضة ، ولحسن الحظ دمر الحريق الكبير الذي حدث ١٦٦٦ هذا المبنى . وحلت واجهات جونز المأخوذ تصميمها عن بللاديو . محل الطراز التيودوري . وسادت في إنجلترا حتى أواسط القرن الثامن عشر .

ولم يخدم جونز الملك شارل الأول بوصفه كبير مهندسيه فحسب ، بل انه تعلم كيف يحب هذا الرجل المنكود ، بشكل واضح ، إلى حد أنه عندما نشبت الحرب الأهلية دفن مدخراته في Lambeth marshes وهرب إلى هامبشير (١٦٤٣) .

وقبض عليه جنود كرومول هناك ، ولكنهم أبقوا على حياته مقابل ١٠٤٥ جنيه^(٥٨). وفي أثناء تغييه عن لندن وضع تصميم قصر ريفي في ولتشير من أجل ارل بمبروك ، كانت واجهته من طراز عصر النهضة البسيط ، أما الداخل فكان آية في الفخامة والأناقة ، فان القاعة « المزدوجة التكعيب » — ٦٠ × ٣٠ × ٣٠ قدما ، قيل بأنها أجمل قاعة في إنجلترا^(٥٩). ومنذ استنفدت الجيوش الملكية ثروات الأرستقراطية ، فقد جونز الرعاية والحب والألفة ، وانزوى وأفل نجمه ، ومات فقيرا ١٦٥١ . لقد غلب النعاس على الفن ، على حين أعادت الحرب تشكيل الحكومة الجديدة في إنجلترا .

٨ — الرجل في عهد اليزابث

كيف نفهم الرجل الإنجليزي على عهد اليزابث من المواطن البريطاني المزعوم أنه رزين صامت ، والذي عهدناه في شبابنا ، وهل يمتن أن يكون الخلق القوي من صنع الزمان والمكان والتغير ؟ لقد اعترضت البيوريتانية والميثودية (المنهجية — حركة اصلاح الكنيسة الانجليزية في النصف الأول من القرن الثامن عشر) بين العصرين والنمطين : قرون سادت فيها مدارس ايتون ، وهارو ، ورجبي ، وعهود الغزاة الطائشين الذين يحمدون أنفاس الناس حين يسيطرون .

لقد كان الرجل الانجليزي في عهد اليزابث سليل النهضة تماما . وفي ألمانيا قهر الاصلاح الديني النهضة ، وفي فرنسا نبذت النهضة الاصلاح الديني . وفي إنجلترا اندمجت الحركتان كلتاهما . فقد انتصر الاصلاح الديني في حكم اليزابث ، وانتصرت النهضة في شخصها هي . وكان ثمرة بعض البيوريتانيين من ذوى الحس المتبلد ، ولو لم يكونوا صامتين ، ولكنهم لم يطرقوا الباب . ولكن كان الرجل المهيمن في ذلك العصر شعلة من نشاط ، متحررا من المبادئ والتعاليم والعوائق العتيقة ، ولو لم يكن مرتبطا بشيء جديد بعد ، ولم يكن ثمرة حدود لطموحه وأطماعه ، وكان متطلعا إلى تنمية قدراته ، لا يقعه شيء عن المرح ، يتذوق الآداب إذا كانت تنبض بالحياة ، ميالا إلى العنف في العمل وفي الحديث ، ولكنه ، وسط

كلامه المنمق الطنان ورذائله وقساوته ، يجاهد ليكون سيدا مهذبا . وتأرجح مثله الأعلى بين صفات الكياسة والمجاملة واللفظ المحبسة إلى النفوس والتي ذكرها كاستليونى فى كتابه « رجل البلاط » وبين ما جاء به ماكيافلى فى كتابه « الأمير » من لا أخلاقيات لا تعرف الرحمة إليها سيلا . لقد أعجب بسدى ، ولكنه تاق إلى أن يكون مثل دريك .

وشقت الفلسفة طريقها فى شرح العقيدة الدينية المهاوية . وكانت أحسن العقول فى ذلك الزمان هى أشدها ارتباكا وحيرة . وكانت هناك نفوس محافظة سليمة العقيدة ، ونفوس ودیعة مجبولة على الجبن ، وفى وسط هذا التدفق الذى لا يتوقف كان ثمة رجال أفاضل مثل روجر أسكام . ولكن تلاميذهم كانوا فى بلعة المغامرة ؛ وإليك ما يقوله جبرائيل هارفى عن كبردج :

تعلموا الإنجيل ، ولم يعوه أو يحفظوه ، والمبدأ المسيحى فاتر ضعيف ، وليس ثمة شىء حسن إلا بنسبته إلى شخص ما . وباختصار ألغى قانون الطقوس الرسمى ، وأبطل قانون القضاء تماما من الوجهة العملية ، وتخلّى الناس عن القانونى الأخلاقى ، وألح الجميع فى طالب الحديد ، من الكتب والأزياء والقوانين ، وألح بعضهم فى طلب شتموات جديدة ، وجهنم جديدة أيضا ، وفى كل يوم تظهر آراء جديدة مشكلة حديثا ، فى الهرطقة واللاهوت والفلسفة والإنسانية والسلوك . . ولم يكن الشيطان مكروها قدر كراهية الناس للبابا (٦٠) .

وكان كوبرنيكس قد قلب العالم ، وأطلق الأرض مندفعة هائمة فى الفضاء ، وجاء جيوردانو برونو إلى أكسفورد ١٥٨٣ وتحدث عن الفلك الحديث وعن العوالم اللانهائية ، وعن الشمس التى تفنى بفعل حرارتها ، وعن الكواكب السيارة التى تتلاشى فى ضباب ذرى . وأحس شعراء مثل جون دون ، ان الأرض تنساب من تحت أقدامهم .

وفى ١٥٩٥ شرع فلوريو فى نشر ترجمته لمونتاني . ولم يكن ثمة شىء يقينى بعد ذلك . وامتلا الناس بالشك ، وكما أن ماراوا هو مكيافلى ، فان شكسبير هو

مونثاني . وعلى حين شك الرجال العقلاء ، كان الشبان الصغار يخططون . وإذا بدا أن السماء ضاعت في سحابة فلسفية ، فيمكن الشباب أن يعقدوا العزم على امتصاص الحياة جافة ، ويختبروا كل الحقيقة مهما تكن مميتة . وكل الجمال مهما يكن سريع الزوال ، وكل القوة مهما تكن سامة ، وهكذا رأى مارلو في فاوست وتامبورلين .

إن انتزاع الأفكار القديمة . وتحرير العقل ليعبران تعبيراً جباراً عن الآمال والأحلام الجديدة ، وهما اللذان خلدا عهد اليزابث في إنجلترا . وماذا كان بهمننا من أمر منافساتها السياسية ، ونزعاتها الدينية وانتصاراتها الحربية ، إذا انحصر أدب عصرها في تلك الأشياء العابرة ، ولم يعبر عن تطلعات النفوس المفكرة في كل عصر . وحيرتها ونياتها . إن كل تأثيرات هذا العصر المثير انتهت إلى نشوة إنجلترا على أيام اليزابث . فإن رحلات الغزو والكشف التي وسعت الكرة الأرضية والسوق والعقل ، وثرء الطبقة المتوسطة الذي وسع مجال المشروعات وأهدافها ، والكشف عن الآداب والفنون الوثنية ، وجيشان الإصلاح الديني ، ونبذ النفوذ البابوي في إنجلترا . والحوار اللاهوتي ، تلك التي ساقى الناس عن غير عمد ، من العقيدة إلى العقل ، والتعليم ، والاقبال المتزايد على الكتب والمسرحيات ، والسلم الطويل المفيد ، ومن ثم التحدى المثير والنصر الباهر على أسبانيا ، والتصعيد العظيم في الثقة في قوة الإنسان وفكره ، تلك كلها كانت الحوافز التي استحققت صعود إنجلترا في مراقى العظمة والمجد ، وتلك هي الأصول التي نبت منها شكسبير . فالآن ، وبعد انقضاء نحو قرنين من الزمان منذ عهد تشوسر ، اندفعت إنجلترا في لجة من النثر والشعر والدراما والفلسفة ، وتحدثت جهراً في شجاعة إلى العالم بأسره .

الفصل الثالث

على سفوح بارناسوس

١٥٥٨ - ١٦٠٣

١ - الكتب

كانت الكتب يتزايد عددها بشكل رهيب ، حتى قال برنابى رتش فى ١٦٠٠
« ان من الأمراض الفظيعة فى هذا العصر هو هذا السيل الضخم من الكتب التى
تثقل كاهل العالم غير القادر على هضم هذا القدر الكبير من المادة التافهة التى تخرج
إليه كل يوم » كذلك كتب روبرت بيرتون (١٦٢٨) : إننا مهددون بفوضى وتشويش
لا حد لهما من الكتب التى ترهقنا ، فتصاب أعيننا بسبب القراءة ، وتآلم أصابعنا
بسبب تقليب الصفحات (١) » . وهذان الشاكيان كلاهما من مؤلفى الكتب .

إن النبلاء ، بعد أن تعلموا القراءة ، أجزلوا العطاء وبسطوا رعايتهم على
هؤلاء المؤلفين الذين كانوا قد كرموهم وتملقوهم بأهداء مؤلفاتهم إليهم . وكان
سبيل : وليستر ، وسدنى ، ورالى ، واسكس ، وسوثمبتون ، وارل ودوقة
بمبروك : كان هؤلاء جميعا رعاة وحماة أفاضل أقاموا بين النبلاء الإنجليز وبين
المؤلفين علاقة استمرت حتى بعد أن انتهر جونسون راعيه لورد تشستر فيلد ،
وكان الناشرون ينقدون المؤلفين نحو ٤٠ شلنا عن كل كراسة ، ونحو خمسة جنيهات
عن الكتاب ، وسعى بعض المؤلفين إلى أن يعيشوا على أقلامهم . وظهرت فى
إنجلترا هذه الصناعة البائسة ألا وهى « صناعة الأدب » وكانت المكتبات الخاصة
كثيرة لدى الأغنياء . ولكن المكتبات العامة كانت نادرة . وفى طريق العودة إلى
الوطن من قادس ١٥٩٦ ، توقف اسكس فى فارو بالبرتغال ، واستولى على مكتبة
الأسقف جيروم أوزوريوس ، وأهداها إلى سيرتوماس بودلى الذى ضمها إلى
مكتبة بودلى التى وهبها لجامعة أكسفورد ١٥٩٨ .

وكانت حياة الناشرين أنفسهم قلقة مضطربة ، خاضعة لقوانين الدولة وهوى الجمهور أو نزواته . وكان منهم في إنجلترا أيام اليزابث ٢٥٠ ، حيث كان النشر وبيع الكتب حرفة واحدة . وقام معظمهم بعملية الطباعة لأنفسهم ، لأن الفصل بين الطباعة والنشر بدأ حوالى نهاية عصر اليزابث . واتحد الناشرون والطابعون وباعة الكتب ١٥٥٧ في « شركة القرطاسية » ، وأنشأ تسجيل المطبوعات في هذه النقابة « حق الطبع » ، على أن هذا لم يحم المؤلف بل الناشر فقط . وطبيعى أن هذه الشركة لم تسجل من الكتب إلا ما حصل على ترخيص قانونى بطبعه . فقد كان يعتبر جريمة كتابة أو طبع أو بيع أو اقتناء أية مادة تسمى إلى سبعة الملكة أو الحكومة ، كذلك نشر أو استيراد كتب الإلحاد أو المراسيم والرسائل البابوية ، أو اقتناء أية كتب تؤيد سيادة البابا على الكنيسة الإنجليزية^(٢) . وكان ثمة جملة معاذير لحرق هذه المراسيم . وفوضت « شركة القرطاسية » هذه في تفتيش كل دور الطباعة وإحراق أية مطبوعات غير مرخص بها ، وسجن ناشريها^(٤) . وكانت الرقابة على المطبوعات في عهد اليزابث أقصى منها في أى وقت قبل الإصلاح الدينى . ولكن الأدب ازدهر ، كما شحذت العقول في فرنسا في القرن الثامن عشر ، بفضل مخاطر الطباعة .

وكان العلماء قليلين ، وكان عصر خلق وابداع أكثر من أن يكون عصر نقد ، وكان تيار الحركة الإنسانية (التوكيد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل) قد جف معينه في تلك السنين التى حفلت بالاهتمام باللاهوت . وظل معظم المؤرخين من كتاب الحوليات ، يقسمون مدوناتهم حسب السنين . ولكن ريتشارد نولز Knolles أدهش برجلى ببراعته النسبية في كتاب « التاريخ العام للأتراك » ١٦٠٣ . وأضفت « حوليات » رافائيل هولنشد على صاحبها مزيدا من الشهرة لم يبذل فيه جهدا ، ذلك أن هذه الحوليات أمدت شكسبير بسير ملوك إنجلترا . واصطبغت « حوليات إنجلترا » (١٥٨٠) لجون ستو Stow « بظلال من الحكمة ، ودعوات إلى الفضيلة وتنفير من الحقائق المزدولة^(٥) » ، ولكن طابعها العلمى يرقى له ، وأسلوبها قوى مؤثر . وكان كتابه « استعراض لندن » ١٥٨٠ أدق بحثا وأوسع علما ، ولكنه لم يدر عليه ربحا ، وكان حريا به في سنى شيخوخته أن يمنح رخصة

للتسول^(٦) . وفي لغة لاتينية جيدة سجل ولیم کامدن « جغرافية إنجلترا ومناظرها وآثارها » في كتابه « بريطانيا » ١٥٨٢ . وفي كتابه « حوليات تاريخ إنجلترا في عهد اليزابث » (١٥ - ١٦٢٧) الذي بنيت قصته على دراسة واعية للوثائق ، مجد کامدن الملكة العظيمة دون حساب ، وامتدح سبنسر وأثنى على روجر أسكام ، ولسكنه حزن لموت مثل هذا العالم الجليل فقيرا معدما بسبب حبه للعب للرد ومصارعة الديكة^(٧) .

وترك أسكام عند موته ١٥٦٨ بوصف أنه كان سكرتيرا لمارى اللعينة ومعلما خاصا لاليزابث ، أشهر الرسائل الانجليزية في التعليم ، وهى « المعلم » (١٥٧٠) وموضوعها الأصل تعليم اللاتينية ، ولكنها تضمنت في لغة إنجليزية قوية بسيطة ، دعوة إلى احلال الرحمة المسيحية محل صرامة كلية ايتون في التعليم . وروى أسكام كيف أنه كان يتناول الغداء يوما مع بعض عظماء الرجال في حكومة اليزابث ، وتطرقت المناقشة إلى موضوع التعليم في نقد لاذع ، وكيف أن سيسل آثر الوسائل الرقيقة ، وكيف أن سير ريتشارد ساكفين اعترف سرا لأسكام « بأن معلما أحمق صرفه عن حب التعليم بأسره ، خوفا من الضرب^(٨) » .

إن أكبر وأنفع مهمة يضطلع بها العلماء الانجليز كانت لإخصاب العقل الانجليزي بالفكر الأجنبي . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر اكتسحت البلاد موجة من الترجمة ، من اليونان ورومه وإيطاليا وفرنسا . وكان على هوميروس أن ينتظر حتى ١٦١١ لجورج ، تشابمان وربما أسهم عدم وجود الترجمات الانجليزية للروايات اليونانية في صيغ دراما عصر اليزابث بالرومانتيكية أكثر منه بالشكل التقليدى القديم ، ولكن كانت هناك ترجمات لكتاب تيوكريتس « اللقصائد الرعوية » ، وملحمة موزائيس Hero and Leander وكتاب ابكتيس Enchiridion ، ولكتابي الأخلاق والسياسة لأرسطو ، وكتابي زينوفون Cyropaedia , Oeconomicus . وخطب ديموستين وايزوقراط ، ومؤلفات هيرودوت وبوليبيوس وتيودور الصقلي وجوزيفس وأبيان في التاريخ ، وقصص هليودوروس ولونجوس ، كما كان هناك ترجمة عن الفرنسية

قام بها سير توماس فورت لكتاب بلوتارك « السير » . وعن اللاتينية نقلت كتب فرجيل وهوراس وأوفيد ومارشال ولوكان ، وروايات بلوتوس وتيرنس وسنكا . ومؤلفات ليفى وسالوست وتاسيتس وسوتونيس في التاريخ . وعن الإيطالية نقلت قصائد بنزارك (Sonnets) و Filocopo and Fiammetta لبوكاشيو (ولكن لم يترجم ديكامرون حتى ١٦٢٠) ، ومؤلفات جوتشياردينى ومكيافللى في التاريخ . وأشعار بويارد وواربوستو ، وكتاب كاستليونى « آداب السلوك » ، وكتاب تاسو عن تحرير أورشليم ، وكتاب جوارينى « Pastor fido » ومجموعة قصص خرافية لباندالو وآخرين دونت في مجموعات مثل كتاب وليم بينتر Palace of Pleasure (١٥٦٦) ؛ ولم ينقل كتاب مكيافللى « الأمير » حتى ١٦٤٠ ، ولكن مادته كانت معروفة لرجال عصر اليزابث . ويذكر جبرائيل هارفى أن جامعة كمبردج نبذت دونز سكوتس وتومان الأكويين وغيرهما من رعييل العلماء « واستبدل بهم مكيافللى وجان بودان (٩) . وترجم عن الأسبانية واحدة من أطول القصص الغرامية الخيالية Amadis de Gaula ، وواحدة من أقدم القصص الأسبانية Lazarillo de Tormes وواحدة من الروايات الرعوية القديمة The Diana of Montemayor . وكان ما أخذ عن الفرنسية قصائد البلياد Pleiades (بنات أطلس السبع اللأئي وضعهن زيوس بين النجوم) ومقالات مونتاني التى ترجمها جون فلوريو إلى لغة إنجليزية رائعة (١٦٠٣) ٤

وكان أثر هذه الترجمات على الأدب في عصر اليزابث عظيما جدا ، وبدأت التلميحات القديمة — وظلت لمدة قرنين من الزمان — ترهق الشعر والنثر الانجليزين . وكانت اللغة الفرنسية معروفة لدى معظم المؤلفين الحديدين بالذكر في عهد اليزابث ، ومن ثم كان يمكن الاستغناء عن الترجمات . ولقد سحرت إيطاليا لإنجلترا ، واتجه الشعر الرعوى الانجليزى بأفكاره إلى سانا زارو وتاسو وجوارينى . والقصائد الانجليزية المشهورة بالسونيت إلى بترارك ، والأدب القصصى إلى بوكاشيو والقصص ، وهذه الأخيرة هى التى أمدت مارلو وشكسبير وويستر ومانسجر وفورد بالفكر الرئيسية في رواياتهم . كما زودت الروايات في عهد اليزابث بمواقع إيطالية . إن

إيطاليا التي نبذت الإصلاح الديني ، كانت قد ذهبت بعيدا عنه لتحطم اللاهوت القديم ، حتى الأخلاق المسيحية ، وعلى حين أن العقيدة في عهد اليزابث نازعت الكاثوليكية والبروتستانتية ، نجد أدب ذاك العصر ، وقد تجاهل هذا الصراع ، عاد إلى روح النهضة وحيويتها . ولما أصابت إيطاليا النكسة لبعض الوقت ، بسب تحول طرق التجارة ، أسلمت مشعل الميلاد الحديد لأسبانيا وفرنسا وإنجلترا .

٢ - حرب الأدباء

وفي وسط هذه الوفرة والحيوية في عصر اليزابث ، كان ثمة فيضان جارف من الشعر والنثر كليهما . ولنا لنعرف أسماء مائتين من الشعراء في عهد اليزابث ، ولكن النثر كان هو الذي يجذب انتباه الناس ويطرق أسماعهم بقوة في هذا العصر في إنجلترا ، حتى أخرج سبنسر « فيرى كوين » (The Faerie Queen) (١٥٩٠) .

وكان جون ليلي أول من عمد إلى هذا اللون في قصته الخيالية يوفيس Eupheus أو « تشريح الذكاء » في ١٥٧٩ . وعرض ليلي أن يظهر كيف أن العقل السليم والخلق الكريم يمكن تكوينهما عن طريق التعليم والتجربة والأسفار والنصح الحكيم . ويوفيس (الكلام الطيب) شاب آثني تقدم مغامراته مسرحا لمحادثات مسهبة عن التعليم والسلوك والصدقة والحب والاحاد - ومما جعل هذا الكتاب أكثر الكتب رواجاً في عصره ، هو أسلوبه - فيض من الجناس والطباق والتشبيه والتورية ، والجمل المتوازنة والاشارات القديمة والأفكار ، مما هاج حاشية اليزابث ، وأصبح الأسلوب السائد لمدة جيل ، مثال ذلك :

إن هذا الشاب الأنيق الذي يتحلى بالذكاء أكثر مما يملك مالا ، بل يملك من المال أكثر ما لديه من الحكمة ، ومذ يرى أنه لا يقل عن غيره من حيث الأفكار الجميلة ، فقد حسب أنه يفوق الجميع في التصرفات الأمينة . إلى حد حسب معه نفسه صالحا لكل شيء ، ومن ثم لم يتوفر على شيء قط (١٠) .

ولا يعرف على وجه التحديد من أين أصاب ليلي هذا المرض ، من مارينى الإيطالى ، أو من جيفارا الأسبانى أو من « بلاغة » الفلاندرز ، فهذا محل مناقشة ، ورحب ليلي على أية حال بهذه السموم العقلية ونقلها إلى كثير من رجال اليزابث . فأفسدت كوميديات (ملهاوات) شكسبير الأولى ، وتركت مسحة منها على أعماق بيكون ، وأثرت فى اللغة .

لقد كان العصر يعنى باللفظ . وبذل جبرائيل هارنى - من آسائذة كمبردج - كل نفوذه ليحول الشعر الإنجليزى من النبرات والقوافى إلى الأوزان القديمة المبينة على التفاعيل أو المقاطع . وبتحريرض منه أسس سدنى وسبنسر فى لندن ناديا أدبيا الآريوباجوس areopagus ، كافح لبعض الوقت ليحول النشاط والطاقة الحيوية فى عصر اليزابث إلى أشكال فرجيل وصيغه . وقلد توماس ناش ، هازثا ، أوزان هارنى السداسية التفاعيل « التى تشبه فى وقعها الوثب على قدم واحدة » ، وسخر منها واعتبرها غير جديرة بالنظر والاهتمام فعلا . ولما جمع هارنى بين الشتائم والسباب والحدلقة فى التنديد بأخلاقيات جرين صديق ناش ، أصبح الهدف الرئيسى لحرب الكتيبات التى جابت إلى إنجلترا كل ما عرف فى عصر النهضة من تراشق وذم وقذح .

إن حياة روبرت جرين لتثل ألفا من سير الحياة الأدبية البوهيمية التى لا تقيم وزنا للأعراف والقيم ، إبتداء من فيلون Yillon (شاعر فرنسى غنائى فى القرن الخامس عشر) إلى فرلين Yertaine (شاعر رمزى فرنسى فى القرن التاسع عشر ، وكان رفيق دراسة لهارنى ومارلو فى كمبردج) ، وسط « أوغاد لا يقلون عنه دعاره وفجورا » ، « أفنى معهم زهرة شبابه » :

كان يملؤنى الزهو والتهى والغرور . كانت الدعاره رياضتى اليومية ، وادمان الشراب ملذتى الوحيدة . . . وكنت أبعد ما يكون عن أن أرجع إلى الله ، وقليل ما كنت أذكره . ولكنى كنت أجد لذة كبيرة فى الحلف والتجديف على الله . وإذا حققت رغبى وأنا على قيد الحياة ، فأنى راض قانع ، فلأخذ طريقى إلى الموت

بأية حال ، انى لم أخش قضاة المحكمة أكثر مما أخشى حساب الله (١١) .

وجال جرین فی إيطاليا وأسبانيا ، ويقص علينا أنه هناك « رأى ومارس من أعمال الخسة والجرائم ما يندى الجبين لذكره . » فلما عاد أصبح شخصية بارزة فى حانات لندن ، بشعره الأحمر ولحيته المحددة وجواربه الحريرية وبطائنه الخاصة . وتزوج وكتب كتابة رقيقة عن الاخلاص فى الزواج ونعمته . ثم هجر زوجته من أجل سيدة أنفق عليها كل ثروة الزوجة . ومن معرفته الخاصة المباشرة وصف أقاتين حياة الرذيلة والاجرام فى كتاب **A Notable Discovery of Cozenape** (١٥٩١) كشف فيه الغطاء عن الدجالين والمحتالين ، وحذر فيه زوار لندن القرويين من أحابيل المخادعين والغشاشين فى ورق اللعب ، والنشالين والقوادين والعاهرات . مما حدا بهؤلاء أن يحاولوا قتله . ولأنه لما يبعث على الدهشة أن جرین ، مع انغماسه فى حياة الرذيلة إلى هذا الحد ، وجد وقتا ليكتب فى سرعة صحفية ونشاط وحيوية ، اثنتا عشرة قصة (بأسلوب يوفيس) وخمسة وثلاثين كتيباً ، وكثيراً من الروايات الناجحة . وعندما فتر نشاطه وقل دخله وجد للفضيلة بعض المعنى ، وندم ندماً شديداً قدر ما كان يأثم اثماً فاحشاً ، وعبر عن ندمه وأثمه بأبلغ تعبير . ونشر فى ١٥٩١ كتابه « وداعاً أيتها الحماسة » . وفى ١٥٩٢ نشر كتيبين لهما بعض الأهمية ، أحدهما : « ملحوظة ساخمة لرجل البلاط الناشئ » حمل فيه على جبرائيل هارفى ، أما الثانى « ما يساوى بضعة بنسات من ذكاء جرین يشترى بمليون من التوبة والندم » . وفيه هاجم شكسبير وأهاب برفاقه فى الفسق والفجور - وواضح أنه يقصد مارلو وبيبل وناش - أن يقلعوا عن الآثام والخطايا وينصرفوا معه إلى التقوى والندم . وفى ٢ سبتمبر ١٥٩٢ أرسل إلى زوجته التى هجرها يتوسل إليها أن تدفع عشرة جنيهات إلى صانع أحذية لولا صدقته وإحسانه « لكنك مت جوعاً فى الطرقات » وفى اليوم التالى ، وفى دار صانع الأحذية هنا ، مات جرین - كما يقول هارفى - بسبب « تخمة أصابته من الإفراط فى أكل سمك الرنجة المخلل وشرب نبيذ الراين » . وتجاوزت صاحبة الفندق عن ديونه من أجل أشعاره ، وتوجته بأكليل من الغار ، ودفعت نفقات جنازته (١٢) .

وكان توم ناش صديق جرين أشد مؤلفي الكتيبات في عصر الزباث سلاطة لسان وأكثرهم قراءً . وكان ابنا لمساعد قسيس ، وضاق ذرعا بالحشمة والوقار ، وما أن تخرج في أكسفورد حتى أخذ يسرح ويمرح في لندن ، ويكسب قوته بنفثات قلمه ، وتعلم كيف يكتب بسرعة « قدر ما تسعفه يده » . وألف في إنجلترا قصص المشردين بادئا بقصته « السائح المنكود الحظ » — أو حياة جاك ولتون (١٥٩٤) . ولما مات جرين ، وهاجم هارفي بعنف جرين وناش في كتيبه « أربع رسائل » ثار ناش بسلسلة من الكتيبات بلغت الذروة في كتيب « خذ معك إلى سافرون والدين Salfron Walden مسقط رأس هارفي في ١٥٩٦ :

« ابتهجوا أيها القراء ، فلن أدخر وسعا في أن أدخل عليكم السرور والبهجة . . . إن هذا لن يكلفني إلا إنحرافا عن الطريق المستقيم ، ولكنه سيطرده من الجامعة مدحورا . . . قبل أن أكف عنه . . . ماذا تمنحونني لو أتي أتيت به إلى المسرح في أهم الكليات في كمبردج (١٤) » .

وعمر هارفي بعد هذه الحنة ، وعمر بعد هؤلاء البوهيمين ومات في ١٦٣٠ عن خمسة وثمانين عاما . وأكمل ناش رواية صديقه مارلو « Dido » واشترك مع بن جونسون في « جزيرة الكلاب » ١٥٩٧ ، وآتهم بالتحريض على الفتنة ، وانزوى في غمرة من الحرص والحذر ، وتوج حياة العجلة بموت مبكر .

٣ — فيليب سدنى ١٥٥٤ — ١٥٨٥

بعيدا عن هذا الحشد الخبول شق سدنى طريقه في هدوء إلى نهاية أقرب ، وانا لتطالعنا صورته حتى اليوم في « قاعة الصور الوطنية » في لندن ، حيث يبدو رقيقا أكثر مما ينبغي للرجل أن يكون ، نحيل الوجه ، ذا شعر أسمر يضرب إلى الحمرة ، وكما يقول لانجيه « ليس فيه شيء من أمارات التمتع بصحة جيدة (١٥) » . وقال أوبرى « كان آية في الجمال ، لم تكتمل سمات الرجولة فيه كما ينبغي ، ولكن يتميز بشجاعة عظيمة (١٦) » . وذهب بعض المتذمرين إلى أنه يداخله بعض الغرور (١٧) ، وأنه بالغ في الكمال والدقة إلى حد التطرف ، ولكن نهايته البطولية هي وحدها التي غفرت له فضائله .

ولكن من ذا الذى لا يتيه عجباً بأن أمه هى ليدى مارى ددلى إبنة دوق نورثمبرلند الذى حكم إنجلترا أيام إدوارد السادس ، وأن أباه هوسبر هنرى سدنى رئيس ويلز ، ونائب الملك فى أيرلنده ثلاث مرات ، وأنه أخذ اسمه المسيحى عن فيايب الثانى ملك أسبانيا بوصفه أباً له فى التعميد . وقضى بعضاً من عمر الزهر الذى عاشه فى قصر بنزهيرست الرحيب الذى تعد سقوفه المصنوعة من خشب البلوط ، والرسوم على جدرانه ، وثريات البللورية من أجمل مخلفات ذلك العصر . وعين وهو فى سن التاسعة رئيساً علمانيا لاقطاعة كنسية تدر عليه ستين جنياً فى السنة . والتحق فى سن العاشرة بمدرسة شروزبرى التى لم تبعد كثيراً عن حصن لدلو Ludlow مقر والده بوصفه رئيساً لويلز . وكتب سبر هنرى لولده وهو فى الحادية عشرة من عمره كلمات حب وإعزاز تشع منها الحكمة (١٨).

ووعى فيليب هذه الدروس جيداً . وأصبح أنيراً لدى خاله إيستر ، وصديق والده وايم سىسل . وبعد سنوات ثلاث قضاه فى أكسفورد أرسل إلى بارين فى منصب ثانوى فى بعثة إنجليزية . واستقبل فى بلاط شارل التاسع وشهد مذبحه سانت برثلئيميو . وجال على مهل فى فرنسا والأراضى الوطيفة وألمانيا وبوهيميا ووانده والحجر والنمسا وإيطاليا . وفى فرنكفورت نشأت بينه وبين هيوبرت لانجيه صداقة العمر ، وهو أحد قادة الفكر لدى الميجنوت . وفى فينسيا رسم له باولو فيرونيز صورته ، وفى بادوا رضع تقاليد قصائد بترارك من نوع السونيت . فلما عاد إلى إنجلترا رحب به البلاط ، وظل لمدة عامين تقريباً فى معية الملكة . ولكنه خسر عطفها لبعض الوقت . لمعارضته مشروع زواجها من دوق ألسون . وكان يتحلى بكل صفات الفروسية - الاعتداد بقدرته على الاحتمال ، المهارة والبسالة فى المبارزة ، آداب اللباقة والسلوك فى البلاط ، الشرف فى كل المعاملات والفصاحة فى الحب ودرس كتب كستيليونى " رجل البلاط " وحاول أن يربط سلوكه على المنال الأعلى لرجل المهذب الذى وضعه الفيلسوف الأديب ، وحاول آخرون أن يحاكوا سدنى . وأطلق عليه " بنسر اسم "ملك النبيل والفروسية" .

وكان من مميزات هذا العصر أن الأرستقراطية التى كانت يوماً تحنقر معرفة

القراءة والكتابة ، نظمت الآن الشعر ، وأذنت للشعراء في الزردد عليهم . وأصبح سدى ، ولو لم يكن ثريا ، أعظم حمة لأدب في جيله . ومد يد المساعدة إلى كمدن وهاكلوت وناش وهارفى ودون ، ودانيل وجونسون ، وفوق كل شئ سبنسر الذى أزعج إياه آيات الشكر بوصفه " أمل العلماء جميعهم ، وحامى عروس الشعر الصغيره عدى " (١٩) . ولم يكن يتفق مع طبيعة الأشياء أن يكون إهداء كتاب ستيفن جوسون " مدرسة الهجاء " وجهها إلى سدى (١٥٧٩) ، وقد ورد فى تقديم هذا الكتاب أنه " هجوم لطيف على الشعراء والزمارين والمغامرين والمهرجين ، وأمثلم من توافه الرجال السلايين فى البلاد " . وقبل سدى النحدى وكتب أول الروائع الأدبية فى عهد أليزابيث " دفاع عن الشعر " واقتداء بأرسطو والقاد الإيطاليين ، عرف سدى الشعر بأنه " فن المحاكاة " فهو يمثل أوزيريف أو يجسد صورة ناطقة . " قصد بها أن تعلم وتدخل البهجة (٢٠) " . وسما بالأخلاق كثيرا فوق الفن ، فبرر الفن على أنه معلم للأخلاق عن طريق النماذج المصورة يقول :

"إن الفياسوف ... والمؤرخ ... قد يصلان إلى الهدف ، أولها بالتعليم الأخلاق ، والثانى بضرب المثل ، ولكن كلاهما لا يملكهما معا . ومن ثم يتعثر كلاهما . فإن الفيلسوف ، وهو يترر الحقيقة المجردة للأخلاق ، عن طريق الحجج الشائكة ، قد يصعب عليه التعبير ، ويقلب عليه الغموض فيدق على المرء فهمه إلى حد أن الإنسان الذى لا يتيسر له مرشد غيره يخوض معه حتى يدركه الهرم قبل أن يجد مبرا كافيا لأن يكون أمينا . ذلك أن علمه يقوم على التجريد والتعميم ، حتى ليكون سعيدا من يستطيع أن يفهمه . أما المؤرخ من جهة أخرى ، فإنه ، وهو يعوزه القاعدة أو المبدأ الأخلاقى ، مرتبط ، لا بما يجب أن يكون ، بل بما هو كائن ... ومن ثم فإن المثل الذى ضربه يستتبع نتائج غير ضرورية ، ولذلك يكون نظرية أقل جدوى .

أما الشاعر الفذ فانه يؤدى الاثنين معا ، لأنه يرسم صورة دقيقة لمن يظن أنه قام بما قال الفيلسوف بوجوب عمله . وهو بذلك يكمل الفكرة العامة بالمثال المحدد . وأقول بأنها صورة كاملة متقنة لأنه لا يقدم إلى قوى العقل صورة لم يقدم عنها

الفيلسوف إلا وصفا كلاميا لا يستوقف النظر ولا ينفذ إلى الأعماق ولا يتسم بالرؤية الروحية قدر ما للصورة من هذا كله (٢١) .

وعلى هذا فإن الشعر ، في نظر سدي ، يشمل كل الأدب التخيلي التصويري : الدراما ، النظم ، النثر التصويري . « ليست القوافي والأوزان هي التي تصنع الشعر . وقد يكون ثمة شاعر بلا أوزان ، وقد يكون ثمة ناظم دون أن يكون شاعراً » . لقد جمع سدي بين التعليم الأخلاقي والنموذج . وفي نفس العلم الذي أخرج فيه « الدفاع عن الشعر » شرع في كتابه « جنة كونتيس بمبروك » . وكانت أخته هذه من أكثر سيدات هذا القرن جمالا وجاذبية . ولدت ١٥٦١ ، أي أنها تصغر فيليب بنحو سبع سنوات . وتلقت من التعليم قدر ما احتملت ، بما في ذلك اللاتينية واليونانية والعبرية ، ولكن فتنها لم تذبل . وأصبحت عضوا في آل بيت اليزابث ورافقتها في رحلتها الملكية . وأسهم خالها ليستر في المهر الذي مكنها من الزواج من هنري ارل بمبروك . وكما يقول أوبري « كانت داعرة شديدة الشهوة للرجال فاتخذت بعضا من الخلان أو العشاق لتكمل زوجها » ، ولكن هذا لم يمنع فيليب من تقديسها ، وكتابة « الجنة » بناء على طلبها .

واتخذ فيليب من « جنة » سانا زارو (١٥٠٤) مثالا يحتذيه ، فتخيل في تفصيل شديد وفي يسر ، عالما من الأمراء الشجعان والأميرات الرفيعات التهذيب ، ومعارك الفروسية والأقنعة المحيرة والمناظر الطبيعية الساحرة . « إن جمال افروديت (يورانيا) هو أعظم شيء يمكن أن يعرضه العالم ، ولكنه أقل ما يمتدح فيها (٢٢) » وكان بللاديوس يتمتع ببصيرة نافذة مجردة من التباهي والتفاخر ، وأفكار عالية تتسم باللباقة وحسن الأدب ، وكانت الكلمات تخرج من فيه في فصاحة عذبة ولكنها لاتسغم في التعبير . كما كان يتحلى بسلوك نبيل إلى حد أنه أضفى جلالا على الجنة (٢٣) . « ومن الواضح أن سدي قرأ يوفيس ، فالقصة متاهة غزلية ، لقد تذكر بيروكلير في زى امرأة ليكون قريبا من فياوكايا الجميلة ، ولكنها تخيب أمه بجها إياه على أنه أخت لها ، ويقع أبوها في غرامه حين حسب أنه سيدة ، وتقع أمها أيضا في غرامه حين أدركت أنه رجل ، ومهما يكن من أمر فإن كل شيء ينتهي طبقا لما

أمرت به الوصايا العشر . ولم يأخذ سدنى الحكاية مأخذ الجدل كثيرا . ولم يصحح قط الأوراق التي سلمها لأخته . وأمر بإحراقها وهو على فراش الموت ، ولكن احتفظ بها وطبعت ونشرت (١٥٩٠) وظلت لعقد من السنين أعظم ما يعجب به الناس من النثر في عهد اليزابث .

وبينما كان سدنى يكتب هذه القصة الرومانتيكية و ” الدفاع عن الشعر “ ، ووسط حياته الدبلوماسية والعسكرية ، نظم مجموعة قصائد من السونيت (١٤ بيتا) مهدت الطريق أمام قصائد شكسبير التي من هذا النوع . وكان في حاجة إلى شيء من الحب الفاشل ، فعرّضه في بنابوب ديفريه *Penelope Devereu* ابنة ارل اسكس الأول ، ورحبت بآهاته وأشعاره على أنها لم يشرع ، ولكنها تزوجت من بارون رتش (١٥٨١) . واستمر سدنى يوجه قصائده إليها ، حتى بعد زواجه هو من فرانس ولسنهام . ولم يصعق من رجال عصر اليزابث لهذا الفجور الشعري إلا نفر قليل ، ولم يتوقع أحد أن يكتب رجل شعرا حتى لزوجه هو ، التي أخذ كرمها شاعريته ، ونشرت المجموعة ١٥٩١ ، بعد وفاة سدنى ، تحت عنوان *Astrophel and Stella* — (عاشق النجم والنجم) وقد نهجت نهج بترارك الذي استبقت محبوبته لورا بشكل عجيب عيني يلوب وشعرها وحاجبيها ونخايها وبشرتها وشفثيها . وكان سدنى يدرك تماما أن هواه ليس إلا تقية أو حماية شعرية . وكان هو نفسه قد كتب : ” لو كنت أنا نفسى محظيه لما استطعت الشعراء كتاب السونيت أن يقرئوني بأنهم يحبونى (٢٤) ” وما أن قبلت قصائد السونيت على أنها لم يبريء حتى باتت أحسن شيء من نزعها قبل سرنيدات شكسبير . وحتى القمر كان مريضا بالحب :

بأية خطى حزينة تصعد إلى السموات أيها القمر ، وفي
أى صمت ، وبأى وجه شاحب ؟
ماذا ، هل حتى في السموات .

يحاول رامى السهام النشط أن يجرب سهامه الحادة .
حتمًا ، لو أن هذه الميون التي خبرت الحب طويلا

تستطيع أن تحكم على الحب . لشعرت بفضية حبيب ،
لقد قرأتها في نظراتك وفي جمالك الذى يذبل .
إن حالاك لنكشف لى عن بعد ، أنا الذى أحس بمثل
ما تحس به . إذن ، حتى بحق الزمالة أيها القمر خبرنى .
أيعتبر الحب الدائم هناك نقصا فى العزل ، وهل
ذوات الجمال هناك مزهوات كما هن هنا ، هل
يحظين بما هو فوق الحب ، ومع ذلك يحترن المحبين
الذين يأسرهم الحب .

وهل يسون الفضيلة هناك ضربا من الجحود (٢٥) ؟

وفى ١٥٨٥ أرسلت إليزابيث فيليب سدنى لمساعدة ثوار الأراضى الوطينة ضد
ألمانيا ، وعين حاكما على فاشنج ، ولو لم يبلغ الحادية والثلاثين من العمر ، وأغضب
الملكية المقرة يطلب مزيد من المؤن والأجور لجنوده الذين كانوا يتقاضونها عملة
مزيفة مخفضة القيمة (٢٦) . وقاد جنوده إلى الاستيلاء على آكسل بالقرب من فلشنج
(٦ يولييه ١٥٨٦) ، وحارب فى المقدمة . ولكنه فى معركة زوتفين (٢٢ سبتمبر)
أتى من ضروب البسالة أكثر مما ينبغي ، فقد قتل جواده فى الهجوم ، وقفز سدنى
إلى جواد آخر ، وشق طريقه فى صفوف العدو ، فنفذت طلقة بندقية إلى فخذه ،
وهرب جواده جافلا إلى معسكر ليستر (*) . ومن ثم أخذ سدنى إلى دار خاصة فى
آرنهيم ، ولمدة خمسة وعشرين يوما عانى من عجز الجراحين وجهلهم وسرى التسمم ،
وفى ١٧ أكتوبر استنبل عجيبة زماننا الموت بصدر رجب (كما رثاه سبنسر)
وقل فى يومه الأخير " لن استبدل يا بهاجى امبراطورية العالم (٢٨) " ونقل جثمانه
إلى لندن ، وأودع مقره الأخير فى جنازة لم تشهد لها إنجلترا شيلا قبل
وفاة نلسون .

(*) تروى قصة لم تتأكد صحتها ، أنه عندما قدم إلى سدنى الجريح زجاجة من الماء ، فأولها إلى
جندى كان يهوى سكرات الموت بالقرب منه قائلا : إن حاجتك إليّ أشد من حاجتى (Fulke)
Greville حياة مشاهير الرجال - سير فيليب سدنى (٢٧)

٤ — إدموند سبنسر ١٥٥٢ ١٥٩٩

وكتب سبنسر « مات سدن ، مات صديقي بهجة الدنيا وزينتها » (٢٩) « إن سيدنى هو الذى أمد سبنسر بالشجاعة لينظم القريض . نشأ إدموند ابناً لا يبشر بحسن المستقبل لصانع ملابس باليومية ، وكان ينتمى من بعيد لآل سبنسر الاستقراطيين ، مما لم يتح للصبي أية فرصة للظهور . ومكنته أموال البر والصدقات من اللحاق بمدرسة Merchant Taylors ثم كلية بمبروك فى كمبردج حيث عمل ليكسب أجر إقامته بالقسم الداخلى بها . وما أن بلغ سن السابعة عشرة حتى كان يكتب ، بل حتى ينشر ، شعراً . وحاول هارنى أن يوجهه إلى القوالب والموضوعات الكلاسيكية القديمة . وحاول سبنسر فى تواضع أن يرضيه ، ولكن سرعان ما تمرد على القيود التى فرضتها الأوزان البغيضة على عروس الشعر عنده . وفى ١٥٧٩ عرض على هارنى القسم الأول من ملحمة « الفيرى كوين » ، ولم يتذوق هارنى محتواها المجازى الذى يشبه أسلوب العصور الوسطى ، ولم يقدر وزنها الشعرى الرقيق ، ونصح للشاعر أن يتخلى عن مشروعه ، ولكن سبنسر تابع العمل .

إن هارنى ، النكد المتجهم المشاكس ، هو الذى هيا لسبنسر مكاناً فى خدمة إرل ليستر . وهناك التقى الشاعر بسدن وأحبه وأهدى إليه « تقويم الراعى » (١٥٧٩) . قلدها من حيث الشكل تيوكريتس ، ولكنه اتبع فيها خطة التقويم الشعبية المألوفة التى تحدد أعمال الرعاة تبعاً لفضول لسنة . وقامت فكرتها الرئيسية على حب غير مرغوب فيه من جانب الراعى كولين كلوت لروزيلاند القاسية . وليست مما يوصى أحد بقراءتها ، ولكن أطراء سدن لها أكسب سبنسر شيئاً من الإقبال عليها أو التهلل لها . وارتضى الشاعر ، رغبة منه فى كسب العيش ، منصب سكرتير آرثر لورد جراى نائب الملكة الجديد فى إيرلنده (١٥٧٩) ، ورافقه إلى ساحة القتال . وشهد وأقر ما عمده إليه آرثر من ذبح من استسلموا من الإيرلنديين فى سمروك . وبعد سبع سنوات من الخدمة الكتابية للحكومة الإنجليزية فى إيرلنده ، منح من الأملاك المصادرة من الثوار الإيرلنديين ، قصر كاسكولمان Kilcolman على الطريق بين مالو ولمبرك ، بالإضافة إلى ٣٠٠٠ فدان .

وهناك أخلد سبنسر إلى حياة الزراعة الهادئة وانصرف إلى الشعر الرقيق . وخلد ذكرى موت سدنى بمرثية بليغة ولسكنها مطولة عنوانها « أستروفيل » (١٥٨٦) ، ثم صقل وطول في ملحمة « فيرى كوين » وعبر البحر ، وهو ممتلئ حماسة إلى إنجلترا ، وقدمه رالى إلى الملكة ، فكتب لها إهداء "الأجزاء" الثلاثة الأولى ، "لتبقى في ظل خلود شهرتها . " وليضمن الترحيب بالقصيدة صدرها ببضعة أبيات في المديح موجهة إلى كونتيس بمبروك ، وليدى كارو ، وسير كرسفرفهاتون ، ورالى ، وبرجلى ، ووالسنهام ، واللوردات هنزدن وبكهيرست وجراى وهوارد افنجهام ، وارل إسكس ونورثمبرلند وأكسفورد وأورمند وكبرلند . ولما كان بيرجلى يناصب لىستر العداء ويحمل لاء الاضغان ، فانه قال عن سبنسر إنه شاعر خامل ، ولكن كثيرا من الناس هالوا له بوصفه أعظم شاعر منذ عهد تشوسر . وتلطف الملكة فمحتته معاشا سنوياً قدره خمسون جنيتها ، وتلكأ بيرجلى ، بوصفه وزير الخزانة ، في دفعه . وكان سبنسر يأمل فى شئ أكثر سخاء . فلما خاب أمله عاد أدراجه إلى قصره فى إيرلنده ليتابع ملحمة المثالية ، وسط الهمجية والكراهية والخوف .

وكانت خطته أن تكون القصيدة فى إثنى عشر جزءاً ، نشر الثلاثة الأولى منها فى ١٥٩٠ ، وثلاثة أجزاء أخر فى ١٥٩٦ . ولم يذهب إلى أبعد من هذا . ومع هذا فإن الفيرى كوين ضعف الإلياذة وثلاثة أمثال " الفردوس المفقود " . وقدم كل جزء على أنه قصة رمزية — للقداسة والاعتدال وضبط النفس والعفة والصدقة والعدالة والياقة والكياسة ، وقصد الأجزاء جميعها " أن تصوغ أو تشكل سيدا ماجدا " أو إنسانا نبيلًا ذا خلق فاضل وديع (٣٠) ، بتزويده بالأمثلة التى تعين على تشكيله ، وكل هذا يتفق مع فكرة سدنى فى أن الشعر عبارة عن تعاليم أخلاقية تنقلها نماذج متخيلة . وإذ ألزم سبنسر جانب الحشمة والوقار ، فانه لم يجز لنفسه إلا يضع قطع قليلة شهوانية أو حسية . فهو يلتق نظرة عجلى على " صدر عاجى عاو للانقضاض عليه غنيمة باردة (٣١) " ، ولكنه لا يذهب إلى أبعد من هذا . وإنه فى ستة من الأقسام الرئيسية فى قصيدته ليشدو بأعلى أنغام حب الفروسية والشهامة ، باعتباره خدمة خالية من الأثرة للسيدات الجميلات .

أما نحن الذين نسينا الفروسية والشهامة ، فلإننا نضيق ذرعاً بالفرسان وتركنا الحجازات

والاستعارات والقصص الرمزية ، فان ملحمة الفيرى كوين ، تكون لنا في أول الأمر بهيجة سارة بشكل غريب ، ولكنها أخيراً شيء لا يحتمل . إن تلميحاتها السياسية التي فرح بها أو استاء لها المعاصرون ، فقدت قيمتها لدينا ، وإن المعارك اللاهوتية التي تشير إليها لدى الارهاصات الراسبة في صباها ، وإن قصصها هو في أحسن الأحوال ، أصداء شجية لفرجيل وأريستو وتاسو ، وليس ثمة قصيدة في الأدب العالمي تفوق " الفيرى كوين " في أفكارها المتكلفة ، وتغييراتها الكثيرة في الأوضاع السوية للكلمات والاسلوب ، وألفاظها المهجورة وتعبيراتها الجديدة الطنانة ، ومبالغتها الرومانتيكية الحمقاء التي لم تلتطفها ابتسامة أريستو . ومع ذلك فإن كيتس وشلى أحبا سبنسر وجعلاه " شاعر الشعراء " فلماذا ؟ لأن شيئاً من الجمال الحسى للشكل عوض عن سنف العصور الوسطى وأسلوبها ، أم لأن فخامة الوصف زركشت شيئاً زائفاً غير واقعي ؟ وكان المقطع الجديد ذو الأبيات التسعة صعباً من ناحية التعبير الفني ، وكثيراً ما يروعننا سبنسر باتقانه الكامل وسهولته الدافقة . ولكنه ، كم من مرة أفسد منطقته من أجل قافية !

وانقطع عن ملحمة " فيرى كوين " لينظم قصائد موجزة ربما كانت تبرز شهرته ، من ذلك قصيدته " حبي الصغير " ، على شكل السونيت ، التي كانت تشبه هوى بترارك ونزواته وخيالاته . أو أنها ربما كانت تعكس أيام خطبته التي دامت عاماً لاليزابيث بويل . وقد تزوجها في ١٥٩٤ ، وشدا بأفراح الزفاف في أرق قصائده Epithalamium . وإنه ليقسم معنا مفاتيح العروس ، دون أثر أو أنانية .
يقول :

أنبتوني يا بنات التجار هل رأيتم
مخلوقاً جميلاً مثل هذا في بلدكم من قبل
بمثل هذه الملاحه والوسامة والرقه مثلها .
زينا نعمة الجمال وكثر الفضائل
وعيناها الواسعتان وكأتهما لؤلؤتان تشعان نورا ،
وجبهما الناصعة البياض كالعاج

ووجنتاها وكأنهما تفاحتان كسهما الشمس بحمرة الورد ،
وشفتاها كثمرتين من الكريز تسحران الرجال ليقضموهما .
وصدرها الذى يشبه وعاء من قشدة لم تنخر بعد ،
وثدياها أشبه بزنبقتين تفتحتا
وعنقها الناصع البياض مثل عمود من المرمر ،
وجسمها بأسره وكأنه قصر جميل ...
ولما انتهى الحفل والولائم أمر مدعويه أن ينصرفوا دون إبطاء ، قائلاً
هيا ، الآن اكففن أيتها الآنسات ، لقد انتهت مسراتكن ،
كفى ، ان النهار كله كان لكن
والآن ولى النهار ، والليل يرخى سدوله .
فأحضرن العروس إلى منزل العريس . . .
وضعنها فى مخدعها
وأحطنها بالزنبق والبنفسج
وضعن الأستار الحريرية فوقها ،
مع الملاءات المعطرة والأغطية المزركشة .
وليكن الليل هادئاً ساكناً
دون زوابع عاصفة أو شجارات صاحبة مخزنة .
كما رقد جوبيتر مع ألكمينا . . .
ولتشكف الآنسات والشبان عن الغناء ،
ولا تدعن الغابات يحجبهم أو يرجعن أصداءهم .
فهل ثمة عذراء زفت بمثل هذه العذوبة والحلاوة ؟

ودعم سبنسر هذا التحليق ، وهذه الانطلاقة « بأربع ترانيم » (١٥٩٦) يمجّد
فيها الحب الدنيوى والجمال الدنيوى : والحب الإلهى والجمال الإلهى . ونهج نهج
أفلاطون وفيسينو ، وكاستانيونى . ومهد الطريق للشاعر كيتس ، فأقر بما انترفت
من « أعمال شريرة كثيرة » ، فقرر فى نفسه أن ينفذ إلى أعماق الجمال الطبيعى
(٨)

ليجد ويشعر بالجمال الإلهي الذي يكمن بدرجات متفاوتة في كل ما هو على الأرض .
ولما كان سبنسر يعيش على بركان من الشقاء في إيرلنده ، فانه كان من الموت
قاب قوسين أو أدنى ، في كل يوم . وقبل أن ينفجر بركان الثورة ثانية ، كتب في
نثر رقيق (لأن الشاعر وحده هو الذي يستطيع أن يكتب نثرا جيدا) « وأيه في
الحالة الراهنة في إيرلنده » يدافع فيها عن طريقة أفضل لاستخدام الأموال وترتيب
الجنود الانجليز لإخضاع الجزيرة . وفي اكتوبر ١٥٩٨ قام الايرلنديون الذين جردوا من
أملاتهم في مونستر بثورة وحشية ، وطردها المستوطنين الانجليز وأحرقوا حصن
كلكلمان . ونجا سبنسر وزوجته بحياتهما وهربا إلى انجلترا . وبعد شهور ثلاثة ،
وقد انتهى رصيده الهوى والمال ، قضى الشاعر نحبه (١٥٩٩) ، ودفع اربل اسكس
الأصغر — الذي قدر له أن يلحق بسبنسر بعد فترة وجيزة ، دفع نفقات الخنازة ،
التي سار فيها النبلاء والشعراء الذين نثروا الأزهار ، وألقوا المراثي على قبره في
كنيسة وستمنستر .

وسادت انجلترا الآن لهفة جنونية على نظم ” السونيت “ ، نافست الالهفة على
الدراما ، وكلها تقريبا غاية في براعة الشكل ، ذات قالب واحد من حيث الموضوع
الرئيسي والعبارة ، وكلها تقريبا موجهة إلى العذارى أو الحماة ، تنعى عليهم أنهم
يغلون أيديهم إلى أعناقهم أولا ييسطونها إلى الشعراء ، وكانوا يستحثون الجمال على
أن يأذن بقطف ثماره قبل أن تذبل على سوقها . وقد تقتحم القصيدة في بعض الأحيان
نغمة مبتكرة ويبشر العاشق سيده بمولود مكافأة لها على الاقتران السريع . وينقب
كل شاعر فيجد فتاة أحلامه — دانييل : دليا ، لودج : فيليس ، كونستابل : ديانا ،
فولك جريفيل : ساليا . وكان أشهر ناظمي السونيت هؤلاء ، هو صمويل دانييل ،
على أن بن جونسون — الذي كان ” قاسيا “ أكثر منه ” لينا “ — قال عنه إنه
” رجل آمن وليس شاعرا “ (٢٢) ” وحومت قصيدة ميشيل درايتون ” Pegasus “
حول كل أشكال الشعر ، بما كان له من قدم في النثر . ولكن إحدى قصائده
ضربت على نغمة جديدة ، نوخزت الفتاة ونهبتها إلى مغبة صلودها ، بأن آذنها
بالوداع — ” لانا لم يكن ثمة رجاء أو عون ، تعالى ، تبدل الابل ثم نفترق ، “ .

وكان الأدب الإنجليزي في جملته في عهد اليزابث — فيما خلا الدراما — متخلفاً جيلاً عن الأدب الفرنسي . كان النثر قوياً مرناً ، وفي الغالب معقداً مطبياً إلى حد الضجر ، خيالياً ، ولكنه أحياناً يحرك المشاعر بجلاله الملكي أو ايقاعه الفخم . ولم ينتج النثر الإنجليزي أحداً مثل رابليه أو مونتاني ، وقلد الشعر الأشكال الأجنبية في حرص وحذر ، باستثناء *The Faerie Queen, Epithalamium* ولم يجد سبنسر قراء له في القارة قط ، كما لم يجد رونسار (شاعر فرنسي في القرن السادس عشر) قراء له في إنجلترا . فان الشعر يخلق من اللغة والعاطفة موسيقى لا يمكن الاستماع إليها خارج حدود الكلام ، لقد اتصلت الأغاني الشعبية البسيطة بالناس ووصات إليهم ، بشكل أشد وثاقاً مما فعل شعر القصور والبلاط ، فان الأغاني كانت معلقة على جدران البيوت والحانات ، وكانت تغنى وتباع في الشوارع ، وما زالت أغنية « لورد راندال » تهز مشاعرنا بلحنها الحزين (٢٣) . وربما كان هذا الشعر الشعبي — لا المحسنات البارة اللطيفة — في قصائد السونيت ، هي التي مهدت عقول الناس في عصر اليزابث ليقدروا شكسبير .

٥ - المسرح

كيف إذن ، صعد الأدب الإنجليزي التافه إلى هذا الحد في فترة الجفاف الطويل بين تشوسر وسبنسر ، نقول إذن كيف صعد هذا الأدب إلى شكسبير ؟ لعله بسبب نمو الثروة وانتشارها ، والسلام الطويل المثمر ، وبسبب الحرب المثيرة الظافرة ، والآداب الأجنبية والأسفار التي وسعت عقول الإنجليز . وكان بلوتس وترنس Terence يعلمان إنجلترا فن الملهاة كما يعلمها سنكا أساوب معالجة المأساة . ومثل الممثلون الإيطاليون في إنجلترا (١٥٧٧ وما بعدها) وأجريت آلاف التجارب . وفيما بين عامي ١٥٩٢ و ١٦٤٢ شاهدت إنجلترا ٤٣٥ ملهاة تمثل . وتطورت الهزليات والفصول الإضافية إلى الملهاة . وتخلت الأسرار الدينية والتعاليم الأخلاقية عن مكانها للمسرحيات المأساوية الدنيوية ، كما فقدت الأساطير المقدسة سلطانها على القصيدة . وفي ١٥٥٣ أخرج نيقولا يودال في *Ralph Roister Doister* أول ملهاة

إنجليزية في شكل كلاسيكى قديم . وفي ١٥٦٢ مثل المحامون في The Inner Temple مسرحية Gorboduc وهى أول مأساة فى شكل كلاسيكى .

وبدا لبعض الوقت أن ذلك الشكل ، المنحدر من رومه ، كان محتوما عليه أن يصوغ المسرحية الإنجليزية فى قالبها ، فى عصر اليزابث . ودافع الجامعيون مثل هارفى ، والمحامون الشعراء مثل جورج جاسكوين ، والذين تلقوا تعليما كلاسيكيا مثل سدن - دافعوا عن ضرورة ملاحظة ثلاث « وحدات » فى الرواية ، أى أنه لابد أن يكون هناك « عمل » (موضوع) ، وأن هذا لابد أن يجرى فى « مكان » واحد ، ويتمثل فى « يوم » واحد لا أكثر . ومبلغ علمنا أن هذه الوحدات صاغها لأول مرة لودوفيكو كاستلفترو (١٥٧٠) فى تعليق على « شعريات » أرسطو . إن أرسطو نفسه لا يتطلب إلا وحدة العمل ، ويوصى بأن يجرى هذا العمل « خلال دورة واحدة للشمس » ويضيف ما يمكن أن نسميه وحدة الحالة النفسية بمعنى أن الملهة « التى تمثل الطبقة الدنيا من الناس » لا يجوز أن تختلط بالمأساة « وهى تمثل العمل البطولى (٢١) » . وأخذ سدن فى كتابه « دفاع عن الشعر » ، نظرية وحدات المسرحية عن كاستلفترو ، وطبقها بدقة ، ولكن فى مرح لطيف ، على الروايات فى عصر اليزابث ، تلك التى كانت الجغرافية طاغية فيها :

فترى فيها آسيا فى ناحية ، وأفريقية فى الناحية الأخرى ، وكذلك ممالك سفلى كثيرة ، حتى أن الممثل حين يدخل ، لابد أن يبدأ بأن يخبرك أين هو . . . أما عن الزمن فإنهم أكثر تحرراً ، ومنه لأمر عادى أن يقع أميران شابان فى شرك الغرام ، وبعد عوائق حمة تحمل العشيقة فى طفل من شاب وصيم . . . ثم ينمو حتى يصبح رجلا يقع فى شرك الغرام . مستعداً لأن ينجب طفلا آخر . وكل هذا على مدى ساعتين (٢٥) .

واتبعت فرنسا القواعد الكلاسيكية وأنجبت راسين . أما انجلترا فنبلتها وهيأت لمسرحيتها المأساوية حرية رومانتيكية ومجاليا يغلب عليه المذهب الطبيعى ، وأنجبت شكبير . وكان المثل الأعلى لعصر النهضة فى انجلترا فكان الحرية والإرادة

والمرح والحياة . وكان جمهور النظارة في عصر الزابث يتألف من صغار اللوردات ومن متوسطى الحال ومن محتلى مقاعد الدرجة الثالثة ، وكان ينبغي أن يقدم لهذا الجمهور غذاء دسم متنوع ، حيث كان له قدرة على الضحك ملء أشداقه ، ولم يكن يعبأ بخفارى قبور يتجاذبون أطراف الحديث في المذاهب الفلسفية مع أمير ، وكان لهذا الجمهور خيال لم يروض بعد ، يمكن أن يقفز من مكان إلى مكان ويعبر قارة بأسرها ، لأية إشارة أو تلميح . وكانت المسرحية في عهد الزابث تمثل الإنجليز في أيامها ، لا الإغريق في عهد بريكلز ، ولا المرنسين في عهد البوربون ، ومن ثم أصبحت الفن القومى ، على حين أن الفنون التى اتبعت نماذج أجنبية لم تتغلغل جذورها في إنجلترا .

وكان على المسرحية الإنجليزية أن تخوض معركة أخرى قبل أن تخطو إلى مارلو وشكسبير ، فقد نبذت الحركة البيوريتانية الناشئة مسرح الزابث على أنه وكر لاثنية والتجديف الدنس ، واستنكرت وجود النساء والبغايا بين الجمهور ، واقترب المواخير من المسارح . وفي ١٥٧٧ نشر نورثروك نقداً لا ذعاً عنيفاً ضد "لعب الرد والرقص والروايات . والفصول الضاحكة " :

لأنى مقتنع بأن الشيطان ليس لديه وسيلة أسرع ولا مدرسة أصلح ، لينفذ رغبته ، ويلقها ، ويوقع الرجال والنساء في شرك الغواية والاسق والشهوات الدنيئة لدى بات الهوى الداعرات الشريدات ، من هذه الروايات والمسارح . ومن ثم فانه من الضرورى أن تحظر ه ه الأماكن ويمنع هؤلاء الممثلون ، وأن يقضى عليهم ، وأن تهدم المسارح بأمر السلطات ، كما هو الحال بالنسبة للمواخير وبيوت الدعارة (٣٦) .

وكان كتاب ستيفن جوسون " مدرسة لهجاء " معتدلاً نسبياً . واعترف بأن ثمة روايات وممثلين ، " لا غبار عليهم " . ولكنه عندما رد عليه لودج ، أقلع جوسون عن أى تمييز . وفي كتابه " Players Confuted in Five Actions " ، وصف الروايات بأنها " غذاء للاخطيئة وللشغب وللزنى " ، والممثلين بأنهم " أماتذة

للرذيلة ومعدو الخلاعة والفجور^(٣٧). " ورأى النقاد في المهابة صورا للرذيلة تفسد الأخلاق ، وفي المأساة أمثلة مثيرة للقتل والحيانة^(٣٨) والتدرد . وفي السنوات الأولى من حكم اليزابث كان يوم الأحد هو اليوم المخصص للتمثيليات . وكانت الأبواق تعلن عنها ، كما تدعو أجراس الكنائس الناس إلى صلوات المساء . وكم فزع رجال الدين من تسلل جمهور الكنيسة خلصة من صلواتهم ليزحوا المسرح . وتساءل أحد الوعاظ : أليست رواية قدرة تستحث بنفخة من بوق ألفا من الناس للحضور بأسرع مما تحضر دقات الناقوس لمدة ساعة مائة منهم لسماع موعظة^(٣٩) ؟ » وذهب نورثبروك إلى أبعد من ذلك فقال : « إذا كنتين تعرفن كيف تخدعن أزواجكن ، أو خداع الأزواج لزوجاتهم ، وكيف تمثلن دور بنات الهوى ، وكيف يكون الملق والمدهنة والكذب والقتل والتجديف على الله ، وترديد لأغاني القدرة ... فهلا تتعلمن كيف تمارسن كل هذا في مثل هذه الفصول المأجنة ؟ »^(٤٠)

ورد الكتاب المسرحيون على هذا بنشرات أصدروها ، وبلسخيرية من الليبوريتانيين في مسرحياتهم . من ذلك ما أورد مالفوليو في رواية « ليلة المائة عشرة » ، حيث يسأل سير توبي بلش لمهرج في تلك الرواية : " هل تظن أنه ان يكون هناك كعك وجعة لأنك رجل متمسك بأهداب الفضيلة ؟ " فيجيب لمهرج " نعم ، وبحق سئنت آن ، وسيكون الزنجيل كذلك ساخنا في انهم^(٤١) . " واستمر هؤلاء الكتاب ، حتى شكسبير نفسه ، يملحون رواياتهم بشيء من أعمال العنف والغضب وسفاح ذوى اقربى والزنى والدعارة . وهكذا في رواية شكسبير " بريكلز " مشهد يعرض حجرة في ماخور يشكو مديره العام من أن : " العاهلات عنده بتن من العمل المتواصل ، في أسوأ حال^(٤٢) " .

وذهبت سلطات مدينة لندن — وكان بعضهم من الليبوريتانيين — إلى أن البيوريتانيين ألزموا معارضتهم الحجة . وفي ١٥٧٤ حرم « المجالس العام » تمثيل الروايات إلا بعد فحصها وإجازتها ، ومن هنا جاء بيت شكسبير " لقد كتمت السلطات أفواه الفن^(٤٣) . ولكن ، لحسن الحظ ، كانت اليزابث ومجلس شورى الملكة مغرمين بالمسرحيات : وكان لبعض اللوردات فرق من الممثلين ، وفي ظل

رقابة مترامية على المصنفات ، أجزت ست فرق لإخراج الروايات فى المدينة .

وفى ١٥٧٦ كانت الأعمال المسرحية تجرى أساساً على منصات مؤقتة فى أفنية الفنادق . ولكن فى تلك السنة بنى جيمس بوريدج أول مسرح دائم فى إنجلترا ، وأطلق عليه ببساطة اسم " المسرح " . وللأفلات من سلطان الجهات المشغولة فى لندن أقيم المسرح خارج حدود المدينة نفسها ، فى ضاحية شورديث ، وسرعان ما أقيمت مسارح أخرى : (١٥٧٧) The Black Friars , The Curtain (١٥٩٦) The Fortune (١٥٩٩) . وفى تلك السنة الأخيرة هدم ريتشارد وكوثبرت بوريدج مسرح والدهما ، وأقاما المسرح المشهور Globe فى سوثوارك على نهر التاميز تماماً . وكان مئمن الأضلاع فى شكله الخارجى ، ولكن ربما كان مستديراً فى الداخل ، ومن ثم أطلق عليه شكسبير " هذه الدائرة الخشبية " This Wooden O (١٤) وكانت كل مسارح لندن من الخشب قبل ١٦٢٣ . وكان معظمها عبارة عن مدرجات كبيرة تتسع لنحو ألفين من المتفرجين جالسين فى صفوف من شرفات محيطة ، ويمكن لألف آخرين أن يشاهدوا الرواية وقوفاً فى الساحة التى حول المنصة أو خشبة المسرح . وهؤلاء " الألف " هم " جمهور الدرجة الثالثة " الذين وبخهم هملت بأنهم « المشهد الصامت والضجيج » (١٥) وكان المشاهد الواقف يدفع بنساً واحداً ، أما الجالس فى الشرفات فيدفع بنسين أو ثلاثة ، أما المقعد على المنصة فكان يكلف أكثر من ذلك قليلاً . وكانت هذه المنصة عبارة عن منبسط يخرج من أحد الجدران إلى وسط الساحة . وفى المؤخرة كانت غرفة الملابس ، وفها يرتدى الممثلون ملابسهم ، ويتولى " خازن المسرح " أمر أدوات التمثيل والإخراج المسرحى ، وكانت تشمل قبوراً وحاجم وصناديق أشجار ، وشجيرات الورد ، وعلب مجوهرات وستائر ومراجل ، وسلام وأسلحة ، وأدوات ، وقوارير دم وبعض رؤوس مفصولة وكان يمكن بواسطة الآلات إنزال الآلهة والالهات من السماء ، أو رفع العفاريت والسحرة من الأرض ، كما يمكن إسقاط المطر بشد جبل ، وتعليق الشمس فى السماء « بحزام مزدوج » (١٦) . وكان على هذه الأدوات أن تعوض عن جهاز المسرح . وعوقت المنصة المسكشوفة غير المحجوة سرعة تغيير الوضع . وعوضاً عن ذلك كان

التمثيل وسط الجمهور تماماً ، حتى ليكاد يحس بأنه جزء من الحدث .

ولم يكن النظارة يشكلون جزءاً صغيراً من المسرح . وكان متعهدو الحفلات يبيعون التين والتفاح والبندق والكتيبات للمتفرجين ، وفيما بعد ذلك — إذا صدقنا وليم برين البيوريتانى ، — كانت الغلايين تقدم للنساء^(١٧) . وجاءت النساء إلى الروايات أفواجا ، لايوقهن عن ذلك تحذيرات المنابر بأن مثل هذا الاختلاط يخرض على الغواية . وفي بعض الأحيان — حين كان الصراع الطبقي يعترض المهرجية ، كان جمهور الدرجة الثالثة يقذفون بمخلفات طعامهم على المتأقنين الجالسين على المنصة ، ويجدر بنا ، لكي نفهم الرواية في عصر اليزابث ، أن نذكر هذا الجمهور : العاطفة التي تهمل لقصة حب ، والمرح القلبي الخماسي الذي تلهف على رؤية المهرجين مع الملوك ، والخيلاء التي استساغت البلاغة ، والحيوية الفظة التي استمتعت بمشاهد العنف — كما نذكر قرب المنصة المثلثة الجوانب التي تغرى بالمناجاة والكلام على انفراد .

وكثر الممثلون ، وكاد الممثلون جوابو الآفاق أن يظهر وافي أية مدينة تقريباً في أيام الأعياد والاحتفالات ، يمثلون في ميدان القرية ، أو في فناء الحانة ، أو في حظيرة للماشية أو في قصر من القصور ، وفي أيام شكسبير لم يكن هناك ممثلات ، وكان الأولاد يمثلون الأدوار النسائية ، فكان يمكن للمشاهدين في أيام اليزابث أن يروا ولداً يمثل امرأة متنكرة في زي فتى أو رجل . وفي المدارس الخاصة الاستقرائية قدم الطلبة مسرحيات كجزء من تدريبهم أودراستهم . ونافست فرق الممثلين الأولاد هذه فرق الممثلين الكبار . عن طريق عرض الروايات في مسارح خاصة للجمهور وللمتفرجين الذين يدفعون أجوراً ، وشكا شكسبير من هذه المنافسة^(١٨) ، وتوقفت بعد ١٦٢٦ .

وحتى يتفادى الممثلون البالغون إدراجهم في مصاف المتشردين ، نظموا أنفسهم في فرق تحت رعاية وحماية النبلاء الأثرياء — ليستر ، سسكس ، أكسفورد ، اسكس وكان للورد أمير البحر فرقة ، وكذلك للورد كبير الأمتاء ، وكان هؤلاء الرعاية والحماة يدفعون أجور الممثلين عن العروض التي يقدمونها في قاعات البارونات والنبلاء . وفيما عدا هذا عاش الممثلون مزعزين غير مستقرين على أنصبتهم في فرقهم .

ولم تكن الأنصبة توزع توزيعاً عادلاً ، فكان للمدير الثالث ، واستولى نجوم الممثلين على نصيب الأسد من الباقي . وترك ريتشارد بوريدج - وهو أشهر هؤلاء النجوم - أملاً كآ تدر ٣٠٠ جنيه سنوياً ، أما منافسه إدوارد ألين Allyn فقد شاد وتبرع بكلية دلوتش في لندن . وكوفء مشاهير رجال المسرح بأعجاب الجمهور الأعْمى بهم ، ويتهاقت السيدات عليهم يخطبن ودهم .

ويروى لنا جون ماننجهام في مذكراته عن مارس ١٦٠٢ قصة مشهورة :

ذات مرة ، حين مثل بوريدج "ريتشارد الثالث" ، كانت هناك مواطنة قريبة الشبه به إلى حد بعيد ؛ لدرجة أنها قبل أن تنصرف من الرواية حددت له موعداً ليحضر إليها تلك الليلة باسم ريتشارد الثالث . وكان شكسبير يسترق السمع إلى الحديث ، فسبقه إليها ، ولقى ترحيباً ونفذ خطته قبل حضور بوريدج . ثم جاء رسول يقول إن ريتشارد الثالث بالباب ، فرد شكسبير الرسول ليقول إن وليم الفاتح سيق ريتشارد الثالث (٤٩) .

٦ - كرسوفر مارلو ١٥٦٤ - ١٥٩٣

لم ينج كتاب المسرح من الريح قدر ما جنى الممثلون . ذلك أنهم باعوا رواياتهم دون تحفظ إلى الفرق المسرحية لقاء مبلغ يتراوح بين ٤ و ٨ جنيهات ، ولم يحتفظوا بحقوقهم في المخطوطة أى في أصل الرواية ، وحظرت الفرقة عادة نشر النص لئلا تستخدمه فرقة منافسة . وسجل كاتب الاختزال الرواية أحياناً في الوقت الذي تمثل فيه . وربما أصدر صاحب المطبعة من هذا التسجيل طبعة مسروقة محرفة لا يصيب المؤلف منها إلا ضغط الدم الشديد . ولم تحمل مثل هذه الطبعات دوماً اسم المؤلف ومن ثم ، فإن الروايات مثل Arden of Faversham (١٥٩٢) عمرت عدة قرون دون أن تحمل اسم مؤلفها .

وبعد ١٥٩٠ عاش المسرح الإنجليزي على روايات طابعها القصة ، ولو أن عدداً قليلاً منها فقط هو الذي عمر لأكثر من يوم . وزخرف جون ليلي ملهياته بأغان شعبية ساحرة فقد مهد السحر الرقيق في روايته Endymion لرواية « حلم منتصف ليلة صيف » .

وربما تبادلت رواية روبرت جرين « Friar Bacon and Friar Bungay » (١٥٨٩) التي عالجت عجائب السحر ، نقول ربما تبادلت الفكرة مع رواية مارلو « دكتور فاوست » (١٥٨٨ ؟ — ١٥٩٢ ؟) . وروت « المأساة الأسبانية » لتوماس كد (١٨٥٩ ؟) قصة قتل دامية كادت لا تبقى على أحد في النهاية ، وأوحى نجاحها إلى كتاب الرواية في عصر اليزابث ودفعهم إلى منافسة القواد والأطباء في سفك الدماء . وهنا ، كما هو الحال في هملت نجد « شبحا » يطالب بالثأر ، كما نجد رواية داخل رواية .

وعمد كريستوفر مارلو قبل تعميد شكسبير بشهرين اثنين ، وهو ابن صانع أحذية في كنتربري ، ومن ثم فانه ما كان ليحظى بالتعليم الجامعي لولا أن رئيس الأساقفة باركر قدم له منحة دراسية . وطوال سني دراسته بالكلية استخدمه سير فرانسيس ولسنهام جاسوسا للتحري عن أية مؤامرات ضد الملكة . ولقد زعزت دراسته لآداب الإغريق والرومان من عقيدته الدينية ، كما أضنى اطلاعه على آراء مكيافللي على تشككه اتجاهها إلى المذهب الكاكي (السخرية) . وانتقل إلى لندن بعد الحصول على درجة الأستاذية (١٥٨٧) ، وأقام في غرفة مع توماس كد . وانضم إلى حلقة المفكرين الأحرار التي زعمها رالي وهاريوت . ورفع ريتشارد بارنز — أحد عمال الحكومة — إلى الملكة في ٣ يونية ١٥٨٩ تقريراً جاء فيه أن مارلو كان قد أعلن أن أول أصل في الدين لم يكن إلا إبقاء الناس في رعب وفرع .. وأن المسيح كان ابن زنى . . . وأنه إذا كان ثمة ديانة حققة فهي الكاثوليكية ، لأن عبادة الله عندهم تقوم على مزيد من الطقوس ، وأن جميع البروتستانت حمير مراءون منافقون . . . وأن العهد الجديد (الإنجيل) كله مكتوب بشكل قدر بذيء . ويضيف بارنز « ثم أن مارلو هذا . . . في كل اجتماع يخضره تقريبا . . . يحرض الناس على الإلحاد ، ويريدهم ألا يخشوا » البع بع » والغيلان ، مزدربا كل الازدراء للرب ورسله (٥٠) . « كما أن بارنز (الذي أعدم شنقا في ١٥٩٤ لفعلة شائنة) أضاف — ليحكم التدبير — أن مارلو دافع عن اللواط (٥١) . ووصف روبرت جرين في دعوته أصدقاءه إلى الإصلاح ، وهو على فراش الموت ، نقول « وصف مارلو

بأنه مبال إلى التجديف والإلحاد^(٥٢) وقرر توماس كذ - وقد قبض عليه في ١٢ مايو ١٥٩٣ - تحت تأثير التعذيب ، أن مارلو كان مارقا مدمنا للخسر ، قاسى القلب » ، معتادا على « السخرية من الكتب المقدسة » و « الاستهزاء بالصلوات^(٥٣) » .

وقبل أن تصل هذه التقارير إلى الحكومة بوقت طويل ، كان مارلو قد كتب وأخرج للمسرح روايات تشير إلى كفره وشكوكه في الكتب الدينية . ومن الواضح أنه ألف Tamburlaine The Great في الكلية وأنه أخرجها في عام تخرجه ، وإن تمجيدها للمعرفة والعلم والجمال والقوة ليكشف عن مزاج الشاعر المصطبغ بمبادئ فاوست (فيلسوف يبيع نفسه للشيطان مقابل حصوله على العلم والمعرفة) .

إن نفوسنا التي تستطيع بما أوتيت من مواهب

أن تدرك عجيب صنع العالم ،

وتقيس مدار كل كوكب سيار ،

ولا تزال تصعد وراء المعرفة اللانهائية ،

وتنتقل دائما مثل الأجرام التي لا يقر لها قرار

تريدنا أن نفنى أنفسنا ، وألأنهدأ ،

حتى نصل إلى أنضج الثمار في كل شيء^(٥٤) .

وكانت الروايتان اللتان كتبهما عن تيمور ثمان عن فجاجتهما ، وكان تصوير الشخصيات مبسطة أكثر مما ينبغي التبسيط - فكل شخص يمثل صفة واحدة ، فتامبورلين هو الزهو بالقوة ، ويكاد الزهو أن يكون غرور طالب جامعي منتفخ الأوداج ببدع وأشياء جديدة لم يتمثلها جيدا في عقله ، لا أن يكون ثقة هادئة بالنفس لدى ملك ظافر . وتجري القصة على أنهار من الدماء تعترضها السدود أو الاحتمالات البعيدة . والأسلوب ينزع إلى الكلام المنق الرنان . ماذا إذن أكسب هذه الرواية أعظم النجاح ، إلى هذا الحد ، في عصر الزبائث ؟ يحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى ما فيها من عنف وسفك دماء وتنميق ، ولكننا أيضا قد نؤمن بأنه يرجع إلى ما فيها من زندقة وهرطقة وفصاحة : ففيها أفكار تلوى بجرأة أكثر ،

ووصور يحس بها المرء إحساساً أعمق . وعبارات استخدمت بذكاء أكثر مما سمع
أو عرف في المسرح الاليزابيثي من قبل . وهنا كانت عشرات من « الأبيات
العظيمة » مما حدا بجونسون أن يمتدحها ، وقطع تنسم بجمال شجى ، حتى لقد ذهب
سوينبرن إلى أنها فريدة في نوعها .

وأعجل التهليل والتهافت مارلو ، فأسرع الخطى ، وكتب بكل ما أوتى من قوة
الروح أعظم أعماله : « التاريخ الفاجع للدكتور فاوست » (١٥٨٨ ؟) . إن أخلاق
العصور الوسطى التي ربما أقرت « أن بهجة المعرفة بهجة يعروها الحزن والأسى » (٥٥) ،
وأن في المزيد من الحكمة . مزيداً من البلية (٥٦) » كانت قد دمغت اللفظة الجامحة على
المعرفة بأنها إثم عظيم ، بيد أن طموح العصور الوسطى تحدى هذا الحظر ، حتى
إلى حد مناشدة السحر والشيطان بغية الوقوف على أسرار الطبيعة وقواها . وإن مارلو
ليمثل فاوست على أنه طبيب ويتنبرج العالم الشهير الذي يتميز غيظاً من الحدود الضيقة
لمعرفته وعلمه ، ويحلم بوسائل سحرية تجعله يحيط بكل شيء علماً .

إن كل شيء يتحرك بين القطبين الساكنين

سوف يكون تحت أمرى . . .

وهل أجعل الأرواح تأتبنى بكل ما أريد ،

وتبدد كل غموض والتباس .

وتقوم بكل مغامرة يائسة أبتغيها ؟

سأجعلها تطير إلى الهند من أجل الذهب

وتنقب في المحيطات وراء لآلىء الشرق

وتفتش في كل أركان الدنيا المكتشفة حديثاً

من أجل الفاكهة الشهية وكل ألوان النعيم والترف ،

وسأجعلها تتلو على غرائب الفلسفة .

وتقص على أنباء الملوك الأجانب (٥٧) .

وبناء على نداء منه ، يظهر مفستوفيلس . ويعرض عليه أربعاً وعشرين

سنة من السعادة والقوة ، شريطة أن يبيع نفسه إلى لوسيفر ويوافق فاوست وبوقع

العقد بدم ذراعه المقطوعة . وكان أول مطلب له هو أن يأتيه بأجل فتاة في ألمانيا لتكون زوجة له ، " لأننى شهوانى لعوب داعر " ، ولكن مفستوفيلس يثنيه عن الزواج ، ويقترح بدلا منه مجموعة متعاقبة من الخليلات والمخيطيات . ويطلب فاوست بهيلين غادة ترواده ، فتأتى إليه وبغرق هو فى غمرة النشوة والابتهاج :

هل هذا هو الوجه الوحيد الذى هاجم ألف سفينة
وأحرق أبراج ترواده الشاهقة ؟
أيها الجميلة هيلين امضى الخلود بقبلة منك . . .
آه . . . إنك أحلى من نسيم المساء
مكسوة بجمال ألف من النجوم

وعولج المشهد الأخير فى قوة هائلة : التوصل الأخير إلى الله فى شئ من الرحمة ، أو على الأقل فى نبرة من اللعنة والعذاب — « فليعيش فاوست ألف سنة بل مائة ألف سنة فى الجحيم ، لينجو فى النهاية » — ثم اختفاء فاوست عندما أذنت الساعة بحلول منتصف الليل ، وسط ضجة هائلة من السحب المعتمدة المصطدمة بعضها ببعض . وتتشد الفرقة الموسيقية كلمات تخليد ذكره — وذكرى مارلو :

انقطع الغصن الذى نأ وترعرع مستقيما عاليا ،
واحترق فرع الغار الذى يكلل أبوللو

ربما استطاع مارلو ، فى هذه الروايات ، أن يظهر ميوله الخاصة نحو المعرفة والجمال والقوة ، ولكن تطهير العواطف ، أو أثر التنقية والتنظيف — ذلك الذى عزاه أرسطو إلى المسرحية المأساوية ، كان يظهر فى المؤلف أكثر منه فى جمهور المشاهدين . وفى مسرحية « يهودى مالطه » (١٥٨٩ ؟) تأخذ الرغبة فى القوة شكلا متوسطا من جشع المال والثروة ، وتدافع عن نفسها فى الخطبة التى ألقاها مكباغل :

إنى لأعجب لأولئك الذين يبغضوننى كل البغض .
وعلى الرغم من أن بعضهم يندد علانية بكتبى
فانهم ، سيقرونها ، ومن ثم يصلون

إلى كرسى بطرس ، وعندما يتخلصون منى
سيكون أعدائى الصاعدون خطراً عليهم
ولئى لأعتبر الدين لعبة أطفال ،
وأعتقد أنه ليس ثمة خطيئة غير الجهل .

ومرة أخرى نجد أن بارباس مقرض النقود صفة واحدة مجسدة ، هى الجشع
إلى حد الكراهية لكل من يعوق سبيل مكاسبه فى صورة ساخرة بغیضة عولجت
برذائل مهیبة .

لقد تعلمت فى فلورنسة كيف أقبل يدى
وأرفع ذراعى عندما ينادونى يا كلب ،
وأتوارى ذليلاً مثل أى أخ عارى القدمين
أملأ فى أن أراهم يموتون جوعاً فى حظيرة (٥٨) .

ولأنه ، وهوى دقنى التأملى فى مجوهراته ، يهتز طرباً ” لثروتهم التى لا حد لها ،
فى غرفة صغيرة (٥٩) “ وعندما تستعيد ابنته حقائب أمواله المفقودة ، يصبح فى خليط
من المشاعر ، سبق بها شيلوك ، ” آه يا ابنتى ، ذهبى ، ثروتى ، بهجى (٦٠) “ .
وفى هذه الرواية قوة تكاد تكون ضراوة ، وفيها وخز بالألقاب وقوة فى العبارة ،
أدت بمارلو ، بين الحين والحين ، إلى الاقتراب كثيراً من شكسبير .

وكان أشد اقتراباً منه فى رواية إدوارد الثانى (١٥٩٢) ، فلما أن توج الملك
الضغير أرسل إلى صديقه الأغريقى ” جافستون ، وأغدق عليه بسخاء القبلات
والمناصب والأموال ، فثار النبلاء الذين أهملهم وخلعوا إدوارد الذى اتجه إلى
الفلسفة ، فنأى رفاةً . الباقيين :

تعال يا سبنسر ، تعال يا بالدوك ، اجلسا إلى جوارى
جربا الآن تلك الفلسفة ،

التي فى بيوت حضانتنا المشهورة للفنون
كنتم ترضعونها من أفلاطون وأرسطو .

إن هذه الرواية (إدوارد الثانى) — بهذا البنيان المحكم ، وبالشعر المفعم بالحساسية والخيال والقوة ، وبهذه الشخصيات التى رسمت فى وضوح وتماسك ، وبهذا الملك الممزوج من اللواط والزهو ، ومع ذلك يمكن الصفح عنه فى بساطة صباه وجماله الغض — نقول إن هذه الرواية بكل ما ذكرنا ، كانت قيد خطوة من رواية شكسبير « ريتشارد الثانى » التى أعقبتها بسنة واحدة .

وماذا كان عساه ينجر هذا الكاتب المسرحى الذى بلغ من العمر سبعا وعشرين سنة ، إذا اكتمل نموه . فى مثل تلك السن كان شكسبير يكتب توافه مثل :
Two Gentlemen of Verona, Acomedy of Errors Love,s Labour's Lost
وفى « يهودى مالطة » كان مارلو يعرف كيف يجعل كل منظر يدفع أمامه مكيدة مرتبة ، وفى « إدوارد الثانى » تعلم كيف يعرف الشخصية الواحدة على أنها أكثر من صفة واحدة مجسدة ، وربما تيسر له فى عام أو عامين تطهير رواياته من الكلام المنمق الطنان والأحداث المثيرة ، ولربما سما إلى فلسفة أرحب أفقا ، وإلى تعاطف أعظم مع أساطير بنى الإنسان ونقاط الضعف فيهم . وربما كانت نقيصة المعيبة هى الحاجة إلى الفكاهة ، فليس ثمة ضحك لطيف فى رواياته ، فاللهو العارض — كما هو الحال فى روايات شكسبير ، لا يؤدى مهمته الصحيحة فى المأساة — ألا وهى تهدئة روح المستمع قبل الارتفاع به إلى ذروة المأساة . وكان يستطيع أن يقدر الجمال الحسى أو المادى فى النساء ، ولا يقدر ضعفهن وقلقهن وكياستهن . وليس فى رواياته شخصية نسوية قوية نشيطة ، حتى فى الروايتين اللتين لم يكملهما « ديدو » و « ملكة قرطاجة » .

ولم يبق أمامنا إلا الشعر . وأحيانا تغلب الخطيب على الشاعر ، فصاح الخطيب « بخطبة عظيمة مدوية »^(٦١) . ولكن كم من مشهد كان الشعر المشرق ينساب فيه بصور حية وألفاظ متناغمة إلى حد أن الإنسان قد يخطئ بعض السطور فيظنها من فيض خيال شكسبير . وأثبت الشعر المرسل عند مارلو أنه الأداة الصحيحة للمسرحية الإنجليزية ، وقد يكون أحيانا مملا على وتيرة واحدة ، ولكنه عادة متنوع فى أوزانه ، محقق لاتصال وترباط يبدو أن طبيعيين .

وأسدل الستار الآن فجأة على « تاريخه الفاجع » الخاص ، ففي ٣٠ مايو ١٥٩٣ ، اجتمع ثلاثة من جواسيس الحكومة — انجرام فريزر ، نيقولا سكيرز ، روبرت بولى — بشاعرنا مارلو — وربما كان هو الآخر لا يزال جاسوسا — اجتمع الأربعة للعشاء فى منزل أو حانة فى دتفورد ، على بعد أميل من لندن . وطبقاً لما جاء فى تقرير وليم دانبي — المحقق فى أسباب الوفيات المشتبه فيها — « تراشق فريزر ومارلو بالفاظ نابية قبيحة فى تبيان السبب الذى من أجله لم يتفقا . . . على دفع نفقات العشاء . فما كان من مارلو إلا أن استل خنجرًا من حزام فريزر وطعنه به فأصابه ببعض جروح سطحية . فأمسك فريزر بيد مارلو وسدد الخنجر إليه فوراً ، وأصابه بجرح قاتل عمقه بوصتان فى عينه اليمنى . . . ماث المدعو كرسstofر مورلى متأثراً به فى الحال » ، حيث وصل النصل إلى المخ . وقبض على فريزر فترافع بأنه كان فى حالة دفاع عن النفس ، وأفرج عنه بعد شهر . أما مارلو فقد وورى التراب فى أول يونية فى قبر غير معروف الآن (١٢) . وقد بلغ من العمر تسعة وعشرين ربيعاً .

وبالإضافة إلى Dido ترك مارلو شذرتين غاية فى السمو . أما Hero and Leander فهى قصيدة رومانتيكية ، من المقاطع ذوات البيتين من نوع الملحمة ، عن قصة موزائيس التى حكى فى القرن الخامس عن شاب قطع الدردنيل سباحاً ليوفى بموعده لقاء . وإن أنشودة « الراعى المشبوب العاطفة فى الطريق إلى حبيبته » . هى واحدة من أعظم الأغانى الشعبية فى عهد أليزابث . واعترف شكسبير اعترافاً جميلاً بفضل مارلو ، فأجرى فقرات من هذه القصيدة على لسان سير هيو أيفانز فى رواية « الزوجات المرحات فى وندسور » ، كما أشار إليها إشارة رقيقة فى رواية « على هواك As You Like It » :

أيها الراعى الذى قضى نحبه ، إنى أرى الآن قولك المأثور فى القوة
« من ذا الذى أحب . إذا لم يكن أحب لأول نظرة ؟ »

وهذا هو البيت رقم ٧٦ من رواية مارلو Hero and Leander

لقد أنجز مارلو الشئ الكثير في العمر القصير . ولقد جعل من الشعر المرسل كلاماً مرناً قوياً . وأنقذ المسرح على أيام اليزابث من دعاة القديم ومن البيوريتانيين وأضنى أشكالهم المحددة الواضحة على مسرحيات الأفكار ومسرحيات التاريخ الإنجليزي . وترك بصماته على شكسبير في رواية تاجر البندقية وريتشارد الثاني ، وفي شعر الغزل ، وفي الأسلوب البليغ الفخم . وبظهور مارلو، وكيد Kid ، ولودج ، وجرين ، وبيل Peele ، كانت الطرق قد فتحت ، وكان شكل المسرحية وبنائها وأسلوبها ومادتها قد هيئت كلها . فلم يكن شكسبير معجزة ، بل كان منفذاً ومنجزاً لما بدأ به هؤلاء جميعهم .

الفصل الرابع

وليم شكسبير

١٥٦٤ - ١٦١٦

١... أيام الشباب ١٥٦٤ - ١٥٨٥

فلنلخص الآن ، استكمالاً للبحث ، ما يعرفه نصف العالم عن شكسبير . واليوم وقد عكف الباحثون المخلصون على فحص مخططاته ودراستها لثلاثة قرون . فإنه يهمننا أن نقيس مانعرف عنه - وهناك شيء كثير يطرح جانباً لأنه غير جدير بالمناقشة ، وهناك الشكوك التي تثار حول تأليفه لكل الروايات التي نسبت إليه تقريباً .

ومهما يكن من أمر فإننا لسنا على يقين من اسمه . فقد أبحاث الزباث من الأخيرة في هجاء الكلمات أكثر مما أبحاث في حرية العقيدة ، ولربما حملت نفس الوثيقة الواحدة عدة رِق لهجاء كلمة واحدة بعينها ، ولربما وقع رجل بعينه اسمه بأشكال مختلفة تبعاً لمزاجه وسرعته في الكتابة . وكذلك كتب المعاصرون مارلو ، ماراين ، مورلي وغيرها ، أما توقعيات شكسبير الستة الباقية فهي كما تقرأ : Willm Shaksp ، William Shakspeare—Willm Shakspere—Wm Shakspe - William Shakespe وهو لهجاء انسائد الآن ، وليس له ما يؤيده في مخطوطاته ، والتوقعات الثلاثة الأخيرة تنبع من نفس الفكرة .

وكانت أمه ماري آردن . من أسرة قديمة في ووركشير . وقد قدمت إلى جون شكسبير ، ابن ستاجر أرض والدنا ، صداقاً ضخماً نقداً وأرضاً ، وأنجبت له ثمانية أطفال كان ثالثهم وليم . وأصبح جون من رجال الأعمال الأثرياء الناجحين في ستراتفورد على نهر الآفون ، واشترى دارين ، وخدم بلده ذائلاً للجنة . ومسئولاً عن الأمن ، وعضواً في مجلس المدينة ، ومساعداً للأمور التنفيذية ، وأحد من الفقراء

بسخره وبعد ١٥٧٢ انحطت موارده. وأقيمت عليه تدعوى من أجل ثلاثين جنيتها، وأخفق في دفع التهمة عنه، وصدر أمر بالقبض عليه . وفي ١٥٨٠، ولأسباب مجهولة، مثل ألام المحكمة ليقدم ضمانا بعدم الإخلال بالأمن . وفي ١٥٩٢ سجل اسمه ضمن الذين « لا يحضرون إلى الكنيسة شهريا طبقاً لما نصت عليه قوانين صاحبة بلحالة » . واستنتج بعضهم من هذا أنه كان كاثوليكيًا « عاصيا » ، وآخرون أنه كان بيوريتانيا ، كما استنتج غيرهم أنه لم يكن يجرؤ على مواجهة دائنيه . واستعاد وليم فيما بعد مالية أبيه، ولما قضى الوالد نحبه (١٦٠١) بقي في شارع هنلى منزلان باسم شكسبير .

وسجلت كنيسة الأبرشية في ستراتفورد تعميد وليم في ١٦ أبريل ١٥٦٤ . ودون نيغولا رو - وهو أول من كتب سيرة حياته - في ١٧٠٩ ، أسطورة ستراتفورد التي يصدقها الجميع الآن ، وهي أن الوالد ربى ابنه . . . لبض الوقت في مدرسة مجانية . . . ولكن سوء ظروفه وحاجته إلى مساعدة أبه له في موطنه . . . أجبرته على سحب ابنه من المدرسة (١) . وفي المئوية التي ظيرت في مقدمة طبعة فوليو الأولى لروايات شكسبير ، قال بن جونسون يخاطب منافسه الذي مات « لقد تعلمت قليلا من اللاتينية ، وأقل منه من اليونانية » . . . ومن الواضح أن الكتاب المسرحيين اليونانيين ظفرا على حالهم يونانيين بالنسبة لشكسبير (لم يطلع عليهم) ولكنه تعلم من اللاتينية مايكفى للـ رواياته الصغيرة بشذرات لاتينية وتوريات ثنائية اللغة ، ولو أنه تعلم المزيد منها فلربما كان يصبح عالماً آخر ، مجدداً نشيطاً ، مجهولاً ، وتصبح لندن مدرسته .

وثمة أسطورة أخرى سجلها ريتشارد ديفيز حوان ١٦٨١ وصفت وليم الصغير بأنه « كثيراً ما كان سبيء الحظ في سرقة الغزلان والأرانب ، وبخاصة من سير توماس لوسى الذي كان غالباً مايجلده بالسوط ، وأحياناً يسجنه (٢) » . وفي ٢٧ نوفمبر ١٥٨٢ عندما كان هذا الوغد المزعوم في سن الثامنة عشرة ، حصل هو وآن هاناواى ، وكانت هي في نحو الخامسة والعشرين ، على إذن بالزواج . وتشير الظروف إلى أن أصدقاء آن أرغموا شكسبير على الزواج منها (٣) . وفي مايو ١٥٨٣ - أى بعد زواجهما بستة أشهر ، ولدت لهما طفلة أسمياها سوزانا ، وأنجبت آن فيما بعد للشاعر

توأمن عمداً تحت اسم هامنت وجوديث في ٢ فبراير ١٥٨٥ . ويحتمل أنه حوال نهاية هذا العام هجرشكسبير زوجته وأولاده . وليس لدينا أية معلومات عنه فيما بين عامي ١٥٨٥ — ١٥٩٢ . حين نعر عليه ممثلاً في لندن .

٢ — تطور الشاعر ١٥٩٢ — ١٥٩٥

أن أول إشارة لشكسبير هنا تخط من قدره . وفي ٣ سبتمبر ١٥٩٣ أصدر روبرت جرين وهو على فراش الموت تحذيراً إلى أصدقائه ، بأنه يزحزحهم عن مكانهم في مسرح لندن " غراب ناشئ " يزدان بريشنا نحن ، وأنه في جرأة وحشية (له قلب نمر) يرتدى جلد الممثلين ، (وفي هذا تهجم لاذع على بيت في مسرحية هنري السادس) ، ويظن بذلك أنه قادر على أن يطعن بالشعر المرسل كأحسن فرد فيكم أنتم . وبما أنه مستخدم يؤدي كل المهام ، ففي تصوره أنه أحسن ممثل في أي بلد (٤) . " وأعد هذه القطعة للطبع باعتبارها جزءاً من كتاب جرين « مايساوى بضعة بنسات » من ذكاء جرين — أعدها هنري شاتل ، الذي قدم في رسالة لاحقة ، اعتذاراً إلى أحد الرجلين (ويحتمل أن يكونا راو وشكسبير) اللذين هاجمهما جرين . إنني لم تكن لي صلة بأى من هذين الرجلين المعتدين ، ولا أعبأ قط بأنني لن تكون لي صلة بأحدهما . أما الآخر ، فاني آسف لأنني رأيت بنسي أن سلوكه لم يكن أقل لطفاً ، كالم يكن هو أقل امتيازاً في المهنة التي يدعيها ، وفوق ذلك فإن مختلف العادات تؤكد استقامة تصرفاته ، التي تنم على أمانته وكياسته في الكتابة التي تؤيد فنه (٥) .

ويبدو أنه ليس ثمة شك في أن هجوم جرين واعتذار شاتل كانا يشيران إلى شكسبير . وما أن جاءت سنة ١٥٩٢ حتى كان سارق الصيد في ستراتفورد ممثلاً وكاتباً مسرحياً في العاصمة . ويروي دودال (١٦٩٣) ورو (١٧٠٩) أنه « استقبل في المسرح كخادم في مرتبة وضعية جداً (٦) » ، وهذا أمر محتمل . ولكن صدره كان يجيش بأشد الطموح " يتلهم على فن هذا ومقدرة ذاك ، دون أن ينصرف تفكيره إلى شيء سوى الجلال والعظمة (٧) " وسرعان ما كان يمثل أدواراً صغيرة ، جاعلاً من نفسه متعة و بهجة للنظر (٨) . ثم مثل دور " آدم الشفوق " في رواية

”على هواك“ والشبح في هملت وربما صعد إلى مرتبة أعلى لأن اسمه تصدر قائمة الممثلين في رواية جونسون *Everyman in His Humour* أو في رواية جونسون *Sejanus* (١٦٠٤) هو ويوريدج بأنهما ”الممثلان المأساويان الرئيسيان“ (١). وفي أواخر ١٥٩٤ أصبح مساهماً في فرقة تشمبرلين للممثلين. ولم يكسب ثروته من كونه كاتباً مسرحياً، بل لكونه ممثلاً ومساهماً في فرقة مسرحية.

ومهما يكن من أمر فانه في ١٥٩١ كان يكتب الروايات. ويبدو أنه بدأ ”طبيباً للرواية“ (يعالجها ويفحصها) فحرر المخطوطات ونقحها وكيفها للفرقة. وانتقل من مثل هذا العمل إلى الاشتراك في التأليف. وإن الأجزاء الثلاثة من ”هنري السادس“ (١٥٩٢) لتبدو أنها من مثل هذا الإنتاج المشترك. وبعد ذلك كتب روايات بمعدل اثنتين كل عام، حتى بلغت جملتها ستاً وثلاثين أو ثمانى وثلاثين رواية. وإن عدة من رواياته الأولى مثل *Two Gentlemen of Venoma*, *Acmedy of Errors* (١٥٩٤)، *Loves Labours Lost* (١٥٩٤) — توافه هزلية مليئة بالمزاح المرهق لنا الآن. وإنه لمن الدروس المفيدة أن نعلم أن شكسبير صعد سلم المجد بالعمل الشاق والجهد المضني. ولكن الصعود كان سريعاً. وأوحت إليه رواية مارلو ”إدوارد الثاني“ أن يلتمس في التاريخ الإنجليزي أفكاراً لموضوعات مسرحية كثيرة وضارعت رواية ”ريتشارد الثاني“ (١٥٩٥) رواية مارلو. أما رواية ”ريتشارد الثالث“ (١٥٩٢) فكانت بالفعل قد بزتها. ووقع إلى حد ما في خطأ خلق شخص واحد من صفة واحدة — الملك الأحدب من الطموح الموصوم بالخيانة والقتل، ولكنه بين الحين والحين ارتفع بالرواية عن مستوى مارلو بعمق التحليل وقوة الإحساس وموضات من العبارة المشرقة. وسرعان ما أصبحت عبارة ”جواد! جواد! مملكتي مقابل جواد!“ — ذاتة على كل الألسنة في لندن.

ثم. فترت العبقرية في *Titus Andronicus* (١٥٩٣). وغلب التقليد، وعرض رقصة الموت البغيضة، فان تيتس يقتل ابنه. وآخرين صهره أو زوج ابنته، على المسرح، وتغصب عروس وراء الكواليس فتأني إلى خشبة المسرح، وقد قطعت يداها، وقطع لسانها، والدم ينزف من فمها. ثم يقض أحد الحونة يد

تيتس بفأس أمام جمهور الدرجة الثالثة الذين تكاد عيونهم تلتهم المشهد . وتعرض رأسا ابني تيتس المفصولان ، وتقتل إحدى المرضعات على المسرح . وجهد النقاد الذين يجلون شكسبير ليحملوا المشتركين في التأليف جزءاً من مسئولية هذه المذبحة ، طبقاً للنظرية الخاطئة القائلة بأن شكسبير لا يكتب هراء ، ولكنه كتب بالفعل قدراً كبيراً منه .

وَألف شكسبير حوالى هذه المرحلة من مراحل تطوره ، شعره القصصى وقصائده السونية ، وربما كان الطاعون الذى تسبب فى إغلاق كل مسارح لندن بين ١٥٩٢ — ١٥٩٤ ، هو الذى تركه فى فراغ أليم بائس ، ورأى أنه من صواب الرأى أن يوجه شيئاً من الشعر المؤمل إلى أحد رعاة الشعر . وفى (١٥١٣) أهدى فينوس وأدونيس إلى هنرى ريو تسلى أزل سو ثمبتون الثالث . وكان لودج قد اقتبسها من قصة أوفيد *Metamorphoses* ، واقتبسها شكسبير عن لودج . وكان الارل شاباً وسيماً منغمساً فى المملذات الجنسية والصيد والقنص ، وربما تلت أوكيفت لتلائم ذوقه . ويبدو كثير منها غذاء تافها عديم القيمة فى هذه السنوات العجاف ، ولكن فى غمرة هذا الإغراء الشديد هناك قطع ذات جمال حسى مثل الأبيات من (٦٧٩ — ٧٠٨) مما قل أن قرأت لإنجلترا مثله من قبل . وتشجع شكسبير بما لقيت القصيدة من استحسان عام ، وبهدية من سو ثمبتون فأصدر فى ١٥٩٤ *The Ravishment of Lucrece* حيث تم الإغراء باقتصاد أكبر فى الشعر . وكانت هذه آخر ما أصدره بمحض اختياره .

وحوالى ١٥٦٣ بدأ يكتب ولكنه حجز عن المطبعة قصائد السونية التى كانت أول ما ثبت مكانته الرفيعة بين شعراء عصره . وهى من الناحية الفنية أدق أعمال شكسبير تقريباً ، وقد نهلت كثيراً من معين بثرارك من قصائد السونية — الجمال العابر للمحبة وتردداتها وتقلباتها القاسية . وتناقل خطوات الزمن الذى يضيع سدى وغيره الحبيب وظمؤه الأتل . وتفاخر الشاعر بأن قريضه سوف يخلد جمال الحبيبة وشهرتها إلى الأبد . بل إن هناك عبارات وألقاباً ونعوتاً متحلة من كونستابل ودانيل . وواطسون — وغيرهم من شعراء السونية الذين كانوا هم أنفسهم حلقات

فى سلسلة السرقات الأدبية . ولم يفلح أحد فى ترتيب قصائد السونيت فى نظام قصصى ثابت ، وكانت كلها عملا طارئا فى أيام متباعدة . ويجدر بنا ألا نأخذ بكثير من الحد حيكمتها الغامضة - حب الشاعر لشاب يافع ، وميله إلى « سيدة سمراء » فى البلاط . وصدودها عنه ، وترحيبها بصديق له ، وظفر شاعر منافس بذاك الصديق ، وسهاد شكسبير اليأس وتفكيره فى التخلص من الحياة . ومن الحائز أن شكسبير ، وهو يمثل فى البلاط ، اختلس النظرات فى لهف بعيد إلى الوصيفات المحيطات بالملكة ، واللائى تضمخن بعطور ذات رائحة مثملة ، وارتدين ثيابا تبهى الأنظار ، ولكن ليس من المرجع أنه تحدث إليهن أو حاول اقتناصهن قط . ولقد أصبحت واحدة منهن ، وهى مارى فتون Fitton خلية أرل بمبروك ، ويبدو أنها كانت شقراء ، أو أن هذا كان مجرد أصباغ زائلة ، ومهما يكن من أمر فقد كانت غير متزوجة . فى الوقت الذى خانت فيه زوجة شكسبير « عهد الزوجية » بحب الشاعر و « محبوه » (١٠) .

وفى ١٦٠٩ نشر توماس ثورب قصائد السونيت ، وواضح أن هذا كان بدون موافقة شكسبير ، لأن المؤلف لم يكتب فيها إهداء ، ولكن ثورب نفسه صدرها بإهداء حير الأجيال : « إلى الوحيد الذى يقدر القصائد التالية ، السيد و . ه . مع كل ما بشر به شاعرنا الخالد من سعادة وخلود ، مع أطيب التمنيات للمغامر الذى يبغى الخير ، فيما يعتزم من ترحال . » ويحتمل أن التوقيع ا ت : ث . « توماس ثورب » . ولكن من هو « و . ه . » ؟ ربما كان هذان هما الحرفان الأولان من وليم هربرت أرل بمبروك الثالث الذى أغوى مارى فتون ، والذى قدر له هو وأخوه فيليب أن يتلقيا إهداء الكتاب الذى نشر بعد وفاة مؤلفه ، على أنه أعظم راع لرجال العلم والأدب من أى نبيل فى عصره أو منذ ذلك العصر . وكان هربرت فى عامه الثالث عشر فقط حين بدأت قصائد السونيت ١٥٩٣ ، ولكن تأليفها امتد حتى ١٥٩٨ ، حين كان بمبروك قد اشتد عوده ونضج للحب ورعاية الأدب والأدباء . ويتحدث الشاعر بحرارة عن حبه « للمحبيب الفتى » . وغالبا ما استخدمت كلمة الحب بمعنى الصداقة . ولكن القصيدة رقم ٢٠ تطلق على الفتى

« سيد — سيدة هيامى وهواى » وتنتهى بتورية تصور الحب الجنسى . والقصيدة ١٢٨ (والظاهر أنها موجهة « للفتى الوسيم » الوارد ذكره فى القصيدة ١٢٦) تتحدث عن نشوة العشق والغرام . وكان بعض الشعراء فى عصر الزبابت أدباء لوطين قادرين على تهيئة أنفسهم للحب الطروب المبهج ، لأى رجل من ذوى اليسار .

إن أهمية قصائد السونيت لاتمكن فى قصصها بل فى جمالها . فكثير (مثل القصائد التى تحمل أرقام ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٧) زاخرة بسطور يتجلى فيها عمق التفكير وحرارة الأحاسيس وروعة التصوير وجزالة العبارة ، مما جعل صداها يرن لعدة قرون عبر العالم الذى يتحدث باللغة الانجليزية .

٣ — تفوق الشاعر : ١٥٩٥ — ١٦٠٨

ولكن نظم السونيت وما تطلبه من صنعة وفرضه من قيود ، قصص أصح من الخيال ، ولا بد أن شكسبير ابتهج بما هيا له الشعر المرسل من حرية واسعة ، حين أطلق لنفسه العنان ، وهو بعد يافع متحمس ، فى إحدى قصائد الحب العظيمة الباقية على مر الزمان ، لقد جاءت قصة « روميو وجوليت » إلى إنجلترا من قصص مازوتشيو وباندالو . وأعاد آرثر بروك صياغتها (١٥٦٢) فى شعر قصصى . ونقلها عن بروك ، وربما عن رواية أخرى أسبق فى نفس الموضوع ، أخرج شكسبير للمسرح روايته « روميو وجوليت » حوالى ١٥٩٥ . وأسلوبها محشو بأخيلة وأوهام ربما علقت بقلمه من نظم قصائد السونيت ، فجاءت المجازات جافة شاذة ، ورسمت شخصية روميو بشكل ضعيف إلى جانب مركوشيو المنفعل المتهتاج . وحل العقدة عبارة عن سلسلة متصلة من السخافات . ولكن من ذا الذى يذكر الشباب ، أو يرسم فى أعماقه حلم ، يستطيع أن يستمع إلى هذه الموسيقى العاطفية الرومانسية الحلوة ، دون أن ينبذ كل معايير الثقة والتصديق ، وينفض لاهثا أو حابساً أنفاسه نحو الشاعر وهو يشق طريقه إلى هذا العالم بما فيه من غيرة جامحة وقلق مرتجف ، وفناء حزين ؟

والآن يسير شكسبير من نصر إلى نصر في عالم المسرح ، في كل عام تقريبا ، ففي ٧ يونية ١٥٩٤ أعدم رديجو لوبيز ، طبيب المالكة اليهودي ، بتهمة قبول رشوة ليدس السم للملكة . ولم يكن الدليل قاطعا ، وترددت الزايت طويلًا في التصديق على حكم الاعدام ، ولكن العامة في لندن أخذوا جريمته قضية مسلما بها . واستعرت روح العداء للسامية في الحانات^(١١) . ويمكن أن يكون شكسبير قد تأثر إلى حد أن يضرب على هذا الوتر الحساس ، أو أنه كلف بذلك ، فكتب « تاجر البندقية » (١٥٩٦ ؟) ، وشارك إلى حد ما مستمعيه في مشاعرهم ، فأجاز أن يمثل شيلوك في شخصية هزلية في ثياب رثة مع أنف عريض مصطنع ، ونافس مارلو في إبراز كراهية مقرض النقود وجشعه ، ولكنه أضفى على شيلوك بعض الصفات المحببة التي لا بد أنها جعلت الحمقى يحزنون ، ثم أنه أورد على لسانه عرضا للقضية من أجل اليهود ، بلغ من الوضوح والجرأة حدا جعل كبار النقاد لا يزالون يجادلون فيما إذا كان شيلوك قد صور مفترى عليه أكثر منه آثما مذنباً^(١٢) ؟ وهنا ، فوق كل شيء ، أظهر شكسبير براعته في أن يؤلف صورة متناسقة الأجزاء من خيوط مختلفة من قصص جاءت من الشرق ومن إيطاليا ، كما جعل جسيكا المرتدة متلقية مثل هذا الشعر العاطفي الرومانتيكي ، كما لا يمكن أن تتصوره إلا روح ذات حساسية عالية .

وانصرف شكسبير طيلة أعوام خمسة إلى الملهاة بصفة أساسية . وربما أدرك أن الجنس البشري المنهوك يختص بأسخى جوارحه أولئك الذين يستطيعون إلهاءه بالضحك والخيال . إن رواية « حلم منتصف ليلة صيف » «راء قوى عوض عنه مندلسون: ولم تنقذ هيلينا رواية « All is Well That Ends Well » . أما رواية « أسمع جمعجة ولا أرى طحنا » فهي تتفق مع اسمها . ورواية « الليلة الثانية عشرة » محتملة فقط لأن فيولا تمثل فتى وسيا جدا . ورواية « ترويض النمرة » زاخرة بمرح صاحب بشكل لا يصدق ، ومن المستحيل ترويض النساء ذوات الألسنة السليطة .

(١) فانن Merry Widows of, و ٢٠٢ - ٢ - ٥ Two Gentlemen of Verona

Windsor ١ - ٢ .

هذه الروايات كلها كانت إنتاجاً لمجرد كسب المال : وإرضاء جمهور الدرجة الثالثة ،
ووسائل لإبقاء القطيع داخل الحظيرة ، وإبقاء الذئب بعيداً عن الباب .

ولكن بجزئي " هنرى الرابع " (١٥٩٧/١٥٩٨) صعد الساحر العظيم ثانية
إلى القمة ، وجمع بين المهرجين والأمراء — فولستاف وبستول . هتسبير والأمير هال —
فى نجاح كان يمكن أن يجعل سدنى يتردد . واستساغت لندن استخدام تاريخ الملوك
على هذا النحو ، مزخرفاً بالأوغاد ، والمومسات . وتابع شكسبير العمل فأخرج
" هنرى الخامس " (١٥٩٩) ، يهز بها مشاعر المشاهدين ويسليهم فى وقت معاً ،
ثرثرة فولستاف الذى يعانى سكرات الموت : " أيتها المروج الخضر " ، ويشيرهم
بمجموعة أجنكورت ، ويهيجهم بمغازلة الملك الذى لا يقهر للأميرة كيت Kate
بلغتين . وإذا اعتقدنا فى صحة كلام رو ، فإن الملكة لم تكن ترتضى الراحة لفولستاف
وأمرت منشئه (مؤلف الرواية) أن يحببه ويعرضه فى مشهد عشق وغرام (١٣) .
ويضيف جون دنيس (١٨٠٢) وهو يروى نفس القصة ، أن اليزابث رغبت فى أن
تم المعجزة فى مدى أسبوعين . وإذا كان كل هذا صحيحاً ، فإن رواية " الزوجات
المرحات فى وندسور " كانت عملاً مدهشاً من أعمال البراعة والقوة ، لأنها برغم
كونها صاحبة لأنها حافلة بالخشونة والعنف متخمة بالتوريات . ففيها فولستاف
فى ذروة نشاطه وحيويته . حتى ألقى به إلى النهر فى ساة غسيل . وقيل لنا إن
الملكة كانت مسرورة .

وأنه لشيء مروع أن نجد كاتباً مسرحياً ينتج فى موسم واحد (١٥٩٩ —
١٦٠٠ ؟) مثل هذا الهراء التافه : ثم ينتج بعده هذه المقطوعة القصصية الرومانتيكية
البالغة الرقة " على هواك " وربما كان سبب هذا هو أنها استرشدت بمقطوعة لودج
" روزاليند " (١٥٩٠) ، وموسيقى الرواية صافية نقية — لا تزال معوقة بالمزاح
والهزل الخاف غير الممتع ، ولكنها ناعمة رقيقة من حيث الإحساس : مرحلة رشيقة من
حيث الكلام . فأية صداقة كريمة هنا بين سليا وروزاليند ، وهذا أورلندو ويحضر اسم
روزاليند فى لحاء الشجر ، معلقاً القصائد الغنائية على أشجار الزعرور البرى ، والمرائى
على الأشجار كثيرة الشوك ، وأى رصيد سيد من الفصاحة ينثر عبارات خالدة

على كل صحيفة — وأية أغان رجت بها ملايين الشفاه : ” نحت الشجرة الخضراء هب : هب يا نسيم الشتاء ، ” ” فهناك كان عشيق وفتاته ” ، إن التدفق أو الإنتاج بأسره كان حماقة وعاطفة لذيدتين محبتين ، لا يمكن مباراته في أى أدب .

ولكن وسط هذه الوفرة من الحلوى يضع مسيو ميلانكولى جاك شيئاً من الفاكهة المرة . معلنا أن ” مسرح الحياة الواسع العالمى يعرض مهرجانات وأبهة فارغة أفجع أو أشد حزناً مما يقدم المشهد الذى نمثله ” على خشبة المسرح ، وليس ثمة شئ محقق يقينى إلا الموت ، ولكنه عادة يأتى بعد مرحلة من الشيخوخة لا طعم لها ، يفقد المرء فيها أسنانه وبصره :

وهكذا من ساعة إلى ساعة ننمو وننضج ، وبعد ذلك ، من ساعة إلى ساعة نذبل ونذوى ، حتى نصبح حديثاً بعدنا (١٤) .

وهكذا أندرنا شاعر آفون أن رواية ” على هواك ” كانت آخر روائع المرح والبهجة ، ومن بعدها ، حتى لإشعار آخر ، عرض أن يسر غور الحياة ليظهرنا على حقيقتها الدامية ، وهو الآن يريد أن يفيض علينا من معين ” الرويات المأسوية ” ، ويجمع بين المرارة وطيب المذاق .

فى ١٥٧٩ عرض كتاب توماس نورث عن بلونارك ذخيرة نفيسة من المسرحيات ، أخذ منها شكسبير ثلاثاً من ” سبر الحياة ” وصاغها فى مسرحية ” يوليوس قيصر ” (١٥٩٩ ؟) . ووجد أن ترجمة نورث مفعمة بالحياة إلى حد أنه أخذ منها عدة قطع بأكملها كلمة كلمة بالنص ، وكل ما عمله هو أنه حول النثر إلى شعر مرسل ، ومهما يكن من أمر فإن خطبة أنتونى أمام جثمان قيصر كانت من ابتداء الشاعر نفسه : جاءت تحفة رائعة فى فن الخطابة والرقّة والدقة ، ثم الدفاع الوحيد الذى أجازّه لقيصر . وربما أثر فيه إعجابه بدوق سوثمبتون وإرل بمبروك ، وارل إسكس الشاب ، فرأى القتل من وجهة نظر النبلاء الأرستقراطيين المتآمرين المهددين بالخطر . ومن ثم يصبح بروتس محور الرواية . ولكننا ، نحن الذى حصلنا على تفاصيل مومسن عن الفساد ذى الرائحة الكريهة فى ” الديمقراطية ” التى أطاح بها قيصر ، أشد ميلاً إلى التعاطف مع قيصر . كما فوجئنا بموت بطل الرواية فى مستهل الفصل الثالث .

وإن الماضي ليقف عاجزا بين يدي الحاضر الذي كثيرا ما يعيد تشكيله ليصبح من نزوات الساعة .

وفي كتابة هملت استعان شكسبير برواية سابقة في نفس الموضوع وتحدثاها . وكانت هملت قد أخرجت في لندن قبله بست سنوات فقط . ولسنا ندرى كم أخذ من هذه « المأساة » المفقودة ، أو من كتاب بلفورست « التواريخ الفاجعة » (١٥٧٦) ، أو من « تاريخ الدنمرك » (١٥١٤) للمؤرخ الدنمركي ساكسو جراماتيكيوس ، كما أننا لا نستطيع القول بأن شكسبير قرأ « أمراض الاكتئاب والحزن » ، وهي ترجمة إنجليزية حديثة لكتاب طبي فرنسي ألفه دي لورنس . وإنا ، ونحن نشك في غير انفعال أو تدمير ، في كل محاولة لتحويل الروايات إلى سيرة حياة ذاتية ، ليباح لنا أن نتساءل عما إذا كان شيء من الحزن الشخصي — بالإضافة إلى تأديب الليل والنهار — قد انضم إلى التشاؤم الذي شاع في هملت ، واشتدت مرارته فيما أعقبها من روايات . وكان يمكن أن يكون هذا تحورا جديدا من وهم الحب ، وهل كان القبض للمرة الأولى على اسكس (٥ يونيو ١٦٠٠) ، أو إخفاق ثورة اسكس ، أو اعتقال اسكس وسوثمبتون ، أو إعدام اسكس (٢٥ فبراير ١٦٠١) ؟ ويفترض أن هذه الأحداث كلها زت مشاعر شاعرنا الزهف الحس ، الذي كان قد امتدح ، في حرارة باللغة . اسكس في مقدمة الفصل الأخير من « هنري الخامس » ، كما كان في إهداء « لوكريس » إلى سوثمبتون ، قد عاهده على الولاء له إلى الأبد . ومها يكن من أمر . فإن أعظم روايات شكسبير كتبت أثناء هذه النكبات أو فيما بعدها . فهي أدق في حبكة الرواية ، وأعمق في التفكير ، وأروع في اللغة من سابقتها . ولكنها تعبر كذلك عن أمر اللوم والعتاب للحياة في الأدب بأسره . إن إرادة هملت المذبذبة ، بل « عقله الملكي الممتاز » على الأغلب قد أصابهما بالاعتدال والاضطراب اكتشاف الحقيقة واقتراب الشر . ونشبعه بفكرة الانتقام ، حتى تملكته هو نفسه قساوة لا ترحم ولا تهدأ ، فأرسل أوفليا ، لا إلى دير للرابعيات ، بل إلى الجنون والموت . وفي النهاية نجى مذبحة عامة . لم يفلت منها إلا هوراشيو ، وقد قارب أن يصيب بلوثة .

وفي الوقت نفسه وجدت الزبائث ، هي الأخرى ، البلمس الأخير . وأصبح جيمس السادس ملك اسكتلنده ، ملكا على إنجلترا تحت اسم جيمس الأول . وما أن جلس على العرش حتى ثبت وتوسع في إمتيازات فرقة شكسبير التي أصبحت « رجل الملك » . ومثلت روايات شكسبير أمام الملك بانتظام ولقيت تشجيعاً ملكياً كبيراً . وصعدت المواسم الثلاثة بين ١٦٠٤ — ١٦٠٧ بالشاعر إلى ذروة عبقريته وأقصى مرارته ، فرواية « عطيل » (١٦٠٤ ؟) قوية بقدر ما هي بعيدة عن التصديق . فقد أثار إخلاص ديدمونا وموتها شفقة المشاهدين ، كما افتتنوا بنجيب ياجوالدال على ذكائه ، ولكن في تصوير مثل هذا الشر المحض الذي لا باعث عليه في الانسان ؛ وقع شكسبير في خطأ مارلو ، ألا وهو الشخصيات القائمة على وحدة كاملة . وحتى عطيل نفسه ، على الرغم من أنه جمع بين البراعة العسكرية والغباء ، كان يتقصه هذا المزيج الفنى من العناصر التي تضفى الروح الإنسانية على همات ولبر وبروتس وأنطونى .

ولا تزال « ماكبث » (١٦٠٥ ؟) تأملاً أشد رهبة في الشر الذى لا تخف حدثه . وكان شكسبير يستشهد هولنشد في الحقائق المطلقة ، ولكنه زاد في عتامة القصة وكتبها بتحرره من الوهم بشكل انفعالى غاضب وانحطت هذه الحالة النفسية إلى الحضيض ، كما بلغ الفن ذروته في رواية « الملك لير » (١٦٠٦ ؟) وكان جوفرى أوف مموث قد طور القصة ، ثم نقلها هولنشد ، وأخرجها للمسرح مؤخراً كاتب مسرحى مجهول الآن تحت عنوان « التاريخ الصحيح للملك لير » (١٦٠٥) وكانت حبيكات الرواية ملكا مشاعا . ونهجت المسرحية القديمة نهج هولنشد في أنها هيأت للملك لير خاتمة سعيدة ، عن طريق احتماؤه بابنته اكورديليا واستعادة العرش ، وواضح أن شكسبير آثم في جنون الملك وموته بنخلعه من العرش كما أنه أضاف الإغماء الدامى الفظيع الذى أصاب جلوستر على المسرح . إن المرارة هي النغمة الأساسية السائدة في الرواية ، وإن لير ليأمر الفسوق أن ينتشر والزنى أن يزداد « لآنى يعوزنى الجنود (١٥) » وكل الفضيلة ، في نظره القائمة ، ما هي إلا واجهة للفسق والفجور ، وكل الحكومة رشوة ، وكل التاريخ عبارة عن الإنسانية تفترس نفسها أوبنى البشر

يأكل بعضهم بعضا . وهو يصاب بالحنون وهو يرى عمق الشر وانتصاره الواضح . وهو يضع كل إيمانه وثقته « بالعناية الإلهية » التي تشد من أزره وتأخذ بيده .

وتصل رواية « أنطوني وكليوبطره » إلى آفاق وأعماق أفل . وثمة شيء أنبل في هزيمة أنطوني منه في سورة غضب لير ، شيء أكثر تصديقا واحتمالا في افتتاح الرومان بالملكة المصرية منه في قساوة البريتون البغيضة مع ابنة صريحة صراحة حمقاء ، وفي جبن كليوبطره في الحرب ، وروعها في الانتحار . وهنا كانت لدى شكسبير روايات سابقة يعمل على أساس منها ، فتناولها أيضا بالتحسين ، وجدد في القصة التي طال ترديدها ، وزادها إشراقا وتألقا ، بتحليل أدق للخلق ، وبسحر بيانها المتلألئ الذي لا يعرف الكلل . أما التشاؤم في رواية « تيمون الأثيني » (١٦٠٨) فهو تشاؤم تهكمي ، لم يتخلص منه . ويصوب لير سهامه إلى النساء ، ولكنه يحس ببعض الرثاء المتأخر للبشر ، ويحتقر بطل « كوريولانس » الناس على أنهم النتاج المتقلب الدليل الأبله للإهمال والطيش ، ولكن تيمون يذم الجميع رفيهم ووضعهم ، ويصب اللعنة على المدنية نفسها على أنها أفسدت أخلاق البشر . وكان بلوتارك في سيرة أنطوني قد ذكر تيمون على أنه مبغض للبشر مشهور ، وكان لوشيان قبيل أورده في حوار ، كما كانت رواية إنجليزية قد ألقت عنه قبل أن يأخذ شكسبير الفكرة مع مساعد مجهول بثماني سنوات . وكان تيمون ثريا (مليونير) أثينا يحيط به أصدقاء متملقون متفتحون يسارعون إلى تقبل أفكاره ، وعندما يفقد ماله ، ويرى أصدقاءه يخفون بين عشية وضحاها ، ينفذ غبار المدنية عن قدميه ويأوى — جادا صارما — إلى العزلة في غابة ، حيث يأمل أن « يجد أشد الحيوانات وحشية أكثر رفقا وشفقة من بني الإنسان (١٦) » وهو يتمنى لو « أن ألسبيادس » كان كلبا « حتى أكن لك شيئا من الحب (١٧) » ويعيش على جذور الشجر ، وينقب فيجد ذبا ، وهنا يظهر الأصدقاء من جديد فيطردهم ويحتقرهم ويهجوهم ألدع هجاء . ولكن عندما تأق العاهرات وبنات الهوى ينفضهن بالذهب ، شريطة أن ينقلن الأمراض التناسلية إلى أكبر عدد ممكن من الرجال :

انشرن الأمراض والعلل .

لتنخر في عظام الرجال الجوفاء ، واضربن على طنائينهم

وأفسدن عليهم زيجاتهم ، وأخرسن
صوت المحامى
حتى لا يعود يترافع عن القلب الزائف
وتدوى مرافعاته عالية رنانة ، وجللن بالمشيب
ذاك الكاهن
الذى يسلق الناس باللسنة حداد من أجل طبيعتهم الشهوانية
وهو لا يصدق نفسه ، حطمن الأنف
حطمها ، وأكسرن قصبتها تماماً ،
ولتدع دعاة الحرب المتبجحين الذين ليس فيهم أثر الجراح
ينقلوا عنكن الأمراض الموجهة . أصيب العذاب على الجميع
حتى يقهر ويقمع نشاطكن
مصدر كل بناء وتعمير — ثمة مزيد من الذهب .
هل تردن إدانة آخرين ، فلتنصب اللعنة عليكن (١٨)

وفى سورة الكراهية يأمر تيمون الطبيعة أن تكف عن النسل ، ويأمل أن تتكاثر
الوحوش الضارية لتستأصل الجنس البشرى ، إن هذا الاسراف فى بغض البشر
يجعله يبدو غير حقيقى ، ولا يمكن أن نصدق أن شكسبير قد أحس بهذا التشامخ
السخيف على الخطأين ، وبأنه غير مؤهل بمثل هذا الجبن لمتاع الحياة الدنيا . إن مثل
هذه المبالغة فى تقدير توافه الأمور لتوحى بأن الداء قد عالج نفسه بنفسه ، وأن
شكسبير لابد ستعود إليه الابتسامة سريعاً .

٤ — براعة شكسبير الفنية

كيف تستى لأمرئ لم يتلق من العلم إلا أقله أن يخرج على الناس بروايات تعددت
وتنوعت فيها ألوان المعرفة المكتسبة بالاطلاع والدرس ؟ ولكنها لم تكن لإحقاق معرفة
على هذا النحو . ولم تكن شاملة أو واسعة فى أى من حقولها اللهم إلا فى لم النفس ،
ولم يكن شكسبير يعرف من الكتاب المقدس إلا ما أتاحت له دراسته فى صباه أن يطالعه ،
وكانت مراجعاته وإشاراته إلى الكتاب المقدس عادية . وجاء علمه بالآداب القديمة اليونانية واللاتينية

مصادفة عن غير قصد ، ودون اتفاق أو تعمق ، وواضح أنه كان مقصورا على الترجمات . وعرف معظم المعبودات الوثنية ، حتى أقلها شأنًا وأكثرها خلاعة ، وربما استقى هذه المعرفة من الترجمة الانجليزية لكتاب أوفيد *Melamorphoses* ووقع في أخطاء صغيرة ، ما كان سيكون مثالا ليقع فيها ، من ذلك أنه قال عن تيسوس بأنه « دوق » وجعل هكتور من القرن الحادى عشر قبل الميلاد يشير إلى أرسطو في القرن الثالث ق . م . (١٩) وأجاز لأحد أشخاص رواية كوريولانوس (٢٠) (القرن للقرن الخامس ق . م . أن يقتبس من كاتو (من القرن الأول) .

وكان على المام يسير بالفرنسية ، وأقل منه بالإيطالية ، وله بعض المام بالجغرافية ، فزود رواياته ببعض أماكن ومواقع دخيلة من اسكتلنده إلى إفسس ، ولكنه خلع على برهيسيا شاطئًا على البحر (٥) . وأرسل اثنين من يبرونا إلى ميلان ببحر (٢٣) . وبرسبيرو من ميلان في قارب عابر المحيط (٢٤) . وأخذ معظم ما عرف من التاريخ الرومانى عن بلوتارك ، ومعظم ما عرف من التاريخ الانجليزى عن هولنشد وعن روايات قديمة ، ولم يقدر للزلات التاريخية أية أهمية للكتاب المسرحى ، فوضع ساعة الحائط في رومه على عهد قيصر ، والبيارد في مصر . على عهد كليوباتره . وكتب « الملك جون » دون ذكر للعهد لأعظم (ماجنا كارتا) . و « هنرى الثامن » دون التعرض للإصلاح الدينى ، ومن ثم نرى من تجديد أن الماضى يتغير مع كل حاضر . ومن ناحية الإيجاز والعرض العام نجد أن مسرحياته التاريخية الانجليزية صحيحة من وجهة نظرنا السائدة ، أما من حيث التفصيل فهى غير جديرة بالثقة ، وهى تصطبغ ، من وجهة نظرنا ، بصبغة الوطنية — فان جان دارك في رأى شكسبير ساحرة داعرة . وعلى الرغم من هذا كله ، اعترف بعض الانجليز مثل القائد مارلبورو بأنه استقى معظم معلوماته عن الماريخ الانجليزى من روايات شكسبير .

واستخدم شكسبير — مثل غيره من كتاب المسرح في عهد إليزابث ، كثيرا

(١) انقضى بن جونسون على هذا في أحديته مع دريمند في هونورلدل (٢١) ، ولعله شكسبير عن قصة لروبرت جرين ؛ وهو متخرج في الجاية ؛ فنعت حكم أوتوكار الثاني (١٢٥٣ — ٧٨) مات يوهنا سلطانا إلى شواطئ الأديرياتيك (٢٢) .

من المصطلحات القانونية استخداما غير صحيح أحيانا : وربما كان قد التقطها من دور القضاء — مدارس الحقوق التي أخرجت فيها ثلاث من رواياته — أو من القضايا التي انشغل بها هو ووالده . وكانت لديه ذخيرة كبيرة من المصطلحات الموسيقية ، وواضح جدا أنه كان يتمتع بحس موسيقى مرهف — « أليس غريبا أن أحشاء الغم تذهب بالأرواح لتخلق بعيدا عن أجسامها (٢٥) » ؟ وإنه لذكر في رقة وحنان أزهار انجلترا ، وينظمها في عقد في رواية « قصة الشتاء » ، وبكسو بها أوفيايا عندما انتابتها الحمى وأخذت تهذى . وهو يلمح إلى مائة وثمانين نوعا مختلفا من النباتات ، وكان ملما بالألعاب الميدانية وبسباق الخيل ، ولكنه لم يهتم إلا قليلا بالعلوم ، التي سرعان ما افتتن بها ليكون . وكما فعل بيبكون ، حفظ شكسبير فلاك بطلميوس (٢٦) . وبدا في بعض الأحيان (سونبت ١٥) أنه يؤمن بالتنجيم ، فتحدث عن روميو وجوليت بأنهما « عاشقان منحوسان (٢٧) » : ولكن ادعوند في « الملك لير » وكسياس في « يوليوس قيصر » يرفضان التنجيم بشدة . « إن الخطأ ، باعزري بروتس ، ليس في نجومنا (في طالعنا) بل في أنفسنا ، ذلك أننا أتباع أذلاء (٢٨) » .

وجملة القول ، إن كل الدلائل تشير إلى أن شكسبير حصل على المعرفة العرضية التي يتسنى الحصول عليها لرجل الأعمال المشغول أعظم الشغل بالتمثيل والادارة ، الذي عاش لينكب على الكتب . وعرف أفضع آراء مكيفاللي ، وأشار إلى رابيليه ، واقتبس . ن مونتاني . ولكن ليس من المرجح أنه قرأ مؤلفاتهم . ووصف جونزالو للدولة الديمقراطية (٢٩) مأخوذ من بحث مونتاني « أكلة لحوم البشر » . وربما أراد شكسبير بشخصيته كليليان (العبد الرقيق الذي كان يمتلكه برس-بيرو في رواية العاصفة) — أراد أن يهجو مونتاني لأنه أضنى الصفات المثالية على هنود أمريكا . أما التشكك عند دملت ، وهل ينسب شيء منه إلى شكوك مونتاني اللطيفة ، فهو مسألة لم تحل بعد . فقد نشرت المسرحية في ١٦٠٢ ، أى قبل طبع ترجمة فلوريو بعام واحد ، ولكن شكسبير عرف فلوريو ، وربما اطلع على المخطوطة وربما ساعد نقد مونتاني الدقيق على تعميق فكر شكسبير ، ولكن ليس في كتاب الرجل الفرنسي (١٠)

ما يماثل مفاجأة هملت ، أو الدم الشديد للحياة في الملك لير ، كريولانوس ،
تيمون ، ماكبث ، . إن شكسبير ذو شكسبير يسرق الموضوعات والقطع والعبارات
والآيات ، من كل مكان ، ومع ذلك فهو أعظم الكتاب في كل الأزمان أصالة
وامتيازاً وخلقاً وإبداعاً .

وتكمن الأصالة في اللغة والأسلوب والخيال والفن المسرحي والدعابة وأشخاص
الرواية والفلسفة . فلغته أغنى اللغات في كل الأدب : فهناك خمسة عشر ألف
لفظ ، بما فيها المصطلحات الفنية وشعارات النبلاء ورموزهم ، والموسيقى والألعاب
والمهن ، ولهجات المقاطعات : ولهجات رواد الأرضة في الشوارع ، بالإضافة إلى
ألف من الابتكارات المتعجلة أو البطيئة — Occulted, unkenneled, Fumitory, —
Burnet, Spurring . . . لقد استساخ ألفاظاً ، ونقب في مختلف أركان اللغة
وجوانبها ، وأحب الألفاظ عامة ، فانسابت منه في حيوية دافقة ، مرحة ، فاذا
ذكر اسم زهرة ، فانه لا بد يتابع حتى يسمى اثنتي عشرة زهرة ، وإن الألفاظ
نفسها ليفوح منها عبير الزهر . وأجرى على ألسنة الأشخاص في رواياته كلمات
متعددة المقاطع يتشدقون بها ويدورون بها حول المعنى . وكان يخرب في النحو
والصرف تخريباً لطيفاً ، فيحول الأسماء والصفات ، بل حتى الظروف إلى أفعال ،
ويقلب الأفعال إلى صفات ، كذلك الضمائر إلى أسماء ، ويضع فعل الجمع للفاعل
المفرد ، أو الفعل المفرد للفاعل الجمع ، ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الوقت
استخدام للنحو ولا الصرف في الإنجليزية ولا قواعد لها . ولقد كتب شكسبير
على عجل ، ولم يتيسر له وقت فراغ للندم .

وللأسلوب الرائع « الأنثى المتميز الباروكي » (٣٠) (يتسم بالزخرفة والتعقيد
والصور الغريبة) نقول إن لهذا الأسلوب أخطاء ثروته غير الخاضعة لقانون : في عبارات
متكلفة أو ملتوية بشكل غريب ، وصور بعيدة الغور ، وتلاعب باللفظ معقد بشكل
مرهق ، وتورية وسط المأساة ، ومجازات واستعارات يهبط بعضها فوق بعض
في فوضى وتناقض ، وتكرارات لا حصر لها ، وتفاهات مبتذلة حافلة بالحكم ،
وهنا وهناك كلام منمق مملوء بالمرح الصاحب والمراء تتشدد به أبغض الأقواء غير

المرغوب فيها . ولاشك أن التعليم الكلاسيكي ربما هذب وبسط الأسلوب ، وقضى على التورية والغموض ، لكن تدبر ، ماذا عسانا كنا نفقد حينئذ ؟ ولعله كان يفكر في نفسه حين أورد وصف أوريانو باعتباره رجلاً على لسان فرديناند :

إن لديه في مخه داراً لسك العبارات ،

وإن عباراته لتسلب الألباب

وكأنها الإيقاع الساحر .

ولكني أحتج ، أحب أن أسمعه يكذب (٣١)

ومن هذه الدار صدرت عملة من العبارات تكاد تكون عالمية : شتاء استيائنا (٣٢) ،
تضييع وقت السلم سدى (٣٣) ، أريد أباً للفكر (٣٤) ، قل الحق وأحجل الشيطان (٣٥) ،
يسكن الريح في هذا الركن (٣٦) ؟ لا يستقر قرار للرأس الذي يحمل التاج (٣٧) . يطل
الزنبق (٣٨) ، لمسة واحدة من الطبيعة تجعل العالم كله أسرة واحدة (٣٩) ، أى حمقى
هؤلاء البشر المعرضون للفناء (٤٠) . إن الشيطان ليستطيع أن يقتبس من الأسفار المقدسة
ما يخدم غرضه (٤١) ، جنون منتصف الصيف (٤٢) طريق الحب الصادق ممثلي
بالأشواق (٤٣) ، ألبس قلبي على كمي (أحمل رأسي فوق كفي) (٤٤) ، في كل بوصة
ملك (٤٥) ، قدر الطاقة (٤٦) ، الإيجاز روح الفطنة (٤٧) ، . . وربما كان هذا تلميحاً
لنا للاكتفاء بهذا القدر . هذا إلى جانب ألف مجاز واستعارة قد نفيد منها « قد نرى
الأشعة نحمل وينتفخ بطنها بالريح الفاجرة (٤٨) » . كما أن هناك قطعاً بأكملها تكاد
تكون مألوفة بنفس القدر ، مثل العبارات : آنية أزهار أوفيليا المضطربة ،
أنطوني أمام جثة قيصر ، كليوباترا تحتضر ، لورنزو على موسيقى الكون ، كما أن
هناك ذخيرة من الأغاني : « من هي سيلفيا (٤٩) » ؟ ، « هارك ! القبرة تغرد على
باب السماء (٥٠) » ، أبعدوا ، أبعدوا هذه الشفاه عني (٥١) ، وربما حضر جمهور
نظارة شكسبير من أجل هذه الزخارف ، ومن أجل القصص معاً .

” إن الخيال ليتمثل المحنون والعاشق والشاعر منضمين في صورة واحدة (٥٢) ،
واجتمع في شكسبير اثنان من هؤلاء ، وربما مس الثالث مساً . إنه ليخلق في كل
رواية عالماً ، ولا يقنع بهذا ، فيملأ الامبرطورايات والغابات والمروج المتخيلة بسحر

صبياني ، وجن سريع العدو ، وسحرة مربعين وأشباح . وإن خياله ليجعل أسلوبه الذي يفكر باصـور ، يحول كل الأفكار إلى صور ، وكل التجريدات إلى أشياء محسوسة أو مرئية : فمن غير شكسبير (وبتاراك) كان يمكنه أن يجعل روميـو ، وقد نفى من فيرونا ، يتميز غيظاً وحقدآ ، لأن قططها وكلابها قد تحدد النظر إلى جوليت ، على حين لا يباح له هذا ؟ ومن غير شكسبير (اللهم إلا بليك) كان يستطيع أن يجعل الدوق المطرود في رواية ” على هواك “ ، يأسف لأنه لا بد أن يعيش على صيد حيوانات هي في الغالب أجمل من الإنسان ؟ لاعجب أن روحاً قوية بكل معاني الكلمة ، لا بد أن تكون قد انفعلت انفعالا شديداً بالقبح والكآبة والجشع والقسوة والشهوة والألم والحزن ، مما بدا في بعض الأحيان أنه يشيع في النظرة الشاملة إلى العالم .

ولم يؤت شكسبير من الأصالة في الفن المسرحي إلا أقلها ، لقد عرف ، بوصفه رجل المسرح ، أفانين مهنته . فبدأ رواياته بمشاهد أو ألفاظ تشد انتباه جمهور المشاهدين الذين يقضمون البندق ويلعبون الورق ويحتسون البيرة ويتبادلون النظرات الغرامية مع النساء . وأفاد أكبر فائدة من ” أدوات “ المسرح في عهد الزابث وآلاته . ودرس رفاقه في التمثيل وخلق الأدوار الملائمة لخصائصهم الجسمية والذهنية . واستخدم كل حيل التنكر والتعرف ، وكل تغيرات المناظر ، وكل تعقيدات رواية داخل رواية . ولكنه ، مع مهارته الفنية ، لم يتفاد آثار العجلة والتسرع . فإن الحبكة داخل الحبكة قد تشطر القصة إلى اثنتين أحيانا ، فإذا كان شأن كارثة جلوستر بكارثة لير ؟ فكل القصص تقريبا تنقلب إلى مصادفات بعيدة الاحتمال . وهويات خفية . ورؤى ملائمة إلى حد بعيد ، وقد يطلب منا بحق أن نؤمن بالمسرحية كما نؤمن بالأوبرا ، من أجل القصة أو الأغنية ، ولكن بجدر بالفنان أن يحصر في أقل الحدود ” البناء القائم على غير أساس “ لحلمه ، أو اختلاقه دون مبرر . وأقل من هذا أهمية تناقضات الزمن والخلق (٥٣) ، ويحتمل أن شكسبير الذي فكر في سرعة الإنتاج . لا في النشر الدقيق ، قدر أن هذه العيوب والأخطاء قد تمردون أن يلحظها أحد من الجمهور المتأثر ، وإن المعايير القديمة والذوق الحديث لتنكر العنف الذي يصطبغ

به مسرح شكسبير ، وهذا امتياز آخر منح لشاغلي المقاعد الرخيصة ، ومحاولة لمواجهة مدرسة " القتل والذبح " عند المسرحيين في عهد اليزابث وجيمس الأول .

ولما أخذ شكسبير بأسباب النمو والتطور ، عوض عن العنف بالدعابة والمرح ، وتعلم الفن الشاق ، فن تكثيف المأساة بالترويح الفكاهي . وكانت الروايات الهزلية (الملهيات) القديمة ذكاء وبراعة ودعابة غير مجسمة ، والروايات التاريخية القديمة ثقيلة مملّة حيث كان يعوزها المرح والدعابة ، وفي مسرحية هنرى الرابع تعاقبت المأساة والملهية على التوالي ، ولكنهما لم تتكاملا تتكاملا تاما . ولكن التكامل تحقق في هملت ، وتبدو الدعابة في بعض الأحيان بذئنة أكثر مما ينبغي ، ولا بد أن سوفوكليس وراسين كانا يشمئزان من النكات التي تدور حول غازات بطن الانسان (٥٤) أو تبول الخليل (٥٥) . وإن نكتة جنسية لمي أكثر استساغة لدى الذوق الحديث .

ودعابة شكسبير ، بصفة عامة ، بهيجة ودية ، بعكس البغض الوحشي للجنس البشرى عند سويفت ، فقد أحس شكسبير بأن العالم يكون أفضل بوجود مهرج أو اثنين ، واحتمل المهرجين في صبر وأناة ، وشارك الرب رأيه في أنه ليس ثمة فرق كبير بينهم وبين الفلاسفة الذين يفسرون العالم .

وإن أعظم مهرجيه لينافس هملت ، وهو أسمى وأروع ما أنجزه شكسبير ، في خلق أشخاص الرواية — وهذا أشق اختبار يواجهه المؤلف المسرحي . إن ريتشارد الانى وريتشارد الثالث ، وهوتسبير ، رولزى وجونت وجلوستر ووبروتس وأنطونى ليبعتون من زوايا النسيان في التاريخ إلى حياة ثانية . وليس هناك في المسرحية اليونانية ، ولا حتى في بلزاك ، أشخاص خياليون أسبق عليهم مثل هذه الشخصية المتماسكة والقوة والحياة . وكانت أصدق الشخصيات التي خلقها هى تلك التي تبدو فقط متناقضة ، بسبب تعقيدها — فالملك لير قاس ثم رقيق رؤوف ، وهملت دائم التفكير متهور ، شجاع . والشخصيات في بعض الأحيان بسيطة إلى حد كبير — ريتشارد الثالث مجرد خسة ونذالة ، وتيمون مجرد شك وسخرية وتهكم ، ويجو مجرد كراهية . وتبدو بعض النساء في مسرحيات شكسبير ، وكأنهن اقتطعن من نفس العجيبة — بياتريس روزالند ، كورديليا وديدمونة ، ميراندا وهرميون —

ولأنهم يفقدن الحقيقة والواقع ، ثم في بعض الفترات ، تبغثن بضع كلمات قليلة إلى الحياة ، من ذلك أن أوفيليا ، حين يباغها هملت أنه لم يكن يحبها في يوم من الأيام . تجيبه دون اتهام مضاد ، ولكن في بساطة حزينة مؤثرة : « كنت أنا المخدوعة أكثر » . إن الملاحظة والإحساس والتشخيص وفتح الحواس المدهش ، ونفاذ البصيرة والانتقاء الرشيق لتفاصيل الهامة المميزة ، والذاكرة التماسكة — كل هذه تأتي جميعها معاً لتعمر المدينة الحية بالأموات أو الأنفس الخيالية . أو في مسرحية بعد أخرى تنمو هذه الشخصيات إلى الحقيقة والواقع والتعقيد والعمق ، حتى ينضج الشاعر في هملت ولير إلى ياسوف . وتصيح مسرحياته أدوات متألفة للفكر .

٥ — فلسفة شكسبير

« ألك أية فلسفة ، أيها الراعي (٥٦) ؟ » هكذا يسأل تتشستون Touchstone الراعي كورين (في رواية « على هواك ») ونحن بدورنا نوجه هذا السؤال إلى شكسبير . ويجب أحد منافسيه المعترف بهم على السؤال بالنفي (٥٧) . ولنا لنقبل هذا الحكم . كما قصده برنارد شو — ليس لدى شكسبير ميثاً فيزيقاً (فيما وراء الطبيعة) ولا فكرة عن الطبيعة النهائية للحقيقة ، ولا نظرية عن الإله . وكان شكسبير أعقل من أن يذهب إلى أن أى مخلوق يستطيع تحليل خالقه ، أو أنه حتى عقله المرتكز على قطعة لحم ، يمكنه أن يدرك الكل . أى هوراشيو ، إن في السماء والأرض لأشياء أكثر مما تحلم به في فلسفتك (٥٨) . وإذا راوده خاطر احتفظ به لنفسه ، ومن ثم أثبت به أنه فيلسوف . وهو يتحدث دون اكتراث أو إجلال للفلاسفة المشهود لهم . ويشك في أن واحداً منهم احتمل يوماً ألماً في أسنانه صابراً متجلداً (٥٩) . وهو يسخر من المنطق ، ويؤثر عليه نور الخيال ، وهو لا يعرض أن يفك طلاسم الحياة أو العقل ، ولكنه يشعر بها ويصير بها بقوة تترى بافتراضاتنا أو تعمقها . ولأنه ليقف بعيداً ، ويرقب أصحاب النظريات يدمر بعضهم بعضاً ، أو يتفسخون ويتحللون في غمرات الزمان . ولأنه ليخفي نفسه في شخصياته ، وليس من اليسير أن تعثر عليه . ويحذر بنا أن نخدر نسبة أى رأى إليه ، إلا إذا عبر عنه في شيء من التوكيد اثنان على الأقل من مخلوقاته (شخصوس مسرحياته) .

وإنه ، لأول وهلة ، عالم نفساني ، أكثر منه فيلسوف ، ولكنه كذلك ليس نظريا ، بل على الأرجح ، مصور فكري عقلي ، يضع يده على الأفكار الخفية والأفعال العرضية التي تكشف عن طبيعة الانسان . ومهما يكن من أمر ، فإنه ليس واقعا سطوحيا ، فإن الأشياء لاتقع ، والناس لا يتكلمون ، في الحياة ، كما يحدث في رواياته ، ولكننا في النهاية نحس من خلال هذه الأشياء البعيدة الاحتمال وهذه المغالاة . أننا نقرب من لب الفطرة الانسانية والفكر الانساني ، وإن شكسبير ليعلم جيدا ، مثل شوبنهاور « أن العقل يقود الارادة » (٦٠) وأنه ليعتق مذهب فرويد اعتناقا كاملا ، حين يورد قصائد الجنس على اللسان العذري ، لسان أوفيليا المحبولة التي تتصور جوعا ، ويذهب فيما وراء فرويد إلى دوستوفسكي في دراسة ماكبث ونصفه « الرديء » (زوجته) .

وإذا فسرنا الفلسفة ، لاعلى أنها علم ما وراء الطبيعة — الميتافيزيقا ، بل على أنها رسم متطور لأحوال الانسان ، أو نظرة تعميمية ، لالكون والعقل وحدهما ، بل للأخلاق والسياسة والتاريخ والعقيدة كذلك — نقول إذا فسرنا الفلسفة على هذا الأساس ، لكان شكسبير فيلسوفا أعمق من ييكون ، مثلما أن مونتاني أعمق من ديكارت ، فليس الشكل هو الذي يصنع الفلسفة . إنه ليقر النسبية في الأخلاق « ليس ثمة شيء حسن أو رديء ، ولكن التفكير هو الذي يجعله كذلك » (٦١) . « وإن فضائلنا لتخضع لتفسير الزمن » (٦٢) . وأنه ليحس بلغز مذهب الجبرية (القضاء والقدر) الخير في أن بعض الناس أشرار بالوراثة « على حين أنهم غير مذنبين ، طالما أن الأخلاق لاتستطيع أن تختار أصلها أو منشأها » (٦٣) . « وإنه ليعرف نظرية ثراسيماخوس (فيلسوف سفسطائي أغريقي في القرن الخامس ق . م) في الأخلاق : فيعتقد ريتشارد الثالث أن « الضمير ليس لإكلمة يستخدمها، الجبناء ابتكرت ، أول ما ابتكرت ، لتلقى الرعب في قلوب الأقوياء ، فلتكن سواعدنا المفتولة هي ضميرنا ، ولتكن أسيافا قانوننا » (٦٤) . أما ريتشارد الثاني فيقرر « أن أجدر الناس بالتملك هم أولئك الذين يعرفون أقوى السبل وأكثرها ضمانا للكسب » (٦٥) . ولكن هذين الشخصين اللذين اتبعا مذهب تيتشه باءا بنخامة محزنة . ويلحظ شكسبير ،

أيضا خلق الارستقراطية الاقطاعية الذى يتمسك بالشرف ، ويصفه بعبارات عظيمة ، ولكنه يستنكر (كما ورد على لسان المهرج هتسبير) نزوعه إلى الزهو والعنف ، و « سوء السلوك والحاجة إلى ضبط النفس » (٦٦) . أما الأخلاق عنده هو ، فتقوم فى النهاية على اعتدال ارسطو وضبط النفس عند الرواقين . وكان الاعتدال والتعقل الموضوع الرئيسى فى حديث يوليسيز الذى أنب فيه أجاكس وأشيللس (٦٧) ، ومهما يكن من أمر ، فإن العقل وحده لا يكتفى ، ولا بد أن يدعمه خيط من توجيه الرواقين :

على المرء أن يحتمل

ذهابه هناك قدر احتماله قدومه هنا

والنضج هو كل شئ (٦٨) .

والموت أمر يمكن التجاوز عنه مادما قد حققنا أنفسنا . وشكسبير يؤيد ابيقور كذلك ، ولا يسلّم يتناقضات فاصلة بين اللذة والحكمة ، ويرد على البيوريتانيين بشدة فيورد على لسان الخادمة ماريا قولها لما لفلوبو : ” اذهب وهز أذنك (٦٩) “ أى ” أنت جمحش “ . وهو يتسامح ، مثل البابا ، فى خطايا الجسد ، ويجرى على لسان لير المحنون أنشودة مرحة صاخبة للاتصال الجنسى (٧٠) .

أما فلسفته السياسية فتتسم بروح المحافظة . وأدرك آلام الفقراء ، وجعل لير يرددها فى إحساس عميق . ولحظ صياد سمك فى ” بركليز “ (١٦٠٩) أن الأسماك تعيش فى البحر :

مثلما يعيش الناس على الأرض — تأكل كبارها صغارها ، ولا يمكن أن أقارن اغتياها بالبخلاء ، مقارنة سليمة ، إلا بالحوث ، يلعب ويلهو ويسوق صغار السمك المسكين أمامه ، وفى النهاية يلتمه دفعة واحدة ، ولقد سمعت عن مثل هؤلاء الحيتان على الأرض ، لا يفتأون يفغرون أفواههم حتى يتبلعوا الأبرشية بأسرها والكنيسة ، والبرج ، والأجراس ، وكل شئ (٧١) » :

ويحلّم جنزالو فى ” العاصفة “ بشيوعية فوضوية ” يكون فيها كل ما تنتجه الطبيعة ملكا مشاعا “ . ولا يكون فيها قوانين ولا قضاة أو حكام ولا أعمال

ولاحرب (٧٢) . ولكن شكسبير يهزأ بهذه « المدينة الفاضلة » - يوتويا - لأن طبيعة الانسان تجعل من المستحيل قيامها . ولا بد ، في ظل أى دستور ، من أن تأكل الحيتان السمك .

وماذا كانت ديانة شكسبير ؟ . إن البحث عن فلسفته في هذا المجال ، بوجه خاص ، شاق عسير . فهو من خلال أشخاص مسرحياته يعبر عن كل المعتقدات ، في تسامح لا بد أنه كان يحمل البيوريتانيين على القول بأنه كافر . وكثيرا ما استشهد بالكتاب المقدس في إجلال وتقديس ، وجعل هملت ، المفروض أنه متشكك ، يتحدث ، عن إيمان ، عن الله والصلاة والسماء والجحيم (٧٣) . ولقد عمد شكسبير وأبناؤه وفقا للطقوس الانجليكانية (٧٤) . وبعض آياته تنم على بروتستانتية قوية ويتحدث الملك جون عن « الغفران البابوى » على أنه « شعوذة وسحر » . وكأنه يستبق هنرى الثامن :

. . . لن يفرض قسيس إيطالى

دفع العشور أو يقرع الناقوس في أرضنا ،

ولكن ، كما أننا نرفع الرأس عاليا تحت السماء ،

فستكون لنا السيادة العظمى في وجود الله العلى العظيم ،

حيث نملك ونحكم ، ونثبت الملك وحدنا ،

هكذا أنبثوا البابا ، مع كل الاحترام

له ولسلطانه المغتصب (٧٥) .

على أن جون ، بطبيعة الحال ، يكفر عن خطيئته ، آخر الأمر . وثمة رواية بعد هذه ، هى « هنرى الثامن » ، اشترك شكسبير في جزء منها فقط ، تزودنا بصور مؤيدة لهنرى وكرانمير (أسقف كنتربرى) ، وتنتهى بمديح الزابث — وكلهم كبار مهندسى الإصلاح الدينى في إنجلترا . وثمة مسحة انحياز للكاتوليكية ، مثلما جاء في تصوير كترين أراجوان والراهب لورنس ، بشكل فيه تماطف (٧٦) ، ولكن الشخصية الأخيرة كانت قد جاءت إلى شكسبير ، كما شكلت في أخبار الكاثوليك الإيطاليين .

وهناك بعض إيمان باق في الروايات المأساوية . ويظن الملك لير ، من فرط ما يشعر به من مرارة :

إننا بالنسبة للآلهة ، مثل الذباب بالنسبة للأطفال الأشقياء

يقتلونهم من أجل اللهو واللعب (٧٧) .

ولكن إدجار الطيب يرد على ذلك بقوله « ولكن الآلهة عدول ، ولأنهم ليتخذون من رذائلنا السارة أدوات لتعذيبنا (٧٨) » ، كما يؤكد هملت إيمانه « باله يشكل نهاياتنا ويقطعها دون صقل كيفما نشاء (٧٩) .. » وعلى الرغم من الإيمان الذي يصرخ في النفوس ، بعناية إلهية تتصرف معنا تصرفا عادلا ، هناك في أعظم روايات شكسبير سخابة من عدم الإيمان بالحياة نفسها ، فان جاك (أحد أتباع الدوق المطرود في رواية على هواك .) لا يرى في « العصور السابقة » للانسان شيئا إلا كان بطيء النمو سريع العطب . ونسمع مثل هذه « اللازمة » في رواية الملك جون :

الحياة مملة مثل حكاية تروى مرتين

فترهق الأذن الثقيلة لرجل نعسان (٨٠) .

وفي ذم هملت للدنيا .

تبا لها آه ، تبا لها ، إنها حديقة ملأى بالأعشاب الضارة .

التي تنمو وتتكاثر ، وكل شيء يحدث ويكبر في الطبيعة ،

نمتلكه فحسب (٨١) .

وفي ماكيث :

انطفئي ، انطفئي أيها الذبالة القصيرة !

ليست الحياة إلا خيالا عابرا ، أو هي أشبه بممثل مسكين يختال ويضيق

وقته فوق المسرح ، ثم لا يعود يسمع له صوت ، إنها حكاية

يروها معتوه ، تعج بالضجيج والعنف ،

ولكنها لاتعنى شيئا (٨٢) .

وهل ثمة شيء من فكرة الخلود يخفف من حدة هذا التشاؤم ؟ إن لورنزو —

بعد أن وصف بلحسिका موسيقى النجوم ، يضيف أن « مثل هذا التناغم أو الانسجام

موجود فى الأنفس الخالدة (٨٣). وتخیل كلودیو فى رواية Measure For Measure حياة آخرة ، ولكن بالشكل القائم فى جحیم دانتي أو فى مثنوى الأموات :

آه ولكننا نموت ؛ ونذهب إلى حيث لاندري ،
ونرقد فى حفرة باردة بعيدین عن الأنظار ، ونتعفن ،
وتتحول الحركة الدائبة المحسوسة إلى كتلة من طين معجون ،
وتستحم الروح المرححة فى بحار من نار ، أو تسكن
فى صقع متماوج من جليد متراكم تراكما كثيفا
أو تسجن فى الرياح غير المنظورة
التي تهب فى عنف لا يهدأ حول
العالم المتدلى أن هذا شيء بالغ الرهبة (٨٤) .

وتحدث هملت عرضا عن النفس ، على أنها خالدة (٨٥) . ولكن مناجاته لا تؤكد
أية عقيدة أو إيمان . وكلماته على فراش الموت فى النسخة القديمة « فلتستقبل السماء
نفسى » ، غيرها شكسبير إلى أن الراحة هى السكون (الموت) .
ولسنا نستطيع أن نقول ، على وجه التحقيق ، كم من هذا التشاؤم ، جاء
نتيجة لمتطلبات المسرحية المأساوية . وكم منه كان يعبر عن حالة شكسبير النفسية ،
ولكن تكراره وتوكيده يوحيان بأنه — أى التشاؤم — عبر عن أحلك مراحل
للسفته . وإنما كان التخفيف الوحيد الذى جاء فى الروايات التى توجت أعماله ،
كان اعترافا حائرا مترددا بأنه يوجد هناك وسط رذائل هذه الدنيا نعم وبركات
ومباهج ، كما يوجد وسط الأشرار الأرغاد كثير من الأبطال وبعض القديسين ،
فهناك إلى جانب ياجو وجدت ديدمونه ، وإلى جانب جونريل وجدت كورديليا ،
وإلى جانب ادموند وجد ادجار أو كنت ، وحتى فى هملت ، يهب نسيم عليل من
وفاء هوراشيو ، ومن رقة أوفيليا وحنانها الموسومين بالحزن والكتابة . وبعد أن
يغادر الممثل والكتاب المسرحى المهلوك لندن بما فيها من فوضى ووحشية برغم
الازدحام ، إلى المروج الخضر والسلى الأبوية فى بيته فى ستراتفورد ، فلسوف
يستعيد الحب الشديد للحياة لدى الانسان .

٦ — الرضا والقناعة

ومهما يكن من أمر ، فليس ثمة سبب واضح يدعو شكسبير إلى الشكوى من لندن ، فقد هيأت له النجاح والهتاف باسمه والثروة ، وثمة أكثر من مائتى إشارة ومرجع له ، وكلها مؤيدة له وتشيد بذكره ، فى الأدب الباقي من عصره . وفى ١٥٩٩ أورد كتاب فرانسيس ميرز « خزانة المفكرين الموهوبين » ، سدفى ، سبنسر ، دانييل ، درايتون ، وارنر ، شكسبير ، مارلو ، تشابمان ، بهذا الترتيب ، على أنهم أقطاب المؤلفين فى إنجلترا ، ووضع شكسبير على رأس الكتاب المسرحيين (٨٦). وفى نفس العام أعلن ريتشارد بارنفيلد — وهو شاعر منافس — أن أعمال شكسبير (التى لم يكن أفضلها قد ظهر بعد) قد وضعت اسمه فى « سجل الشهرة الخالد (٨٧) » وكان محبوبا مألوفاً حتى عند منافسيه . وكان درايتون وجونسون وبوريدج من بين أصدقائه الحميمين . وعلى الرغم من أن جونسون انتقد أسلوبه الطنان ، وتساهله الطائش فى التأليف ، وإغفاله الشنيع للقواعد الكلاسيكية (القديمة) ، فان جونسون نفسه ، فى المقدمة رفع شكسبير فوق كل الكتاب المسرحيين قديمهم وحديثهم ، وقرر أنه « ليس فريدا فى عصر بعينه ، بل فى كل العصور » وفى الأوراق التى خلفها جونسون عند موته ، كتب يقول « لقد أحببت الرجل . . . الشبيه بالصنم الذى يحبه الانسان حبا أعمى (٨٨) » .

وتحدثنا الأخبار بأن جونسون وشكسبير التقيا فى اجتماعات رجال الأدب فى حانة مرميد فى شارع « Bread Street » ، فتعجب فرانسيس بومونت الذى كان يعرف الرجلين كليهما :

ما هذا الذى رأيناه؟

فى مرميد ! سمعنا كلاما يفيض

رقة ، ويتقد حرارة

وكأنما جاء كل إنسان من حيث أتى

قاصدا أن يفرغ كل ذكائه وتفكيره فى نكتة ،

معزماً أن يةضى ، مهرجاً ، بقية
حياته البلدية (٨٩) .

وقال توماس فولر فى كتابه « الشخصيات البارزة فى انجلترا (١٦٦٢) :

كم كانت الحرب الفكرية سجالات بين شكسبير وجونسون . وإنى لأنظر إليهما ،
وكأنهما سفينة شراعية أسبانية ضخمة وبارجة إنجليزية ، ومستر جونسون (وهو
كالأولى) ، علا كعبه فى العلم والمعرفة ، وهوراسخ وطيذ الأركان ، ولكنته يطىء
فى أداء عمله . أما شكسبير . . . فهو أقل فى البنيان ولكنته أخف حين بمخر عباب
الماء ، يستطيع أن يتجه حيث يتجه الموج ، ويغير اتجاهه حيث شاء ، ويستفيد من
كل ربح ، بفضل سرعة بديته وابتكاره (٩٠) .

وتابع أو يرى حوالى ١٦٨٠ الأخبار المتواترة التى يسهل تصديقها عن شكسبير
و « بديته الحاضرة اللطيفة المتدفقة » وأضاف أنه كان « رجلاً رشيقاً وسيماً لطيف
المعشر (٩١) » ، والشبيه الوحيد الموجود له الآن هو التمثال النصفى الموضوع على مقبرته
فى كنيسة ستراتفورد ، والصورة الموجودة فى « الكتاب الأول » ، وهما يتفقان إلى
حد كبير فى إبراز رجل نصف أصلع ، ذى شارب ، و (فى التمثال) ذى لحية ، وأنف
حاد ، وعينين متأملتين ، ولكنتهما لا تبديان أية إشارة إلى الشر الذى يتقد
فى الروايات . وربما ضللتنا الروايات فيما يتعلق بأخلاقه ، فإنها توحى برجل ذى طاقة
عصبية ، شديد الحساسية ، سريع الانفعال ، يتذبذب بين قمتى الفكر والشعر ،
وشفىرى الكتابة واليأس ، على حين يصفه معاصروه بأنه مهذب أمين لا تأخذه العزة
بالإثم ، ذو طبيعة صريحة منطلقة (٩٢) » ، يستمتع بالحياة ولا يأبه بالنسل ، تبدو عليه
مسحة من الروح العملية التى لا تلاثم الشاعر . وسواء كان عن طريق الاقتصاد
فى الانفاق أو عن طريق المنح والهبات ، فإنه كان بالفعل فى ١٥٩٨ ثرياً إلى حد يسمح
له بالمشاركة فى تمويل « مسرح جلوب » . وفى ١٦٠٨ شيد هو وسسته
آخرون مسرح The Black Friars وزادت أنصبته فى مثل هذه المشروعات من
عائلاته بوصفه ممثلاً وكاتباً مسرحياً ، وعادت عليه بدخل كبير ، اختلف تقديره
بين ٢٠٠ (٩٣) و ٦٠٠ (٩٤) جنيه سنوياً . ويبدو أن الرقم الأخير أصلح لأنه يفسر لنا
شراؤه للعقارات فى ستراتفورد .

ويقول أوبرى إن شكسبير « تعود أن يزور مسقط رأسه مرة كل عام (٩٥) ». .
وتوقف أحيانا على الطريق في أكسفورد ، حيث كان جون دافنانت يدبر نزلا ،
وكان سير وايم دافنانت (شاعر البلاط ١٦٢٧) يحب أن يوحى بأنه نتيجة غير
مقصودة لتخلف شكسبير في هذا النزل (٩٦) . وفي ١٥٩٧ اشترى الكاتب المسرحى
« البيت الحديد » New Place بستين جنيا ، وكان ثانى أكبر بيت في ستراتفورد ،
ومع ذلك ظل يقطن لندن . ومات أبوه في ١٦٠١ تاركا له منزلين في شارع هملى
في ستراتفورد ، وبعد ذلك بعام واحد ، اشترى ١٢٧ فدانا من الأرض بالقرب من
المدينة ، بثمان قدره ٣٢٠ جنيا ، ويحتمل أنه أجر هذه الأرض لمستأجرين مزارعين
وفي ١٦٠٥ اشترى بمبلغ ٤٤٠ جنيا أسهما في العشور الكنسية المرتقبة في ستراتفورد
وثلاث دوائر أخرى . وفي إنشاء انشغاله بكتابة أعظم رواياته في لندن ، كان معروفا
في ستراتفورد بأنه رجل أعمال ناجح ، أساسا ، مشغول في الغالب بالتقاضى من
أجل ممتلكاته واستثماراته .

وكان ابنه هامنت قد توفى في ١٥٩٧ . وفي ١٦٠٧ تزوجت ابنته سوزانا من جول
هول . وهو طبيب مشهور في ستراتفورد ، وبعد عام واحد جعلت من الشاعر جدأ ،
ومن ثم كانت روابط جديدة تشده إلى مسقط رأسه . وحوالى ١٦١٠ هجر لندن
واعزل المسرح ، وآوى إلى « البيت الحديد » . ومن الواضح أنه كتب هناك
« Cymbeline » (١٦٠٩ ؟) و « قصة الشتاء » (١٦١٠ ؟) و « العاصفة » (١٦١١ ؟) .
ولم يكن لاثنتين من هذه الروايات كبير قيمة . ولكن « العاصفة » تظهر أن
شكسبير كان لا يزال يحتفظ بكل قواه . فهنا ميراندا التى تكشف منذ البدايه
عن طبيعتها ، حين تشاهد من الشاطئ غرق سفينة فتصرخ « أوه لقد تأملت مع
هؤلاء الذين رأيتمهم يتألمون » (٩٧) . وهنا كاليبان الذى يرد به شكسبير على روسو .
وفيها أيضاً بوسبيرو الساحر الرقيق الفؤاد الذى يتخلى عن صولجان فنه ويودع دنياه
المرحة وداعاً حنونا ، وهناك صدى لاكتئاب الشاعر ، في الفصاحة التى لم يعنورها
أى وهن في أبيات بروسبيرو :

انتهى الآن مرحنا وصحبنا . إن ممثلينا هؤلاء

كما تنبأت لكم ، كانوا أرواحا ،
 ذابت في الهواء ، في الهواء الرقيق ،
 ومثل كيان هذه الرؤيا الواهن القائم على غير أساس
 تكون الأبراج التي يتوجها السحاب والقصور الشائخة
 والمعابد الرديئة ، والأرض الواسعة نفسها ،
 نعم ، وكل مانرته سوف يآوب ويفنى ،
 كما ذبلت هذه الأبهة الفارغة المتهافمة ،
 لاتتركوا مصدرا للألم وراءكم ، إننا مصنوعون
 من نفس المادة التي تصنع منها الأحلام ، وحياتنا القصيرة
 يحف بها النوم (٩٨).

ولكن ليست هذه هي الحالة النفسية الغالبة الآن ، بل على النقيض من ذلك
 فالرواية هي شكسبير يسترخي ويستجم ، ويتحدث عن الغدران والأزهار ، ويشلو
 بأغنيات عذبة ، « Where the Bee sucks there Suck, Full fathom five »
 — وعلى الرغم من كل المعترضين واعتراضاتهم ، فإن الشاعر الذي تقدمت به السن
 هو الذي يتحدث على لسان بروسبيرو وهو يودع الحياة :

. . . إن الأجداث ، بأمر مني
 أيقظت النيام ، فيها ، وفتحت أبوابها وأطلقتهم
 بفضل فني الفعال . ولكن ها السحر الشاق
 أعد بأن أتخلي عنه هنا . . . ولسوف أحطم عصاى
 وأدفنها بضع أقدام تحت الأرض ،
 وفي مكان أعمق من أن ترن فيه رصاصة القاذن(*)
 سوف أغرق كتابي (٩٩).

وربما كان شكسبير أيضا ، الذي ابتهج بيناته وحفيده هو الذي صاح على لسان

ميراندا:

(*) القاذن — أداة مؤلفة من غيط في طرفه قطعة رصاص . يسير بها غور المياه .

عجباً !

كم من المخلوقات الوسيمة أرى هنا !
ما أجمل بنى الإنسان ! أيتها الدنيا الجديدة الرائعة
التي يعيش فيها مثل هؤلاء الناس (١٠٠) !

وفي ١٠ فبراير ١٦١٦ تزوجت جوديت من توماس كويني . وفي ٢٥ مارس كتب شكسبير وصيته . فترك ممتلكاته لسوزانا ، و ٣٠٠ جنيه لجوديت ، وأوصى بمبالغ لرفاق التمثيل ، و «بسريره الثاني» لزوجته التي كان قد هجرها ، وربما كان قد رتب مع سوزانا أن ترعى أمها . وعاشت آن هاثاواي سبع سنوات بعده . وذكر جون وارد قسيس كنيسة ستراتفورد (١٦٦٢ - ١٦٨١) ، أن « شكسبير ودرايتون وبن جونسون اجتمعوا في جلسة مرحة ، ويبدو أنهم أسرفوا في الشراب ، لأن شكسبير مات إثر حمى أصابته بعد ذلك (١٠١)* » . وحسب القضاء في ٢٣ أبريل ١٦١٦ ، ووروى جثمانه التراب تحت الهيكل في كنيسة ستراتفورد ، وهناك بالقراب من هذا المكان توجد بلاطة الضريح التي لا تحمل اسما ، وقد نقش عليها عبارة تخليد للذكرى ، تنسبها أقوال متواترة محلية إلى شكسبير نفسه :

أيها الصديق الكريم ، بحق يسوع المسيح ، تحمل
أن تحفر التراب الذي يحيط بهذا المكان ،
وليبارك الله الرجل الذي يحافظ على هذه الأحجار ،
ولعنة الله على من ينقل عظامي .

٧ - بعد موت الشاعر

ومبلغ علمنا ، أن شكسبير كان قد اتخذ خطوات لنشر رواياته . وطبعت الروايات الست عشرة التي كثيراً ما ظهرت في حياته ، وواضح أن هذا دون تعاون منه ، في قطع الربع عادة ، وعلى درجات متفاوتة من حيث التحريف في النص .

(*) ليس هناك ما يدعو إلى نفي هذه الرواية - سررا . ك - - - - - في كتاب " وليام شكسبير " الجزء الأول ص ٨٩ .

وأثارت هذه القرصنة والانتحالات اثنين من زملائه السابقين : جون همنج وهنرى كوندل ، فأصدرنا في ١٦٢٣ « الكتاب الأول » ، وهو مجلد من القطع الكبير به نحو ٩٠٠ صحيفة على نهري ، يضم النص الموثوق لست وثلاثين رواية . وجاء في تصدير الكتاب « إننا لم نفعل إلا أن أدينا خدمة للمراقدة تحت التراب ، ولم نبغ من وراء ذلك ربحا لنا أو شهرة ، بل نهدف إلى تخليد ذكرى صديق عظيم مائل بيننا . . . شكسبير » وكان يمكن شراء المجلد آنذاك بجنيه واحد . أما النسخ الباقية حتى الآن ؛ وعددها مائتان تقريبا ، فتقدر قيمة الواحدة منها بسبعة عشر ألفا من الجنيهات ، أى أغلى قيمة من أى كتاب آخر ، باستثناء انجيل جوتنبرج .

وتأرجحت شهرة شكسبير بشكل عجيب من حين لآخر . ففي ١٦٣٠ امتدحه ملتون وقال « شكسبير الأعز ، ثمرة الذوق والفن » . ولكن على عهد اليوريتانيين ، حين أغلقت المسارح ١٦٤٢ - ١٦٦٠ ، خبت شهرة الشاعر ، وعادت بعودة الملكية . وفي الصورة التى رسمها فان ديك لسيرجون سكلنج (والمحفوظة بقاعة فريك فى نيويورك) ، ترى سكلنج يمسك « بالكتاب الأول » مفتوحا على رواية هملت . ويمتدج دريدن ، معجزة أواخر القرن السابع عشر ، شكسبير على أنه « من بين الشعراء الحديثين ، وربما القدامى أيضا ، أعظم نفس وأوسعها إدراكا . . . وكان دوما عظيما إذا عرضت له مناسبة عظيمة » ولكن « كثيرا ما انحط فنه الهزلى (الملهاة) التافه الفاتر إلى فن مرهق قليل تضيق النفوس به ذرعا ، كما انحط تمثيله الجاد إلى مجرد كلام منمق طنان^(١٠٢) . . . » وذكر جون افلين فى مفكرته (١٦٦١) « أن الروايت القديمة تثير اشمئزاز هذا العهد المهذب ، حيث أن صاحب الجلالة عاش طويلا فى الخارج » ويقصد بهذا أن شارل الثانى والملكيين العائدين جلبوا معهم إلى انجلترا المعايير المسرحية من فرنسا ، وسرعان ما أخرج المسرح بعد عودة الملكية أشد الروايات دعارة وفجورا فى الأدب الحديث ، وظلت روايات شكسبير تمثل ، ولكن عادة ، بعد تعديدها بمعرفة دريدن أو أتواى Olway أو غيرهما ممن يمثلون ذوق « عودة الملكية » .

وأعاد القرن الثامن عشر روايات شكسبير إليه . فنشر نيقولا رو (١٧٠٩) أول طبعة انتقادية وأول سيرة حياة للشاعر . وأصدر بوب وجونسون طبعات وتعليقات . أما بترتون وجاريك وكبل ، والممثلة ساره سيدوز فقد جعلوا شكسبير معروفا مألوفاً محبوباً بشكل لم يسبق مثيل على المسرح . وفي ١٧٧٨ خلد توماس بودلر Bowdler اسمه هو نفسه بنشر . نسخة مهذبة حذف منها « كل ما يتنافى الحشمة والفضيلة » ، مما لا يمكن قراءته جهرا في الأسرة » . وفي أوائل القرن التاسع عشر احتضنت الحركة الرومانتيكية شكسبير ، وحولته ميالغيات كولردج وهازلت ودي كوينسى وتشارلز لام إلى معبود قبل :

واعترضت فرنسا — فما جاءت سنة ١٧٠٠ حتى كان رونسار وماليرب وبوالو قد شكلوا معاييرها الأدبية وفق التقاليد اللاتينية ، من حيث الترتيب والشكل المنطقي والدوق المهذب والتحكم العقلاني . وكانت فرنسا قد أقربت ، في أعمال راسين القواعد الكلاسيكية في المسرحية . وقد أزعجها وعكر صفوها شكسبير بتلاعبه الفارغ بالألفاظ ، والسيل الجارف من العبارات ، وعواصفه العاطفية ، ومهرجيه الأفظاظ ، وجمعه بين الملهاة والمأساة . وعندما عاد فولتير من إنجلترا (١٧٢٩) أتى معه ببعض التقديرات لشكسبير ، فهو يقول « أظهرت الفرنسيين لأول مرة على بعض الآلىء التى عثرت عليها بين الأكاداس الهائلة (١٠٣) » . ولكن إذا وضع أحدهم شكسبير في مرتبة أعلى من راسين ، انبرى فولتير للدفاع عن فرنسا بقوله « إن شكسبير همجى محبوب » (١٠٤) . وفي القاموس الفلسفى (١٧٦٥) أجرى فولتير بعض التعديل « إن لهذا الرجل نفسه قطعا تلهب الخيال وتنفذ إلى القلب لقد أدرك هذه المنزلة من الرفعة والسمودون أن يسعى إليها (١٠٥) » وساعدت مدام دى ستاى (١٨٠٤) وجيزو (١٨٢١) وفيلمين (١٨٢٧) — ساعدوا فرنسا على الاصغاء لشكسبير فى أناة وصبر . وأخيراً فإن ترجمة الروايات إلى نثر فرنسى جيد ، تلك الترجمة التى قام بها فرنسوا بن فيكتور هيجو أكسبت شكسبير احترام فرنسا له ، ولو أنه لم يصل إلى مستوى

الاعجاب القلبي المخلص الذى أسبغته على راسين .

وكان حظ الشاعر من الطباعة أسعد فى ألمانيا ، حيث لم ينافسه كاتب مسرحى محلى . فإن الكاتب المسرحى الألمانى العظيم الأول جوتهد لسنج ، هو الذى أنبأ مواطنيه (١٧٥٩) بأن شكسبير يسمو على كل الشعراء القدامى والمحدثين ، وأيده فى هذا هرذر . ورفع أوجست فون سكلجل ولودفيج تيك وغيرهما من زعماء المدرسة الرومانتيكية راية شكسبير ، وأسهم جيته بمناقشة حماسية عن هملت فى « قاعة وللم » (١٧٩٦) (١٠٦) . وأصبح شكسبير معروفا محبوبا على المسرح الألمانى ، وانتزع العلماء الإلمان من إنجلترا مقام الصدارة ، فى دراسة حياة شكسبير ورواياته وتوضيحها .

ويتعذر التقدير الموضوعى أو المقارنة الموضوعية على هؤلاء الذين شبوا وترعرعوا وهم ينشقون عبر شكسبير . فان الذى يعرف لغة الإغريق على عهد بريكلز وعقيدتهم وفهم وفلسفتهم ، هو وحده الذى يحس بالمسرحية المأساوية الديونيسية وسموها الذى لا مثيل له ، وبساطتها الواضحة ، وبالمنطق القوى فى بنيانها ، وبضبط النفس الباعث على الفخر فى القول والفعل ، وبالشرح الذى يهز النفوس فى ترانيم مجموعة المغنين فيها ، وبالمغامرة النبيلة فى مشاهدة الانسان من زاوية مكانه وقدره فى الكون . كما أن الذى يعرف اللغة الفرنسية والخلق الفرنسى ، وخلفية « القرن الأعظم » (السابع عشر) يمكنه وحده أن يحس ، فى روايات كورنى ورأسين - لا مجرد عظيمة الشعر وموسيقاه فحسب - بل يحس كذلك بالجهود البطولى للعقل فى إثارة العاطفة وبعث الانفعال ، والتمسك الحكيم الرزين بالمعايير الكلاسيكية العسيرة ، وتركيز المسرحية فى بضع ساعات تشد فيها الأعصاب ، لتلخيص حياة الانسان والفصل فيها ، كذلك فان الذى يعرف اللغة الانجليزية ، فى كمالها أيام اليزابث ، ويتعمق ويمجد المدة واستمتعا فى البلاغة والأغاني والتراتق فى عهد اليزابث ، ولا يغفل المسرح عن أن يعكس صورة الطبعة ويحرر الخيال ، نقول إن هذا وحده هو

الذى يستطيع أن يهيب لروايات شكسبير ما تستحقه من تقدير وترحيب قلبا
وقالبا : ولكن مثل هذا الرجل لابد أن يرقص طربا لروعة لغتها ، ويهتز
من الأعماق وهو يتابع ويسير غور الفسكرفيا ، تلك هى الفترات الثلاث التى
نعمت بموهبة المسرحية فى العالم . ويجدر بنا ، على الرغم من عجزنا ، أن نرحب
بها جميعا من أعماقنا ، شاكرين لتراثنا من الحكمة الاغريقية ، ومن الجمال
الفرنسى ، ومن الحياة فى عصر الزباث .

افصل الخامس

مارى ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ - ١٥٨٧

الملكة الجنية

وسط المسرحية المتشابكة ، مسرحية الإصلاح الدينى فى اسكتلنده مع السياسة فى عصر اليزابث ، جرت مأساه مارى ستيوارت ، بكل ما فيها من سحر الجمال والحب المشبوب والصراع الدينى والسياسى ، والقتل والثورة والموت البطولى ، وكاد أسلافها ، أن يؤكدوا لها خاتمة عنيفة. وكانت ابنة ستيوارت الخامس ملك اسكتلنده ومارى أميرة جيز واللورين وفرنسا . وحفيدة مرجريت تيودور ابنة هنرى السابع ملك لإنجلترا ، ومن ثم كانت بنت أخت ومن باب التساهل — بنت عمه ، « مارى اللعينة » واليزابث ، وكانت باجماع الآراء الوريثة الشرعية للتاج الإنجليزى . إذا توفيت اليزابث دون عقب ، وفى رأى هؤلاء الذين اعتبروا اليزابث ابنة زنى ، ومن ثم غير مؤهلة للملك — مثل الكاثوليك (وهنرى الثامن فى وقت ما) ، أنه كان لابد أن ترتقى عرش إنجلترا ١٥٥٨ ، مارى ستيوارت لا اليزابث . ولتصبح المأساه يقينا ، أباحت مارى ، عندما أصبحت ملكة فرنسا (١٥٥٩) — نقول أباحت لأتباعها ولوثائق الدولة أن يلقبوها ملكة إنجلترا . فثمة ادعاء فارغ ساد منذ أمد طويل بأن يكون ملوك فرنسا ملوكاً على إنجلترا أيضا ، كما يكون ملوك إنجلترا بدورهم ملوكاً على فرنسا ، ولكن الادعاء فى هذه الحالة قارب حقاً معترفاً به بصفة عامة . وما كان لأليزابث أن تطمئن على تاجها طالما بقيت مارى على قيد الحياة . وما كان ينقذ الموقف إلا النيات الطيبة أو النظرة الصائبة للأمر ، ولكن الملوك قل أن يطأطأوا رءوسهم إلى هذا الحد .

وعرضت الممالك على ماري ، في مدة سنة من ولادتها . فقد جعلها موت أبيها في بحر أسبوع من مولدها ، ملكة إسكتلنده ، واقترح هنري الثامن ، أملا منه في ضم اسكتلنده كمقاطعة ملحقة بإنجلترا - اقترح أن تخطب الطفلة إلى ابنه إدوارد وترسل إلى إنجلترا . وتربي فيها . مع افتراض أن تكون بروتستانتية ، لتكون ملكة مع ابنه إدوارد . ولكن بدلا من هذا ، قبلت أمها الكاثوليكية عرض هنري الثاني ملك فرنسا (١٥٤٨) أن تزوجها لأكبر أبنائه (الدوفين) . وحماية لماري من اختطافها إلى إنجلترا . أسرعوا بها وهي في سن السادسة إلى فرنسا ، حيث بقيت هناك ثلاثة عشر عاما ، وتلقت العلم مع أولاد الأسرة المالكة ، وتأصلت فيها الروح الفرنسية تماما . حيث كانت نصف فرنسية بحكم الدم . ولما نضجت واكتمل شبابها ، تجلت كل مفاتيح الأنوثة في جبال القسمات والقوام ، وحدة الذهن . والكياسة المرحية في السلوك والحديث ، وغنت غناء عذبا ، وعزفت على العود عزفا جيدا . وتحدثت باللاتينية ، وكتبت شعرا تكلف الشعراء إطراءه ، وخفقت قلوب الحاشية « لرؤية وجهها النقي الناصع البياض كالثلج » (برانتوم (١)) « وشعرها المقصوص المضفر ، (رونسار (٢)) ، ورشاقة يديها النحيلتين ، وصدرها الممتلئ . وحتى أن لوبيتال الوقور الرزين ذهب إلى أن مثل هذا الجمال لا يمكن إلا أن يكون لأحد الآلهة . (٣) وأصبحت أكثر الشخصيات جاذبية وأعظمها كياسة في أكثر بلاط أوربا تهديبا ووصلا . ولما بلغت السادسة عشرة تزوجت ولي عهد فرنسا (الدوفين) في ٢٤ أبريل ١٥٥٨ . وما أن بلغت السابعة عشرة ، حتى أصبحت ، بارتقائه العرش ، ملكة على فرنسا . ويبدو أن كل آمال حلم خيالي قد أصبحت حقيقة .

ولكن في ٥ ديسمبر ١٥٦٠ مات فرنسوا الثاني (زوجها) بعد حكم دام سنتين . وفكرت ماري التي باتت أرملة وهي في سن الثامنة عشرة ، في أن تأوى إلى ضيعة في تورين ، لأنها أحبت فرنسا . ولكن اسكتلنده في تلك الأثناء تحولت إلى البروتستانتية ، وكانت على شفا ضياعها من فرنسا بوصفها حليفة . ورأت الحكومة الفرنسية أن من واجب ماري أن تذهب إلى أدنبره ، وتقود وطنها الأصلي إلى التحالف مع فرنسا . وإلى العقيدة الكاثوليكية من جديد . وارتضت ماري كارهة أن تترك

مباهج المدنية الفرنسية ورفاهيتها ، لتعيش في اسكتلنده التي تصورتها أرض الهمجية والبرودة . وكتبت إلى زعماء الأشراف مؤكدة إخلاصها لاسكتلنده ، ولكنها لم تذكر لهم أنها في عقد زواجها ، حولت ملك اسكتلنده إلى ملوك فرنسا إذا توفيت دون عقب . وافتتن بها النبلاء ، البروتستانت منهم والكاثوليك على حد سواء ، ودعاها برلمان اسكتلنده لتتوأ عرشها . وطلبت إلى اليزابث امتياز المرور بأمان عبر إنجلترا ، فرفض طلبها ، فأبحرت ماري من كاليه في ١٤ أغسطس ١٥٦١ ، مودعة فرنسا بالدموع ، محذقة في الشاطئ الذي يتراجع من خلفها ، حتى لم يبق أمامها شيء إلا البحر .

وبعد خمسة أيام أُلقت السفينة مراسيها في « ليث » ثغر ادنبره واكتشفت ماري اسكتلنده .

٢ - اسكتلنده ١٥٦٠ - ١٥٦١

كانت أمة ذات أصول عريقة وأساليب عتيقة ، قيديتها الأراضي الجبلية الوعرة في الشمال بنظام إقطاعي ، يتحكم فيه أمراء مستقلون تقريباً ، يحون حياة نصف بدائية قوامها الصيد والرعى ، واستئجار الأرض القابلة للزراعة . أما الجنوب فقد تميز بأرض منبسطة خصبة بفضل ماء المطر ، ولكنها مظلمة معتمة بسبب شتائها الطويل والبرد القارس الذي يشل الحركة . فهنا شعب يكافح ليخلق نظاماً أخلاقياً وحضارياً ، من حماة الأمية واختلاط الأنساب والفساد والتمرد على القانون والعنف ، شعب أعمته الخرافات ، وإرسال السحرة إلى الإعدام حرقاً ، يفتش في عقيدة دينية متشددة عن حياة أقل قساوة ومشقة . ورغبة في موازنة قوة البارونات التي مزقت أوصال البلاد ، كان الملوك ساندوا وشجعوا رجال الدين الكاثوليك وأغدقوا عليهم الثروات ، مما جرهم إلى الفساد وقبول الرشوة وعدم المبالاة ومعاشره الخليلات (٤) . وتحرق النبلاء لهفاً على ثروة الكنيسة ، فانتقصوا من قدر رجال الدين ، بملء الوظائف الكنيسة بأبنائهم الخبراء بشئون الدنيا ، ونادوا بالإصلاح الديني ، وجعلوا البرلمان الاسكتلندي الذي تحكموا فيه سيداً للكنيسة والدولة على حد سواء .

وكان الخطر الخارجي أقوى حافز على الوحدة الداخلية . ولم تحس إنجلترا

بالطمأنينة في جزيرة يشاركها فيها الإسكتلنديون الذين لم يروضوا بعد . وسعت من حين لآخر ، بالطرق الدبلوماسية أو الزواج أو الحرب ، إلى إخضاع إسكتلنده للحكم البريطاني . وأشار سيسل على اليزابث بمساندة النبلاء البروتستانت ضد مليكتهم الكاثوليكية ، ومن ثم أصبح إسكتلنده ممزقة ، ولا تعود تشكل خطراً على إنجلترا أو دعامه لفرنسا . وفوق ذلك يمكن لزعماء البروتستانت ، إذا حالفهم التوفيق ، أن يخلعوا ماري ، ويتوجوا نبيلاً بروتستانتيًا ، ويحولوا إسكتلنده كلها إلى البروتستانتية . وراود سيسل بصفة خاصة حلم توحيد إسكتلنده على هذه الصورة مع إنجلترا بإغراء اليزابث بالزواج من مثل هذا الملك^(٥) . فلما أرسلت فرنسا إلى إسكتلنده قوة لإخماد البروتستانت سارعت اليزابث بإرسال جيش لحمايتهم وطرد الفرنسيين . ولما حاقت الهزيمة بفرنسا في ميدان القتال ، وقع ميثاقها في إسكتلنده في أدنبره (٦ يولية ١٥٦٠) معاهدة مشؤومة لا تنص على خروج الفرنسيين من إسكتلنده فحسب ، بل على عدم مطالبة ماري بأى حق في عرش إنجلترا . كذلك ، ورفضت ماري ، بناء على مشورة زوجها فرنسوا الثانى ، التصديق على المعاهدة . وعلمت اليزابث بذلك .

وكان الوضع الدينى مضطرباً ، بنفس القدر . ذلك أن « برلمان الإصلاح الدينى » الإسكتلندى الذى التأم ١٥٥٠ ، ألغى الكاثوليكية رسمياً ، وقرر أن تكون البروتستانتية الكلفنية دين الدولة ، ولكن ماري لم تصدق على هذه القرارات البرلمانية حتى تصبح قوانين نافذة المفعول في البلاد . وظل القساوسة الكاثوليك يشغلون معظم الوظائف الكنسية ذوات الدخول في إسكتلنده . وكان نصف النبلاء ، بابوين ، وظلجون هاملتون الذى يجرى في عروقه الدم الملكى ، يذهب إلى البرلمان بوصفه زعيم الكاثوليك في إسكتلنده . ومهما يكن من أمر فإن نسبة كبيرة من الطبقة المتوسطة في أدنبره وسانت أندروز وبرث وسترلينج وأبردين ، انحازت إلى الكلفنية ، بفضل الوعاظ المخلصين المتحمسين ، بزعامه جون نوكس Knox .

وفي العام الذى سبق مجيء ماري أخرج نوكس ومعاونوه كتاباً في قواعد السلوك والاضباط « Discipline » يحدد مذهبهم وأغراضهم ، فالديانة لا تعنى

إلا البروتستانتية ، و « الربانيون والأنقياء » لا يقصد بهم إلا الكلفنيون وحدهم ، أما « الوثنية » فإنها تشمل « القداس » ، والتضرع إلى القديسين وعبادة الصور . . . والاحتفاظ بها » ، أما « المتمسكون بهذه الأشياء البغيضة والداعون إليها » فلا ينبغي أن يفلتوا من عقاب القضاة والحكام المدنيين . « وكل مذهب أو نظرية » تتنافى ” مع الإنجيل ، يجب “ القضاة عليها قضاءً تاماً ، على أنها لعينة تحول دون خلاص الإنسان (٦) ” . أما القساوسة فينبغي أن ينتخبوا في المجامع ، وعليهم أن ينشثوا المدارس ويفتحوها لكل أبناء الرب ، مع خضوعها لرقابة الجامعات الإسكتلندية — سانت أندروز ، جلاسجو ، أبردين . ويجب أن تخصص أموال الكنيسة الكاثوليكية والعشور الكنسية المستمرة لحاجيات القساوسة البروتستانت وتعليم الشعب ومعونة الفقراء . وعلى “ الكنيسة الإسكتلندية الوطنية ” ، الجديدة — لا السلطة المدنية — أن تصدر تشريعات الأخلاق ، وتفرض العقوبات على مخالفتها — السكر والجشع والتجديف والإسراف في الثياب ، ظلم الفقراء والفحش والفسق والزنى ، وكل من يعارض المذهب الجديد ، أو يتغيب عمداً عن طقوسه ؛ يحال إلى السلطة المدنية ، مع توصية من الكنيسة الإسكتلندية الوطنية بإعدامه (٧) .

على أن اللوردات الذين سيطروا على البرلمان أبوا أن يقرروا “ قواعد السلوك والانضباط ” (يناير ١٥٦١) . ولم يستسيغوا قيام كنيسة وطنية قوية مستقلة . وكانت لهم خططهم الخاصة في استخدام أموال الكنيسة المنحلة وظل “ كتاب قواعد السلوك ” هدفاً ونبراساً يهتدى به في تطوير الكنيسة الإسكتلندية الوطنية وتنميتها .

ولما أخفق نوكس في إقامة حكومة لاهوتية يتولاها قساوسة يدعون أن لهم حق الكلام نيابة عن الرب ، بذل جهداً جباراً في إصرار بالغ ، في تنظيم الكهنوت الجديد ، وإيجاد الاعتمادات اللازمة لتدعيمهم ، وانتشارهم في كل أرجاء إسكتلندا ، لمواجهة رجال الدين الكاثوليك الذين ظلوا يؤدون وظائفهم ، وخلقت قوة العقيدة في مواضعه التي كان يلقيها وحماسة طائفته — نقول خلقت منه قوة في أدنبره وفي الحكومة . وكان لزاماً على الملكة الكاثوليكية ، ماري ، أن تصنى حسابها معه . حتى تستطيع تثبيت دعائم ملكها .

٢ — ماري ونوكس ١٥٦١ — ١٥٦٥

اتخذت ماري الترتيبات لتصل إلى إسكتلندة . قبل الموعد المضروب بأسبوعين ، حيث خشيت بعض المقاومة في دخولها إلى البلاد ، ولكن ما أن انتشر في العاصمة خبر وصولها إلى ليث حتى اكتظت الشوارع بالأهالي ، الذين عرّتهم الدهشة ليروا ملكتهم غادة جميلة مرحة مفعمة بالحياة : لم تبلغ بعد التسعة عشر ربيعاً . وحياها معظمهم واهتفوا لها وهي على ظهر جوادها الصغير إلى قصر هوليرود . Holyrood وهناك رحب بها اللوردات ، بروتستانت وكاثوليك فخورين بأن يكون لإسكتلندة ملكة فاتنة إلى هذا الحد ، يمكن يوماً ما ، بشخصها أو بشخص ابن لها ، أن تخضع لإنجلترا الحكم ملك إسكتلندي .

وإن صورتها^(٨) اللتين وصلنا إلينا لتؤكدان شهرتها بأنها من أجمل نساء عصرها . ولسنا ندرى إلى أي حد استطاع الرسامان اللذان نجعل الآن اسميهما ، أن يمثلها ، ولكننا نلاحظ في اللوحتين كليهما ، القسماة الوسيمة واليدين الناعمتين والشعر الكستنائي الغزير الذي سلب ألباب البارونات وكتاب السير . ومع ذلك فلن هاتين الصورتين لا تكادان تكشفان لنا عن الحاذية الحقيقية للملكة الصغيرة — روحها المرحّة ، وثرغها الباسم . وحديثها العذب البارع : وحاسها المتدفق ، وروح الألفة والحنان والمودة فيها ، وتلفها على الحب . وإعجابها المتهور بالأقوياء من الرجال ، وكانت طامتها الكبرى أنها أرادت أن تكون امرأة وملكة معاً — أي أن نحس بدفع العاطفة ، دون أن تنقص من امتيازات الملك . لقد فكرت في ذاتها بلغة قصص الفروسية — حسناوات مزهوات ولكنهن وديعات رقيقات ، عفيفات شهوانيات في وقت معاً ، وأهل للهفة المتقدة والألم الحسى : والإشفاق الرقيق ، والولاء الذي لا تفسده الرشوة ، والشجاعة التي تظهر عند الشدة . وكانت بارعة في ركوب الخيل ، تقفز بجوارها فوق الأسوار ، وتتخطى الخنادق في اندفاع وتهور ، وتستطيع احتمال مشاق الحملات دون كلل ولا شكوى . ولكنها لم تكن من الناحية الجسمية أو العقلية صالحة لأن تكون ملكة ، فقد منيت بالاعتلال والضعف في كل شيء اللهم إلا قوة الأعصاب ، وكانت عرضة لنوبات من الإغماء

تبدو وكأنها صرع . مصابة بعلة لم يتيسر تشخيصها . غالباً ما شلت حركتها وجعلتها تتلوى من شدة الألم^(٩) . ولم يكن لها ذكاء الرجال الذى تميزت به اليزابث ، وكانت فى الغالب بارعة حاذقة . ولكن قل أن اتسمت بالحكمة ، وكثيراً ما أطلقت العنان للهوى والعاطفة فأفسدتا الدبلوماسية ، وأظهرت فى بعض الأحيان قدراً كبيراً من ضبط النفس والجلد واللباقة ، ثم عادت فأودت بهذا كله ، نتيجة الانفعال السريع واللسان السليط . لقد كان جمالها نقمة عليها ، ولم توهب المقدرة العقلية . وكان فى أخلاقها قضاء عليها .

وبدلت مارى جهداً مضنياً لتواجه الأخطار المتشعبة فى موقفها ، متأرجحة بين اللوردات الجشعين ، والوعاظ المعادين ، والإكليروس الكاثوليكى المتفسخ الذى لم يرع حرمة عقيدتها التى تدعو إلى الثقة فيهم . واختارت لزعامه مجلس شورى الملكة اثنتين من البروتستانت : أخاها غير الشقيق ، الابن غير الشرعى ، لورد جيمس ستىوارت (لورد مورى فيما بعد) . وكان فى سن السادسة والعشرين ، ووليم ميتلند لثنجتون ، وكان فى سن السادسة والثلاثين ، وكان فيه من الذكاء أكثر مما يحتمله خلقه ، وقد تحول من جانب إلى جانب . مؤثراً تسوية الأمور والحلول الوسط بين الأطراف المتنازعة ، حتى وفاته . وكان هدف سياسة لثنجتون راعياً ممتازاً - وهو توحيد إنجلترا واسكتلنده لأنه البديل الوحيد للعداء الذى يودى بالبلدين كليهما ، وفى مايو ١٥٦٢ أوفدته مارى إلى إنجلترا ليرتب لقاء بينها وبين اليزابث ، ووافقت اليزابث ، ولكن مجلس الشورى اعترض ، خشية أن أى تسليم مهما كان غير مباشر بحق مارى فى عرش إنجلترا ، قد يشجع الكاثوليك على محاولة قتل اليزابث . وتبادلت الملكتان الرسائل فى مودة دبلوماسية ، على حين كانت كل منهما تحاور وتداور وتتحين الفرصة للانقضاض على زميلتها ، أو كانتا تلعبان معاً لعبة القط والفأر .

وفى الأعوام الثلاثة الأولى حالف التوفيق حكم مارى فى كل ناحية ، فيما عدا الدين . وعلى الرغم من أنها لم تستطع قط أن تطيب نفساً بمناخ إسكتلنده أو ثقافتها ، فإنها سعت : بحفلات الرقص والتمثيليات الممتعة والجمال ، أن تجعل من قصر هوليرود " باريس " صغيرة فى منطقة مجاورة للمنطقة المتجمدة الشمالية . وتححر

معظم اللوردات وأطلقوا لأنفسهم العنان في ظل مرحها وبهجتها . وتدمر نوكس وزجر بأنهم سحروا . وفوضت الملكة موري ولشجنون في تدبير شئون المملكة ، فقاما بالمهمة خير قيام . وبدا ، لبعض الوقت ، أنه حتى المشكلة الدينية قد وجدت حلاً بفضل تنازلات الملكة . ولما حثها مندوبو البابا على إعادة الكاثوليكية ديناً رسمياً للبلاد ، أجابت بأن هذا مستحيل في الوقت الراهن ، وإلا تدخلت الزبائث بالقوة . ورغبة في تهدئة خواطر البروتستانت الإسكتلنديين ، أصدرت ماري في ٢٦ أغسطس ١٥٦١ بياناً يحرم فيه على الكاثوليك محاولة إحداث أية تغييرات في الديانة القائمة ، ولكنها طلبت أن يرخص لها هي نفسها في ممارسة الشعائر سرّاً ، وأن يقيم لها القداس في الكنيسة الملكية الخاصة (١٠) . ويوم الأحد ٢٤ أغسطس أقيم القداس هناك . وتجمع نفر قليل من البروتستانت خارجها وطالبوا « بإعدام القسيس الذي يعبد الأصنام (١١) » ، ولكن موري حال دون دخولهم الكنيسة ، على حين اقتاد معاونوه القسيس إلى مكان آمن . . وفي يوم الأحد التالي استنكر نوكس سماح اللوردات بالقداس ، وأعلن إلى جماعة المصلين في كنيسة أن قداساً واحداً كان أكثر إساءة إليه من عشرة آلاف عدو مسلحين (١٢) .

وأرسلت الملكة في طلبه ؛ تستعطفه وتناشده التسامح . وفي قصرها ، في ٤ سبتمبر ، ألتقت العقيدتان لقاء تاريخياً ، لم تصل إلينا تفاصيل ما جرى فيه إلا من تقرير نوكس نفسه (١٣) . وانتهرت ماري لإثارته الفتنة ضد سلطة أمها الشرعية ؛ ولكتابته « هجومه العنيف » ضد « جماعة النسوة الخاطئات » ، الذي أساء إلى كل السيدات اللائي تولين الملك . فأجاب « بأنه إذا كان استنكار الوثنية معناه إثارة الرعايا ضد حكامهم ، فهلا يمكن التماس العذر فيه والصفح عنه ، فإن الله قد ارتضى . . . أن أكون واحداً (من بين الكثيرين) ممن أوصدوا أبواب هذه المملكة ضد باطل العقائد البابوية وضد خداع هذا الروماني عدو المسيح ، البابا ، وغروره وظلمه . أما الهجوم العنيف . فإنه يا سيدتي قد كتب بصفة أخص ضد المرأة الفاسقة في إنجلترا ماري تيودور . ويستطرد تقرير نوكس :

قالت الملكة : هل تظن أن الرعايا قد يقومون في وجه حكامهم ؟
فأجاب نوكس : إذا تجاوز الحكام حدودهم ، فلا ريب في أنهم يلقون
المقاومة ، حتى ولو بالقوة .

ونَهَضَت الملكة من مقعدها : وقد تولتها الدهشة . . ثم قالت في النهاية :
حسنا ، إذن ، أرى أن رعاياي سوف يمثلون لك وليس لى .

فقال نوكس : إن الله يحرم على أن آخذ على عاتقى أن آمر أحدا بطاعى ،
أو أن أترك الناس أحراراً يفعلون ما يشاءون . ولكن رسالتى أن يلتزم الأمراء
والرعايا جميعهم بطاعة الله . وهذا الخضوع لله وللكنيسة المحيدة - ياسيدتى -
هو اسمى منزلة يمكن أن يحظى بها الانسان على هذه الأرض .

فقالت : ولكنكم لستم الكنيسة التى سوف أرفعها وآخذ بيدها ، سوف
أدافع عن كنيسة رومه ، لأنى أعتقد أنها كنيسة الله الحق .

فقال نوكس : لن تشكل مشيئتك سببا ياسيدتى ، ولن يجعل مجرد تفكيرك
أنت من هذه الفاجرة الداعرة الرومانية القرينة الحقبة الطاهرة التى تحمل بلادنس ،
ليسمع المسيح . . . ولا تعجبى ياسيدتى لأنى أطلق على رومه ، المومس الفاجرة ،
لأن هذه الكنيسة ملوثة تلوثا تاما بكل ألوان الفجور الروحى .

فقالت : لا يحدثنى قلبى بهذا .

ولو كان هذا الحديث منقولا نقلا أميناً لكان مواجهة محزنة بين الملكية
والديمقراطية اللاهوتية ، وبين الكاثوليكية والكلفنية . ولو كان لنا أن نصدق
نوكس ، فإن الملكة تلقت توبيخات دون أن تقابل الأذى بمثله ، ولم تزد على
أن قالت :

« لقد جاوزت الحد فى إيلامى » وانصرفت إلى العشاء ، وذهب نوكس إلى
كنيسته . وناشد لشتجتون نوكس أن يعامل الملكة برفق أكثر ، لأنها أميرة يافعة لم
تخضع لأى تحرير أو إغراء (١٤) .

ولم يشعر أتباعه بأنه كان قاسيا عليها . ولما ظهرت فى المحافل العامة قال بعضهم
بأنها وثنية ، وصاح فيها الأطفال بأن الاستماع إلى القديس خطيئة . وأصدر حكام

ادبره قرارا بنى الأشخاص الأقدار (كذا) « الرهبان ، أعضاء الأخوات الدينية ، الفساوسة الراهبات ، الزناة (١٥) » . فعزلت ماري هؤلاء الحكام وأمرت بإجراء انتخابات جديدة . وفي سترلنج طرد القساوسة الذين أرادوا أن يقيموا لها القداس والدم ينزف من رءوسهم . « على حين انفجرت هي باكية ، حيرة وعجزا (١٦) » . واجتمعت الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الاسكتلندية وطالبت بمنعها من حضور أى قداس فى أى مكان ، ولكن لوردات مجلس الشورى أبوا أن يستجيبوا لهذا . وفى ديسمبر ١٥٦١ قام خلاف حاد بين المجلس والكنيسة حول توزيع إيرادات الكنيسة . فخصص للقساوسة البروتستانت السدس ، وللملكة سدس آخر ، واختص رجال الدين الكاثوليك (ولا يزالون يشكلون الغالبية) بثلثي الإيراد . فأوجز نوكس هذه التهمة فى قوله : أعطى للشيطان ثلثان ، وقسم الثلث الأخير بين الشيطان والرب (١٧) . وقبض الكهنة البروتستانت فى المتوسط مائة مارك (٣٣٣٣ شلنات ؟) سنويا (١٨) .

واستمر رجال الكنيسة الوطنية ، طوال العام التالى ، ينددون بالملكة ، وقد روعتهم التمثيليات والعريضة والصخب وحفلات الرقص والمغازلات التى تجرى فى بلاط ماري ، واقتصدت الملكة فى ملاهيها ومباذلها استجابة للاحتجاجات ، ولكن القساوسة أحسوا بأن عليها أن تفعل شيئا أكثر من هذا ، لأنها ما زالت تشهد القداس . وكتب أحد المعاصرين : « أـ جون نوكس يرغب ويزايد ويدوى كالرعد من فوق المنبر ، إلى حد أنى لا أخشى شيئا أكثر من أنه يوما ما سيفسد علينا كل شيء ، إنه يسود ويتحكم ، ويخشاه الناس جميعا (١٩) » . وهنا أيضا اشتبك الإصلاح الدينى مع النهضة .

وفى ٥٥ ديسمبر ١٥٦٢ استدعت ماري نوكس ، واهتمته ، فى حضرة موري ولثنجتون وغيرهما ، ببذر بذور الكراهية لها فى نفوس أتباعه . ويقول هو بأنه رد عليها بقوله : « إن الأمراء والحكام درجوا على اللعو واللغو وتضييع الوقت سدى أكثر منهم فى قراءة أعظم كلمات الله والاستماع إليها ، وأن العابثين واللاهين أعظم قيمة فى أعينهم من الحكماء والرجال الجادين الوقورين ، الذين قد يستطيعون

بشيء من النصيح الكريم أن يستأصلوا بعض الغرور الباطل والزهو الكامن في نفوس الناس جميعاً ، ولكنها صفات تنأصل وتقوى في نفوس الأمراء والملوك بفعل التعليم السيئ » فما كان جواب الملكة - على حد قول نوكس نفسه ، إلا أن قالت (في حلم غير معهود فيها) : « إذا سمعت عني ما يفضبك تعال وأبلغني إياه ولسوف أصغي إليك . » فرد عليها : « أنا ياسيدتي ، مكلف برسالة عامة في كنيسة الرب ، وعينت من قبله لأحاسب على خطايا ورذائل الناس جميعاً . ولست مكلفاً بأن آتي لكل فرد على حدة لأظهره على إثمه . فهذا عمل لا ينتهي . وإذا تفضلت جلالتك بحضور المواعظ العامة ، فلا يخامرني أي شك في أنك ستعرفين تماماً ما أريد وما أبغض . »

وتركنه ينصرف في سلام ، ولكن استمر الصراع بين العقائد . وفي عيد الفصح ١٥٦٣ قبض الموظفون المحليون على عدة قساوسة كاثوليك ، كانوا قد خالفوا القانون بإقامة القداس ، وهددوهم بالموت لو ثبتتهم (٢١) . وسجن بعضهم ، وهرب آخرون واختفوا في الغابات فأرسلت ماري في طلب نوكس مرة أخرى ، وتوسطت للإفراج عن القساوسة المسجونين ، فأجابها بأنها إذا طبقت القانون ، فإنه يكفل لها انصياع البروتستانت وطاعتهم ، وإلا فلانة يعتقد أن هؤلاء البابويين كانوا جديرين بتلقيهم درساً . « فقالت : إنني أعد بتحقيق رغبتك » . ودامت صداقتهما لبعض الوقت . ويأمر منها حوكم أسقف سانت أندروز وسبعة وأربعون قسيساً آخرون لإقامتهم القداس . وحكم عليهم بالسجن . وابتهج الكهنة البروتستانت بهذا . ولكن بعد أسبوع ، (٢٦ مايو ١٥٦٣) عندما شهدت ماري ووصيفاتها البرلمان في أبيهي حلة ، وهتف بعض الناس « بارك الله ذاك الوجه الجميل » ندد هؤلاء الكهنة البروتستانت بتبرجهن وأذبال ثيابهن وماتدلى منها من حواش . وكتب نوكس : لم تشهد اسكتلنده مثيلاً لهذه الأبهة البغيضة في السيدات من قبل (٢٢) .

وترامى إلى سماع نوكس بعد ذلك بقليل أن لثنجتون كان يحاول عقد زواج بين ماري ودون كارلوس ابن فيليب الثاني ملك أسبانيا . وإحساساً منه بأن مثل هذا الزواج سيكون ضربة قاضية على البروتستانتية في أسكتلنده ، أعلن نوكس عن رأيه بصراحة في موعظة ألقاها على النبلاء الذين شهدوا البرلمان :

والآن أيها اللوردات ، وللقضاء على كل شيء ، أسمع عن زواج الملكة . . . واسمحوا لي أن أقول أيها اللوردات إنه حينما يعترف نبلاء اسكتلنده للسيد المسيح برضاهم عن أن يكون أحد الكفار (وكل أتباع البابا كفار) على رأس مملكته ، فانكم بذلك تبدلون أقصى ما في وسعكم لإبعاد يسوع المسيح عنها (٢٣) .

وفقدت الملكة صوابها ، فاستدعته ، وسأله — كما يقرر هو نفسه : « ماشأنك بزواجي ؟ ومن أنت في هذه الدولة ؟ » فأجاب جوابه المشهور « فرد ولد في هذه البلاد نفسها ياسيدتي . ومع أنني لا إرل ولا لورد ولا بارون ، في هذه الدولة ، فقد اختارني الله (مهما كنت حقيراً في عينيك) عضواً نافعا فيها (٢٤) » فانفجرت ماري باكية ، وأمرته بالانصراف .

وبلغت جرأة نوكس ذروتها في أكتوبر (١٥٦٣) ذلك أنه أحاط مرة أخرى بالكنيسة الملكية الخاصة جمع من الناس احتجاجاً على القداس الذي كان على وشك أن يقام . ودخل أندرو آرمسترونج وباتريك كرانرتون إلى الكنيسة وأرهبوا القسيس حتى انصرف ، فأمرت الملكة التي لم تكن في الكنيسة آنذاك ، بمحاكمة هذين الرجلين الكلفنيين بتهمة اقتحام حرمة الخاص . وفي أكتوبر أرسل نوكس كتاباً يأمر فيه « الاخوة من كل الطبقات ، الذين آثروا طريق الحق » بأن يشهدوا المحاكمة . وحكم مجلس الملكة بأن هذه الدعوة خيانة عظيمة ، ودعا نوكس للمثول للمحاكمة أمامها . وحضر نوكس (٢١ ديسمبر ١٥٦٣) ولكن حشداً هائلاً من مؤيديه تجمع في الفناء ، وعلى الدرجات « حتى وصل إلى باب القاعة التي جلست فيها الملكة ومجلسها » ودافع هو عن نفسه دفاعاً مجيداً إلى حد أن المحكمة برأته ، وقالت الملكة « تستطيع يا ماستر نوكس أن تعود إلى دارك اليليلة . » فأجاب هو وأدعو الله أن يظهر قلبك من رجس البابوية (٢٥) .

وفي يوم أحد السعف ١٥٦٤ تزوج « الرسول » الذي لا يقهر ، وهو في سن التاسعة والخمسين ، زوجته الثانية ، مرجريت ستيوارت ، التي تربطها

بالمملكة ، صلة قرابة بعيدة ، وهى فى سن السابعة عشرة : وبعد سنه واحدة ، تزوجت الملكة للمرة الثانية .

٤ - الملكة تقع فى شرك الغرام ١٥٦٥ - ١٥٦٨

من ذا الذى تستطيع الملكة أن تختاره زوجا لها ، دون أن تقع فى ورطة دبلوماسية ؟ أميرا أسبانيا ؟ . ولكن لابد أن تحتج فرنسا وإنجلترا ويغضب البروتستانت فى اسكتلنده . « فرنسا » ؟ ولكن إنجلترا لابد أن تقاوم ، حتى يجد السيف ، تجدد التحالف الفرنسى الاسكتلندى ، « أميرا نمسويا ، الأرشيدوق شارل » ؟ ولكن نوكس أنذر وحذر من فوق المنبر ، من الاتحاد مع « كافر » كاثوليكي ، كما أن الزباث أخطرتها بأن الزواج من آل هابسبرج - الأعداء القدامى لآل تيودور - يعتبر عملا عدائيا .

وفى لخط من الانفعال قطعت مارى العقدة الدبلوماسية . فى اكتوبر ١٥٦٤ رأى ماتيو ستيوارت أنه قد آن الأوان العودة إلى اسكتلنده - وكان ماتيو ، إرل لنوكس يعتقد أنه المرشح التالى لعرش اسكتلنده بعد مارى ، وكان قد فقد كل أراضيّه بمساندته هنرى الثامن ضد اسكتلنده ، وهرب إلى إنجلترا تفاديا لانه ام الاسكتلنديين آنذاك . ولحق به فى اسكتلنده بعد قليل ابنه ، هنرى ستيوارت لورد دارنلى البالغ من العمر تسع عشر عاما ، والذى هو ، عن طريق والدته ، من نسل هنرى السابع ملك إنجلترا ، مثل الملكة مارى . وفتنت مارى بالشاب الأمرد وأعجبت بمهارته فى لعب التنز ، والعزف على العود ، وتجاوزت عن غروره ، بوصفه أمرا يلتزم مع طلعه الجميلة ، واندفعت فى الغرام قبل أن تستطيع أن تتبين فيه الغباء والحمق . وفى ٢٩ يولية ١٥٦٥ ، وعلى الرغم من احتجاج الزباث ونصف أعضاء مجلسها الخاص ، اتخذت مارى من هذا الفتى زوجا ، وأسّمته ملكا . واستقال مورى من المجلس وانضم إلى أعداء الملكة العنيدة الجامعة .

ونعمت ، لشهور قلائل ، بالسعادة المشوبة بالمتاعب . لقد استبد بها توقها الشديد إلى الحب طيلة السنوات الأربع التى قضتها أرملة . وقد أثلج صدرها أن تجد من يرغب فيها . لقد منحت زوجها حبها بلا قيد ولا شرط ، وأغدقت عليه كل

شيء بلا حدود. قال توماس راندولف سفير اليزابث : « لقد أولته كل ألوان الجلال والرفعة وألقاب الشرف ، ولا ينشرح صدرها لأى رجل لا يرضى عنه الملك الفتى ، وتنازلت عن إرادتها من أجله هو (٢٦) . » ولكن الحظ السعيد أفسد عقل الفتى . فأصبح دكتاتوراً مستبداً وقحاً وطالب بأن يشارك الملكة سلطانها ، وفى نفس الوقت أقام الحفلات الصاخبة وأسرف فى الشراب ، وأبعد المجلس ، وأصابته نوبات من الحقد ، وأرتاب فى أن مارى ترتكب الزنى مع دافيد رتشيو .

ومن يكون رتشيو هذا ؟ أنه موسيقار إيطالى كان قد قدم إلى إسكتلندة ١٥٦١ ، وهو فى سن الثامنة والعشرين ، فى معية السفير (من سافوى) . ولما كانت مارى زوجة بالموسيقى ، فقد ألحقتها بخدمتها كمنظم للمهرجانات الموسيقية ، ولقد سعدت بنظانه وسرعة بديهته ، وتنوع ثقافته التى اكتسبها من القارة (أوروبا) . ولما كان يعرف الفرنسية واللاتينية معرفة جيدة ، ويكتب بلغة إيطالية جميلة ، فقد اتخذته كذلك سكرتيراً لها ، وسرعان ما عهدت إليه بإعداد مراسلاتها الأجنبية وكتابتها . وأصبح مستشاراً لها ، وبات قوة لا يستهان بها ، وأسهم فى توجيه السياسة . وجلس إلى مائدة الملكة يشاركها غداءها ، وختلاها أحياناً إلى ساعة متأخرة من الليل . ومذ رأى النبلاء الإسكتلنديون أن رتشيو قد نحاهم عن مكانتهم وحل محلهم ، وارتابوا فى أنه يناصر الكاثوليك ، فلأنهم تأمروا على تدميره .

وكان الايطالى الداهية فى بداية الأمر قد سحرل دارنلى نفسه ، فكانا يسرحان ويمرحان معاً وينامان معاً ، ولكن على حين أن المهام المنوطة برتشيو وامتيازاته وتكريمه والخفاوة به زادت ، فإن حماقة دارنلى هبطت به إلى مستوى العجز السياسى ، فانقلب حب الملك للخادم الذى أصبح وزيراً إلى مقت وبغض . ولما حملت الملكة مارى ذهبت الظنون بالملك إلى أنها حملت بولد رتشيو . واعتقد روندولف فى صحة هذا بل لأنه فى الجيل التالى أبهى هنرى كواتر ملاحظة ساخرة فقال إن جيمس الأول ملك انجلترا لا بد أن يكون « سليمان الحديث » طالما أن أباه هو دافيد العازف على القيثارة (٢٧) . ولذا لعب الويسكى يوماً برأس دارنلى ، وأهلب جرأته ، انضم إلى

إرل مورتون ، والبارون روثفن وغيرهما من النبلاء فى تدبير قتل رتشيو ، ووقعوا « عهداً » تعاهدوا فيه على تدعيم البروتستانتية فى إسكتلندة ، وعلى منح دارنلى « تاج الزواج » — أى كل حقوقه وسلطاته بوصفه ملكاً على إسكتلندة — وأن يكون له الحق فى العرش عند وفاة مارى . ووعده دارنلى بحماية الموقعين على « العهد » من نتائج «أية جريمة » قد ترتكب ؛ وبإعادة مورى وسائر الاوردات المنفيين (٢٨) .

وفى ٦ مارس ١٥٦١ كشف راندولف لاورد سيسل النقاب عن المؤامرة (٢٩) . وفى ٩ مارس نفذت : واقتحم دارنلى حجرة الملكة حيث كانت تتناول العشاء مع رتشيو وليدى آرجيل ، وأمسك بالملكة واحتجزها ، واندفع مورتون وروثفن وآخرون إلى الحجرة ، واقتادوا رتشيو خارجها ، رغم احتجاجات واعتراضات لاغناء فيها من مارى ، وعلى السلم كالوا له الطعنات حتى الموت — ستا وخمسين طعنة ، لإحكاماً للتدبير وضماناً للقضاء عليه — ودق أحدهم ناقوس الخطر فى المدينة ، فسار حشد كبير من المواطنين المسلحين إلى القصر ، واقترحوا تمزيق مارى « إرباً (٣٠) » ولكن دارنلى أقنعهم بالتفرق ، وبقيت مارى طوال الليل وطيلة اليوم التالى سجينه السفاحين فى قصر هوليرود . وفى نفس الوقت لعبت على فرع دارنلى وحبه لها ، فساعدها وصحبا ، عندما هربت فى الليلة التالية ولجأت إلى دنبار Dunbar وهناك أقسمت أن تنتقم ، فأصدرت نداء إلى مؤيديها المخلصين ، ليهبوا لنجدتها والدفاع عنها . وأعادت مورى إلى المجلس ، وربما فعلت هذا رغبة فى إشاعة الفرقة بين أعدائها .

وكان أكثر من عرضوا مساعدتها وحمايتها فعالية وأثر أجيمس هيرن Hepburn ، إرل بوثول Bothwell الرابع . وكان شخصية غريبة سيئة الطالع ، ولم يكن وسيماً ، ولكن قوى الجسم والعاطفة والإرادة . مغامراً فى البر والبحر ، يحذق الضرب بالسيف والمغول (سيف مستقيم مستند الرأس ذو حدين) . يهرب الرجال بجراته الهائلة ، ويفتن النساء بحديثه وتهوره واشتاره بالقدرة على إغوائهن ، ولكنه كان كذلك على درجة عالية من التعليم ، ومحباً للكتب ، ومؤلفاً ، فى وقت لم يكن فيه كثير من النبلاء الإسكتلنديين يعرفون كتابة أسمائهم . وكرهته الملكة أول الأمر ،

لأنه أساء إليها في أحاديثه ، ولكن هذه طريقة في كسب اهتمام المرأة . ولما عرفت صفاته العسكرية عينته قائداً للحدود ، ولما سمعت بدرايته بالسفن والملاحة عينته أمير الأسطول ، ولما علمت برغبته في الزواج من ليدى جين جوردون عجلت بإتمام الزواج .

وكانت الآن تخشى قتلة رتشيوترتاب في اشتراك زوجها في جريمتهم . ومن ثم ولت شطر بوثول تسأله الحماية والنصح . ولم تندفع ماري إلى هذا الرجل على عجل ، بل إن صفات الرجولة فيه : الشجاعة والحيوية والقوة والثقة بالنفس ، كانت هي الصفات التي تصبو إليها طبيعتها الأنثوية ، ولم تجدها في فرنسوا الثاني أو دارنلي . وقد لحظت كيف أن الاحترام لسيفه ولجنوده أدى بالمتآمرين إلى الاختفاء أو الخضوع ، وسرعان ما أحست بأن مان والاطمئنان إلى حد العودة إلى قصر هوليرود ، وعلى الرغم من أن نوكس كان قد أقر نيل رتشيو ، فإن ماري هدأت من روع القساوسة البروتستانت لبعض الوقت بوضع شروط أفضل لأرزاقهم والإبقاء عليهم . أما عامة الاسكتلنديين الذين لم يكونوا في يوم من الأيام يكونون ذرة من الحب للوردات ، فإنهم تعاطفوا معها ، وتمتعت الملكة لعدة أشهر بعد ذلك . بشعبية عامة : وكتب السفير الفرنسي يقول : « لم أر الملكة قط تحظى بمثل هذا الحب والتقدير والتكريم ، أو يمثل هذه الألفة بين رعاياها » (٢١) . « على أنها . عندما اقترب موعد الوضع ، انتابها الهواجس واستبدت بها فكرة أنها لا بد أن تقتل أو تخلع ، وهي راقدة لا حول لها ولا قوة ولا عون (٢٢) . ولما وضعت ، في سلام وأمان ، طفلاً ذكراً في ١٩ يونية ١٥٦٦ انتهجت إسكتلندة بأسرها ، وكأنها تنبأت بأن هذا الصبي سيكون ملكاً على إسكتلندة وإنجلترا معاً . وكانت ماري في أوجها .

ولكنها كانت تعسة بدارنلي الذي استاء من تجديدها بموري ، ومن إعجابها المتزايد ببوثل . وتناثرت الإشاعات بأنه قد يخطف الطفل الملكي ويحكم باسمه (٢٣) . واتهم دارنلي النبلاء بقتل رتشيو ، وطالب ببراءته هو . فما كان منهم ، انتقاماً منه . إلا أن بعثوا إلى الملكة بدليل اشتراكه في الجريمة (٢٤) . واقترح أرجيل ولشنتون وبوثل على الملكة أن تطلقه ، فاعترضت بأن هذا قد يعرض العرش للخطر ،

فأجاب لثنجتون على هذا بأنه من الميسور إيجاد طريقة لتخليصها من دارنلى دون الإضرار بابنها فلم توافق وعرضت أنها تفضل الخروج من إسكتلندة ، وترك الحكم لدارنلى ، وأنهت الحديث بقولها : محذرة ، أريد منكم ألا تفعأوا شيئاً يلوث شرفى أو ضميرى ، ولذلك أنوسل إليكم أن تتركوا الأمور كما هى ، وأن نحتمل حتى يقضى الله فيها برحمته^(٣٥) . وكمن مرة تحدثت آنذاك عن الانتحار^(٣٦) .

وفى أكتوبر ١٥٦٦ ، أونحو ذلك . وقع أجريل وسير جيمس بلفور وبوثول ، وربما كان معهم لثنجتون ، على ميثاق بالتخلص من دارنلى . وترامى إلى مسامع إرل لينوكس نبأ هذه المؤامرة ، وحذر ابنه دارنلى الذى كان يعيش بعيداً عن مارى ، مع والده فى جلاسجو (ديسمبر ١٥٦٦) . وهناك مرض دارنلى ، وكان من الواضح أنه مريض بالجدري ، رغم انتشار إشاعة بأنه مسموم . وفى الوقت نفسه حامت الشبهات حول مارى وعلاقتها الآثمة مع بوثول ، نتيجة لنمو المودة والألفة بينهما . ونعتها نوكنس صراحة بأنها بغى عاهرة^(٣٧) . ويبدو أنها اتصلت برئيس الأساقفة هملتون لاتخاذ الترتيبات لطلاق بوثول من زوجته . وعرضت على دارنلى أن تزوره ، ولكنه بعث إليها برد ملؤه التقريع والإهانة . وعلى الرغم من هذا ذهبت إليه (١٢ يناير ١٥٦٧) وأكدت إخلاصه له ، وأيقظت فيه من جديد حبه لها ، وتوسلت إليه أن يعود إلى إدنبره ، حيث وعدت أن ترعاه وتعيد إليه موفور الصحة والسعادة .

وهنا تدخل الرسائل المعروفة باسم « رسائل الصندوق الفضى » إلى مسرح الحوادث لتشكل المشهد . وتتوقف بقية القصة إلى حد ما على صحة تلك الرسائل ، وهذه قضية لا تزال بعد مضى أربعائة سنة مثار خلاف ومناقشة . وزعموا أن تلك الرسائل وجدت فى صندوق صغير من الفضة كانت مارى قد أهدته إلى بوثول ، ثم استولى عليه ، فى ٢٠ يونية ١٥٦٧ ، من أحد خدم بوثول ، بعض وكلاء النبلاء الذين كانوا يسعون آنذاك إلى خلع الملكة . وفتح الصندوق فى اليوم التالى بمعرفة مورتون ولثنجتون وغيرهم من أعضاء المجلس الخاص : وسرعان ما عرضت

بعد ذلك على برلمان إسكتلندة ، ثم أخيراً على اللجنة الإنجليزية التي تولت محاكمة ماري في ١٥٦٨ ، وكانت عبارة عن ثمانية خطابات وبعض شذرات متناثرة من قصائد شعرية ، وكلها بالفرنسية ، غير موجهة لأحد ، ولا تحمل تاريخاً ، ولكنهم زعموا أنها من ماري إلى بوثل . وأقسم اللوردات أعضاء المجلس أمام البرلمان أن الرسائل صحيحة ، ولم يحدث فيها أى تلاعب ، ولكن ماري ادعت أنها مزيفة . والظاهر أن ابنها اعتبرها «حقيقة» ، لأنه ألتفها (٢٨) ، ولم يبق إلا صور منها . ولما أطلع ملوك القارة على هذه الصور تصرفوا وكأنما ووثقوا من صحتها (٢٩) . وارتابت الزبائت أول الأمر في صحتها ، ثم عادت فسلمت بها في شيء من التردد ، وأول ما يتبادر إلى الذهن عند قراءة الرسائل ، هو الارتباب في أن امرأة تتوسط في قتل زوجها ثم تفصح في طيش ولإسهاب بالغين عن مقاصدها ، رسائل تعهد بها إلى رسل يمكن أن يعترض أحد سيبلهم أو يرشوهم ، ثم أنه يبدو من المستحيل أن يحتفظ بوثل بمثل هذه الرسائل التي تدينه وتورطه في جريمة . ثم من غير المحتمل بنفس الدر أن يوجد في اسكتلندة أحد حتى الداهية لثنجتون نفسه (المشتبه فيه بصفة خاصة) كان في مقدروه أن يزيف أى جزء هام من هذه الرسائل في سحابة اليوم الذى مضى بين الاستيلاء على الصندوق وعرض الرسائل على المجلس أو البرلمان . والرسالة الثانية التي تحمل أكبر إدانة ، مطولة بشكل غريب . وتقنع في عشر صفحات بالمطبعة . ولو كانت مزيفة ، لكانت أكبر عملية تزيف غير عادية ، لأن محتواها العاطفي يبدو متطابقاً مع طبيعة ماري ، قدر تطابق الكتابة مع خط ماري . ولأنها تمثل ماري شريكة ضالعة في قتل دارفلي ، مترددة تملؤها الحسرة والأسى ، وتشعر بالعار والحجل من أجل ذلك (٣٠) .

وسمح الملك العليل المتخوف الواثق بأن ينقل عبر اسكتلندة في عربة ليتيم في بيت

(*) يحيل القاد إلى القول بأن الرسائل حقيقية في معظمها مع بعض التعديلات . وذمب لورد أكتون وهو رجل خبر كاثوليكي أمين : إلى أن أربما من هذه الرسائل حقيقة (٤٠) ؛ وأن الرسالة الثانية مزيفة ويمكن قراءة هذه الرسائل في كتاب أندرو لانج *Mystery of Mary Stuart* ؛ ص

قسيس «كيرك أو فيلد» القديم في ضواحي أدنبره، وفسرت ماري عدم ندمه فوراً إلى قصر هوليرود بأنها خشيت انتقال العدوى إلى طفلها . وهناك رقد لمدة أسبوعين ، حيث كانت ماري تزوره يومياً . وثابت على تمريضه والعناية به حتى استرد صحته ، وكتب إلى والده (٧ فبراير ١٥١٧) « إن صحتي الجيدة هي النتيجة السريعة لحسن رعاية الملكة التي أؤكد لكم أنها كانت طيبة طيلة هذه المدة ، ولا تزال ، تسهر على العناية بي ، على أنها الزوجة الطبيعية المحبة . ومع ذلك لآزلت أمل أن يمن الله علينا بما يدخل الفرح على قلوبنا التي أضنتها المتاعب طويلاً (١) » . ولماذا كانت تقوم على تمريضه والعناية به طيلة أسابيع مملّة إذا كانت تعلم أنه كان سيقتل حتماً ؟ « إن هذا جزء من السر السكّان وراء ماري استيوارت . وفي مساء ٩ فبراير تركته لتشهد حفل زفاف إحدى وصيفاتها في هوليرود ، وفي تلك الليلة حدث انفجار في بيت كيرك أو فيلد ، وفي الصباح وجد دارنلي ميتاً في الحديقة .

وسلكت ماري في أول الأمر مسلك المرأة البريئة . فحزنت وولولت وأقسمت أن تتأثر . وأمرت أن تجلّ غرفتها بالسواد وأن يحجب عنها الضوء ، وبقيت تعاني الظلام والوحدة . وأمرت بالتحقيق القضائي في الحادث ، وأعلنت عن جائزة من المال والأرض لمن يدلي بأية معلومات تؤدي إلى القبض على الجناة . ولما ظهرت الإعلانات على الجدران في المدينة تتهم بوثل بالقتل ، وكان بعضها يورط الملكة في الحادث ، صدر بيان يهيب بموجهي الاتهام أن يتقدموا بأدلتهم ، ويعد بحماية المبلغين ومكافأتهم ، ورفض واضعو الإعلانات أن يظهروا ، ولكن لارل لنوكس حث الملكة على تقديم بوثل للمحاكمة على الفور . وأيد بوثل هذا المطلب ، وفي ١٢ أبريل مثل أمام المحققين . ولكن لنوكس لم يبرح جلاسجو ، لأنه كان يعوزه دليل الاتهام ، أو أنه كان يخشى جنود بوثل في العاصمة . وانتهى التحقيق إلى تبرئة بوثل ، وأعلن البرلمان براءته رسمياً . وفي ١٩ أبريل أُنْفَع آرجيل وهنتلي ومورتون ولأثنى عشر نبيلًا آخرين بتوقيع « عهد أنسلي » بثبتون فية نفقتهم ببراءته ، ويتعهدون بالدفاع عنه ، ويوافقون على زواجه من ماري التي أولت بوثل آنذاك عطفها وحبها علانية ، وزادت على ما كانت قد أغدقت عليه من هدايا ثمينة .

وفي ٢٣ أبريل زارت ابنها في سترلنج ، وقد قدر لها ألا تراه بعد اليوم أبداً .
وفي طريق عودتها إلى دبلن مع لثنجتون كمن لها بوثل وجنوده وهاجموها وحملوها
بالقوة إلى دنبار (٤ أبريل) . واحتج لثنجتون وهدده بوثل بالقتل . ولكن
مارى أنقذته وأطلق سراحه ، وانضم بعد ذلك إلى أعداء الملكة . وفي دنبار
استؤنفت المفاوضات لطلاق بوثل . وفي ٣ مايو عادت مارى وبوثل إلى أدنبره ،
وأعلنت أنها طليقة من كل قيد ، وفي ٧ مايو منح بوثل الطلاق . وفي ١٥ مايو ،
حين رفض قسيسها الكاثوليكي تزويجهما (هى وبوثل) ، تزوجا وفق الطقوس
البروتستانتية ، أمام أسقف أوركنى الذى كان فيما مضى كاثوليكيًا . وانقلبت ضدها ،
بوصفها نفساً هالكة ، أوربا الكاثوليكية التى كانت يوماً تناصرها . ونأى عنها
رجال الدين الكاثوليك ، ونادى القساوسة البروتستانت بخلعها . ووقف الأهالى منها
موقفًا عدائياً . أما الأقلية التى تعاطفت معها فقد عزت غرامها الطائش إلى جرعة
حب أعطتها إياها بوثل .

وفي ١٠ يونية أحاطت عصابة مسلحة بقصر بورثوك Borthwick حيث كانت
تقيم مارى وبوثل ، فهرب الاثنان ، وكانت مارى فى ثياب رجل . وفى دنبار
جمع بوثل ألف رجل ، سعت مارى وبوثل بهم أن يشقوا طريقهم عائدين عنوة
إلى أدنبره ، فاعترضهما فى كاربرى هل (١٥ يونية) قوة مماثلة ترفع راية نقش
عليها صورة دارنلى الميت وصورة الطفل جيمس السادس . وعرض بوثل تسوية
الموضوع بالنزال الفردى ، ولكن مارى رفضت أن تسمح له بذلك . وارتضت أن
تستسلم إذا سمح لبوثل بالهرب . وادعت فيما بعد أن زعماء الثوار كانوا قد وعدوها
بالولاء لها إذا لحقت بهم دون قتال (١١) . ولأذ بوثل بالفرار إلى الشاطئ واتخذ
طريقه إلى الدنمرك . وهناك بعد عشر سنوات قضىها فى السجن بأمر ملك الدنمرك
قضى بوثل نحبه وهو فى سن الثانية والأربعين (١٥٧٨) .

ورافقت مارى معتقليها إلى أدنبره وسط صيحات الجنود والأهالى . « أحرقوا
العاهرة اقلوها أغرقوها (٢٢) » واحتجزت تحت الحراسة فى دار رئيس البلدية
وهناك ، تحت نافذتها التى ظهرت منها شعناء الشعر نصف عارية ، استمرت

الجموع تهددها بأقذع العبارات . وفي ١٧ يونية ، رغم احتجاجاتها واعتراضاتها الشديدة نقلت إلى سجن سحيق وأكثر أمناً ، في جزيرة في بحيرة لوك ليفن ، على بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الشمال من العاصمة . وهناك طبعاً لما رواه سكرتيرها كلود وضعت توأمين قبل الأوان (٤٤) . وأرسلت ملتصقاً إلى الحكومة الفرنسية ولكنها رفضت التدخل ، وأصدرت اليزابث تعليمات إلى مبعوثها بالوعد بحماية ماري ، وتهديد النبلاء بأشد العقاب إذا مسوا الملكة بأي أذى ، ودعا نوكرس إلى إعدام ماري ، وأنذر بأن الله سوف يرسل إلى إسكتلندة بطاعون فظيع إذا أبقت على حياة ماري (٤٥) . وفي يونية أعاد اللوردات « رسائل الصندوق الفضي » ، وتوسلت ماري إلى البرلمان أن يستمع إليها ، (إلى ماري) ، ولكنه رفض على أساس أن الرسائل أوضحت قضيتها بما فيه الكفاية . وفي ٢٤ يولية وقعت وثيقة تحليها عن العرش ، وعين موري وصياً على ابنها .

وبقيت لنحو أحد عشر شهراً أسيرة في قصر لوك ليفن ، وخففت قيود السجن تدريجياً فتناولت الطعام مع أسرة ولیم دوجلاس صاحب القصر ، ووقع أخوه الأصغر جورج في غرامها ، وساعدها على الهرب (٢٥ مارس ١٥٦٨) واعتقلت ، ولكنها في ٢ مايو عاودت المحاولة وأفلحت . ووصلت تحت حماية دوجلاس الصغير ، إلى داخل البلاد حيث التقت بجماعة من الكاثوليك ، وركبت في ظلام الليل إلى لسان فورث ، وعبرته ، وآوت إلى بيت آل هملتون ، وهناك في بحر خمسة أيام ، تجمع ستة آلاف رجل ، وأقسموا أن يعيدوها إلى العرش ، ولكن موري دعا البروتستانت في إسكتلندة إلى حمل السلاح . والتقى الجمعان في لانجسيد بالقرب من جلاسجو (١٣ مايو) ، ودحر جيش ماري السوء التنظيم . وهربت مرة أخرى ، وجدت السير على ظهر جوادها في تهوّر ، ثلاث ليال سوباً ، إلى دنديرنان أبي على خليج سولواي . وآ نذاك أعادت إلى مانحها ، الماسة التي كانت اليزابث يوماً قد أهدتها إلى « أختها العزيزة » ، مع رسالة تقول « إلى أعيد تلك الجوهرة إلى ملكتها ، وكانت رمزاً لصداقة ومعوونة موعودتين (٤٦) » . وفي ١٦ مايو ١٥٦٨ عبرت خليج

سولواى فى قارب مكشوف لصيد السمك ، ودخلت إنجلترا ، ووضعت مصيرها بين يدى غريمتها .

٥ — التكفير ١٥٦٨ — ١٥٨٧

ومن مدينة كارليل Carlisle (فى شمال غرب إنجلترا) أرسلت ماري رسالة ثانية إلى اليزابث تطلب مقابلتها لتشرح لها موقفها وسلوكها . وكانت اليزابث من حيث المبدأ تناهض مساعدة الثوار ضد أى حاكم شرعى . ومن ثم مالت إلى دعوة ماري لمقابلتها . ولكن مجلس شورى الملكة أوقفها فى حيرة وارتباك بما ساق لها من تحذيرات : فلو أن ماري سمح لها بالذهاب إلى فرنسا ، لأغريت الحكومة الفرنسية بارسال جيش إلى اسكتلنده لإعادة ماري إلى العرش . ولإعادة اسكتلنده حليفة كاثوليكية لفرنسا وشوكة فى ظهر إنجلترا ، وعند ذلك تساند فرنسا دعوى ماري فى عرش إنجلترا بقوة السلاح . كما يساندها الكاثوليك الانجليز . ولو بقيت ماري حرة طليقة فى إنجلترا فمن الممكن أن تكون مصدر بؤرة مبدورة لثورة الكاثوليك ، وإنجلترا لا تزال فى أعماق قلبها كاثوليكية فى الكثير الغالب . وإذا أرغمت إنجلترا النبلاء الاسكتلنديين على إعادة مليكتهم إلى عرشها فإن حياة هؤلاء النبلاء تتعرض للخطر . كما تفقد إنجلترا حلفاءها البروتستانت فى اسكتلنده : وربما اتفق سيسل مع هلام فى رأى القائل بأن احتجاج ملكة الاسكتلنديين أو تقييد حريتها قسرا ، إنما هو خرق لكل قانون طبيعى أو عام أو على (١٧) . ولكنه أحس بأن مسئوليته التى تغطي على كل ماعداها . هى حماية إنجلترا .

ولما كان من إحدى مهام الدبلوماسية أن تخضع على الواقعية ثوب الاخلاقية ، فقد أبلغت ماري أنه ينبغي عليها قبل الاستجابة إلى طلبها فى اللقاء مع الملكة اليزابث ، أن تبرئ نفسها من عدة اتهامات أمام لجنة تحقيق . فأحابت ماري بأنها ملكة ، ولا يمكن أن تحاكم أمام مندوبين عاديين ، وبخاصة من بلد آخر . وطلبت أن تكون لها حرية العودة إلى اسكتلنده أو الذهاب إلى فرنسا . كما ضابت أن تلتقى بمورتون ولشنجتون فى حضرة اليزابث . ووعدت باثبات إدانتهم فى قتل دارنى . وفى ١٣ يوايه ١٥٦٨ أمر المجلس الانجليزى بنقلها من كارليل (لقوبها الشديد من

الحدود) إلى قصر بولتون بالقرب من يورك . وهناك خضعت ماري للسجن البسيط بناء على وعد اليزابث : « ضعي نفسك بين يدي دون تحفظ ، ولن ألقى بالآ إلى أي شيء يريء إليك . وسيكون شرفك في مأمن من أي خدش . ولسوف تعادين إلى عرشك (٤٨) » . ولما هدأت اليزابث من روع ماري بهذا الشكل ، وافقت الأخيرة على تعيين ممثلين لها في لجنة التحقيق : وحاولت أن ترضي اليزابث بإدعائها قبول المذهب الانجليكاني ، ولأنها أكدت لفيليب ملك أسبانيا أنها لن تتخلى عن قضية الكاثوليك (٤٩) . ومن ذلك الوقت باتت ماري واليزابث فرسي رهان في سباق للنفاق ، الأولى تلتمس لنفسها العذر بأنها سجين ملكي خانوه وغدروا به ، والثانية بأنها ملكة تكتنفها المخاطر .

واجتمعت لجنة التحقيق في يورك في أكتوبر ١٥٦٨ . ومثل ماري فيها سبعة أشخاص أهمهم جون ازلي أسقف روس الكاثوليكي ، ولورد هريز Herries من إقليم المستنقعات الغربية في اسكتلنده ، وهو كاثوليكي أيضا ، وعينت اليزابث ثلاثة من البروتستانت . هم دوق نورفولك ، وارل سسكن ، وسير رالف ساذلر : ومثل أمام اللجنة موري ومورتون ولشجنون الذين عرضوا « رسائل الصندوق الفضى » على الأعضاء الانجليز سرا . وقالوا إنه إذا أقرت ماري أن يكون موري وصيا على العرش ، وقبلت أن تعيش في إنجلترا على راتب تقاعد كبير تدفعه لها اسكتلنده ، فلن تذاع الرسائل . ولكن نورفولك — الذي كان يحلم بالزواج من ماري ، ومن ثم يصبح ملكا على إنجلترا بعد وفاة اليزابث ، رفض هذا العرض . أما سسكن فقد كتب إلى اليزابث بأنه يبدو من المرجح أن تكسب ماري قضيتها (٥٠) .

وأمرت اليزابث بأن تنتقل المحاكمة إلى وستمنستر . وهناك وضع موري الرسائل أمام المجلس ، وانقسم الرأي حول حجية الوثائق : ولكن اليزابث قضت بأنها لن تستقبل ماري قبل أن تثبت عدم صحتها . وطلبت ماري أن تطلع على الرسائل الأصلية أو صورتها ولكن اللجنة رفضت هذا الطلب : ولم تطلع ماري قط على أصل الرسائل أو صورتها (٥١) . وفي ١١ يناير ١٥٦٩ انفضت اللجنة دون أن تصدر قرارا . واستقبلت اليزابث موري ثم أعيد إلى اسكتلنده ومعه الرسائل . ونقلت

مارى - وهى غاضبة متحدية إلى سجن أشد قيودا فى تبرى **Tulbury** على نهر ترنت ، واحتجت الحكومات الأجنبية ، ولكن اليزابث أجابت بأنهم لو اطلعوا على الأدلة التى قدمت إلى اللجنة لاعتبروا معاملتها لمارى لينة هينة . لاقاسية (٥٧) . وأشار السفير الأسباني على فيليب بغزو إنجلترا ووعده بمعاونة شمال إنجلترا الكاثوليكي له ، ولكن فيايب تشكك فى مثل هذه المعاونة ، كما أئذره دوق ألفا بأن اليزابث قد تأمر بقتل مارى عند أول بادرة للغزو أو الثورة .

وقامت الثورة . فى ١٤ نوفمبر ١٥٦٩ قاد ارل نورثمبرلند وارل وستمورلند جيشا قوامه ٥٧٠٠ من الثوار إلى درهام ، وأطاحوا بمكتب الطائفة الانجليكانية وأحرقوا كتاب الصلوات العامة ، واستردوا المذبح الكاثوليكي ، واستمعوا إلى القداس ، ودبروا هجوما على تبرى لاطلاق سراح مارى ، ولكن اليزابث فوت عليهم الفرصة بنقل مارى إلى كوفنترى فى ٢٣ نوفمبر ١٥٦٩ . وعجل ارل سسكس على رأس جيش معظمه من الكاثوليك ، باخذ الثورة . وأمرت اليزابث « بشنق المقبوض عليهم من المتمردين وأتباعهم المتواطئين معهم ، وألا تنقل جثثهم بل تظل فى أماكنها حتى تتساقط اربا (٥٨) » . وبهذا أمكن التخلص من نحو ستمائة رجل وصودرت أملاكهم للتاج ، وفر نورثمبرلند وستمورلند إلى اسكتلنده . وفى فبراير ١٥٧٠ قاد ليونارد داكريس ثورة أخرى من الكاثوليك . ولكنه هزم أيضا ، وهرب عبر الحدود .

وفى يناير ١٥٧٠ كتب نوكس إلى سيسل يشير عليه باصدار أمره بقتل مارى فورا ، « فانك إذا لم تستأصل الجذور عادت الأغصان التى تبدو ذابلة متكسرة إلى النمو والازدهار (٥٩) » ، وكان قد فرغ آنذاك من كتابه « تاريخ الاصلاح الدينى فى مملكة اسكتلنده » - وهو كتاب لا يدعى عدم التحيز : قصصى غير دقيق ، ولكنه مفعم بالحوية زانخر بالمعلومات عن سير الأفراد ، ذو أسلوب طريف فردى لا ذع لأنه صادر عن واعظ لا يخشى فى الحق لومة لائم ، يصارح كلما فيه دون مواربة . وهو رجل موجه قاس ولكنه عظيم ، حقق حلمه فى القوة والسيطرة أكثر مما فعل كلفن ،

وكان يبغض من كل قلبه ، ويناغل في بسالة وجراة ، ويستنفذ آخر خفقة من الطاقة الجبارة إلى حد لا يصدق لارادته الحديدية . وما جاء عام ١٥٧٢ حتى كان قد استنزف قوته ، فلم يعد يستطيع المشى — إلا إذا أعانه عليه أحد . ولكنه كان يلوذ بمن يأخذ بيده يوم الأحد حتى يصل إلى المنبر في كنيسة سانت جيلز St. Giles وألقى آخر موعظة له في ٩ نوفمبر ١٥٧٢ ، ورافقه كل شعب الكنيسة إلى مسكنه ، ووافاه الأجل في ٢٤ نوفمبر ، وهو في السابعة والستين من العمر ، فقيرا كيوم ولدته أمه . « انه لم يتجر بكلمة الرب » وترك للأعقاب أن تحكم عليه . لن يدرك هذا العهد الجحود ماذا كان بالنسبة لبلدى ، ومع ذلك فإن الأجيال القادمة سوف تضطر أن تكون شواهد عدل على الحقيقة . (٥٥) إن قلة من الناس هي التي أثرت تأثيرا حاسما في معتقدات الشعب ، وإن قلة من أهل عصره ضارعت في تشجيعه للتعليم وفي التعصب وفي ضبط النفس . ولقد اقتسم نوكس ومارى روح اسكتلنده ، وكان هو يمثل الإصلاح الدينى ، وهى تمثل عصر النهضة ، واندحرت مارى لأنها — شأنها شأن اليزابث — لم تعرف كيف تزوج بينهما :

وحاولت مارى — مثل نمرقلق هائج حبيس — كل إمكانيات الهرب ووسائله . وفي ١٥٧١ قام روبرتودى ريدولنى ، وهو فلورنسى من أصحاب المصارف ذوى النشاط فى لندن — قام بدور الوساطة بين مارى والسفير الأسباني ، وأسقف روسى ، ودوق ألفا ، وفيليب ملك أسبانيا ، والبابا بيوس الخامس . واقترح أن يرسل ألفا على انجلترا قوات أسبانية من الأراضي الوطينة ، وأن تغزو انجلترا فى نفس الوقت قوة كاثوليكية من اسكتلنده ، وأن تخلع اليزابث عن العرش ، وتنصب مارى ملكة على انجلترا واسكتلنده ، وأن يتزوجها نورفولك بهذه الخطة ، فلم يوافق عليها موافقة صريحة ، ولم يكشف عنها لأحد . وأقرتها مارى بصفة مؤقتة . (٥٦) ودفع البابا لريدولنى بعض المال على ذمة المشروع : ووعد بأن يوصى فيليب بقبوله ، ولكن فيليب علق رأيه على موافقة ألفا الذى دمج المشروع بالسخافة والحق ، على أنه مشروع خيالى ، وأنه لن ينتهى الا بكارثة على أصدقاء مارى . وضبطت رسائل ريدولنى ونورفولك لدى من قبض عليهم من خدام مارى والدوق . وأودع السجن

نورفولك وروس وعدد من النبلاء الكاثوليك . وحوكم نورفولك بتهمة الخيانة ، وصدر الحكم عليه . وتددت أليزابث فى التصديق على حكم الإعدام على مثل هذا النبيل البارز العظيم . ولكن سيسل والبرلمان الانجليزى وأقطاب الكنيسة الانجليكانية ، طالبوا بإعدام نورفولك ومارى كليهما . واتخذت أليزابث حلا وسطا فأرسلت نورفولك إلى السجن (٢ يونية ١٥٧٢) . ولما ترامت إلى إنجلترا أبناء مذبة سانت برثلميوس (٢٢ أغسطس) تعالت الصيحات من جديد ، للمطالبة بإعدام مارى (٥٨) . ولكن أليزابث أصرت على الرضى .

ولن نستطيع أن ندرك مدى يأس مارى ومدى شعورها بنداحة الذنب إلا إذا نذكرنا أنها قضت فى الأسر قرابة تسعة عشر عاما . وكان مكان احتجازها يتغير ، باستمرار ، مخافة أن العطف الذى يشعر به نحوها أهالى البلاد المجاورة أو سجانوها ، يأتى بمؤامرات أخرى أو يغرى بها ، وكانت شروط احتجازها تتسم بالروح الانسانية ، حيث سمح لها بتسلم معاشها — الفرنسى — ١٢٠٠ جنيه سنويا — وأعطتها الحكومة الانجليزية مبلغاً محترماً للطعام والعلاج الطبى والخدم ووسائل الترفيه وسمح لها بحضور الفداس وغيره من الصلوات الكاثوليكية ، وحاولت أن تشغل الساعات الطوال بالتطريز والقراءة ، وفلاحة البستان واللعب مع كلابها المدللة . ولما تلاشت آمالها فى الحرية ، فقدت حرصها على العناية بنفسها ، ولم تريض إلا قليلا ، وأصبحت مترهلة بدنية . وأصيبت بالروماتيزم ، وتورمت رجلها فى بعض الأحيان إلى حد لا تستطيع معه المشى . وفى ١٥٧٧ ، وهى بنت الخمسة والثلاثين عاما فقط . ابيض شعرها فغطته بشعر مستعار .

وعرضت ، فى يونية ١٥٨٣ ، أن تنزل عن أى حق لها فى تاج إنجلترا ، إذا أطلق سراحها ، وألا تتصل بمتآمرين قط ، وأن تعيش فى أى مكان فى إنجلترا تختاره أليزابث ، وألا تبعد عن مقر إقامتها بأكثر من عشرة أميال . وأن تخضع لرقابة جيرانها واشرافهم . ولكن أشير على أليزابث ألا تثق فيها .

واستأنفت مارى مشروعات الحرب ، وبعده وسائل يائسة متنوعة سعت إلى الاتصال

بمفسري فرنسا وأسبانيا وحكومتيهما . وبأنصارها في اسكتلنده وبممثلي البابا . وكانت الرسائل تهرب منها وإليها في ثياب الغسيل وفي الكتب ، وفي العصي ، وفي الشعر المستعار ، وفي بطانة الأحذية . ولكن جواسيس سيسل وولسنهام كشفوا عن كل وامة في حينها . وحتى بين الطلبة والقساوسة في كلية الجزويت في ريمس ، كان لولسنهام عملاء ووكلاء يبلغونه بكل شيء .

ولكن الحالة الرومانسية التي أحاطت بماري الأسيرة حركت الشفقة والعطف في قلوب كثير من الشبان الانجليز ، كما ألهمت حماسة الشبان الكاثوليك . وفي ١٥٨٣ دبر فرانسيس ثروكمورتون ، وهو كاثوليكي ، وابن أخت المغفور له سفير الزابث لدى فرنسا ، دبر وامة أخرى لإطلاق سراح ماري ، ولكن سرعان ما كشف أمره وعذب حتى اعترف . وصرخ مولوا : « لقد كنتم كل أسرارها ، تلك التي كانت أعز ما لدى في هذه الدنيا بأسرها (٥٩) » . ودات بضربة من فأس الجلاد وهو في سن الثلاثين .

وبعد ذلك بعام واحد ، أقنع وليم باري parry ، وهو أحد الجواسيس الذين يعملون في خدمة سيسل ، أقنع القاصد الرسولي في باريس ، بأن يقدم إلى جريجوري الثالث عشر طلبا بالغفران التام ، على أساس أنه سوف يقدم على محاولة خطيرة لإطلاق سراح ماري ستيوارت وإعادة إنجلترا إلى حظيرة الكاثوليكية . ورد وزير البابا (٣٠ يناير ١٥٨٤) بأن قداسته اطلع على التماس باري ، وابتهج لما اعتزم القيام به ، وأنه سيرسل إليه الغفران المطلوب ، ويكافئه على جهوده (٦٠) . وحمل باري هذا الرد إلى سيسل . واتهم جاسوس انجليزى آخر - يدعى ادموند نفيل - اتهم باري بتحريضه على قتل الزابث : وقبض على باري ، واعترف ، فشنق ، ومزقت أوصاله (٦١) ، وهو لا يزال ينبض بالحياه .

ولما اشتد غضب مجلس الملكة الزابث بهذه السلسلة الطويلة من المؤامرات : وجزع وفزع لمقتل وليم أورانج ، صاغ « التعهد بالتكاتف والترابط » ، يتعهد الموقعون عليه ألا يرتضوا قط خلفا للميكنهم ، أى شخص جرت لمصلحته أية محاولة للقضاء على الزابث ، وأن يعذبوا حتى الموت أى فرد اشترك في مثل هذه

المحاولة . ووقع هذا التمهيد كل أعضاء المجلس ومعظم أعضاء البرلمان ، كما وقعه ذوو
المكانة في طول إنجلترا وعرضها ؛ وبعد سنة أسبغ البرلمان على هذه الوثيقة صفة
القانون النافذ المفعول أو المعمول به .

ولكن هذا لم يحل دون مزيد من المؤامرات . ففي ١٥٨٦ أغرى جون بللارد
وهو قسيس كاثوليكي روماني ، أنتوني بابنجتون ، وهو شاب ثري كاثوليكي ،
أغراه بتدبير مؤامرة لقتل إليزابث وغزو إنجلترا بجيوش من فرنسا وأسبانيا والأراضي
المنخفضة ، وتنصيب ماري على العرش . وكتب بابنجتون إلى ماري بهذا ، وأبلغها
أن ستة من النبلاء الكاثوليك اتفقوا على التخلص من معتصة العرش ، وسألها
إقرارا للخطة . وفي خطاب مؤرخ في ١٧ يولية ١٥٨٦ قبلت ماري مقترحات
بابنجتون ، ولم توافق موافقة صريحة على قتل إليزابث ، ولكنها وعدت بالمكافأة
عند نجاح المشروع (٦٢) . وكان الرسول الذي عهد إليه سكرتيرها بحمل هذا الرد
عميلا سريا لولسبهم . فأخذ صورة من الرسالة وأرسلها إلى لولسبهم ، وأرسل
أصل الرسالة إلى بابنجتون . وفي ١٤ أغسطس قبض على بابنجتون وبللارد ،
وبعد ذلك بقليل أودع السجن نحو ثلثمائة من أبرز الكاثوليك ؛ واعترف الزعميان ،
وأغرى سكرتير ماري بالاعتراف بصحة خطبها (٦٣) . وأعدم ثلاثة عشر من المتآمرين ،
وأطلقت الصواريخ النارية في سماء لندن ، ودقت النواقيس . وأنشد الأطفال
التسابيح شكرا لله على نجاة الملكة إليزابث . ودوت الصيحات في إنجلترا البروتستانتية
تطالب بأوت ماري :

.. وفشت حجرات ماري ، وجمعت كل أوراقها ، وفي أكتوبر نقلت إلى قلعة
فوذرنجاي Fotheringay . وهالك جرت محاكمتها أمام بلحة مؤلفة من ثلاثة وأربعين
من النبلاء . ولم يسمح لها بتدب من يدافع عنها ، ولكنها دافعت عن نفسها في عزم
وإصرار . وأقرت باشتراكها في مؤامرة بابنجتون ، ولكنها أنكرت إقرارها للقتل ،
واحتجت بأنها ، كانسان سجن ظلما وعدوانا لمدة تسعة عشر عاما ، لها كل الحق
في تخليص نفسها بأية وسيلة كانت . وأدانها اللجنة بالإجماع . وطلب البرلمان إلى
إليزابث أن تصدر أمرا بإعدامها . ولكن هنري الثالث ملك فرنسا قدم طلبا مهذبا

للاطفة . ولكن اليزابث قالت إن مثل هذا الطلب جاء بسند ضعيف من حكومة ذبحت
آلافاً من البروتستانت دون محاكمة . ودافع معظم إسكتلنده الآن عن مليكتهم ،
ولكن ابنها قام بوساطة تعوزها الحماسة ، حيث اوتاب في أنها أنكرته وتبرأت منه
في وصيتها لأنه بروتستانتي . وأوعز مثله في لندن إلى ولسنجهام إلى أنه - ابنها ،
جيمس السادس - ولو أنه حريص على ألا تقتل أمه ، سوف يعتبر الموضوع منتهاً ،
ويقنع بأن يثبت البرلمان الانجليزى حقه في أن يخلف اليزابث على العرش ، وتزيد
اليزابث من مبلغ المعاش الذى ترسله إليه . وضيع الإسكتلندى المخاذر الحريص -
الوقت سدى ، بدافع من الطمع شديد ، إلى حد أن أهالى لإدنبه كانوا يطلقون
عليه صيحات الاستهزاء والاستهجان ، وينعبون كالبوم في الشوارع (٦٤) . ولم يبق
بين مارى وبين الموت إلا تردد اليزابث .

وانقصت قرابة أشهر ثلاثة تجرر الأيام فيها أذيالها متناقلة ، قبل أن تحزم اليزابث
المهزومة المنزعجة أمرها ، ثم لم تفعل شيئاً . كانت قادرة على السباحة والرحمة :
ولكنها شمت حياة الفزع من أن يعاجلها بالقتل في أية لحظة أنصار امرأة تدعى حقاً
في عرشها ، كما وضعت في اعتبارها خطر غزو إنجلترا من جانب فرنسا وأسبانيا
وإسكتلنده احتجاجاً على إعدام ملكة ، كما فكرت في إمكان موتها هى ، ميتة
طبيعية أو بيد أئيمة ، وفي وقت يتيسر فيه لمارى وللكاثوليكية أن تراثا إنجلترا .
وحثها سيسل على توقيع التصديق على حكم الإعدام ، ووعد بأن يتحمل هو كل
مستوىة نتائجهم ، وفكرت في أن تتفادى هى الحسم في الموضوع بالإلماع إلى سير
أمياس بولت Amias Paulet . المعين لحراسة مارى ، بأنه يمكنه أن يضع جداً لهذا
الارتباك . بأن يأمر بإعدام مارى ، بناء على مجرد فهم شفوى بأن الملكة أو مجلسها
يرغبان في ذلك . ولكن بولت أبى أن يتصرف دون أمر كتابى من اليزابث ، وأخيراً
وقعت التصديق على الحكم ، وحمله سكرتيرها وليم دافيسون إلى المجلس الذى
أرسله في الحال إلى بولت قبل أن تغير اليزابث رأيها .

أما مارى التى كانت طيلة هذا الإمهال الطويل ، قد عاودها الأمل ، فإنها لم
تصدق النبأ في بداية الأمر ، ثم واجهته بشجاعة . وكتبت إلى اليزابث رسالة مؤثرة ،
(١٢-٢)

سألتهافيا أن تسمح « لخدمى البؤساء الذين باتوا بلا صديق أو معين : أن ينقلوا رفاقى ليدفنوها فى أرض مقدسة ، مع سائر ملكات فرنسا » : وقيل إنها فى صباح اليوم الذى أعدمت فيه ، نظمت باللاتينية قصيدة قصيرة ، تشيع فيها كل الحماسة والرشاقة اللتين تتسم بهما ترانيم العصور الوسطى :

يا إلهى لقد وضعت كل أملى فىك

أنقذنى الآن يا يسوع العظيم ،

إلى أرسف فى الأغلال وأعانى أشد الآلام ، إلى أضرع إليك ،

متلهفة باكية رابعة ، أسبح بحمدك ، وأتوسل إليك

أن تخلصنى .

وطلبت أن يسمح لها بالاعتراف أمام كاهنها الخاص الكاثوليكي ، فلم تجب إلى طلبها ، وأحضر لها سجانوها بدلا منه قسيساً أنجليكانياً ، فرفضته : وارتدت الملابس الملكية لتقابل بها الموت ، وصفت شعرها المستعار بعناية ، وغطت وجهها بخمار أبيض ، وتدل من عنقها صليب ذهبي ، كما كان فى معصمها صليب من العاج : وتساءلت لماذا منعت وصيفاتها من شهود إعدامها ، فقيل لها إنهن قد يجلثن اضطراباً ، فوعدت بأنهن لن يفعلن شيئاً . فرخص لها أن تصحب اثنتين منهن وأربعة رجال : وسمح لنحو ثلثمائة من الإنجليز بأن يشهدوا تنفيذ الإعدام ، فى القاعة الكبرى فى حصن فوذرنبجاي (٨ فبراير ١٥٨٧) وسأها اثنان من الجلادين المقنعين مغفرتها ، وتلقياها منها . ولما بدأت وصيفاتها فى الصراخ والعيول منعتهما قائلة « لقد تعهدت بالنيابة عنكما » ، ثم ركعت وصلت ووضعت رأسها فى المقصلة ، وسقط الشعر المستعار عن رأسها المفصول عن جسدها ، وكشف عن شعرها الأشيب : وكانت فى سن الرابعة والأربعين .

الصفحة والمغفرة للجميع ، والعفو والمغفرة لما رأى التى بذلت الجهد بشجاعه لتكون ملكة عادلة بهيعة على حد سواء : ولسنا نعتقد أنها ، وهى التى سهرت طويلا على العناية بزوجها حتى استرد صحته وعافيته ، كانت قد رضيت عن قتله ، ويمكن أن نصفح عن المرأة الشابة التى تخلت عن كل شئ مقابل حب مهما كان

طائشاً ، وينبغي أن نرثي للمرأة البائسة التي تخلى عنها أصدقائها ، والتي قدمت إلى إنجلترا تلتمس مأجاً وملاذاً ، فلاقت بدلاً منه تسعة عشر عاماً في غيابة السجن ، ويمكننا أن ندرك محاولاتها الجبارة لاسترداد حريتها . كما يمكن كذلك أن نغفر للمملكة العظيمة (إليزابث) التي أصر مستشاروها على أن احتجاز ماري بين جدران السجن ، أمر حيوى بالنسبة لأمن إنجلترا وسلامتها ، والتي رأت أن حياتها وسياستها مهدتان دوماً بالمواعرات من أجل إطلاق سراح منافستها ، ماري ، وإعادتها إلى العرش ، والتي أطالت مدة هذا الأسر البغيض القاسى ، والتي لم تقنع نفسها بإنهائه بالتصديق على إعدام ماري . وكاننا امرأتين نبيلتين ، الواحدة منهما نبيلة سريعة الانفعال ، والأخرى نبيلة وحكيمة عاقلة مع شيء من التردد . وترقد كلتاهما الآن في انسجام ، الواحدة قرب الأخرى ، في كنيسة وستمنستر وقد سويت الخلافات بينهما ، في ظل الموت والسلام :

الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ - ١٦٢٥

جيمس السادس ملك اسكتلند ١٥٦٧ - ١٦٠٣

توج جيمس السادس ملكا على اسكتلند (٢٩ يولية ١٥٦٧) حين كان عمره ثلاثة عشر شهرا ، حين كانت أمه سجين في لوكلفن . وكان عمره ثمانية أشهر حين قتل دارنلي الذي يفترض أنه والده ، كما كان يبلغ من العمر عشرة أشهر حين رأى أمه للمرة الأخيرة ، ولم تعد له إلا أسما وخيال تغشيه وتلطخه مأساة بعيدة مزرية . وتربى على أيدي لوردات نهازين باحثين عن مصلحتهم ومعلمين معادين لأمه : وتلقى قدرا كبيرا من العلوم الانسانية ، وقسروا أكبر مما ينبغي في اللاهوت ، وقدرا ضئيلا جدا في الأخلاقيات ، حتى أصبح أعظم العلماء المسرفين في الشراب في أوربا .

وتولى الحكم باسمه أربعة أوصياء على العرش على التوالي - موري ، لنوكس ، مار ، ثم مورتون ، وكلهم عدا واحدا ، ماتوا ميتة غير طبيعية : ودافعت جماعات النبلاء المتنافسة عن شخص الملك حصن سلطانهم وقوتهم : وفي ١٥٨٢ احتجزه بعض اللوردات البروتستانت تساندهم الكنيسة الاسكتلندية الوطنية ، في قلعة رثفن Ruthven خشية أن يخضع لنفوذ قريه الكاثوليكي ازمى ستيوارت ، فلما أطلق سراحه وعد بالدفاع عن العقيدة البروتستانتية ، ووقع تحالفا مع انجلترا البروتستانتية ، ولما بلغ السابعة عشرة من العمر ، نهض بالمهام العلية للملك . وكان شادا بين الملوك : وكان سلوكه خشنا غير مهذب ، وكانت مشيته بشعة ، وصوته عاليا ، وكان حديثه مخنة يبتلى بها سامعه لما فيه من الغلظة والحدلقة المفتقرة

إلى الحكمة . وقال أحد المراقبين الذين لا يكونون له كثيرا من الحب : « كانت معرفته باللغات والعلوم وشئون الحكم أكثر من أى فرد فى اسكتلنده (١) » ولكن نفس المراقب أضاف : « أنه كان مغرورا بشكل غير عادى » . وربما كانت هذه السمة أو الميزة ضرورية للمحافظة على الحياة فى خضم من المتاعب ، بقدر ما هى المظهر المضلل لرجل لا يستطيع أن يسترجع فى ذاكرته يوما لم يكن فيه ملكا . ولا بد أن يتحلى بشيء من الدكاء المتقذ ليحتفظ بتاجه على رأسه فى اسكتلنده ، ويلبس تاجا أعظم فى إنجلترا حتى يموت ميتة طبيعية . وكان متقلبا إلى حد ما بالنسبة للجنس ، فتزوج من الأميرة الدنمركية الكاثوليكية ، آن ، ولكن لم يكن به ميل شديد إلى النساء ، وانغمس فى التودد إلى المحظيات إلى حد ساعد على القيل والقال .

وكان عليه أن يشق طريقه بالحيلة والدهاء وسط الأفكار العنيفة المنصارعة فى أيامه . فان أسرة جيز فى فرنسا ، والملاك فيليب فى أسبانيا ، والبابا فى رومه ، تعاهدوا معه على استعادة اسكتلنده إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الكنيسة الاسكتلندية الوطنية كانت تحسب عليه أنفاسه خشية أن ينحرف عن مذهب كلفن . ولكنه لم يحرق الجسور من خلفه ، فتبادل الرسائل المهدبة مع الدول الكاثوليكية ، وكان به ميل إلى تخفيف القوانين المفروضة على العبادة الكاثوليكية فأطلق خفية سراح أحد الجزويت ، وتواطأ فى تهريب آخر (٢) . ولكن المؤامرات الكاثوليكية أغضبت ، وأثرت فيه البروتستانتية الظافرة فى إنجلترا . وتنبأ بما قدر له مع الكنيسة الوطنية الاسكتلندية .

ولم تكن هذه الكنيسة رفيقا مشجعا مريحا ، وما حلت سنة ١٥٨٣ حتى كان قساوستها يشكلون الأغلبية العظمى من رجال الدين الاسكتلنديين ، وكانت مواردهم ضعيفة وحظهم من علوم الدنيا ضئيلا ، ومن ثم انصرفوا إلى العبادة والورع والتقوى ، وتحلوا بالشجاعة والاقدام ، وكدوا وجدوا فى إعادة الكنائس المهملة ، ونظّموا المدارس ، وتولوا أمر الصدقات ، وحمو الفلاحين من ظلم اللوردات ، وألقوا المواعظ المسهبة التى استوعبها ووعاها مستمعوهم ، بدلا من الكتب والمادة

المطبوعة . وفي جلسات الكنيسة وفي المجمع الإقليمية وفي الجمعية العامة ، حظى
الاكليروس الحديد بقوة تنافس تلك القوة التي كانت هيئة الكنيسة الكاثوليكية
قد استخدمتها ضدهم ببراعة . ولما كانوا يزعمون أنهم يتلقون الوحي من عند الله ،
ومن ثم فإنهم معصومون من الخطأ في ناحية العقيدة أو في الناحية الأخلاقية ،
فإنهم فرضوا على السلوك العام والخاص رقابة أقسى بكثير منها على عهد حراس
أوجهاة المذهب القديم المتراخين . وفي كثير من المدن فرضوا غرامات على
الاسكتلنديين الذين لم يحضروا الصلوات البروتستانتية ، وفرضوا توبة علنية ، وفي
بعض الأحيان عقوبات بدنية ، على ما يضبط من خطايا^(٣) . وروعوا بانتشار
الفجور والزنى ففوضوا رؤساء الكنائس ، في أن يتنبهوا بتشديد خاص إلى أية
انحرافات جنسية ، وأن يبعثوا بتقارير عنها إلى المجمع الكنيسة البروتستانتية عند
انعقادها ، وصعقوا بالفحش والفجور في المسرح الإنجليزي فسعوا إلى تحريم التمثيل
المسرحي في سكتلنده ، فلما عجزوا عن ذلك ، حظروا على أتباعهم أن يشهدوه ،
وفعلوا ما فعله أسلافهم من اعتبار الهرطقة جريمة عقوبتها الإعدام . وتعقبوا السحرة
في حماسة بالغة وأقروا إعدامهم حرقاً^(٤) . وأقنعوا البرلمان بأن يصدر قانونا يفرض
عقوبة الإعدام على أى قسيس يقرأ القداش ثلاث مرات ، ولكن هذا المرسوم لم
يطبق على أية حال ، وعندما ترامت إليهم أنباء مذبحه سانت برثلميو ، دعت
الكنيسة الاسكتلندية البروتستانتية إلى تدبير مذبحه مماثلة للكاثوليك في اسكتلنده ،
ولكن الحكومة أغفلت هذا النداء^(٥) .

وباستثناء ادعاء نزول الوحي على القساوسة وعصمتهم من الخطأ ، كانت
الكنيسة الوطنية الاسكتلندية (البروتستانتية) أكثر النظم ديمقراطية في عصرها .
وكان قسيسو الدوائر أو الأقسام يختارون رؤساء الكنائس شريطة موافقة شعب
الكنيسة ، وكان جمهور المؤمنين يشهدون الجلسات والمجمع والجمعية العامة .
وأماجت وأغضبت هذه الإجراءات الديمقراطية البرلمان الأرستقراطي والملك المسحوح
بالزيت . ولما كان جيمس يفكر وبجادل - وربما يعتقد ويؤمن - في أنه يحكم
بمقتضى الحق الإلهي ، فانه شكاً من أن جماعة من القساوسة الملتهمين حماسة وغيرة

في الكنيسة البروتستانتية ، ملكوا قيادة الشعب على هذا النحو ، وأنهم عندما استساغوا طعم الحكم وتلدذوا بحلاوته ، بدأوا يفكرون في شكل ديمقراطي ... لقد شوهوا سمعتي وافتروا على في مواعظهم ، لالاية رذيلة في شخصي ، بل لأنني ملك اعتبروه أكبر رذيلة (٦) » . وبذلك استؤنف نزاع العصور بين الكنيسة والدولة .

واتخذ النزاع آنذاك شكل هجوم أوحلة من القساوسة على الأساقفة . وكان هؤلاء - وهذا تراث كاثوليكي للكنيسة الاسكتلندية البروتستانتية - يختارون شكلا بواسطة القساوسة ولكن كانوا فعلا يعينون ، وغالبا ما يفرضون على الاكليروس بواسطة الوصي أو الملك . وكانوا يسلمون قدرا كبيرا من إيرادات الكنيسة إلى الحكومة . ولم يجد القساوسة في الكتب المقدسة سنداً أو أساسا للنظام الأسقفي ، ومن ثم عقدوا العزم على التخلص منه في اسكتلنده ، على أنه لا يلتئم مع التنظيم الشعبي السائد في الكنيسة الاسكتلندية الوطنية الجديدة .

وكان زعيمهم أندرو ملفيل ، اسكتلنديا عنيفا متحمسا هيأته الطبيعة ليرث عباءة جون نوكس . وبعد أن أنهى تعليمه الجامعي في سانت أندروز ، تابع دراسته في باريس ، ورضع لبان مذهب كلفن على يد بيز Bèze في جنيف . ولدى عودته إلى اسكتلنده (١٥٧٤) عين ، وهو في التاسعة والعشرين من العمر ، رئيسا للجامعة جلاسجو ، فأظهر مقدرة وكفاية في إعادة تنظيم المناهج . وقواعد الضبط والسلوك فيها . وفي ١٥٧٨ أسهم في جمع « الكتاب الثاني لقواعد الانضباط والسلوك » الذي قدد بالنظام الأسقفي باسم المساواة الكهنوتية ، ودافع عن الفصل النهائي بين مجالات كل من الكنيسة والدولة . وكان لهذا أثره في الفصل بينهما في الولايات المتحدة ، ولكنه طالب بحق القساوسة في تدريب الحكام المدنيين على ممارسة سلطاتهم « على أساس كلمة الله (٧) » . على أن جيمس ، على أية حال ، أراد أن يكون حاكما مطلقا مثل هنري الثامن واليزابث ، وآمن بأن نظام الأساقفة ضروري للإدارة الكنسية ، كما أنهم وسطاء مريحون بين الكنيسة والدولة .

وفي ١٥٨٠ « لعنت » الجمعية العامة للكنيسة الوطنية الإنسكتلندية (البروتستانتية) وظيفة الأسقف ودمغتها بأنها «حماقة من ابتداء الإنسان». وصدر الأمر إلى جميع الأساقفة — تحت التهديد بعقوبة الحرمان من الكنيسة ، بأن يكفوا عن مباشرة أعمالهم ، والتقدم إلى الجمعية العامة بطلب الترخيص لهم بأن يكونوا مجرد كهنة عاديين؛ ونُبتت الحكومة « الكتاب الثاني لقواعد السلوك والانضباط » ، ونمست بأن الحرمان من الكنيسة لا يصبح نافذ المفعول إلا إذا صدقت عليه الدولة . وفي ١٥٨١ رشح لنوكس ، وكان آنذاك وصياً على العرش ، روبرت مونتميري رئيساً لأساقفة جلاسجو . ولكن قساوسة جلاسجو البروتستانت أبوا أن ينتخبوه ، ولكنه على الرغم من هذا أصر على أن يتولى مهام منصبه ، فقررت الجمعية العامة بزعامة ملفيل حرمانه من الكنيسة (١٥٨٢) ، ورضخ مونتميري وانسحب . واتهم ملفيل بالتحريض على (الفتنة) ، فرفض المحاكمة المدنية ، وطالب بأن يحاكم أمام محكمة كنسية . ولما أُدين بتهمة احتقار المحكمة ، هرب إلى إنجلترا (١٥٨٤) . وأقنع جيمس البرلمان بأن يعان أنه يعتبر خيانة : رفض الخضوع للقضاء المدني ، وندخل القساوسة في شئون الدولة ، ومقاومة حكومة الأساقفة ، وأية اجتماعات كنسية لا يرخص الملك بمقدها : فأثر كثير من القساوسة أن يلحقوا بملفيل في منفاه ، على الامتثال لهذه الأوامر . فما كان من جيمس ، تمسكاً بسيادته العليا واستمئاعاً بها ، إلا أن أمعن في حكم الإرهاب : فعوقب الكهنة لأنهم صلوا من أجل لإخوتهم المنفيين ، وأعدم اثنان آخران بتهمة التآمر .

وقام رجال الدين والمترددون على كنائسهم ، بما عهد في الاسكتلنديين من عناد وصلابة ، وشوّهت النشرات التي لم يعرف مصدرها سمعة الملك . ونددت الأغاني بطغيانه والعار الذي لحق به من أجله ، وحتى النساء كنن له نقداً ساخراً لا ذعاً يذرزه فيه بالحقيم وسوء المصير . وواقص شيئاً فشيئاً ما كان يحصل عليه أساقفته من الأموال ، وسلموا الدولة منها الأثل فالأقل ، ووجد جيمس أنه بات صفر اليدين ، بلا مال — وهو مصدر قوة إرادته ، واشتد ضمهقه سنة بعد أخرى ، وأقر البرلمان ١٥٢٩ ، بموافقة التامة ، مرسوماً يحتفظ للكنيسة الإسكتلندية الوطنية (البروتستانتية)

بحريتها ، ويعيد إليها سلطاتها في الشئون القضائية والضبط ، ويلغى نظام الأساقفة :
وعاد المتقيون .

وإذا اشتدت جرأة ملفيل عن ذى قبل ، واجه جيمس بقوله : « خادم الرب الأبله » ، وألقى عليه الحقيقة اللاهوتية التي لا ريب فيها ، في ١٥٩٦ ، بمثل الثبات ورباطة الجأش اللتين واجه بهما جريجورى السابع الامبراطور هنرى الرابع قبل ذلك بخمسمائة عام (١٠٧٧) فقال : « إن في إسكتلندة ملكين ومملكتين . فهناك يسوع المسيح ومملكته ، وهى فى الكنيسة ، وأحد رعاياها الملك جيمس . . . وما هو يملك ولا رئيس ولا لورد ، ولكن مجرد عضو (٨) » . وقال - دافيد بلاك - وهو قسيس كنيسة سانت أندروز ، لجماعة المصلين (١٥٩٦) إن جميع الملوك أبناء للشيطان ، وأن اليزابث كافرة ملحدة . وأن جيمس هو الشيطان بعينه (٩) . واحتج السفير الإنجليزى ، واستدعى مجلس الشورى القس بلاك للتحقيق ، نأى أن يذهب قائلًا إن الحرم الذى يرتكب من فوق المنبر لا يخضع إلا لحكمة الكنيسة ، هذا فضلا عن أنه تلقى رسالته من عند الله . وأمر جيمس بمحاكمة غيايباً . فذهبت إليه لجنة من القساوسة ، ولكن الملك لم يعالج الأمر بنجاح ، بل على العكس ، طالب بأن تخضع لتصديقه كل قرارات الجمعية الكنسية والبرلمان . ودعا القساوسة إلى صوم عام ، وأعلنوا منذرين متشائمين ، أنه مهما حدث من شيء « فلنهم أبرياء من دم جلالته (١٠) » .

وتجمع حشد من المشاغبين حول المبنى الذى كان يقيم فيه جيمس (١٧ ديسمبر ١٥٩٦) فهرب إلى قصر هوليرود . وفى صباح اليوم التالى غادر لإدنبره مع كل حاشيته . وأعلن إلى سكانها ، عن طريق مناد يناطق باسمه ، أنها لم تعد تصلح لتكون عاصمة ، وأنه لن يعود إليها إلا لتنفيذ الحكم على الثوار والعصاة ، وأمر كل الاكلبروس وغير المتوطنين بمغادرة المدينة . ولما لم يجد المشاغبون أحداً ليقتلوه ، تفرقوا . وحزن التجار على فقدانهم ما كان يعود عليهم من ربح فى التعامل مع الحاشية . وتساءل المواطنون فى دهشة : هل كان النزاع يستحق الاستشهاد الاقتصادى ، وعاد جيمس إلى المدينة فى ظفر مشوب بالغضب (١ يناير ١٥٩٧) ،

وعرضت الجمعية العامة المنعقدة في برث ، خضوع الكنيسة الوطنية الإسكتلندية ، ووافقت على ألا يعين أى قسيس في المدن الرئيسية دون موافقة الملك وشعب الكنيسة ، وألا يتعرض القساوسة في خطبهم لقرارات البرلمان أو مجلس الشورى ، وألا يهاجروا شخص أى إنسان من فوق المنبر . وسمح للقساوسة البروتستانت بعد ذلك بالعودة إلى العاصمة (١٥٩٧) . ولكن أعيد نظام الأساقفة . وغطت هدنة كاثية منكودة على الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة .

وبرزت في الأدب الإسكتلندي تلك في الحقبة شخصيتان عظيمتان : الملك نفسه ، وأشهر معلميه . وكانت سيرة حياة جورج بوكانان مدهشة ، فقد ولد في سترلنجشير في ١٥٠٦ ، ودرس في باريس ، وخدم العلم في فرنسا واسكتلندية ، ونهل الحماسة الفلسفية والسياسية من محاضرات جون ميجور ، وعاد من أجل الحب والعلم إلى باريس : ورجع أدراجه إلى اسكتلندية هرطيقاً هجاء لاذعاً ، وأودعه السجن الكاردينال بيتون ، فهرب إلى بوردو ، وقام هناك بتدريس اللاتينية ، وكتب قصائد ومسرحيات بلغة لاتينية جيدة إلى حد كبير ، وشاهد تلميذه مونثاني يمثل في إحدى هذه الروايات ، ورأس إحدى الكليات في كوامبرا ، وسجنته محكمة التفتيش الأسبانية لسخريته من الأخوة (في فرقة دينية) ، وعاد إلى إسكتلندية وفرنسا ، ثم اسكتلندية حيث تولى تعليم ماري ملكة إسكتلندية (١٥٦٢) ، وعين رئيساً للجمعية العامة (١٥٦٧) وأعلن صحة « رسائل الصندوق الفضى » وأتهم بتزييف قسم منها (١١) . وأدان - ماري بلا هوادة ولارحة في كتابه « كشف النقاب عن حكم ماري » (١٥٧١) وتولى التدريس لابنها على الرغم من اعتراضها على ذلك ، وتخلّى عن هذه المهمة (١٥٨٢) . وجد وجاهد في كتابه « تاريخ إسكتلندية » (١٥٧٩) لتخليص تاريخ بلاده من « القيود الإنجليزية والغرور الإسكتلندي » : وأكد من جديد في رسالته « الحكم الشرعى في إسكتلنده » - على الرغم من تلميذه الذى سيصبح عما قريب ملكاً مستبداً - أكد نظرية العصور الوسطى القائلة بأن المصدر الوحيد للسلطة السياسية ، بعد الله ، هو الشعب ، وأن كل مجتمع يتركز على عقد اجتماعى ضمنى يقوم على التزامات وقيود متبادلة بين المحكومين والحكام ،

وأن لإرادة الأغلبية ، بحق ، أن تحكم الكل ، وأن الملك يجب أن يخضع للقوانين التي يقرها ممثلو الشعب ، وأنه يمكن بحق أيضا مقاومة الطاغية أو عزله أو قتله (١٢) . فأنت ترى أن أسطورة العقد الاجتماعي ظهرت هنا قبل هوبز بقرن من الزمان ، وقبل مجيء روسو بقرنين . وشجب البرلمان الاسكتلندي كتاب بوكانان ، وأحرقته جامعة أكسفورد ، ولكن كان له أثر شديد . وذهب صمويل جونسون إلى القول بأن بوكانان هو العبقرى الوحيد الذي أنجبه اسكتلنده (١٣) . وأسبغ هيوم ، في تواضع ، هذا الامتياز على نايبير (عالم رياضيات اسكتلندي ١٥٥٠ - ١٦١٧ ، مخترع اللوغاريتمات) ، أما المؤرخ الاسكتلندي كارليل فقد خص به نوكس ، حيث كان من أشد المعجبين به . أما جيمس السادس فقد كان له آراؤه الخاصة في هذه المسألة .

وكان الملك مزهواً فخورا بكتبه قدر زهوه وفخره بحقوقه وامتيازاته . وفي ١٦١٦ نشر مجلدا ضخما « أعمال الأمير ، الأعظم والأقوى جيمس » ، وهو مهدي إلى يسوع المسيح . وكتب قصائد ، ونصائح إلى الشعراء ، وترجمة « للمزامير » ، ودراسة لسفر الرؤيا ، ورسالة عن « الشياطين » وكتابين من (قطع الثمن) دفاعا من الملكية المطلقة ، أحدهما وهو « إلهية الملكية » (١٥٩٨) كان كتاب نصائح لابنه هنري في فن الحكم وواجباته ، أكد حكم الكنيسة على أنه « ليس بالجزء اليسير من مهمة الملك » . أما الثاني وهو « القانون الحقيقي للملكيات الحرة » فقد شرح فيه الحكم المطلق ودافع عنه في فصاحة هائلة : إن الملوك مختارون من عند الله ، مادامت الأحداث الهامة تفرضها العناية الإلهية ، وأن تعيينهم ومسحهم بالزيت يشكلان سرا مقدسا لا يجوز الطق به ، مثلها في ذلك مثل أى سر مقدس آخر . ومن ثم كان لهم كل الحق في أن يكون حكمهم مطلقا ، وأن معارضتهم تعتبر حماقة ، وجريمة ، وإثما من شأنه أن يفضى إلى الضرر أكثر من أى طغيان . إن هذا الذي كان بالنسبة لاليزابت أسطورة نافعة ، أصبح بالنسبة لجيمس مبدأ عاطفيا ، ولد لأم ملكة . وورث عنه ابنه شارل النظرية ، ودفع الثمن أو تلقى القصاص . ومهما يكن من أمر فان انجلترا لم تتنبأ في ١٥٩٨ بما حدث في ١٦٤٩ ، وبعد

أن شوب جيمس نخب البروتستانتيه وتعهد بالتزامها ، اعترف مجلس شورى الملكة إليزابث به وريثا للتاج الانجليزى ، عن طزيق أمه مارى . وبعد مضى أربعة أيام على وفاة إليزابث ، بدأ جيمس (٥ أبريل ١٦٠٣) رحلة بهيجة مريحة من ادنبرة إلى لندن ، وتوقف ، متهللا ، فى الطريق ، ليحتفى به النبلاء الانجليز ، وفى ٦ مايو وصل إلى لندن التى أخذت زخرفها وأزيئت للترحيب به — انحنى الجماهير له ، وقبل اللوردات يديه . وبعد ألف سنة من صراع عقيم لا غناء فيه اتحدت الأمتان (ولم يتحد البرلمان قبل ١٧٠٧) وهكذا كان عثم إليزابث نافعا مشرا ؛

٢ — جيمس الأول ملك إنجلترا : ١٦٠٣ — ١٦١٤

أى صنف من الرجال كان قد أصبح جيمس فى سبع وثلاثين سنة ؟ كان متوسط القامة ، ذارجلين ضعيفتين ، وكرش صغير ، يرتدى سترة ضيقة وبنطلوناً مخشوبين أو مبطنين حتى يمنعا وصول نصال السفاحين إلى جسمه ، وكان شعره ذا لون أسمر بنى ، وخداه متوردين ، وأنفه مكور ، تشع من عينيه الزرقاوين نظرات الارتياح والحزن ، وكأنما كان الرب خجلا من جسمه . وكان كسولا نوعا ما ، فأثر الراحة من عناء العمل ، اعتمادا منه على إليزابث ، وكانت لغته فظة ، يتميز لهوه وتسليته بالخشونة ، وكان يتمتم ويتلثم كثيرا ، وكثيرا ما كان لسانه الخشن يفلت بغير حساب . وكان مزهوا كريما ، جانا مخادعا ، لأنه كثيرا ما تعرض للخطر ، وخدع وغرر به ، مستعدا لتبادل الإساءة ، وليصفح ويلتمس الصفح ، من ذلك أنه عندما أنكر جون جب أنه ضيع بعض الوثائق الهامة ، فقد جيمس صوابه ، وركله بقدمه ، فلما عثر على الأوراق ، جثا أمام معاونه الذى أخزاه وأذله ، وأبى أن ينهض حتى يصفح عنه جب . وكان متسامحا وسط جو من التعصب وعدم التسامح . وكان فى بعض الأحيان صلبا قاسيا ، ولو أنه عادة حنون عطوف . وكان يرتاب فى ابنه هنرى لشعبيته البالغة ، ويحب ابنه شارل إلى حد الحمق . ولم تشب علاقته بالنساء أية شائبة ، ولكنه كان ميالا إلى ملاطفة الشبان الوسيمين . وكان يؤمن بالحرافات ، كما كان عالما . وكان سخيلا لاذعا ، يؤمن بالعفاريت والسحرة فى الوقت الذى يعطف فيه على بيكون وجونسون ، يخسد العلمساء ،

ويولع بالكتب ، وإن من أول قراراته بوصفه ملكاً أنه منج جامعتي أكسفورد وكبريدج حق إرسال ممثلين لهما إلى البرلمان . ولما رأى مكتبة بودلي صاح قائلاً : « لو لم أكن ملكاً لآثرت أن أكون جامعياً ، ولو قدر لي أن أسجن ، وكانت لي الخيرة من أمرى ، لما آثرت مكاناً أسجن فيه غير هذه المكتبة ، ملازماً لهؤلاء المؤلفين الأفاضل والأساتذة الذين قضوا نحبهم^(١٤) . وصفوة القول انه كان رجلاً يعوزه الاتزان والحزم ، إلى حد ما ، ولو أنه كان في قرارة نفسه سمحاً ودوداً ، يسخر منه الأذكىاء ، ولكن يغفر له قومه ، لأنه حتى اقتربت نهايته المحزنة ، وفر لهم الأمن والطمأنينة والسلام :

ولم يكن جيمس يحب الماء كثيراً إلى حد أنه كره استخدامه لأغراض الغسل : وكان يدمن على الشراب ، وأباح في بعض حفلات حاشيته أن تسرف النساء والرجال في الشراب حتى تلعب الخمر برءوس الجميع وينتهي الأمر إلى ثمل عاطفي . ودرجت الحاشية على الاسراف في الملابس وفي الحفلات ، إسرافاً لم يسبق له مثيل في بلاط اليزابث . وكانت اليزابث تميل إلى التمثيليات التنكرية ، ولكن أما وقد كتب بن جونسون الرواية ، وصمم إنيجو جونز الملابس والمناظر ، وقام بالأدوار فيها للوردات العظام والسيدات الفاتنات ، وكأنما ارتدى الجميع ، من شدة البذخ ، أموال المملكة ، فإن الفن الحسرافى الغريب غير الواقعى بلغ الآن ذروته : وبلغ الاستهتار والحلاعة . والفساد في البلاط مبلغاً لم يسبق له مثيل . حتى جاء على لسان سيدة في إحدى روايات جونسون قولها . « أعتقد أنني إذا لم أجد من يحبني غير زوجي المسكين ، فلسوف أشق نفسي^(١٥) » . وقبل أفراد الحاشية « هدايا » قيمة مقابل استغلال نفوذهم في الحصول على المراسيم والتراخيص والاحتكارات والمناصب لمن يطلبها . من ذلك أن البارون مونتاجو دفع عشرين ألفاً من الجنيهات مقابل تنصيبه وزيراً للخزانة^(١٦) . وروى بسند ضعيف ، أن رجلاً حساساً رقيقاً مرض وفاضت روحه عند ما سمع كم دفع أصدقاؤه مقابل تعيينه قاضياً محلياً^(١٧) .

ولم يول جيمس مثل هذه المسائل كلها اهتماماً كبيراً : ولم يجهد نفسه كثيراً في شئون الحكومة : وترك إدارة البلاد لمجلس الشورى الذى يتألف من ستة من

الإنجليز ومثلهم من الإسكتلنديين ، والذي يرأسه روبرت سيسل الذى عينه لارل سالسبورى (١٦٠٥) : وورث سيسل كل شيء إلا الصحة . فقد أقعده عن الحركة ظهره الأحذب ، حتى بات منظره يبعث على الحزن والأسى . ولكنه تحلى بكل ما كان لأبيه من فطنة فى اختيار الرجال وتوجيههم ، وتشبث صامت وكياسة مأكرة ، تفوق بها جميعاً على منافسيه المحليين . وعمل أفراد أى بلاط أجنبي . ولما مات « كلب الصيد الصغير » وقع جيمس تحت سيطرة شاب وسيم هو روبرت كار ، وعينه لارل سومرست ، فهياً له أن يخلف فى مجال السياسة والإدارة ، من هم أكبر منه سناً ، وأكثر صقلا وعلماً ، مثل فرانسيس بيكون وإدوارد كوك .

وكان كوك تجسيدا للقانون ، وحارساً أميناً عليه ، اشتهرته محاكمته للورد إسكس فى ١٦٠٠ ، ورالى فى ١٦٠٣ ، والمشاركين فى مؤامرة البارود فى ١٦٠٥ : وخرج على الناس فى ١٦١٠ برأى تاريخى :

يبدو فى كتبنا أنه فى حالات كثيرة ، يطفى القانون العام على قرارات البرلمان ، وفى بعض الأحيان يعتبرها باطلة . لأنه إذا كان قرار البرلمان مخالفاً للحق العام أو العقل : : : . أو يستحيل تطبيقه ، فإن القانون العام لا بد أن يلغيه أو يقضى عليه بالبطلان (١٨) .

وربما كان البرلمان لا يسيغ مثل هذا رأى ، ولكن جيمس عين كوك رئيساً للمحكمة العليا (١٦١٣) وعضواً فى مجلس الشورى : وانقلب من كونه رجل الملك ، إلى رجل يزعم الملك ويقض مضجعه ، يستنكر البحث أو التحقيق فى الآراء الخاصة ، ويؤيد حرية أعضاء البرلمان فى الكلام ، وتناول بالتجريح سلطة الملك المطابقة فى مذكرات لاذعة تؤكد أن الملوك ليسوا إلا خدماً للقانون . وفى ١٦١٦ اتهمه منافسه ببيكون بارتكاب أعمال محظورة ، وعزل كوك ، ثم أعيد إلى البرلمان ليستمر فى تزعم حركة المقاومة ضد الملك : وأودع سجن لندن ١٦٢١ ، ولكن سرعان ما أطلق سراحه : ومات غير نادم (١٦٣٤) ، مخلصاً أشد الإخلاص لنصوص القانون

وصرامته ، وترك لنا أربعة مجلدات من « مجموعة القوانين » لا تزال تشكل مرجعاً هاماً في القضاء الإنجليزي (*) .

وفي نفس الوقت كان جيمس يتابع مع البرلمان مناقشته التي كان لا بد أن تتمخض في عهد ابنه عن الحرب الأهلية وقتل الملك . إنه لم يكتف بممارسة كل السلطات التي كان هنرى الثامن واليزابث قد سيطرتا بها على مشرعيهما المتذمرين أو الذين روعهم التهديد ، إنه صاغ دعاواه على أنها أوامر إلهية : فأعلن إلى برلمان ١٦٠٩ :

إن مقام الملكية هو أسمى شيء على الأرض : لأن الملوك لا يقومون مقام الله على الأرض ويجلسون على عرش الله ، فحسب ، بل إن الله نفسه يسميهم آلهة أو أرباباً : : : إن الملوك يسمون بحق آلهة ، لأنهم يمارسون شيئاً شبيهاً بالسلطة الإلهية على الأرض . فانكم لو تدبرتم في صفات الله لوجدتموها مجتمعة ومتفقة في شخص الملك : إن الله قادر على الخلق أو التدمير والإفناء ، على البناء والهدم ، وفق مشيئته ، يبعث الحياة أو يرسل الموت ، يحاسب كل الناس ولا يحاسبه أحد . . . وللملوك نفس القدرة أو القوة : إنهم يصنعون رعاياهم أو يخطمونهم ، ولهم القدرة ، ولهم الكلمة العليا على كل رعاياهم ، وفي كل الأمور ، ومع ذلك لا يحاسبهم أحد إلا الله وحده . ولهم السلطة في أن يجعلوا : : : من رعاياهم قطع شطرنج يحركونها كيف شاعوا — فالليدق يطيح

(*) برى إيماناً بـ أن ربة كوك الثانية - وهي أرملة سيروليم هانوك كانت حاملاً عندما بنى بها كوك ، وعندما آوى إلى الفراش وضع يده على بطنها فلحظ جنيناً يتحرك ، فسألها : « ما هذا ؟ » ولم في اليوم الثالث ، إلا لما تزوجت طباعها (هذا تلاعب بالالفاظ في الانجليزية Cook - Coke) ويمكن أن نضيئ أنها كانت قد رفضت الزواج من منافسه ليكون .

بأسقف أو بفارس — فيرفعون أيًا من رعاياهم إلى عنان السماء
أو يخسفون به الأرض ، وكأنما يتصرفون في أموالهم (٢٠) .

وكانت هذه خطوة إلى الوراء ، لأن النظرية السياسية في العصور الوسطى ، كانت قد جعلت الملك دوما . نائباً عن الشعب صاحب السيادة . والبابوات فقط هم الذين أعلنوا أنهم نواب الله على الأرض . ولكي نضيق على هذه الدعوى أفضل واجهة فلسفية ، يجدر بنا أن نفترض أن البابوات — بوصفهم الرؤوس العليا للسيادة والسلطان في العصور الوسطى ، كانوا قد آمنوا بأن الدوافع الفردية في الإنسان قوية إلى حد أن الإبقاء على النظام الاجتماعي لا يتأتى إلا بأن يغرس في نفوس الناس ، لإجلال تقليدي للسلطة الدينية ، وللبابوات بوصفهم صوت الله وممثليه . ولكن لإضعاف الإصلاح الديني للسلطة البابوية أو هدمها . كان قد ترك السلطات السياسية مسئولة في المقام الأول ، أو في النهاية ، عن النظام الاجتماعي . وحكم هؤلاء أيضاً بأن السلطة البشرية الخالصة عرضة للتحدى ، إلى درجة أنها لا تقوى على كبح جماح النزعات غير الاجتماعية في الإنسان ، بطريقة فعالة أو من الناحية الاقتصادية . ومن ثم نمت نظرية حق الملوك الإلهي ، جنباً إلى جنب ، مع تطور القومية والانتقاص من سلطة البابوات . وبعد أن تولى الأمراء اللوثريون في ألمانيا ، السلطات الروحية التي كانت للكنيسة القديمة في بلادهم ، أحسوا بأنهم محقون في أن يحيطوا أنفسهم بالهالة الإلهية التي اعتقد معظم الحكام والملوك قبل ١٧٨٩ أنها أساسية لا يستغنى عنها للسلطة الأدبية والسلام الاجتماعي . وأخطأ جيمس في التعبير عن هذا الافتراض بوضوح أكثر مما ينبغي ، وفي أشد صيغة تطرفاً .

وكان من الجائز أن يتقبل البرلمان ، قبولاً نظرياً (مع ابتسامات خاصة) هذه الاستبدادية الملكية ، إذا كان أعضاؤه ، كما كان الحال مع البرابن وهي في أوج عظمتها ، من كبار ملاك الأراضي — الذين كانوا مدينين للملك التيودور بأعمال جليلة بطولية . ولكن مجلس العموم الآن كان يضم بين أعضائه البالغ عددهم ٤٦٧ عضواً ، كثيراً من ممثلي الطبقات التجارية الناشئة الذين لا يستسيغون سيطرة ملكية بلا حدود على أموالهم — إلى جانب كثير من البيوريتانيين الذين ينكرون على الملك

دعواه في أن يحكم ديانتهم . وحدد المجلس حقوقه في إغفال جري لألوهية جيمس ، أو حقوقه الإلهية . وأعلن أنه له القول الفصل في صحة انتخاب أعضائه . وطالب بحرية الكلام ، وحصانة أعضائه ضد القبض عليهم في أثناء انعقاده ، وأثبت أنه بغير هذا لا يكون للبرلمان أى معنى أو قيمة : واقترح أن يتولى التشريع في المسائل الدينية ، وأنكر سلطة الملك في الفصل في مثل هذه المسائل دون موافقة البرلمان . على أن الأساقفة الأنجليكانيين على أية حال طالبوا بحق المجمع الكنسى الأنجليكانى في الفصل في الأمور الكنسية ، على أن تخضع قراراته لموافقة الملك . وأبلغ رئيس مجلس العموم جيمس أنه ليس للملك أن يسن قانونا ، ولكن يستطيع فقط أن يعتمد أو يرفض أى قانون يجيزه البرلمان : وأعلن المجلس في بونية ١٦٠٤ : « أن امتيازاتنا وحرياتنا هى حقوقنا وتراثنا القانونى : : وليست بحال من الأحوال أقل شأننا من أراضينا ومتاعنا . . . ولا يمكن انتزاعها منا ، دون أن يكون في ذلك إساءة صارخة إلى المملكة بأسرها (٢١) » :

وهكذا نسجت خيوط النزاع التاريخى بين « حقوق » الملك و « امتيازات » البرلمان ، هذا النزاع الذى قدر له أن يخلق ديموقراطية إنجلترا ، بعد مائة من السنين توالى فيها الانتصارات والهزائم :

٣ - مؤامرة البارود : ١٦٠٥

وفوق الصراع الاقتصادى والسياسى استعرت نار الحرب الدينية ، ضاربة فيه بجدور عميقة . وكانت معظم الذشرات التى سممت الجو ، عبارة عن حملات عنيفة شنها البيوريتانيون على الأساقفة والطقوس الانجيليكانية ، أو الانجليكانيون على صرامة الليبوريتانيين وعنادهم ، أو شنها هؤلاء وهؤلاء على مؤامرات الكاثوليك لإعادة إنجلترا إلى حظيرة البابوية . ولم يقدر جيمس فظاعة هذه البغضاء ، وكان يحلم « بوفاق شبه ودى » بين البيوريتانيين والانجليكانيين ، ولهذا الغرض دعا زعماء الفريقين إلى مؤتمر فى « هامبتون كورت » (١٤ يناير ١٦٠٤) : ورأس هو الاجتماع ، وكأنه « قسطنطين آخر » ، وأدهش الطرفين كليهما بعلمه اللاهوتى (١٤ - م)

وبراعته في الجدل والمناقشة ، ولكنه أصر على « مذهب واحد ، ونظام واحد ، وديانة واحدة شكلا وموضوعا » (٢٢) ، وأعلن أن النظام الأسقي أمر لا معدى عنه . وذهب أسقف لندن إلى أن الملك ملهم من عند الله ، « وأنه لم ير له مثل منذ عهد المسيح » (٢٣) . ولكن البيوريتانيين شكوا من أن الملك تصرف وكأنه طرف في الدعوى ، أكثر منه حكما أو قاضيا فيها ، ولم يتمخض المؤتمر عن شيء اللهم إلا القرار التاريخي الذي لم يكن يتوقعه أحد ، إلا وهو إعداد ترجمة جديدة للكتاب المقدس . وأصدر المجمع الكنسي الانجليكاني في ١٦٠٤ بعض القوانين التي تطلب من كل رجال الدين اتباع قواعد الكنيسة الانجليكانية : وفصل الذين رفضوا الامثال ، وسجن آخرون ، واستقال كثيرون ، وهاجر فريق آخر إلى هولنده وأمريكا .

وجلب جيمس على نفسه الخزي والعار باحراق اثنين من طائفة الموحدين (الذين يرفضون التثليث ويقولون بالتوحيد) بتهمة الشك في ألوهية المسيح ، برغم البراهين التي قدمها الملك إليهم (١٦١٢) . ولكنه أحسن صنعا في أنه لم يجز بعد ذلك الاعدام بسبب الخلاف الديني ، فكان هذان الاثنان آخر من أتى حتفه بتهمة الكفر في إنجلترا . وباطراد التحسن في الحكومة الدنيوية ، أخذت تسود . في بطاء ، الفكرة القائلة بأن التسامح الديني ينسجم مع الأخلاق العامة والوحدة الوطنية ، وتغزو ما كان راسخا في الأذهان . بطريقة تكاد تكون شاملة ، من أن النظام الاجتماعي يتطلب ديانة وكنيسة لا ينازعهما أحد . وحاول ابونارد بوشر في كتابه « السلام الديني » (١٦١٤) أن يدل على أن الاضطهاد الديني يوسع هوة الخلاف ويؤدي حتما إلى النفاق . ويضر بالتجارة ، وذكر جيمس بأن « اليهود والمسيحيين والأتراك المسلمين متسامحون في القسطنطينية ، ومع ذلك فهم جميعا مسالمون ، ويعيشون في سلام » (٢٤) « على أن بوشر هذا يرى أن الأفراد الذين تشوب عقيدتهم شائبة الخيانة - ولعله يقصد الكاثوليك الذين يرفعون البابا فوق منزلة الملك - ينبغي أن يحرم عليهم عقد الاجتماعات : أو الإقامة في أبعد من عشرة أميال من مدينة لندن .

كان جيمس في أغلب الأحوال دوجاتيا متسامحا (الجزمية ، الدوجاتية : توكيد
الرأى أو القطع به ، بفطرته ودون مبرر كاف ، أو دون أن يكون مبنيا على
مقدمات سليمة موثوقة) . لقد أغضب البيوريتانيين بتشجيعه الألعاب الرياضية في
أيام الآحاد ، شريطة حضور الصلوات الأنجليكانية أولا . وكان ميالا إلى إرخاء قبضة
القانون على الكاثوليك . وبرغم معارضة روبرت سيسل والمجلس ، أوقف قوانين
العصيان ، وأباح للقساوسة دخول الريف وإقامة القداس في الدور الخاصة . وعلى
طريقته الفلسفية غير المحكمة ، راوده حلم التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية في
العالم المسيحي^(٢٥) . ولكن عندما تكاثرت عدد الكاثوليك بفضل هذه البارقة من
النور والأمل . وندد البيوريتانون بتساهله ، أجاز تجديد قوانين الزبائث المعادية
للكاثوليك ، والتوسع فيها وتطبيقها (١٦٠٤) . من ذلك أن ارسال أى فرد
للدراية في جامعة أو معهد لاهوتى في الخارج كان يعاقب عليه بغرامة قدرها مائة
جنيه . ونفيت وأبعدت كل الارشاليات الكاثوليكية ، وحرم أى تعليم كاثوليكي ،
وفرض على كل الكاثوليك الذين يمتنعون عن إقامة الصلوات الأنجليكانية غرامة
قدرها عشرون جنيها في الشهر ، ويستتبع أى تخلف عن دفع مثل هذه الغرامات
مصادرة الممتلكات الأصابة أو الشخصية ، والاستيلاء على الماشية في أرض المقصر
في الدفع ، وعلى أثاثه وملابسه ، لمصلحة التاج^(٢٦) .

ورأى أشباه المخبولين من الكاثوليك أنه لم يعد أمامهم الآن من علاج لهذه
الحالة إلا القتل . وكان روبرت كاتسبى قد شهد أباه يعانى من السجن بتهمة العصيان
في عهد اليزابث ، وانضم إلى ثورة اسكس ضد الملكة . وهو الذى فكر الآن في
مؤامرة البارود لنسف قصر وستمنستر ، في الوقت الذى يجتمع فيه الملك والأسرة
الملكية . واللوردات والنواب لافتتاح البرلمان . وأشرك معه في المؤامرة توماس ونتر ،
وتوماس برسى ، وجون رايت ، وجى فوكس Guy Fawkes ، وتعاهد الرجال
الخمسة فيما بينهم وأقسموا على سرية الموضوع ، ووثقوا عهدهم بتناول القربان
المقدس من يد مبعوث جزويتى اسمه جون جيرار . واستأجروا دارا ملاصقة
للقصر ، وظلوا يعملون ستة عشر ساعة يوميا ليحفروا نفقا من قبو إلى قبو ، وأفلحوا

فما أرادوا . ووضعوا ثلاثين برميلا من البارود تحت قاعة الاجتماع في مجلس اللوردات مباشرة . وعطل تكرار تأجيل إنعقاد المجلس مرة بعد أخرى ، تنفيذ مشروع المؤامرة ، تعطيلاً مشوباً بالقلق والشك . وطيلة عام ونصف العام كان على المتآمرين أن يزكوا نار الغضب في صدورهم ، فكّم خامرهم الشك في فضيلة أو صواب مغامرة يروح ضحيتها كثير من الأرواح البريئة . مع من يظن الكاثوليك يلا هوادة ولا رحمة أنهم مذنبون . وسأل كاتسبي ، رغبة في إعادة الطمأنينة إلى نفوس المتآمرين - سأل هنري جارت أسقف الجزويت في إنجلترا : هل يجاز في الحرب الاشتراك في أعمال قد تودي بحياة أناس غير محاربين . فأجاب جارت بأن كل الشرائع السماوية تجيز هذا الأمر ، ولكنه حذر كاتسبي من أية مؤامرة على حياة العاملين في الحكومة ، لن تجر إلا مزيداً من الشقاء على الكاثوليك الإنجليز ، ونقل الأسقف مخاوفه وشكوكه إلى البابا وإلى زعيم الجزويت ، فأمره بالابتعاد عن كل دسائس سياسية ، وأن يحبط أية محاولات ضد الدولة (٢٧) . وأفضى كاتسبي إلى رجل آخر من الجزويت - اسمه أوزوالد جرينواي - « أثناء الاعتراف » بسر المؤامرة التي تضمنت الآن اتخاذ تدابير أخرى لقيام الكاثوليك في إنجلترا بثورة عامة . وأبلغ جرينواي زميله جارت بالموضوع « وحوار الرجلان الجزويتيان بين أمرين : إفشاء سر المتآمرين إلى الحكومة ، أو الصمت ، وآثرا السكوت ، ومع ذلك بذلا قصارى جهدهما ليثنيا المتآمرين عن تنفيذ خطتهم .

وسعى كاتسبي - ليخفف من وخز الضمير عند زملائه ومن مخاوفهم - إلى اتخاذ الترتيبات بأن يتسلم أعضاء البرلمان الموالين لهم ، في صبيحة اليوم المحدد للاجتماع رسائل عاجلة تستدعيهم إلى خارج وستمستتر . وألدر فرد صغير الشأن بين المتآمرين ، صديقة لورد مونتجال قبل موعد الانعقاد بعدة أيام . فأطلع مونتجال روبرت سيسل على جلية الأمر ، فنقل الخبر إلى الملك ، فدخل عملاؤهم وأعوانهم إلى الأقبية ، وهناك وجدوا فوكس ، كما وجدوا المتفجرات في أماكنها ، وفي ٤ نوفمبر ١٦٠٥ قبض على فوكس واعترف بما كان يقصد إليه من نسف البرلمان في اليوم التالي ، ولكنه على رغم التعذيب الشديد رفض الإدلاء بأسماء المشتركين

معه . ولكن هؤلاء على أية حال ، كشفوا عن أنفسهم بحمل السلاح ومحاوله الهرب . فطوردوا ، وجرى قتال أصيب فيه كاتسبي ، وبرسي ، ورايت ، بجروح قتالة . وجرى البحث عن أتباعهم وأودعوا السجن . وعندما قدم المسجونون للمحاكمة اعترفوا صراحة بالمؤامرة . ولكن أى تهديد أو تعذيب لم يحملههم على توريط القساوسة الجزويت فيها . واقتيد فوكس وثلاثة آخرون ، وسط شوارع المدينة من السجن إلى دار البرلمان حيث أعدموا (٢٧ يناير ١٦٠٦) . ولا تزال إنجلترا تحتفل بيوم ه نوفمبر على أنه يوم جى فوكس ، بإطلاق الصواريخ والألعاب النارية وحمل تماثيل أو صور جى والطواف بها في الشوارع .

وفرجيرارد وجرينواى إلى القارة ، ولكن قبض على جارت ومعه جزويتى آخر يدعى أولد كورن . وفى السجن وجد هذان الاثنان من الوسائل ماحسباه سيلا لاتصال خفى بينهما . ولكن الجواسيس نقلوا أحاديثهما بنصها ، واتهم كل منهما على انفراد بهذه الأحاديث فأنكرها جارت ، وأقرها أولد كورن . فاعترف جارت بأنه كان كاذبا . وانهارت قواه فسلم بأنه كان دلى علم بالمؤامرة ، ولكن بما أن أنباءها وصلت اليه عن طريق جرينواى الذى تلقاها على أنها سر من أسرار « الاعتراف » . فإنه لم يشعر بأنه حر فى افشائها ، ولكنه على أية حال بذل كل ما فى طاقته لإحباطها . فأدين بالتستر على المؤامرة ، لا بالتآمر . وتمهل الملك لمدة ستة أسابيع فى التصديق على الحكم باعدامه ، وأبلغوه كذباً أن جرينواى فى سجن لندن « البرج » فأرسل إليه خطاباً وضع الرقباء أيديهم عليه . وسئل جارت عما إذا كان قد اتصل بجرينواى فأنكر ، فواجهوه بخطابه ، فدافع بقوله إن المراوغة مباحة لشخص فى سبيل إنقاذ حياته . وفى ٣ مايو أعدم شنقاً ، ومزق إرباً (٢٨) .

وأحسن البرلمان أنه على حق فى تشديد القوانين ضد الكاثوليك ، فنعوا من مزاوله الطب أو الاشتغال بالقانون ، ومن استخدمهم أوصياء أو حراساً قضائيين ، وحظر عليهم أن يبعدوا بأكثر من خمسة أميال عن مساكنهم ، كما طلب إليهم أن يؤدوا قسماً جديداً ، لا ينكر سلطة البابا فى خلع الحكام المدنيين فحسب ولكنه كذلك يدمغ الإصرار على هذه السلطة بأنه عمل موصوم بالعقوق والفسوق والكفر ،

ديستوجب اللعنة (٢٩) . وحرم البابا بول الخامس تأدية — مثل هذا القسم ، وامتناع
للبابا أغلبية الكاثوليك الإنجليز وارتضت القسم أقلية كبيرة . وفي ١٦٠٦ أعدم ستة
من القساوسة لرفضهم القسم وإقامتهم القداس . وفيما بين عامي ١٦٠٧ و ١٦١٨ أعدم
ستة عشر آخرون (٣٠) . وامتألت السجون بعدة مئات من القساوسة وعدة آلاف من
الكاثوليك العاديين . وبرغم هذا الإرهاب كله ، استمر الجزويت لى دخول
انجلترا ، ففي ١٦١٥ كان يوجد منهم ٨ على الأقل ، وفي ١٦١٣ : كان منهم
٢٨٤ (٣١) . وشق بعض الجزويت طريقهم إلى إسكتلنده . وهناك أعدم واحد منهم
— جون أوجيلنى — فى ١٦١٥ ، بعد أن سحقته رجلاه فى « الدهق » (آلة
التعذيب) ، وإبقائه يقظاً لمدة ثمانية أيام بلياليها بغرز الدبابيس فى لحمه (٣٢) .
وهكذا وقعت أوزار الكنيسة القديمة على رأسها هى ، على يد الحقائق والقوى
والسلطات الجديدة .

٤ — المسرح فى أيام جيمس

تابعت نشوة اجتازها مسيرتها فى الأدب ، كما تابعتها فى الدين . وإلى أننسب
إلى عصر جيمس ، النصف الأروع فى روايات شكسبير ، وكثيراً من روائع تشابمان ،
ومعظم روائع جونسون ، ووبستر ، ومدلتن ، ودكر ، ومارستون ، وبعضاً
من أحسن أعمال ماسنجر ، وكل روائع بومونت وفانتشر ، وفى الشعر دون ،
وفى النثر بيرتون . وأروع وأكرم من هذا كله الكتاب المقدس ترجمة الملك
جيمس ، وتلك أعجاد تكفى لأن يتألق بها أى عصر ، وكان الملك يتألق المسرحية .
وفى أحد الاحتفالات بعيد الميلاد مثلت أربع عشرة رواية فى البلاط الملكى .
وفى ١٦١٣ احترق مسرح « الجلوب » عن آخره نتيجة إطلاق مدفعين استلزم
إطلاقهما تمثيل رواية هنرى الثامن ، ولكن سرعان ما أعيد بناؤه . وفى ١٦٣١ كان
فى لندن أو بالقرب منها نحو سبعة عشر مسرحاً .

وكان جورج تشابمان يكبر شكسبير بخمسة سنوات ، وعمر بعده ثمانية عشر
عاماً ، وشهد ثلاثة عهود (١٥٥٨ — ١٦٣٤) . وشق طريقه فى أناة وروية

حتى صار فحلافى فنه ، وكان فى ١٥٩٨ قد أكمل بنجاح رواية مارلو Hero and Leander ، ونشر سبعة كتب من الإلياذة ، ولكنه لم ينجز ترجمة هوميروس حتى ١٦١٥ ، وظهرت أحسن رواياته فيما بين ١٦٠٧ و ١٦١٣ . وفتح للمسرحية الإنجليزية مجالا جديداً ، حين اقتبس من التاريخ الفرنسى الحديث فكرة رواية Bussy d'Ambois (١٦٠٧) - خمسة فصول من الخطابة الصاخبة المليئة بالتهديد والوعيد ، لا يكاد يلطف من عنفها شىء من سحر البيان ، ولكنها تقوى إلى حد مزعج فى صحيفة يتبادل فيها بوسى وعدوه التحيات الساخرة التكمية العسيرة الهضم قدر عسر هضم الحقيقة . ولم يفق تشابمان قط من التعلم أو لم ينقطع عنه ، فإن القدر الكبير الذى حصله من اليونانية ، والقدر الأكبر من من اللاتينية استحوزا على كل تأملاته وتفكيره ، بشكل خائق ، وإن قراءة رواياته اليوم لهى ضرب من الجهد المضى لمجرد الاطلاع والدرس ، لا حباً فى الروايات أو الاستمتاع بها . ولن ننتهز كما فعل كيتس ، « لأول نظرة نلقها على ترجمة تشابمان لهوميروس » . فثمة حيوية دافقة هنا وهناك فى الترجمة السباعية التفاعيل تسمو بها فوق ترجمة بوب ، التى هى أفضل بصفة عامة ، ولكن موسيقى الشعر تضيع فى الترجمة ، فإن التفاعيل السداسية الوثابة فى الأصل تداعبنا بتناغم أسرع مما تفعل التفاعيل الموزونة المقيدة فى الشعر المقفى . إن أية قصيدة إنجليزية طويلة مقفاة لم تتخلص من النعاس الذى يغلب على أناشيد بحارة البندقية . وحول تشابمان إلى « شعر ملحمى » أبياتاً عشرية المقاطع ليتفق كل اثنين فى القافية - حول الأوديسية فى ترجمته لها بنفس قوة التهدة . ولا بد أن جيمس غلبه النعاس تحت هذه الأغطية الثقيلة ، إلى جانب إيماءات هوميروس العارضة ، لأنه أهمل فى دفع مبلغ الثلثائة جنيه التى كان الأمير الراحل هنرى قد وعد بدفعه إلى تشابمان ، عند إتمام الترجمة . ولكن ارل سومرست أنقذ الشاعر العجوز من الفقر .

وهل نتوقف قليلا عند توماس هايوود ، وتوماس مدلتون ، وتوماس دكر ، وسبريل تورنير ، وجون مارستون ، أو يسمحون لنا بأن نمر عليهم مر الكرام مع تحية متواضعة لشهرتهم المتأرجحة ، أما فلتشر ، فلن نستطيع أن نبخسه حقه .

فانه في ذروة مجده (١٦١٢ — ١٦٢٥) رفعته إنجلترا ، في مجال المسرحية ، إلى المرتبة التالية لمرتبة شكسبير وجونسون . كان فلتشر ابن أحد أساقفة لندن ، وابن أخ أو ابن عم لثلاثة شعراء من طراز متواضع ، فوضع الشعر وتربى على القوافي ، وأضاف هو إلى هذا التراث ما كسب من ميزة اشتراكه مع شكسبير في « هنري الثامن » ، « القريبان النيبيلان » ، ومع ماسنجر في « الخورى الأسباني » ، واشتراكه بأعظم النجاح مع فرانسيس بومونت .

ومن هذا الطرز أيضا ولد فرانك . وكان ابنا لأحد القضاة البارزين ، واخا لشاعر صغير الشأن ، ولد قبله بعام ومهد له طريق الحياة . وأخفق بومونت في اتمام دراسته في أكسفورد أوفى أحد معاهد الحقوق The Inner Temple وحاول أن يجرب قلمه في شعر المرح ، وانضم إلى فلتشر في كتابة الروايات . وشارك الأعزبان الوسيان الواحد منهما الآخر ، في الأكل والنوم ، والأمتعة والملابس ، والتحليلات والأفكار ، أو كما قال أوبري « كانت ثمة امرأة شركة بينهما ، وكان ثمة تشابه غريب في أفكارهما وصورهما الذهنية » (٢٣) . وتعارن الاثنان على مدى عشر سنوات في إخراج روايات مثل The Malds' Tragedy, Loves Liesa - Bleeding, Philaster The Knight of the Burning Pestle والحوار قوى ، ولكنه عاصف طنان ، وحبكات الرواية متشابكة تشابكا بارعا ، ولكن حل عقدها كان متكلفا . وقل أن ارتقى التفكير إلى مستوى الفلسفة . ومع ذلك فإن هذه الروايات كما يؤكد لنا دريدن — كان لها في أواخر القرن ، من الشعبية على المسرح ، ضعف ما كان لروايات شكسبير (٢٤) .

وتوفى بومونت في سن الثلاثين ، في العام الذي توفى فيه شكسبير ، وبعد ذلك كتب فلتشر بمفرده أو مع آخرين ، سلسلة طويلة من الروايات الناجحة التي جر عليها النسيان ذيوله ، ونبتت ملهاة من رواياته التي قامت على دسائس ملتوية صاخبة مرحة ، نبتت من نماذج أسبانية ، كما أنها بدورها — بتركيزها على الزنى — مهدت للمسرحية في « فترة عودة الملكية » . ولما تعب من هذه المناظر الدامية أو الداعرة ، أخرج في (١٦٠٨) رواية رعوية « الراعية المخلصة » خالية من الهراء والحمق ، مثل

رواية شكسبير « حلم ليلة منتصف الصيف » . بل أنها تنافسها أحيانا من حيث
الشعر . فان كلورين ، بعد أن مات حبيبها الراعى تأوى إلى كوخ رينى بسيط
بالقرب من مقبرته وتقطع على نفسها عهدا ألا تبرحه حتى يوافيها الأجل المحتوم :

سلاما أيتها الأرض المقدسة التى تحتضن بين ذراعيها الباردتين ،
أصدق رجل أطعم قطعانه على سهول تساليا الدسمة المثمرة ،
وهكذا أحبي جدتك ، وأوى بنذورى الأولى ، وأقدم نظرات
الأكبار والاجلال لرفاتك التى لاتزال موضع حبي . وهكذا
أحرر نفسى من دفء وحرارة أى حب ينشأ من بعدك ، وأودع
كل رياضة أو بهجة أو ألعاب سارة ، يعتز بها الرعاية . ولن يتوج
بعد الآن جبينى بالأكاليل الغضة النضيرة ، لأتصدر حلبة
الرقص . ولن أفرح أو أتهج بعد اليوم بصحبة الغادات اليانعات
والرعاة المرحين ، ولا بصوت المزمار ذى الأنغام العالية السارة فى
واد ظليل ، حين يداعب النسيم العليل الأغصان ، ولسوف أكون
بمناى عن هذا كله ، مادمت أنت نأيت عني ، يامن كنت أجلس
كثيرا إلى جواره السعيد متوجة بالأزهار الناضرة ، بوصنى ملكة
الصيف ، على حين يرتدى صببية الرعاية اللون الأخضر الزاهى
المفعم بالحياة ، مع المنجل المزوق . والحقيبة المتدلية المصنوعة
من الجلد الناعم الجميل . ولكنك وليت ، وقد ولت هذه
كلها معك ، لقد فنى كل شيء ، اللهم إلا ذكراك العزيزة ،
التي سوف تبقى من بعدك ، والتي سوف تنمو وتنتعش ، طالما
كانت هناك مزامير تصرخ أو رعاة مبهجون يغنون .

وألقيت هذه القصيدة الرعوية مرة واحدة ثم اختفت من المسرح . وأى
حظ من الطهارة والعفة لمثل هذه التسيبحة ، فى عصر لا يزال يجيش بانفعالات
عهد اليزابث ؟

أما أقوى الكتاب المسرحيين في عهد جيمس وأسوأهم ، فهو جون وبستر . ونحن لانكاد نعرف شيئا عن حياته ، وهي في الحقيقة مجهولة . ونحن نستنتج حالته النفسية من مقدمة أحسن رواياته « الشيطان الأبيض » (١٦١١) حيث يطلق على جمهور المشاهدين « الحمير الجهلة » ويشهد مقسما بأغلظ الأيمان « بأن الأنفاس التي تخرج من الجمهور العاجز كفيلا بأن تسمم أعرق مسرحية مأسوية . والرواية هي قصة فكتوريا أكورامبوني ، التي هزت آثامها وعماكتها كل إيطاليا (١٥٨١ — ١٥٨٥) أيام طفولة وبستر . ونحن فكتوريا بأن دخل زوجها لايتفق مع جمالها ، فتستجيب للملاطفات دوق براتشيانو الثرى ، واقترح بأن يعمل هو على التخلص من زوجها ومن زوجته ، فيولى المونوع عنايته على الفور ، بمعونة أخ قواد فاجر لفكتوريا هو فلامنيو الذى كان يقدم لمثل هذه الجرائم أشد الأشعار سخرية في الأدب الانجليزى . وقبض على فكتوريا للاشتباه فيها ، ولكنها ندافع عن نفسها في جرأة وبراعة إلى حد يجعل أى محام يفزع من لغته اللاتينية وأى كاردينال من قلنسوته . ثم اختطفها براتشيانو من بين يدي العدالة . فطورد الاثنان وأخيرا ، قتل الاثنان مع من كانوا يتعقبونهما ، قتلة مفاجئة مثيرة أشبعت رغبة وبستر إشباعا تاما طيلة سنة كاملة ، لقد عولجت حبكة الرواية علاجا حسنا ، ورسمت الشخصيات رسما متماسكا متناغما . وكانت اللغة غالبا قوية أو كريهة ، والمناظر العصبية قوية . وارتفع الشعرأ-ين إلى مستوى فصاحة شكسبير . ولكن الرواية بالذبة للدوق الذى أصابته المادية بالوسوسة وشدة الحساسية ، شوتهما فظاظة فلامنيو المتكلمة . وحيته الحقيرة البائسة ، كما شوتهما اللامعات والشتائم الى اسباب حتى « من أرق الشفاه . » « أواه : لو أنى أستطيع قتلك أربعين مرة في اليوم الواحد ، وأفل هذا أربع سنوات سويا ، لكان هذا شيئا قليلا جدا » (٢٥) ، كما كان يشوه الرواية الفحش المنتشر فيها ، حيث ترددت لفظة « البغى » في كل صحيفة ، أخرى ، ثم الألفاظ المزدوجة المعانى التى ربما نحجل منها شكسبير نفسه .

وعاد وبستر إلى الأرض المخضبة بماء القتلى في رواية « دوق لوى » (١٦١٣) فإن فرديناند دوق كاليريا ، يحرم على دوقه أمانى . أخته الشابة الأرملة الزواج

مرة ثانية ، لأنها إذا ماتت بلا زوج ، فإن أخاها الدوق يرث أموالها . فترثي الدوقة
للطهارة المتكلفة التي أكرمت عليها :

إن الطيور التي تعيش في المروج وفق هوى
الطبيعة الجاحمة ، تحيا حياة أسعد من
حياتنا ، حيث تستطيع أن تخسار رفيفاتها
وتشدو بألحانها العذبة للربيع (٣٦) .

واستبدت بها الشهوة والحلمان ، فأغرت قهرمانها أنطونيو بالزواج سرّاً ،
وبمضاجعة عاجلة . فدبر أخوها فرديناند قتلها . وفي الفصل الأخير نرى شخصاً
يقتل في كل دقيقة تقريباً ، فالأطباء يستعدون بالسموم ، والمتوحشون بخناجرهم ،
ولم يتذرع أحد بالصبر انتظاراً لقصاص عادل أو حكم مشروع . أما أسوأ الأشرار
الأوغاد في الرواية - الذي قتل الدوقة واستولى على ممتلكاتها ، واتخذ له خلية ثم
قتلها - فهو كاردينال ، ولم يكن وبستر من أنصار البابوية . وهنا أيضاً توجد
توريات في صراحة بالغة ، وتصميم على استنفاد ألفاظ اللعنة والبغض ، واستنكار
وحشي مشوش لحياة الإنسان . وترى شيئاً من النبيل أو الإخلاص أو الرقة في الأركان
السحيقة لهذه الحلبة المظلمة ، فان فرديناند ينسى نفسه ، ويتسم بالشفقة لبعض
الوقت ، وهو ينظر إلى أخته التي لا تزال جميلة في رقدة الموت .

« غطيا وجهها ! عيناى تنهران ! لقد ماتت في عنفوان شبابها (٣٧) !

ولكن سرعان ما يستعيد وحشيته .

ولنأمل في شيء أعذب وأحلى من هذا كله عند الرجل الذي كتب « اشربي من

أجلى أنا وحدي ، بعينيك » . Drink to me only with thine Eyes

٥ - بن جونسون : ١٥٧٣ ؟ - ١٦٣٧

ولد في وستمنستر بعد وفاة أبيه بشهر واحد ، وعمد تحت اسم بنيامين جونسون ؛

وأسقط من اسمه حرف الباء تمييزاً لشخصه ، ولكن دور الطباعة ظلت تستخدمه ،

ولمّا مات ، حتى ١٨٤٠ ، ولا زال يظهر على لوحة معانة على جدران كنيسة وستمنستر . وكان الزوج الأول لأمه قسيساً . وكان زوجها الثانى بناء بالأجر . وكانت الأسرة فقيرة معدمة . وكان على بن أن يشق طريقه إلى التعليم بصعوبة بالغة . وما كانت إلا الشفقة التى ملأت قلب صديق بصير لتزوده بالمال ليلتحق بمدرسة وستمنستر ، وساقه حظه إلى الوقوع تحت إشراف « وكيلها » المؤرخ العالم الأثرى ولیم كامدن ، وإنصرف إلى الدراسات النديمة ، مع عداة أقل من العادى ، وأحب شيشرون وسنكا ، وليفى وتاسيتس ، وكونتليان ، وزعم بعد ذلك ، ووضح أنه « على حق — » أنه يعرف من اليونانية واللاتينية أكثر من شعراء إنجلترا جميعهم (٢٨) على أن « مرحة » السريع الاهتياج والإثارة ، وعالم لندن الحشن العنيف بلا حدود ، هما اللذان حالا دون أن يدمر تعليمه فنه .

وبعد تخرجه فى وستمنستر التحق بكمبريدج حيث « بقى — كما يقول أول مؤرخ لحياته — أسابيع قليلة ، لحاجته إلى مورد رزق آخر (٢٩) » ، وأراد له زوج أمه أن يكون صى بناء ، وقد نتخيل بن جونسون وهو يتصبب عرقاً ويضطرب لمدة سبع سنين دأباً ، وهو يرص الطوب ويفسك في الشعر . ثم فجأة خرج إلى الحرب ، وانساق في تيارها ، واندفع إليها بنشاط وحيوية أكثر منه إلى صناعة البناء . وخدم في الأراضى الوطیئة ، وبارز جندياً من الأعداء ، نصرته ، وسلبه ما معه ، وعاد إلى الوطن يروى قصصاً مفصلة . وتزوج وأنجب أطفالاً ، وارى منهم التراب ثلاثة أو أكثر . ووقع الشجار بينه وبين زوجته ، فهجرها لمدة خمس سنوات ، ثم عاد وعاش معاً عيشة ينقصها الوفاق والانسجام حتى ماتت . ولا تعرف كليمو نفسها كيف كان بن جونسون — زوجها — يدبر معاش الأسرة .

ويكون السر أعظم حين نعلم أنه أصبح ممثلاً (١٨٩٧) ، ولكن تفجرت منه أفكار مشرقة وأشعار ابقة . واهتز فرحاً حين دعاه توم للمشاركة في رواية « جزيرة الكلاب » ولا شك في أنه حمل نصيبه من المساوية في « المادة المثيرة للفتنة والتى تتضمن قلداً وتشويهاً للسمعة » التى وجدها مجلن الشورى في الرواية . وأمر المجلس بوقف التمثيل وإغلاق المسرح والقبض على المؤلفين . أولناش الذى كان خبيراً

عتيقاً يمثل هذه المآزق ، فقد قضى نحبه في يارموث . ووجد جونسون نفسه في السجن ، ولما كان نظام السجن يقتضيه أن يدفع نفقة طعامه وإقامته وأصفاده فقد افترض أربعة جنينيات من فيليب هنسلو ، فلما أطلق سراحه انضم إلى فرقة هنسلو (وشكسبير) المسرحية (١٥٩٧) .

وبعد سنة ، كتب ملهاته الهامة الأولى : « Everyman in his humour » ورأى شكسبير يمثل فيها في مسرح « الجلوب » . ومن الجائز أن المؤلف المسرحي العظيم (شكسبير) لم يستغ مقدمة الرواية التي اقترحت — على الرغم من النموذج السائد — اتباع الوحدات الكلاسيكية ، أو التقاليدية القديمة ، وحدة العمل والزمان والمكان ، لا أن :

تجعل طفلاً . ملفوفاً الآن في قماطه ، ينهض حتى يستوى رجلاً ويطوى ، بلحية وملابس حداد . ستين عاماً مضت ، إنك سوف تسر اليوم إذ تشهد رواية يجب أن تحتذى مثالا كل الروايات . رواية ليس فيها كورس ينطلق بك فيما وراء البحار ، ولا عرش ينهار . مما يفرح له الأولاد . . . بل فيها أعمال ، ولغة مثل تلك التي يستخدمها الناس ، وأشخاص ممن يجب أن تنتقهم الملهاة ، إذ كان لها أن تصور الزمان ، وتسلي الناس بنجاحات الإنسان لا بالخرام .

وهكذا أثار جونسون ظهره للمزاح أو الهزل الارستقراطي في ملهيات شكسبير الأولى ، وللجغرافيا والكرونولوجيا وتعيين تواريخ الأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمني الخارقين في المسرحية « الرومانتيكية » . وأتى بأكواخ لندن إلى المسرح ، وتخلّى عن ثقافته ومعرفته الواسعتين الخارقتين ليبرز إبرازاً مشهوداً لمجرات الطبقات الدنيا وأساليبها . وكان أبطال الرواية روماً وكاريكاتورية أكثر منها ابتكارات فلسفية معقدة . ولكنهم يعيشون . وكانوا نافهين لا قيمة لهم ، ولكنهم من بنى الإنسان ، ولم يكونوا معقولين ولا مهذبين ، ولكنهم لم يكونوا قلة ولا سناحين .

وكان اللاتينيون قد استخدموا لفظة Umor لتعني « الرطوبة » أو السائل ، كما استخدمت تقاليد أبقراط الطبية لفظة Humor لتدل على أربعة سوائل في الجسم — الدم ، البلغم ، الصفراء السوداء ، والصفراء الصفراء . وتبعاً لغلبة الواحدة أو الأخرى من هذه المواد في جسم الانسان، كان يقال إنه ذو « مزاج » دموى ، (متفائل) ، أو بلغمى (بارد) ، أو سوداوى (مكتئب) ، أو صفراوى (سريع الغضب) أما جونسون فقد حدد تفسيره لهذا الاصطلاح :

عندما تتملك إنساناً صفة بعينها ، وتسيطر على كل أحاسيسه وأنشطته وقواه ، حتى تسير كلها في اتجاه واحد — فهذا ما يمكن أن يقال عنه بحق « المزاج » (Humour)^(١٠)

وظهرت الكلمة في التصوير المرح للكاتبين بوباديل ، وهو يتحدث مباشرة من رواية باريس « المحاربون الأحماد » ، ولكنه يعمد مورا « بمزاجه » الخاص به المميز له ، ومرحه غير الواعى — فهو دوماً شجاع إلا عند الخطر ، مندفع إلى القتال إلا عندما يتحداه أحد ، فهو رب السيف المكنون في عنقه .

واستقبلت الرواية استقبالا حسنا ، وكان في مقدور بن الآن أن يغمس في حماقات الشباب وشهواته على نطاق أوسع ، وكان فرحا بالثقة ، مزهوا بأنه شاعر يتحدث إلى اللوردات في أنفة وكبرياء ، ويقف راسخ القدمين ، يتعجل التمتع ويستسيغ الصراحة والمرح الصاخب ، ويغوى النساء من آن لآن ، ولكنه أخيرا (كما قال لدروموند) « آثر جور الزوجة على خفر الحليلة »^(١١) — وهجر التمثيل ، وعاش عيشة طائشة على قلمه ، وازدهر لبعض الوقت بتأليف التمثيلات التنكيرية للبلاط ، وتلاءمت الأشعار الخيالية التي نظمها مع المناظر التي صممها جوز ، ولكن بن كان حاد الطبع ، فكثرت مشاجراته . ففي عام نجاحه الأول اشتبك مع أحد الممثلين ، وهو جيرييل سبنسر ، وبارزه وقتله ، فأودع السجن بتهمة القتل (١٥٩٨) . وما زاد الطين بلة ، أنه ارتد إلى الكاثوليكية في السجن ، ولكنه مع ذلك حوكم محاكمة عادلة ، وأجيز له أن يدفع « بالحصانة الكليريكية » لأنه تلا « المزامير » باللاتينية « كما يفعل رجل الدين » . وأطلق سراحه

بعد أن وشم إبهامه بحديد محمى بحرف T ، حتى يمكن في الحال اكتشاف أنه مجرم عائد ، إذا ارتكب جريمة القتل مرة ثانية ، وظل بقية حياته مدموغا بأنه مجرم .

وبعد سنة قضائها مطابق السراح أعيد إلى السجن من أجل دين عليه لم يسدده . ومرة أخرى أطلق سراحه بكفالة هانساو . وفي ١٦٠٠ سعى جونسون وراء تسديد ديونه بكتابة رواية Every Man out of His Humour . وأثقل الملهاة باقتباسات زخرفية كلاسيكية ، وأضاف إلى أشخاص المسرحية ثلاث شخصيات استخدمت كفرقة للتعليق على الأحداث ، وأمطر بوابل من المذمة والقذح ، البيوتانيين الذين « كان الدين بين طيات ثيابهم » ، والذين حلقوا شعر رؤوسهم أقصر من شعر حواجبهم » ولوح بمعرفته وعلمه للكتاب المسرحيين الذين كانوا يحطمون « وحدات أرسطو » . وبدلاً من الروايات الرومانتيكية المستحيلة الحدوث حول اللوردات الذين لا يصدق وجودهم ، عرض جونسون أن يكشف للنحن عن ذاتها بلا هوادة ولا رحمة :

فليواجهوا مرآة كبيرة قدر كبر المسرح الذي تمثل عليه ،
واسوف يرون فيها علل العصر ونقائضه . مثرحة تشريحا
دقيقا مفصلا في كل ناحية فيها ، في شجاعة لاتين
ولا تفتر . وفي ازدراء لأى خوف (٥٢)

وصنعت رواية من العداوات أكثر مما جلبت من أموال . وليس من يوصى اليوم بقراءتها . ولما لم يكن جونسون راضيا عن جمهوره الصاخب في مسرح الجلوب ، فإنه كتب ملهاته الثانية Cynthia's Revels (١٦٠١) لفرقة من اثنين الشبان ونخبة صغيرة من الجمهور في مسرح « Black Friars » ، وأحسن ذكروا رسون أن الرواية تناولتهما بالهجاء . ولما استشاطت فرقة تسميرلين غضبا لمنافسة أولاد مسرح « Black Friars » لها ، أخرجت في ١٦٠٢ رواية ذكر « Satiromastix » (ضرب المؤلف الهجاء بالسياط) وفيها تشهير بجونسون بأنه سفاح وبناء تافه مغرور متعذلق ، جسمه مليء بالبثور . وانتهى الشجار بتبادل المديح وتقارض الثناء : وابتسم الحظ

لبعض الوقت . واستضاف أحد المحامين الناهين بن جونسون في بيته وأرسل ارن
ممبروك إلى الشاعر عشرين جنيا « ليشتري بها كتابا (١٣) » . وما أن أصبح في أمان
من الفقر والحاجة حتى أمسك بالقلم محاولا تأليف « مسرحية مأساوية » ، موضوعها
« سيجانوس » الصديق الشرير الأثير لدى تيديريوس . واعتمد في روايته بدقة
على كتابات تاسيتس وسوتونيوس وديو كاسياس وجوفينال ، وأخرج تحفة رائعة
ثقافية فيها بعض مناظر مؤثرة (الفصل الخامس — ١٠ مثلا) وأبيات من الشعر
الرائع . ولكن جمهور المشاهدين كره الخطب الطويلة والتوجيه الأخلاقي الممل
النادر عن شخصيات تعوزه الحيوية . وسرعان ما سحبت الرواية من المسرح .
وطبع جونسون النص ، وأورد على الهامش مراجعه القديمة مع بعض ملاحظات
باللاتينية . وتأثر لورد Aubigny ، فهيا للمؤلف الخزون مأوى آمنا لمدة
خمسة سنوات .

وعاد جونسون إلى الحلبة في ١٦٠٥ بأعظم رواية له « Volpone — أو
الثعلب » ، هاجم فيها ، في دماء مقنذ شهوة انزال التي اجتاحت لندن ؛ وكما هو
مألوف في الملهاة — من عهد بلوتس إلى رواية The Admirable Crichton —
فان محور الرواية هو خادم ماهر . ويحضر الخادم موسكا (ذبابة بالايطالية) إلى
سيد البخيل فولبون (الثعلب) الذي يدعى أنه مريض مرضا شديدا ، مجموعة من
صيادى الميراث الوصيصة — فولتوز : زهر ، ثم كورباتشيو : غراب ، ثم
كورفينو : غراب أسحم — وكل منهم يترك للسيد المريض (الثعلب) هدية ثمينة ،
على أمل أن يسمي وريثا له . ويتقبل « الثعلب كل هدية بمنع جشع ، إلى حد
استعارة زوجة كورباتشيو لليلة واحدة . وينتهي الأمر بأن يخدع الخادم موسكا سيده
فولبون حتى يعينه هو وريث وحيدا له . ولكن بوناريو (الطبيعة الطيبة) ،
يكشف الحياة ، ويرسل مجلس السناتو في البندقيصة كل الممثلين تقريبا إلى
السجن . وجعلت هذه المسرحية . آخر الأمر . رواد مسرح الجلوب يركعون بين
يدى جونسون .

وسرعان ما انتقل من نجاح إلى محنة . فقد اشترك مع مارستون وتشامان في

سرحية **Eastward ho** (١٦٠٥) واعتقلت الحكومة المؤلفين على أساس أن الملهاة أساءت إلى الاسكتلنديين : وهدد المعتقون بقطع أنوفهم وآذانهم ، ولكن أفرج عنهم دون أن يمسوا بأذى ، واشترك بعض ذوى المقامات الرفيعة — مثل كامدن وسلدن — فى المأدبة التى أقامها الثالث الذى استرد حريته . ثم ، فى ٧ نوفمبر ١٦٠٥ . استدعى جونسون إلى مجلس الشورى ، باعتباره كاثوليكيًا يمكن أن يكون لديه معلومات عن مؤامرة البارود . وعلى الرغم من أنه كان قد تناول العشاء مع المهر الرئيسى كاتسبى ، قبل ذلك بشهر ، فإنه تفادى كل تورط فى المسألة . ولكن فى ٩ يناير ١٦٠٦ . دعى إلى المحكمة بوصفه متمردًا مخالفًا للقانون . ولما كان فقيرًا معدما إلى حد لا يستطيع معه دفع غرامة مجزية ، فإن المحكمة لم تتشدد فى الاتهام . وفى ١٦١٠ ارتد إلى المذهب الأنجليكاني ، فى حماسة بالغة إلى حد أنه أتى على كل مافى كأس التبيذ حين جلس إلى « العشاء الربانى » (١٤)

وفى تلك السنة أخرج أشهر مسرحياته « الكيمياء القديم **The Alchemist** » ، وهجا فيها ، لا مجرد الكيمياء القديمة (محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب) ، وهذه مسألة تافهة ، بل هجا كذلك ألوانا كثيرة من الدجل والخداع التى غزت لندن بالمشعوذة . إن سيرابيقور مامون واثق من أنه وقف على سر الكيمياء القديمة فيقول :

« الليلة سأحول كل مافى يبنى من معدن إلى ذهب ، وفى الصباح الباكر أرسل إلى كل المشتغلين بالقصدير والرصاص ليبيعونى مألديهم من هذا وذاك ، وأرسل إلى لوثرى من أجل كل مافىها من نحاس وسوف أشتري ديفونشير وكورنوال ، وأجعلهما مثل جزر الهند الشرقية تماما . فلنأى أريد أن يكون لى من الزوجات والتحليلات مثل ما كان لسليمان ، الذى كان عنده خاتم مثل ماعندى . وسيكون لى بفضل لكسير الحياة

ظر قوى صلب مثل هر كبوليز ، فأصرع من الأعداء خمسين
فى الليلة الواحدة . أما المتملقون لى فسيكونون من الكهنة ،
الأطهار الوقورين ، الذين يمكن أن أستحوذ عليهم بمالى
وسيقدم لى اللحم فى أصداف هندية وأطباق مصنوعة من
الذهب ومرصعة بالعقيق والزمرد والصفير والياقوت الأزرق
والأحمر . أما السنة الشبوط (سمك نهري) ، والسنجاب ،
وكعوب الأهل ... والفطر العتيق ، والصدور المكسوة بالدهن
لخنزيرة سمينة حامل ، والى قطعت لتوها ... فسأقول عنها
لطباخى « هاك الذهب » فتقدم ، ولتكن فارسا (٥) :

وقلما كان سيرايقور تافها ، ولكن بقية أشخاص الرواية كانوا حثالة ، وكان
كلامهم بغضبا بما احتوى من معالجة موضوعات الدعارة القذرة ، وإنه لما يدعو
إلى الأسى والحسرة أن نرى بن المثقف خبيرا بهذا الغناء وتلك النفاية ، وبلغة
الأكواخ واللصوص والمتشردين . وهاجم البيوريتانيون مثل هذه الروايات تجاوزا ،
فانتقم منهم جونسون بتصويرهم فى صور كاريكاتورية ساخرة فى رواية
The Bartholomew Fair ١٦١٤ .

وأخرج مسرحيات هزلية أخرى كثيرة مفعمة بالحياة ممثلة بالعكارات
وتمرد هو نفسه فى بعض الأحيان على واقعيتها الخشنة ، فى مسرحية « الراعى
الحزين » وأطلق لخياله العنان ليسرح دون مبالاة :
إن وطء أقدامها لا يثنى ورفة عشب ،
أو يهز الطائر الأزغب فى عشه
ولكنها مثل الرياح الغربية الخفيفة انطلقت مسرعة
وحيثما ذهبت تعمت جذور الأزهار
وكأنما زرعتها بأقدامها العطرة (٦) .

ولكنه ترك الرواية دون أن يكملها ، وقصر رومانتيكته ، (أو خياله

وعواطفه) بقية حياته . على أغنيات رقيقة تناثرت في ملهائاته ، مثل الجواهر وسط
القاذورات ، من ذلك أنه في ملهاة « الشيطان حمار The Devil is an Ass »
(١٦١٦) ، يغنى فجأة :

هل شهدت الا سوسنة متألفة تنمو
قبل أن تمسها الأيدى الخشنة ؟

هل شهدت إلا تساقط الثلوج
قبل أن تلتطخها التربة ؟

أولم تلمس فراء السمور
أو ريش البجعة قط ؟

وهل نشقت رائحة براعم الورد البرى
أو رائحة التاردين ودويحترق ؟

وهلا تذوقت شهد النحلة ؟

أوه ! يا لبياضها ، أوه ! يالرقها ، أوه ! يا لحلاوتها ؟

وأجمل من هذا بالطبع ، أغنية « إلى سليا To Celia » التي سرقها
من اليونانية من فيلوستراتوس ، وحولها بدقة وبراعة إلى « اشربى من أجلى أنا
وحدى بعينيك » .

وبعد موت شكسبير أصبح جونسون الرئيس المعترف به لجماعة الشعراء .
وأصبح شاعر البلاط غير المتوج في إنجلترا — ولو أنه لم يعين رسميا ، ولكن
الحكومة اعترفت به في معظم الأحوال ، ومنحته معاشا سنويا قدره مائة قطعة ذهبية ،
وأدرك الأصدقاء الذين التفوا حوله في حانة مرميد أن طبيعته الطيبة الخافتة تخفى
وراء مزاجه الحاد ولسانه السليط ، فأفادوا من حديثه المثمر ، وهياؤوا له أن يلعب
دور الزعامة كما كان الحال مع سمييه في القرن التالى .

وكان بن آنذاك بدينا ، كما سيكون الحال مع سمييه صمويل جونسون فيما بعد ،
وما كان أكثر وسامة ولارشاقة ، وكم حزن على « كرشه الفظيع » ووجهه المتجمع

المملوء بالبشور نتيجة الأسقربوط . وقل أن زار صديقا دون أن يكسر كرسيا . وفي ١٦٢٤ نقل الندوة إلى « حانة الشيطان Devil Tavern » في شارع فليت . وهناك التقى بانتظام مع جماعة نادى أبوللو الذى كان قد أسسه هو من قبل . ليتزودوا بالطعام والشراب والدعابة وثمار الفكر ، وكان لجونسون مقعد مرتفع في أحد طرفي الغرفة له درابزين يؤدى بجسمه الضخم إلى العرش . وجرى العرف على تسمية أتباعه « قبيلة بن » ، وكان من بينهم جيمس شيرلى وتوماس كارو وروبرت هرك . الذين سموه القديس بن (٢٧) .

وكان جونسون في حاجة إلى صبر أيوب ، وهو غير مفطور على الصبر ، ليحتمل الفقر والمرض في السنين التي كان يتحطم فيها . وقدر أن كل رواياته لم تدر عليه إلا مبلغا يقل عن مائتي جنيه كان ينفقها بسرعة ، ويتصور جوعا طيله الأيام التي لا يعمل فيها . وكان يفتقر إلى شيء من الحاسة أو الخبرة المالية التي جعلت شكسبير خبيرا في إقتناء الأملاك الثابتة أو العقار ، وتابع شارل الأول صرف المعاش المخصص لجونسون ، ولكن عندما خفض البرلمان المخصصات الملكية . لم يكن المعاش يدفع دائما . على أن شارل أرسل إليه مائة جنيه في ١٦٢٩ وقرر رئيس كنيسة وستمنستر وجماعة الرهبان فيها خمسة جنيهات «لمستر بنيامين» جونسون في أيام مرضه وفااته (٨) ولم تصب رواياته الأخيرة أى نجاح ، وذبلت شهرته ، وأختفى أصدقاؤه ، وقضت زوجته وأولاده نحسهم ، وما جاءت سنة ١٦٢٩ حتى عاش وحيدا قعيدا ، ملازما الفراش بسبب الشلل ، مع سيدة عجوز تتولى العناية بأمره . وظل يعاني من المرض والفقر ثمانى سنوات أخرى ، ودفن في وستمنستر ، ونقش جون يونج على حجر يواجه القبر . العبارة المشهورة :

« أى بن جونسون الفذ »

ولم يبق منها إلا الكلمتان الأوليان . ولكن أى انجليزى مثقف . تعلم يستطيع أن يكمل العبارة

٦ — جون دون ١٥٧٣ — ١٦٣١

في مؤتمر هامبتون كورت اقترح مندوب بيوريتانى ترجمة جديدة للكتاب المقدس

فاعترض أسقف لندن بأن الترجمات الموجودة صالحة تماماً . فقاطعة الملك جيمس وأمر بأن تتخذ إجراءات خاصة لترجمة رسمية موحدة يقوم بها أفاضل العلماء في كلتا الجامعتين ، ويراجعها الأساقفة ثم تقدم إلى مجلس الشورى ، ثم يعتمدها الملك حتى يمكن تلاوتها دون غيرها في كل الكنائس (١٩) . ونهض بهذه المهمة سير هنرى سافيل وستة وأربعون عالماً آخرون ، مستندين إلى ترجمات ويكلف وتندال القديمة ، وأنجزوا عملهم في سبع سنين (١٦٠٤ - ١٦١١) وأصبحت هذه الترجمة المعتمدة « رسمية في ١٦١١ ، وكان لها أثرها البالغ على الحياة والأدب الحديث في إنجلترا . ودخل إلى اللغة الانجليزية من هذه الترجمة ألف من العبارات البليغة ، وكان تقديس الانجيل آنذاك قويا جداً في هذه البلاد البروتستانتية ، ولكنه الآن تزود بدفعة جديدة من القداسة والاقبال عليه في إنجلترا ، كما إزدادت معرفة البيوريتانيين ثم الميثوديين ثم الكويكرز بنصوصه والتعبد به ، بشكل لا يعدله إلا حب المسلمين للقرآن الكريم وتمسكهم به . وكان أثر الترجمة على أسلوب الأدب الإنجليزي مفيداً كل الفائدة ، فقد وضعت حداً للتعقيدات الطويلة الغريبة في النثر الإنجليزي في عهد الزباث ، وانتهت به إلى جمل قصيرة قوية واضحة طبيعية وأحلت محل المصطلحات والتراكيب الأجنبية ألفاظاً أنجلوساكسونية واصطلاحات انجليزية مفعمة بالحياة . وكان فيها ألف من الأخطاء العلمية ، ولكنها حولت العبرية الرفيعة واليونانية العادية في الكتاب المقدس بقسميه إلى أروع تحفة في النثر الإنجليزي .

وثمة مؤلفان آخران من النثر الرفيع ميزا هذا العصر . كتاب سير والتر رالي « تاريخ العالم » (وهو ثانيهما في الظهور) ، وكتاب روبرت بيرتون « تشريح الكتابة Anatomy of Melancholy » (١٦٢١) (*) - وهو المرجع الضخم الذي وضع فيه قسيس سان توماس في أكسفورد نبذاً مما جمعه من المعلومات اللاهوتية

(*) اكتسب بعض النثر العادي منزلة تاريخية : من ذلك نشرات الاخبار التي كانت تملأ لندن في أيام جيمس ، والتي تدرجت في ١٦٢٢ حتى أصبحت أول صحيفة إنجليزية باسم « الانباء الاسبوعية »
" The Weekly News

والتنجيمية ، والقديمة والفلسفية . وحسب أساتذة الجامعة أول الأمر أنه « مرح فكه ظريف » ولكنه أصبح في حياته فيما بعد مكتئبا إلى حد أنه لم يكن يسره ويسعده إلا بذاعة بحارة الزوارق في نهر التاميز (٥٠) . وللتخلص من كآبته « التهم » « بيرتون » « المؤلفين » الذين أمدته بهم مكتبة بودليان . وفي هذه الكتب وفي مخطوطه وفي علم التنجيم وفي الخدمات الكهنوتية : قضى أيامه الكثيرة ولياليه المستلثة بالنجوم . وحسب طالعها الخاص ، وتنبأ باليوم الذي سيوافيه فيه الأجل اغتوم بدقة : إلى حد أن تلاميذ اكسفورد ارتابوا في أنه شق نفسه ليثبت أنه يعلم الغيب (٥١) .

أنه نشيط مفعم بالحياة في كتابه . ولما شرع في فحص وسواس المرض عنده ووصف العلاج له ، وجد أن الاستطراء ألطف من خطته . وبالمرح الشاذ ، الذي يشبه مرح رابليه في موضوعاته غير المطروقة ، ناقش كل شيء عن غير قصد كما كان يفعل مونتاني ، ويتبل صفحاته هنا وهناك بشيء من الثلاثينية واليونانية ، ويغرى قارئه شيئا فشيئا بشكل لطيف ، إلى لا شيء ، وهو لا يدعى الأصالة ، ويشعر بأن كل التأليف سرقة : « ما أرانا نقول إلا ما أدا من لفظنا مكرورا . وربما كان الانشاء والمنهج من عندنا فحسب (٥٢) . » ويعترف بأنه عرف الدنيا عن طريق الكتب وعن طريق الأنباء التي تنسرب إلى اكسفورد فحسب .

أنى لأسمع أنباء جديدة كل يوم ، كما أسمع الاشاعات العادية عن الحرب والطاعون والحرائق والفيضانات والسرقات ، وحوادث القتل والمذابح والنيازك والمذنبات والأطياف والأعاجيب والأشباح ، وعن المدن التي تم الاستيلاء عليها . والمد التي حوصرت في فرنسا وألمانيا وتركيا ، وإيران وبرلنده الخ والتجمعات والاستعدادات اليومية وغيره ، مما يتم في هذه الأيام الاصفه : فتنبش المعارك : وينبج كثير من الرجال : كما نسمع عن غرق السفن وأعمال القرصنة والمعارك البحرية : ثم الصلح وتكوين العصبات ، ثم خدع حربية وإنذارات جديدة ، أنها فوضىائلة من العهود

والرغبات والأعمال والقرارات ، والظلامات والقضايا البيئات
والدفوع والقوانين والتصريحات . . . والآراء والانشقاقات
والمرطقات . . . والأعراس ، والمسرحيات التنكيرية وشعارات
الرياء والحفلات ، واحتفالات اليوبيل . . . والحنازات (٥٣)

وأنه ليحس (مثل ثورو) أنه إذا قرأ أخبار يوم واحد ، فقد يكتفى بها
ويأخذها قضية مسلمة بقية العام ، مع مجرد تغيير في الأراء والتواريخ . وهو
يرتاب في أن الانسان سائر على طريق التقدم ، ومع ذلك يقول « لسوف أصنع
يوتوبيا (دنيا مثالية) خاصة بي ... أتحكم فيها بمحض حريتي » ويصفها في تفصيل
خيالى غريب . والواقع ، على أية حال ، أنه كان يؤثر تصفح الكتب في هدوء في
مكتبه ، أو على ضفاف التاميز ، على الانصراف إلى إصلاح البشر . ويقدم له كل
مولف العالم أحسن ما لديهم ، ويثقل كاهله ما يجمع من اقتباسات ، فيعود مكتئبا
مغتما من جديد ، وبعد مائة وأربع عشرة صحيفة ممتلئة ، يعقد العزم على التوصل
إلى أسباب الكتابة ، وهى الخطيئة ، والشهوة الجاحمة ، والافراط ، والشياطين .
والسحرة ، والنجوم ، والامساك ، والاسراف الجنسي ، . . . وأعراضها (أى
الكتابة) ومن بينها : « ربح تقرر في البطن . . . وتجشؤات كريمة . . . وأحلام
مزعجة (٥٤) » . وبعد أن أكمل اثني استطراد ، تراه يصف أنواع العلاج للكتابة :
الصلوات ، الغذاء ، الدواء ، المليينات ، إدراج البول ، الهواء الطلق ، الرياضة ،
الألعاب ، الحفلات المسرحية ، الموسيقى ، الصحبة المرحية ، النبيل ، النوم ، فصد
الدم ، الاستحمام . ثم يستطرد من جديد ، إلى حد أن كل صحيفة تغدو نجية للآمال
ومراحة معا — إذا توقف سير الزمن .

أما في الشعر فقد اختفى شعراء « السونيت » ، وظهر « شعراء ما وراء الطبيعة » :
ريتشارد كروشو ، أبراهام كاوى ، جون دون ، جورج هربرت — الذين عبروا
في جمل وديع ، عن الهدوء والتقوى في بيت الكاهن الأنجليكاني ، ولقد ساهم
صمويل جونسون « ميتافيزيقيين » ، من ناحية واحدة فقط ، لأنهم نزعوا إلى
الفلسفة واللاهوت والجلد ، وأساسا لأنهم اختاروا عن ليلى ، أوجونجورا ، أو
البلياد — أساوبا يتميز بالبدع والتزوات اللغوية ، والذكاء اللفظى والتركيبات

المعقدة ، والمقتطفات الكلاسيكية ، والغموض المتكلف . على أن شيئاً من هذا كله لم يحل دون أن يكون « دون » أرق شعراء العصر .

وعاصر جون دون — مثل جونسون وتشابمان — ثلاثة عهود : ففي عهد إليزابيث كتب في الحب ، وفي عهد جيمس عن التقوى ، وفي عهد شارل عن الموت ؛ ومنذ نشأ كاثوليكياً ، وتعلم على أيدي الجزويت وفي أكسفورد وكبردج ، فقد خبر مرارة الاضطهاد وهذه الاختفاء . واعتقل أخوه هنرى لإيوانه كاهناً محكوماً عليه بالموت ، وقضى هنرى نجه في السجن ، وزاد من اكتئاب جون انصرافه في بعض الأحيان إلى كتابات سانت تريز ولويس دى جرانادا الروحية . ولكن في ١٥٩٢ نبذ عقله الفتى النابض بالحياة ، ما ورد في ديوانته من معجزات وكرامات ، وحام في العقد الثالث من عمره حول المغامرات العسكرية والجنسية وفلسفة التشكك .

ولفترة من الزمن قصر جون دون شعره على الاتصال الجنسي غير المشروع صراحة ، ففي القصيدة رقم ١٧ من قصائده التأملية التي تعرفها الكتابة ، امتدح « أحلى شيء في الحب : التنوع (لذة الهوى في التنقل) :

ما كان أسعد آباءنا في الزمان الأول

أولئك الذين لم يجدوا في تعدد العشاق جرماً (٥٥) .

وفي قصيدته التأملية رقم ١٨ سبح في « الدردنيل بين ستوس وأبيدوس في صدرها » وفي القصيدة رقم ١٩ « إلى حبيبته وهي تأوى إلى مخدعها » نزع عنها ثيابها ، وفي خيال واسع ، طلب إليها : اسمحي ليدي « أن تجوسا حيث تشاءان » : وخلط بين علم الحشرات والعشق ، وحاول أن يبرهن على أنه ما دام أن البرغوث عضهما معاً فإنه قد خلط دمه بدمها فقد تزوجا آنذاك بالدم ، ومن ثم يسرحان في نشوة لا إثم فيها (٥٦) : ولكنه أنخم بالمظاهر فسنمها ، ووجد أنه ليس كريماً منه أن يرتكب الفاحشة مع كرائم السيدات ، ونسى مفاتهن الموقوتة ، ولم يتذكر إلا الحيل التي كن قد تعلمنها من دنيا لا قلب لها ، وصب على عشيقته جوليا أكبر

اللعنات ، ونصح قارئه أن يختار رفيقة طبيعية غير متكلفة لأن « الحب المبني على الجمال ، سريع الفناء مثل الجمال (٥٧) » ثم أنشد مقطوعة شعرية مضادة لفيللون ، ووضع ميثاقاً شعرياً كان كل مقطع فيه يهوى على « العشق » بضرية قاتلة .

وفي ١٥٩٦ أبحر مع اسكس ، وساعد في الحملة على قادس ، وأبحر معه ثانية في ١٥٩٧ إلى جزر الآزور وأسبانيا. ولما عاد إلى إنجلترا وجد وظيفة محترمة ، سكرتيراً لسير توماس أجزتون « حامل الأختام الملكية » ، ولكنه هرب مع ابنة أخيه وتزوجها (١٦٠٠) ، ونشط في أن يعولها بالشعر ، وواتاه الأولاد بمثل السهولة التي واثته بها القوافي . وغالباً ما عجز عن غذائهم وكسائهم ، وساءت صحة زوجته ، وكتب يدافع عن الانتحار . وأخيراً رق قلب سير أجزتون فارسل إلى الأسرة مبلغاً من المال (١٦٠٨) ، ووهبها سير روبرت درورى مسكناً في قصره (١٦١٠) في Drury Lane . ولكن بعد عام واحد فقد سير روبرت ابنته الوحيدة ، فنشر دون ، بلا توقيع ، أولى قصائده العظمى ، رثاء لها ، بعنوان *An Anatomy of The world* ، وفيها ضحكهم من موت اليزابث درورى تضخيماً حتى جعل منه فناء الإنسان ثم الكون بأسره :

وهكذا يفنى العالم منذ اللحظة الأولى

وتدعو الفلسفة الحديدية كل الناس إلى الشك .

وخمد عنصر النار ،

وضاعت الشمس والأرض . ولا يستطيع عقل أى إنسان

أن يوجهه التوجيه الصحيح للبحث عنها .

ويعترف الناس صراحة أن الدنيا قد وُلت ،

على حين أنهم في الكواكب وفي القبة الزرقاء

يلتمسون الكثير من الحديد ثم يرون أن كل هذا

قد انهار من جديد

لقد تفتت كل شيء ، وضاع التماسك ،

كل الزاد الكريم ، وكل علاقة (٥٨) .

وهكذا. حزن لأنه يرى كيف أن هذه الأرض « عرجاء مشلولة » . وكانت يوماً مشهد الافتداء السماوى ، والآن فى الفلك الحديد ، مجرد « ضاحية » للعنفا . وفى إحدى حالاته النفسفة نراه ففمجد « الظمأ المقدس إلى العلوم » . وفى حالة أخرى ففساءل فففعجبأ هل سفففف العلم بالفنس البشرى إلى الفمار

إنا نحارب أنفسفا بالأمراض الفففة

وبالففزفاء الفففة هناك آلة فففة للحرب أسوأ كففرف (٥٩) .

وكذلك فحول إلى الففن . فان ففرفار ففافته بالأمراض والفلف ، والفوف المشوم لأفءافائه الفافء بفء الآخر ، انهففا به إلى ففشفة الله فانه . ولو أن عقلاه ظل فحاول فى اللاهوف ، فانه كان ففء ففلم ألا فففى فى العقل كذلك ، على أنه عقففة أخرى . وفرفر أن المذهب الففم ففب ففوله ففون فزفء من الفقاش ، إذا كان فوفر هفءوف البال ولقمة العفش . وفى ١٦١٥ صار ففسفأ إنفلففكانفا ، ولم فففسر ففنفء على لفقاء المواءف فى ففركفب فؤثر . ولكنف نظم كذلك بعضأ من أكفرف الأشعار الففنية فاففرف فى اللغة الإنفلفزفة . وفى ١٦١٦ عفن ففسفأ ففصأ فففمس الأول ، وفى ١٦٢١ أفصفح رففس كففنة سافف بول . ولم ففشر ففصاففه الففناففة الففسفة الفف نظمها فى شبابه ، ولكنف كان فف سمفح ففءاول ففسف ففطوفة ففها ، أما الآن فانه — كما روف ففونسون « ففءم أشء الفءم ، وبسعى إلى إعءام كل ففصاففه (٦٠) » . وكتب بفلا ففها « ففصافف ففءسة من نوع السوففف . وففءى الفوف . وهو ففسفر فى الظلام .

أفها الفوف . لا فزه ولا ففكفر . ولو أن بعضفم فف أسموك

فبارأ رهفبأ ، لأنك لسف كذلك .

لأن هؤلاء الففن فظن أنك صرعتفم

لا ففوفون . أفها الفوف الفففر ، إنك كذلك لن فسفطفع أن فصرعنى ...

لفف انففصف ففوفنا الففسرة ، ولسوف ففكون فى فقففة أفبفة .

ولن ففكون فمة فوف بفء الآن ، ولسوف ففوف أفف أفها أفوف (٦١) .

وبفءأن أبل من مرض فففف ، كتب فى فذكرافه فى ١٦٢٣ ، سفاورأ ففهورة :

« إن فوف أى رفل ففء من كفافى لأنى فزء ففشابك فى الفنس البشرى ، ومن ففم لا أرسل

أحدًا لاستفسر عن تنعى النواقيس ، إنها تنعاني أنا (٦٢) . ونى أول يوم جمعة من الصوم الكبير ١٦٣١ ، نهض من فراش مرضه ليلقى العظة التى بادر الناس فقالوا إنها عظة جنازته هو ، وكان معاونوه قد حاولوا أن يثبوه عن الكلام ، لما رأوا (كما قل صديقه المخلص ايزك والزون) أن علقته قد اشتدت حتى تركته مجرد جلد على عظم (٦٣) » ، وما أن انتهى من إلقاء موعظته التى كان فيها فصيحًا فى التعبير عن الايمان بالبعث ، « مبتهجا أشد الابتهاج لأن الله أعانه على القيام بهذا الواجب المرغوب فيه ، حتى أسرع إلى بيته الذى لم يغادره ... إلا محمولًا على أيدي رجاله الأتقياء إلى قبره (٦٤) » . ووافاه الأجل (٣١ مارس ١٦٣١) بين ذراعى أمه التى كانت قد احتلمت صابرة آثامه ، كما استمعت فى حنان وعطف إلى عظاته .

لقد كانت حياة حافلة ومتوترة ، انتظمت كل العواطف من شهرة وحب ، وشك وانحلال ، واختتمت فى عزاء دنى ، هو عزاء الايمان القديم . إننا نحن أبناء اليوم الذين يسارع إلينا النعاس حين نقرأ سبنسر ، لنجد أنفسنا ، وقد هزها من سباتها هذا الواقعى الخيالى على نحو عجيب ، هذا الروح الرسيط معا ، عند قراءة كل صفحة من صفحاته تقريبًا . إن شعره خشن ، ولكنه هكذا أراد : إنه نبذ اللطائف المتكلفة فى حديث الالزبيين واستطاب الألفاظ التى لم تبلى جنتها ، وبحور الشعر الأخاذة . وأحب الأنغام الناشزة المتنافرة التى يستطيع تحويلها إلى أنغام متناسقة لم تألفها الأذن . ولم يكن ثمة شيء مبتذل فى شعره بعد أن تخرج فى المواخير . إن هذا الرجل الذى صقل الفحش ، كما صقله كاتوللوس من قبل ، اكتسب من رقة الشعور والفكر ، ومن أصالة فى العبارة والعاطفة ، ما لم يضارعه فيه شاعر آخر فى ذلك العصر ، اهتم إلا شكسبير نفسه .

٧ - جيمس فيلر العاصفة ١٦١٥ - ١٦٢٥

إن الحب والدبلوماسية رفيعان شيمتهما الخيانة والندر . فى ١٦١٥ أحب الملك جيمس ، بأسلوبه الرقيق ذى الوجهين ، جورج فيليير Villiers ، الشاب الوسيم الحريء الثرى ، ذا الثلاثة والعشرين ربيعًا ، فخلع عليه لقب ارل ، ثم مركز ثم

دوق بكنجهام ، ثم بعد ١٦١٦ أطلق يديه في توجيه سياسة الدولة . وكانت زوجة بكنجهام ، ليدى كاترين مانرز تتبع للطقوس الإنجليكانية في الظاهر ، ولكنها في أعماق قلبها كاثوليكية ، وكان من الحائز أن تقنعه بصدقة أسبانيا .

إن الملك جيمس نفسه كان رجل سلام ، ولم يكن ليدع اللاهوت أو القرصنة لتورطه مع القارة . وما أن تولى العرش حتى وضع حداً للغروب الأولى التي كانت إنجلترا قد شنتها على أسبانيا . ولما فقد فردريك أمير البلاتينات (إقليم غرب الراين) - وزوج ابنة جيمس المحبوبة إليزابث - أمارته في بداية « حرب الثلاثين عاماً » ، راود جيمس الأمل في أن استرضاء ملك أسبانيا وهو من (آل هسبرج) استرضاء جادا كريماً ، قد يؤثر على امبراطور آل هسبرج فرديناند الثاني ، فيسمح لفردريك باسترداد عرشه . وأثار جيمس استياء الشعب واشتمئازه حين اقترح لهذا الغرض على فيليب الرابع زواج أخته « الأميرة ماريا » الأسبانية من الأمير شارل .

ولقي رالي نهايته الأليمة ضحية السياسة الأسبانية . وكان رالي يعارض سراً لارتقاء جيمس عرش إنجلترا ، كما كان يعارض بشدة اسكس ، سند جيمس ووثيده . وسرعان ما وصل جيمس إلى لندن حتى فصل رالي من جميع مناصبه الحكومية . وبانفعال واندفاع تميز بهما والتر ، سمح لنفسه بالتورط في عدة محاولات لخلع الملك (٦٥) . فأودع السجن ، واحتج بأنه بريء وحاول الانتحار . وحكم ، وأدين بناء على آلة مشكوك في صحتها ، وحكم عليه بالإعدام ، في ١٣ ديسمبر ١٦٠٣ وقاسى كل ألوان التعذيب ، على أنه خائن . وفي ٨ ديسمبر كتب إلى زوجته رسالة نفيس رقة وتقى - لم يشهد لها العالم فيه من قبل . ورفض جيمس توسلات الملكة والأمير هنرى للعفو عنه . ولكنه سمح للسجين بالبقاء على قيد الحياة لمدة خمس عشرة سنة أخرى ، مع بقاء حكم الإعدام سيفاً مصلتاً على رأسه ، وسمح لزوجته رالي بالإقامة معه في بيت صغير بناه في تخوم البرج (السجن) . وأمدّه أصدقاؤه بالكتب وأجرى بعض التجارب الكيميائية ، ونظم بعض القصائد الرائعة ، وألف كتابه « تاريخ العالم » . وبدأ الكتاب - كما نشر ١٦١٤ بمقدمة ورعة مشوشة معقدة مطولة مملّة ، تكشف عن عقل منهوك شديد الاضطرابات والخلل . وبدأت القصة

بينيوى ، وانتقلت عبر مصر وجنوب فلسطين ، وإيران وكلدنيا واليونان وقرطاجة ،
وانتهت برومه الامبراطورية . ولم يحرص رالى على الوصول إلى الأزمنة الحديثة
« لأن من يتوخى الصدق كل الصدق فى كتابة التاريخ ، قد لاينجو من الأذى ،
وتحسن أسلوبه بمتابعة الكتابة ، حتى بلغ مرتبة عالية فى وصف معركة سلاميس ،
وبلغ الذروة فى المناجاة الختامية « للموت البليغ العادل الجبار (٦٨) » .

ولكن رالى لم يرتض الهزيمة ولم يقنع بها ، وفى ١٦١٦ ، بعد أن جمع ١٦٠٠
جنيه ، رشا دوق بكنجهام ليتوسط له لدى الملك (٦٩) ، ووعده ، فى حال إطلاق
سراحه ، بالإبحار إلى أمريكا الجنوبية ، ليكشف عما ظن أنه مناجم الذهب الغنية فى
جويانا ، ويعود بالغنائم الملكية للخرانة الظمأى . فأفرج عنه جيمس افراجا مؤقتا
مشروطا ، ووافق على أن يحتفظ رالى وشركاؤه بأربعة أخماس أية كنوز قد يستولى
عليها من « الوثنيين المتوحشين » ولكن الملك الحذر البعيد النظر أبقى حكم الإعدام
نافذ المفعول لإغراء بحسن السلوك . وأشار السفير الأسباني كونت جوندومار إلى أن
هناك فى جويانا جاليات أسبانية ، ورجا ألا يضاروا أو يعكر صفوهم . فإكان من
جيمس الحريص على السلام ، وعلى المصاهرة مع أسبانيا ، إلا أن حظر على رالى —
تحت طائلة تنفيذ حكم الإعدام — التدخل فى شئون أية جاليات مسيحية فى أى مكان
والأسبانية منها بوجه خاص (٧٠) ، ووافق رالى كتابة على هذه التحذيرات (٧١) ،
واستمر جوندومار يعترض ويحتج ، فإكان من جيمس إلا أن أقسم على تنفيذ حكم
الإعدام إذا خالف رلى تعليماته (٧٢) .

وجهاز رالى بمعمونة أصدقائه ، أربع عشر سفينة أبحر بها فى ١٧ مارس ١٦١٧
إلى مصب نهر الأورينوكو . ولسكن مستوطنة سانتا توماس الأسبانية اعترضت
الطريق عبر النهر إلى المناجم المزعومة ، وتلك مسألة أسطورية تماما . ونزل رجال رالى
إلى البر — وبقي هو على ظهر السفينة — وهاجموا القرية وأحرقوها وقتلوا حاكمها .
وفترت همة القوة المهوكة بما لقيت من مقاومة أسبانية بعد ذلك ، وتخلت عن ضالتها
المنشودة فى الذهب ؛ وعادت صفر اليدين إلى السفن .

وانخلع قلب رالى عندما علم أن ابنه قد ذبح فى الهجوم ، وأنب الرجل الذى يليه فى القيادة ، فانتحر الرجل نتيجة لذلك . ولكن رجال رالى فقدوا ثقتهم به ، وتحملت السفن عن أسطوله الواحدة بعد الأخرى ، ولما عاد إلى إنجلترا ، ووجد أن الملك غاضب عليه أشد الغضب ، أجرى مفاوضات للهرب إلى فرنسا ، ولكن قبض عليه ، فعاود محاولة الهرب ، ووصل إلى جرينتش . ولكن جاسوسا فرنسيا غدر به ، فقبض عليه وأودع السجن ، وأمر الملك ، الذى كان يستحثه جوندومار ، بتنفيذ حكم الاعدام .

وكان رالى ، آخر الأمر ، قد سُم الحياة ورحب بنعمة الموت العاجل ، فسار فى ٢٩ أكتوبر ١٦١٨ ، إلى ساحة الاعدام فى وقار هادئ ، جعل منه بطل شعب يمقت أسبانيا . وقال للموكلين بتنفيذ الحكم : « هيا ، أنجزوا مهمتكم ، لقد حانت ساعى ، ولن أدع أعدائى يظنون أنى أرتعد فرقا » . واختبر بابهامه نصل البليطة ثم قال « هذا علاج ناجح عادل لكل ما أعانى من مرض وشقاء (٧٣) » وطالبت زوجته الوفية بجثته ودفنتها فى إحدى الكنائس . وكتبت « لقد أنعم على السادة بجثته ، ولو أنهم أنكروا على حياتي . اللهم احفظ على عقلى وألهمنى الصبر (٧٤) » .

إن رحلة رالى كانت واحدة من رحلات كثيرة ، حملت رعايا جيمس إلى أمريكا ، يحدوهم الأمل . فالفلاحون المتلهفون على امتلاك أرض خاصة بهم ، والمغامرون الذين يجرون وراء الثراء من التجارة أو الأسلاب ، والمجرمون الذين يريدون الافلات من قبضة القانون ، والبيوريتانيون المصممون على رفع راية مذهبهم فوق أرض عذراء - هؤلاء جميعا وغيرهم ركبوا الصعاب وتحملوا مشاق البحر ليؤسسوا « إنجلترا » جديدة فى كل مكان . فأسست فرجينيا فى ١٦٠٦ - ١٦٠٧ ، وبرمودا فى ١٦٠٩ ، ونيوفوندلند فى ١٦١٠ ، وهرب رجال الدين « الانفصاليون » الذين رفضوا كتاب الصلوات والطقوس الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، إلى هولنده مع أتباعهم فى ١٦٠٨ . ومن دلفت (يولية ١٦٢٠) وسوثمبتون ويليموث (سبتمبر) أبحر هؤلاء الحجاج عبر الأطلسى . وبعد ثلاثة

أشهر من الحن والمخاطر . ألقوا مراسيهم على صخرة بليموث (٢١ ديسمبر) .

وفي آسيا . اقتصرت شركة الهند الشرقية الانجليزية على ٣٠ ألف جنيه و ١٧ سفينة : حاولت بها عبثا أن تنتزع الثغور والطرق التجارية من شركة الهند الشرقية الهولندية التي كان لها ٦٠ سفينة و ٣٤٠ ألف جنيه ، ولكن بعثة سير توماس رو (١٦١٥) انتهت إلى إنشاء مستودعات تجارية في أحمدأباد وسورات وأجرا ، وغيرها ، في الهند . وأنشئ وعزز بالأسلحة فورت سان جورج ، لحمايتها (٤٠ ٦١) . لقد اتخذت الخطوات الأولى لتأسيس الامبراطورية البريطانية في الهند :

وعلى الرغم من مغريات المصالح التجارية ، والاستحثاثات البرلمانية والغيرة الوطنية الشعبية : ظل الملك جيمس لمدة ستة عشر عاما متمسكا بسياسة السلام . وتوسل إليه مجلس العموم أن يندخل حرب الثلاثين عاما إلى جانب البروتستانت المهددين بالخطر في بوهيميا وألمانيا . وأهاب به أن يزوج ابنه الوحيد الباقي على قيد الحياة : لامن أميرة أسبانية ، بل من أميرة بروتستانتية . وندد بترايخيه في تنفيذه القوانين المعادية للكاتوليكية ، وحثه على الأمر بفصل الأطفال الكاثوليك عن آبائهم ، وأن ينشأوا على البروتستانتية ، كما حذره مجلس العموم من أن التسامح لابد أن يؤدي إلى نمو كنيسة كاثوليكية مفطورة صراحة على التعصب وعدم التسامح (٧٥) .

إن اختلاف وجهات النظر بين البرلمان والملك في ١٦٢١ كاد أن يكون بمثابة تجريب للصراع بين البرلمان الطويل وشارل الأول (١٦٤٢) . واستنكر النواب اسراف البلاط ، والاحتكارات الدائبة على تعويق التجارة ، وفرضوا الغرامة والنفي على المحتكرين ، رافضين دفاعهم بأن الصناعة الناشئة لابد من حمايتها ضد المنافسة . فلما أنب جيمس مجلس العموم على تدخله في أعمال « السلطة التنفيذية » أصدر المجلس (في ١٨ ديسمبر) « الاحتجاج الأعظم » التاريخي الذي أكد من جديد أن « الحريات والاعفاءات والامتيازات ، وسلطة البرلمان ، هي التراث القديم وحق المولد غير المشكوك فيهما لأبناء إنجلترا » : وأضاف : « أن المسائل الشائكة العاجلة

التي تتعاقى بالملك والحكومة والدفاع عن المملكة .. كلها موضوعات ومادة صالحة للمشورة والمنافشة في البرلمان (٧٦) » . ومزق جيمس في غضب شديد ، من مضبطة البرلمان ، الصفحة التي دون فيها الاحتجاج ، وحل البرلمان (٨ فبراير ١٦٢٢) وأمر بأن يودع السجن أربعة من الزعماء البرلمانيين : سوثمبتون ، سلدن ، كوك ، بيم ، وعجل بتحقيق رغبة بكنجهام في التحالف العسكري مع أسبانيا .

وأغرى الوزير المستهتر آنذاك مليكه بأن يسمح له في اصطحاب الأمير شارل إلى مدريد ، متباهياً ، ليرى الأميرة الأسبانية ، ويتمم الزواج ، ووافق جيمس على كره منه ، لأنه خشى أن فيليب قد يرد شارل إلى إنجلترا خائباً ، فيكون أضحوكة أوروبا .

ووصل الأمير شارل ودوق بكنجهام إلى مدريد (مارس ١٦٢٣) ، فوجد أن الأميرة الفاتنة لا يمكن الوصول إليها أو الاقتراب منها ، وأن الشعب الأسباني غاضب أشد الغضب لمجرد التفكير في زواجها من أمير بروتستانتي ، قدر استياء الإنجليز لفكرة عودة أميرهم بعروس كاثوليكية إلى إنجلترا . وقام فيليب وزيره أوليفار بمراسم الحفاوة والتكريم للضيوف ، وكتب لوب دى فيجا رواية كمنظور من مظاهر الترحيب ، ورسم فيلاسكيه لوحة للأمير شارل ، وامتنح بكنجهام المفاتن الأسبانية إلى حد الامتياز والشرف . ولكن وضع لإتمام الزواج شرط أساسي لا مناص منه ، وهو منح الحرية الدينية للكاثوليك الإنجليز . ووافق شارل على الفور ، ووافق جيمس آخر الأمر ، ووقعت معاهدة الزواج ، ولكن عندما طلب جيمس فيما بعد من فيليب أن يعد باستخدام الأسلحة الأسبانية ، إذا اقتضى الأمر ، في استعادة فردريك لإقليم البلاتينات ، أبي فيليب أن يلزم نفسه بشيء ، وأمر جيمس ابنه بالعودة إلى الوطن الحبيب . ولما لئتمس الجانب الإنساني في الملك في رسالته إلى شارل (١٤ يونيو ١٦٢٣) : « أنا الآن أعرض بنان الندم ، وأتألم أشد الألم ، لأنني سمحت برحيلك . عني أنا لا أعاباً بالزواج ولا بغيره ، طالما أراك بين أحضاني ثانية . أعادك الله إلى أعادك الله إلى أعادك الله إلى (٧٧) » أما الأميرة الأسبانية فانها ، عند توديعها الأمير شارل ، جعلته يقطع على نفسه الوعد بالاهتمام بأمر الكاثوليك في إنجلترا

ورعايتهم^(٨٧) . وحيث انجلترا الأمير العائد بوصفه بظلا ، لأنه لم يأت بعروس ، بل أتى بدلا منها بمجموعة من لوحات تشيان (Titian — رسام من البندقية ١٤٧٧ — ١٥٧٦) .

أما بكنجهام الذى غضب الآن أشد الغضب لأنه خدع نفسه فى أسبانيا وارتركب هذه الحقاقة هناك (كما أكد له أوليفار ذلك) فقد ولى وجهه شطر فرنسا ليعتمد معها حلف مصاهرة ، وهى لشارل الزواج من صغرى كريمت هنرى الرابع — وهى هنريتا ماريا التى كان مذهبها الكاثوليكي شوكة من الأشواك فى جنب البرلمان القادم . واستعاد الوزير الشاب المتهور شعبيته فى مجلس العموم ، بالالحاق على جيمس — الذى تدهورت صحته وانحطت قواه العقلية — ليعلن الحرب على أسبانيا . وعاد البرلمان إلى الاجتماع فى فبراير ١٦٢٤ ، وانتهج سياسة قوامها ، من جهة ، المصالح التجارية المتلفة على الاستيلاء على المكاسب أو المستعمرات أو الأسواق الأسبانية ، ومن جهة أخرى ، صرف أسبانيا عن مديد المساعدة إلى الامبراطور الكاثوليكي ضد البروتستانت فى ألمانيا . إن الشعب الذى قال بأن جيمس جبان لأنه يحب السلام ، قال عنه الآن أنه طاغية لأنه يجند الرجال للخدمة العسكرية . ولم تكن الكتابات التى أعدت ولا الأموال التى اعتمدت كافية . وأحس جيمس بالمرارة ، لاختتام حكمه سلمى بحرب عقيمة .

وتكاثر على العلل والأدواء فى أعوامه الأخيرة ، وكان قد سمم جسمه بالاسراف فى الطعام والشراب دون تمييز ، وكان يعانى الآن من التهاب بالجهاز التنفسى ، والتهاب المفاصل والنقرس والحصى فى الكلى واليرقان والاسهال والبواسير ، وكان لابد من فصده يوميا ، حتى جعلت أقل متاعبه الملكية من هذا الفصد أمرا غير ضرورى^(٨٩) . ورفض تناول الدواء . وتناول الأسرار المقدسة الخاصة بالكنيسة الأنجليكانية ، وفاضت روحه فى ٢٧ مارس ١٦٢٥ ، وهو يتمم بآخر راحة لنفسه فى عقيدته .

وعلى الرغم من غرور جيمس وخشونته كان ملكا أفضل من بعض ملوك
(١٦)

يزوه فى النشاط والشجاعة والمغامرة . وكان « حكمه المطلق » بالدرجة الأولى عبارة عن « نظرية لطف الجبن من حداثها » وغالباً ما استسلمت لبرلمان قوى . ولم تحل مزاعمه اللاهوتية دون إرادة التسامح عنده ، وهو تسامح أكرم كثيراً من تسامح من خلفوه . وهياً حبه الجريء للسلام لانجلترا الازدهار ، وكبح جماح الولع بالقتال فى برلمانة ، وهو ولع يشوبه الفساد والرشوة ، وما يقابله من حماسة فى شعبه . وكان متملقوه قد أطلقوا عليه « سليمان » البريطانى لحكمته الدنيوية . ولما عجز صلي Sully عن توريطه فى النزاع فى القارة (أوربا) أطلق عليه “أعقل البلهاء فى العالم المسيحى” ، ولكنه لم يكن فيلسوفا ولا أبلة ، ولكنه كان عالماً يمثل دور الحاكم ، ورجل سلام فى عصر جن جنونه بالأساطير والحرب . إن الكتاب المقدس الذى تمت ترجمته فى عهد الملك جيمس أفضل من تاج أى غاز أوفاتح .

افصل سابع

الدعوة إلى العقل

١٥٥٨ - ١٦٤٩

١ - الخرافة .

هل الناس فقراء لأنهم جهلاء ، أم جهـ لاء لأنهم فقراء ؟ تلك مسألة انقسم عليها الفلاسفة السياسيون إلى محافظين يؤكدون أهمية عامل الوراثة (التفاوت الفطري الموروث في القدرة العقلية) ، ومصلحين يعتمدون على البيئة (أهمية التعليم وإتاحة الفرصة) . وبازدياد الثروة وتوزيعها ينمو العلم ويتقلص ظل الخرافة . ومع ذلك فانه حتى في البلد المزدهر ازدهارا كبيرا - وبخاصة بين الفقراء المهوكين والأثرياء الخاملين - نجد أن الفكر يعيش في مناهة من الخرافات : علم التنجيم ، حساب الحمل (دراسة المعاني السحرية أو التنجيمية للأعداد) ، قراءة الكف ، الأعاجيب ، الحسد ، السحرة ، الغيلان ، الأشباح ، العفاريت ، التعزيم لاستحضار الجن ، التعاويذ والرقى ، تفسير الأحلام ، الكرامات والمعجزات ، الشعوذة والدجل ، الخصائص الخفية ، الشافية أو المؤذية ، للمعادن والنباتات والحيوانات . فلنتدبر إذن الجواهر الخائقة الذي يسمم جذور العلم بثماره ، في شعب ذي ثروة ضئيلة أو مركزة في أيدي فئة قليلة . إن الخرافة لدى ضعاف الأجسام والعقول عنصر ثمين في قصيدة الحياة ، تضيء أيامهم الكثيبة بالأعاجيب المثيرة ، وتخفف من بؤسهم بالقوى السحرية والأمانى الخفية .

وفي ١٦٤٦ احتاج سير توماس براون إلى ٦٥٢ صحيفة ليعدد ويعالج في إيجاز الخرافات المنتشرة في أيامه^(١) ، إن كل هذا الايمان بالقوى الخفية تقريبا ، نما وازدهر

بين البريطانيين في عهد اليزابث وأوائل عهد آل ستيوارت . ففي ١٥٥٧ نشر الملك جيمس السادس كتاباً يعتبر مرجعاً « الإيمان بالشياطين » وهو من المروعات في الأدب . وفيه ينسب إلى السحرة القدرة على ارتياد البيوت ، وغرس الحب والبغض في قلوب الرجال والنساء بعض لبعض ، ونقل المرض من شخص إلى آخر ، والقتل بإحراق تمثال أو دمية من الشمع ، وإثارة العواطف المدمرة . وبرر عقوبة الإعدام للسحرة والمشعوذين — بل حتى لزبائنهم^(٢) . وعندما كادت زوبعة تودى بحياته في طريق عودته من الدنمرك مع عروسه ، أمر بتعذيب أربعة اشتبه فيهم حتى اعترفوا بأنهم كانوا قد تأمروا على القضاء عليه بوسائل سحرية . وأحرق واحد منهم حتى الموت ، وهو جون فين ، بعد أن عذب تعذيباً وحشياً^(٣) .

واتفقت الكنيسة الوطنية الإسكتلندية مع الملك في هذا الشأن ، وهدد القضاة المدنيون الذين يتساهلون مع السحرة بالحرمان من الكنيسة^(٤) . وفيما بين عامي ١٥٦٠ — ١٦٠٠ أحرق نحو ثمانية آلاف من النسوة باعتبارهن ساحرات في اسكتلندا التي لم يكن عدد سكانها يبلغ المليون^(٥) . وكاد الاعتقاد في السحر في إنجلترا أن يكون عاماً شاملاً ، وشارك في هذا الاعتقاد أطباء علماء مثل وليم هارفي ونسبر توماس براون . ونصت اليزابث العنيدة في القوانين التي سنتها ١٥٦٢ على أن الاشتغال بالسحر جريمة عقوبتها الإعدام . وأعدم من أجلها إحدى وثمانون امرأة في عهدها^(٦) . وخفف جيمس السادس من زمرته بعد أن أصبح جيمس الأول ملك إنجلترا ، وأصر على محاكمة المتهمين بالسحر محاكمة عادلة . وفضح الاعترافات والاتهامات الباطلة وأنقذ حياة خمس من النسوة اتهمهن صبي معبول^(٧) . وكادت المطاردة أن تنقطع بعد اعتلاء شارل للعرش ، ولكنها استؤنفت ، وبلغت أقصاها أيام حكم البرلمان الطويل ، حيث أعدم في عامين اثنين (١٦٤٥ — ١٦٤٧) مائتان من السحرة^(٨) .

وفي وسط هذه الموجة العاتية من الضراوة والعنف ارتفع صوت واحد يناشد العقل ويتحكم إليه ، هو ريجنالد سكوت ، وهو إنجليزي على الرغم من اسمه ، وقد نشر في لندن ١٥٨٤ « الكشف عن السحر » . ولم يسبقه إلا جوهان فير في كتابه

« خدعة الشيطان » (بازل ١٥٦٤) في هذه المحاولة الخطيرة ، محاولة التخفيف من الخرافة البالغة القسوة . ووصف سكوت الساحرات بأنهن نسوة عجائز بائسات لا يستطعن الإضرار بأحد ، وأنهن ، حتى لو تصرف الشيطان عن طريقهن ، أولى بالثناء والإشفاق ، أكثر منهن بالإحراق ، وقال إن في نسبة المعجزات إلى هاتيك العجائز الشمطاوات ، أمثاناً لمعجزات السيد المسيح . وفضح سكوت ألوان التعذيب التي جعلت اعترافات السحرة غير ذات قيمة ، ولإجراءات المحاكمة المجافية للعدالة ، والمشوبة بالمخالفات والتراخي . والشكوك التي يزدريها القضاة والمحققون . ولكن لم يكن ثمة أثر للكتاب .

وفي هذا الجوحاول العلم أن يشب على قدميه .

٢ — العلوم

ومع ذلك ، فإن تقدم التجارة والصناعة كان يفرض تقدم العلوم . وكان من العسير أن تنسق النزعات الأفلاطونية والفنية في عصر النهضة مع الاقتصاد المتوسع . واشتدت الحاجة إلى نهج عقلى يمكن أن يعالج الأرقام والحقائق . قدر ما يعالج النظريات والأفكار . ونشطت تجريبية أرسطو بعد تجريبها من أقنعة الفلسفة الهلينية المتأخرة في الأسكندرية ومن أقنعة فلاسفة العصور الوسطى . وقد أفسح توكيد الفلسفة الإنسانية الإيطالية على أمجاد الآباء القديمة وعظمتها ، نقول أفسح الطريق لتركيز أقل دقة في الحاجيات العمالية الراهنة . وكان لزاماً على الناس أن تعد وتخصى ، وأن تتيسر وتصمم أو تخطط . في دقة وسرعة تحكمها المنافسة واحتياج الناس إلى أجهزة للرصد والتسجيل . ونشأت المطالب التي شغقت باختراع اللوغاريتمات والهندسة التحصيلية وحساب المثلثات والآلات . والمبهر (الميكروسكوب) . وطرق التجميع ، والموجهات الملاحية . والأجهزة الفلكية ، وتوافرت الحياة في أوروبا الغربية منذ الآن فصاعداً ، على مواجهة تلك الحاجيات .

واقترح جون نابير في إسكتلندة ١٦١٤ ، وجوست بورجى في سويسرا ١٦١٠ ، كل على حدة ، اقترحا طريقة للوغاريتمات (أى منطق الأرقام) يمكن بواسطتها إجراء

عمليات الضرب والقسمة وإيجاد الحدود في سهولة ويسر من الجداول الرياضية (جداول اللوغاريتمات) بأساس معين. وفي ١٦١٦ عدل هنري بروجز الطريقة من أجل الحساب العادي ، بجعل الأساس ١٠ ونشر جداول تعطى لوغاريتمات الأعداد من ١ إلى ٢٠٠٠٠. وللآن يمكن إيجاد حاصل ضرب عددين ، بأن يستخرج من مثل هذه الجداول العدد الذي يكون لوغاريتمه هو مجموع لوغاريتمى العددين المطلوب ضربهما. كما يمكن قسمة أعلى ب ، بإيجاد العدد الذي لوغاريتمه هو الفرق بين لوغاريتمى أ و ب . (لو أ ب = لو أ - لو ب . وأعد ولیم أوترد Oughtred (١٦٢٢) وادموند جنتر (١٦٢٤) مساطر حاسبة يمكن بواسطتها إجراء العمليات الحسابية في ثوان قليلة . وقد وفرت هذه المخترعات نصف الوقت الذي كان يصرفه الرياضيون والفلكيون ورجال الإحصاء والملاحون والمهندسون ، في عملياتهم الحسابية ، وأطالت في الواقع حياتهم^(٩) . ووجه كبر ، الذي استخدم الطريقة الجديدة في حساب حركات الكواكب ، مديحاً حماسياً إلى لورد مارشستون (في إسكتلندة) ١٦٢٠ ، ولم يكن يدري أن نابيير كان قد قضى نحوه قبل سنوات ثلاث ، وكان نابيير نفسه قد وقع في خطأ يسير في التقدير والحساب ، حين حدد أن العالم سينتهى فيما بين عامي ١٦٨٨ و ١٧٠٠^(١٠) .

وظل الرياضيون والفلكيون متكاتفين تكاتفاً وثيقاً من أجل حساب حركات الأجرام السماوية ، وحساب التقويم ، وتطلب توجيه الملاحة - الحلة بارعة معقدة للقياسات الفلكية . ووضع توماس هاريوت ، بوصفه عالماً رياضياً ، للشكل القياسي للجبر الحديث ، وأدخل علامات الجذر «أكبر من» و«أقل من» وأحل الحروف الصغيرة محل الكبيرة القبيحة المنظر ، لتدل على الأرقام ، وعثر مصادفة على الطريقة الناجحة ، وهي وضع كل المقادير في المعادلة في طرف واحد ، ووضع الصفر في الطرف الثاني (المعادلة الصفرية) وبوصفه فلكياً اكتشف البقع الشمسية ، وقام بارصاده اتتابع المشتري ، مستقلاً عن جاليليو . إن جورج تشابمان نفسه ، وهو من فحول العلماء ، قدر أن علم هاريوت « لا يباريه فيه أحد ، وأنه لا حدود له^(١١) » .

وكان علم الملك لا يزال ينضح بالتنجيم . وكان تنجيم « الساعة » يقرر هل تلائم النجوم «شروع الساعة أولا تلائمته . وتنبا التنجيم « الشرعى أوالقضائى » بالأحداث عامة ، فى تعميم غاىض متسم بالحكمة عادة . أما التنجيم « الطبيعى » فكان يكشف عن قدر الفرد وحظه من بوجه — أى اختبار «وقع النجوم ساعة مولده — وكل هذا موجود فى روايات شكسبير (ولو أنه لايدل على إيمانه به) ، وفى أيامنا هذه . وتقول نظرية النجوم بأن القمر يحدث المد والجزر ، والبكاء ، والجنون ، واللصوصية (رواية شكسبير هنرى الرابع ١ — ٢ — ١٥) . وكانت كل علامة فى البروج تتحكم فى طبيعة وفى مصير أعضاء بعينها فى جسم الانسان (الليلة الثانية عشرة الفصل الأول ، ٣ — ١٤٦ — ١٥١) . واستخدم جون دى Dee الرّوز فى الزمن بادماج التنجيم والسحر والرياضيات والجغرافيا ، واشتغل بالعرافة البللورية وكتب Treatise of the Rosie Crucean Secrets ، واتهم بممارسة السحر ضد الملكة «مارى تيودور (١٥٥٥) ورسم خرائط جغرافية ومائية للملكة اليزابث . واقترح طريقا عبر الشمال الغربى إلى الصين . وابتدع عبارة « الامبراطورية البريطانية » وألقى محاضرات عن اقليدس أمام جماهير غفيرة فى باريس ، ودافع عن نظرية كوبرنيكس ، وأيد استخدام التقويم الجريجورى (قبل أن تروض إنجلترا نفسها على هذه البدعة البابوية بمائة وسبعين عاما) . ومات عن إحدى وثمانين سنة ، وكانت حياة حافلة . وعزز تلميذه توماس دجز Digges تقبل فرضية كوبرنيكس فى إنجلترا ، واستبق فكرة برونو عن الكون اللانهائى (١٢) . واستخدم توماس وأبوه ليونارد دجز « العدسات البللورية » ومن المحتمل أنها كانت بشيرا بظهور التلسكوب . واخترع وليم جاسكوان (حوالى ١٦٣٩) المصغر (الميكرومتر : أداة تستعمل مع التلسكوب أو فى الميكروسكوب لقياس الأبعاد والزوايا البالغة الصغر) الذى مكّن الراصدين من ضبط التلسكوب بدقة لم يسبق لها مثيل . أما أورميا هوروكس ، وهو قسيس فقير من لنكشير مات فى سن الرابعة والعشرين ، فقال إن للقمر مدارا بيضاويا . وتنبا — كما رصد (١٦٣٩) لأول مرة سجلها التاريخ — انتقال الزهرة حول الشمس . وساعدت تأملاته فى القوى التى

تحرك الكواكب ، نيوتن فى نظرية الجاذبية الأرضية .

وفى نفس الوقت كانت دراسة المغناطيسية الأرضية تمهد الطريق أمام نيوتن .
فان جورج هارتمان ، وهو من رجال الدين الألمان (١٥٤٤) وروبرت نورمان ،
وهو انجليزى يشتغل بصنع البوصلة (١٥٧٦) ، اكتشفا ، كل منهما بمفرده
بعيدا عن الآخر ، انحراف الابرة المغناطيسية ، حين تكون معلقة تعليقا حرا من
مركز ثقلها ، وميلها إلى الانحراف عن الوضع الأفقى إلى وضع يصنع زاوية مع
سطح الأرض . وذهب نورمان فى كتابه « الحديد الجذاب » إلى القول (١٥٨١) .
بأن « عامل الجذب » الذى تنحرف إليه الابرة يقع فى الأرض نفسها (١٣) .

وجاء بعد هذه الطليعة الباهرة ، وليم جيلبرت ، طبيب الزاويث . وبعد سبعة
عشر عاما من البحث والتجربة — التى اعتمد فى تمويلها على ثروته الموروثة ، كما
عاونته الملكة أحيانا — نشر النتائج التى توصل إليها فى أول مؤلف انجليزى كبير
للعلوم : « فى المغناطيس ... والمغناطيس الأعظم وهو الأرض » (١٦٠٠) . لقد
وضع إبرة بوصلة محورية ، على التعاقب : فى نقط مختلفة ، على حجر مغناطيس
كروى . وسجل بخطوط على الكرة الاتجاهات التى اتجهت إليها الإبرة على التوالى ،
ومد كل خط ليشكل دائرة كبيرة حول الحجر ، ووجد أن كل هذه الدوائر قطعت
الكرة فى نقطتين متقابلتين تماما ، وكان هذان هما القطبان المغناطيسيان اللذان اعتبرهما
جيلبرت خطأ ، فى حالة الأرض ، القطبين الجغرافيين . ووصف الأرض بأنها
مغناطيس ضخمة ، وفسر ، بناء على ذلك سير الابرة المغناطيسية ، وأظهر أن أى
قضيب حديدى يترك لمدة طويلة فى وضع شمالى جنوبى لا بد أن يصبح مغناطيسا .
والمغناطيس الذى يوضع على أى من قطبي حجر المغناطيس الكروى . يأخذ وضعه
عموديا على الكرة . وإذا وضع فى أية نقطة متوسطة بين القطبين (وهى النقطة التى
تكون خط الاستواء المغناطيسى) يأخذ وضعه أفقيا . وانتهى جيلبرت إلى أن انحراف
الإبرة يكون أعظم ، كلما وضعت أقرب إلى القطبين الجغرافيين للأرض . وعلى
الرغم من أن هذا لم يكن صحيحا تماما ، فقد أكدده تقريبا هنرى هودسن فى ارتياده

المنطقة المتجمدة الشمالية (١٦٠٨) . ومن ملاحظاته الخاصة ، رسم اتجاهات لحساب خط العرض من درجة الانحراف المغناطيسى . وذهب إلى أنه « من حول جسم مغناطيسى تنتشر القوة المغناطيسية في كل ناحية » . ونسب دوران الأرض إلى تأثير هذا المجال المغناطيسى . وانتقل جيلبرت من هذا إلى دراسة الكهرباء — ولم يكن قد تم فيها شيء يذكر منذ القدم — وأثبت أن ثمة مواد أخرى كثيرة — غير الكهرمان ، يمكن بحكها أن تولد كهرباء بالاحتكاك . ومن اللفظة اليونانية لكلمة Amber (كهرمان) . كون لفظة Electric (كهرباء) لتدل على قوة تحرف الابرّة المغناطيسية . واعتقد بأن كل الأجسام السماوية مزودة بالمغناطيسية ، واستخدم كبلر هذه الفكرة لتفسير حركة الاجرام السماوية . والحق أن معظم عمل جيلبرت كان مثالا يدعو إلى الاعجاب للنهج التجريبي ، وأن آثاره على العلوم والصناعة لا حدود لها .

وظهر تقدم العلوم أكثر إثارة في جهود النفوس المغامرة أو المولعة بالتحصيل والكسب ، لاكتشاف « المغناطيس الأعظم » لأغراض جغرافية واقتصادية . وفي ١٥٧٦ نشر سير همفري جيلبرت (ولا يمت بصلة إلى ولیم جيلبرت) « مقالا موحيا عن طريق جديد إلى الصين » . مقترحا الإبحار في اتجاه الشمال الغربى ، عبر كندا أو حولها . وفي نفس العام أبحر سیر مارتن فروبشر بثلاث سفن صغيرة ليكتشف طريقا مثل هذا . وغرقت إحدى سفنه ، وهجر الثانية ملاحوها ، وسار هوفدا بالسفينة « جبرائيل » البالغة الصغر والتي لم تتجاوز حمولتها ٢٥ طنا . ووصل إلى بنفن لاند ، ولكن الاسكيمو حاربوه ، فعاد إلى إنجلترا طلبا لمزيد من الرجال والمؤن . وانخرفت رحلاته بعد ذلك عن الجغرافيا للبحث عن الذهب دون جدوى ، ثم تمسك جيلبرت بضالته المنشودة ، وهى الطريق الشمالى الغربى إلى الصين . ولكنه أغرق وهو يحاول ذلك (١٥٨٣) . وبعد ذلك بأعوام أربعة اندفع جون دافيز في المضيق المسمى اليوم باسمه ، وحارب الأرمادا ، ثم انطلق إلى البحار الجنوبية مع توماس كافندش واكتشف جزر فولكلند ، وقتله القراصنة اليابانيون بالقرب من سنغافورة (١٦٠٥) وارثاد كافندش الجزء الجنوبى من أمريكا

الجنوبية وأكمل ثالث طواف حول الكرة الأرضية، ومات في البحر (١٥٩٢)، وسار هنرى هدسن في نهر هدسن (١٦٠٩)، وفي رحلة أخرى وصل إلى خليج هدسن، ولكن بحارته الذين ذهب الصعب بعقولهم، واشتد بهم الحنين إلى الوطن، تمردوا عليه، وأنزلوه هو وثمانية معه في قارب صغير مكشوف، (١٦١١) ولم يسمع لهم ذكر بعد ذلك قط، واكتشفت ولیم بفن الخليج والجزيرة اللتين تحملان اسمه، وغامر حتى وصل إلى خط عرض ٧٧°٤٥' وهو مالم يصل إليه أحد مرة أخرى قبل مضي ٢٣٦ سنة - وكان له امتياز آخر، وهو إيجاد خطوط الطول لأول مرة برصد القمر. وشهد ريتشارد هاكلوت في هذه السفن المأخوذة من خشب البلوط فترة من البسالة والرعب تفوق أية الياذة، ونشر قصصها في مجلدات ظهرت تباعا، من أحسن ما عرف منها هو ما نشر تحت اسم «البحارات الرئيسية، رحلات الأئمة الأنجليزية وكشوفها» (١٥٧٩، ١٥٩٨، ١٦٠٠)، وزاد صمويل بوركاس في هذا السجل بكتاب «رحلات بوركاس» (١٦٢٥). وهكذا كان الطمع في الحصول على الذهب، والتحمس لمواجهة الأخطار ومشاهدة البلاد البعيدة سببا في تقدم الجغرافيا دون قصد.

وكان أحسن ما حققه العصر في الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا من عمل القارة. أما في إنجلترا، على أية حال، فان سيركنلم دجبي Kenelm Digby اكتشف ضرورة الأكسجين لحياة النبات، كما أيد روبرت فلد Fludd، وهو متصوف وطبيب، فكرة التطعيم، قبل جنر Jenner بمائة وخمسين عاما. واستمرت وصفات الدواء تعتمد على إثارة الاشتمزاز ليكون للأدوية أثرها. وأوصى الدستور الرسمي للأدوية في لندن ١٦١٨، بالمر، وعصارة النبات (الدم) وتشريط الجلد، وعرف الديك، والفراء، والعرق واللعب والعقارب وجلد الثعبان وحمار القبان (حشرة) ونسيج العنكبوت، على أنها وسائل للعلاج، وكان فصد الدم أول شيء يلجأون إليه^(١٤) - وعلى الرغم من ذلك، فان هذه الحقبة تفاخر بتوماس بار «بار العجوز Old Parr» الذي قدم إلى شارل الأول ١٦٣٥، على أنه يتمتع بصحة جيدة مع أنه كان كما زعموا، في الثانية والخمسين بعد المائة من عمره. ولم

يدع بار أنه يدرف سنه على التحقيق ، ولكن ولاية الأمور في أبرشيته دونوا تاريخ ميلاده في ١٤٨٣ ، وادعى أنه التحق بالجيش في ١٥٠٠ ، وتذكر تفاصيل حل الأديار في عهد هنري الثامن . (١٥٣٦) ، فقال له الملك شارل الأول « لقد عمرت أطول من أى أناس آخرين ، فإذا فعلت أكثر مما فعلوا هم ؟ » فأجاب بار ، بأنه كان عمره فوق المائة حين ضاجع فتاة فحملت ، وأنه كفر عن خطيئته بأشد كفارة . وكان بار قد عاش ، تماماً تقريباً ، على البطاطس والخضر والخبز الحاف واللبن المخيض ، ونادراً ما ذاق اللحم . ولفترة من الوقت أصبح بار مشهوراً في ردهات لندن وحاناتها ، وكانوا يقدمون له فيها ما لذ وطاب ، حتى أنه مات في بحر عام من لقائه مع الملك . وفحص سير وليم هارفي جثته بعد وفاته فوجد أنه غير مصاب بتصلب الشرايين ، وشخص موته بأنه نتيجة لتغيير الهواء والغذاء (١٥) .

إن هارفي هو الذى هياً لهذا العصر ذروة المجد العلمى بشرحه للدورة الدموية ، وهو « أجل حدث في تاريخ الطب منذ عهد جالينوس (١٦) » . ولد في فولكستون (١٥٧٨) ، ودرس في كمبرج ثم في بادوا على فابريزيو دكوإبندان ، فلما عاد أقام في لندن ومارس الطب فيها ، وأصبح الطبيب الخاص بلويس الأول ثم شارل الأول ، وعكف صابراً مثابراً ، سنين طوالاً ، على إجراء التجارب والتشريح ، على الحيوانات والبحث ، ودرس ، بصفة خاصة ، تدفق الدم ومجرأه في الجروح . ووصل إلى نظريته الأساسية في ١٦١٥ (١٧) . ولكنه نشرها ، متأخراً ، في فرانكفورت ١٦٢٨ ، على أنها « تجارب متواضعة في تشريح الجثث ودماء الحيوان » . وهى أول وأعظم أثر في الطب في إنجلترا .

وإن الخطوات التى تدرج فيها الكشف الذى توصل إليه هارفي لتوضيح عالمية العلم . فإن وظائف القلب والدم ، ظلت لأكثر من ألف عام ، تفسر كما فسرهما جالينوس في القرن الثانى الميلادى . وكان جالينوس قد افترض أن الدم يتدفق إلى الأنسجة من الكبد والقلب سواء بسواء ، وأن الهواء يمر من الرئتين إلى القلب ، وأن الشرايين والأوردة بها مجريان للدم ، يدفعهما ويسحبهما القلب ، في حركة مد وجزر ، وأن الدم يجرى من الجانب الأيمن إلى الجانب الأيسر من القلب عبر

مسام في الحجاب الحاجز بين التجاويف . وعارض ليونارد ودافنسي (حوالى ١٥٠٦) فكرة مرور الهواء من الرئتين إلى القلب ، وأنكر فيساليوس (١٥٤٣) وجود مسام في الحجاب الحاجز . وكشفت رسومه البارعة للشرابين والأوردة عن أن نهاياتها أو أطرافها دقيقة ومتلاصقة حتى لا تسكاد توحى بالمرور والدورة . وأوضح فابريزيو أن الصمامات في الأوردة تجعل من المستحيل تدفق الدم الوريدي من القلب . وتلاشت نظرية جالينوس . واكتشف ميشيل سرفيتس (١٥٥٣) ، وريالدوكولومبو (١٥٥٨) ، الدورة الدموية الرئوية — أى مروره من الجانب الأيمن من القلب عبر الشريان الرئوى إلى الرئتين ومن خلالها ، وتنقية الدم هناك بوساطة التهوية ، وعودته عن طريق الوريد الرئوى إلى الجانب الأيسر من القلب . واستبقى أندريا سيسالينو (حوالى ١٥٧١) — كما سنرى النظرية الكاملة للدورة ، وتحولت النظرية إلى حقيقة واضحة جلية بفضل ما قام به هارفى .

وبينما كان فرانسيس بيكون ، المريض الذى يتولاه هارفى ، يمجّد الاستقراء ، توصل هارفى إلى النتيجة الرائعة عن طريق الجمع اللافت للنظر بين الاستنتاج والاستقراء . إنه بتقديره كمية الدم المنزف من الباب فى كل انقباض أو تقلص بأنها نصف أوقية سائل ، حسب أنه فى ساعة ، لابد أن يصب القلب فى الشرايين ، ما يزيد على ٥٠٠ أوقية سائل ، أى كمية تزيد على ما يحتوية الجسم كله ، فمن أين يأتى كل هذا الدم . وبدا من المستحيل أن مثل هذا القدر الكبير يمكن أن ينتج من ساعة إلى ساعة ، من هضم الغذاء . فاستنتج هارفى أن الدم الذى يخرج من القلب يعاد إليه ، وأنه ليس ثمة طريق آخر لهذا سوى الأوردة . وبفضل التجارب والملاحظات البسيطة . وعلى سبيل المثال ، الضغط بالأصبع على أى وريد سطحي — تبين فى الحال وبسهولة ، أن الدم الوريدي تدفق من الأنسجة نحو القلب .

عندما استعرضت مجموعة الشواهد التى لدى ، سواء ما استقيتها من تشريحات الأحياء وتأملاتى فيها ، أو من تجاويف القلب والأوعية التى تدخل إليها أو تخرج منها والتى كثيراً ما أمعنت التفكير فيها بشكل جدى ما عساها تكون كمية

الدم التي تنقل . . . ووجدت من المستحيل أن تكون مستمدة من عصارات الغذاء الذي يدخل إلى الجسم ، دون أن تجف الأوردة تدريجياً ، من جهة ، وأن تنفجر الشرايين لفرط امتلائها بالدم ، من جهة أخرى ، إلا إذا وجد الدم له ، بطريقة ما ، مخرجاً من الشرايين إلى الأوردة ، ومن ثم يعود إلى الجانب الأيمن من القلب . . . أقول إنى عندما استعرضت كل هذه البيانات والشواهد ، بدأت أفكر في أنه يمكن أن يكون هناك ، « حركة ، كما لو كانت في دائرة . . . » والآن يمكن أن أستبيح لنفسي أن ألى بفكرتى عن الدورة الدموية (١٨) .

وتردد طويلاً في نشر النتائج التي توصل إليها ، لما كان يعلم من روح المحافظة التي سادت مهنة الطب في عصره . وتنبأ بأن أى فرد فوق الأربعين لن يقبل نظريته (١٩) . وروى أوبرى « سمعته يقول إنه بعد صدور كتابه : الدورة الدموية ، تدهور تدهوراً شديداً في عمله ، حتى أعتد السوق أنه قد اختل عقابه (٢٠) . وحتى أثبت مالبيجى Malpighi (١٦٦٠) وجود الأوعية الشعرية التي تحمل الدم من الشرايين إلى الأوردة ، لم تكن دنيا العلم تسلم بأن الدورة الدموية حقيقة واقعة . إن الفكرة الجديدة أضاعت كل مجالات الفسيولوجيا تقريباً وأثرت على المشكلة القديمة : مشكلة العلاقة المتبادلة بين الجسم والعقل . ويقول هارفى :

إن أى شعور في العقل ، مصحوب بألم أو لذة ، بأمل أو خوف ، هو سبب في إثارة يمتد أثرها إلى القلب . . . وفي كل عاطفة تقريباً . . . تتغير ملامح الوجه ، ويظهر الدم جانياً هنا وهناك . وفي حالة الغضب تنقد العينان ، ويتقلص لإنسان العين . وفي حالة التواضع تغمر الوجنتان حمرة الحجل . أما في حالة الشهوة فما أسرع ما يتضخم أو ينتفخ العضو بالاسدم (٢١) .

وظل هارفى فى خدمة شارل حتى الخاتمة الأليمة التى منى بها الملك تقريبا ، فقد رافقه حين طوحت الثورة بالملك إلى خارج لندن ، كما رافقه فى معركة ادجهل Edgehill ، حيث نجا من الموت بأعجوبة (٢٢) . وفى نفس الوقت نهب الثوار داره فى لندن ، وعذبوا بمخطوطاته ومجموعات التشرىح التى كان يحتفظ بها . وربما كان هارفى قد جلب على نفسه عداوة كثير من الناس نظرا لحدة طبعه وآرائه . ولم يعتبر هارفى الانسان « إلا قردا ضخما شريرا كريها » كما قال أوبرى ، وذهب إلى « أننا نحن الأوربيين لم نعرف كيف نسوس نساءنا ونحكمهن ، وأن الأتراك هم الشعب الوحيد الذى استطاع أن يستخدمهن بحكمة (٢٣) . ولما كان محتفظا بنشاطه وحيويته وهو فى سن الثالثة والسبعين ، فانه نشر رسالة فى « علم الأجنة » (١٦٥١) ، نبذ فيها الاعتقاد السائد فى التوالد التلقائى لكائنات دقيقة من أجسام متحللة . واعتقد هارفى « بأن كل الحيوانات حتى هذه التى تنتج صغارها أحياء ، بما فى ذلك الانسان نفسه — تتطور وتخرج من بيضة ، وصاغ عبارة « كل حيوان يخرج من بيضة » . ومات بعد ذلك بست سنين بسبب شلل أصابه ، واهبا معظم ثروته التى تبلغ عشرين ألف جنيهه لكلية الأطباء الملكية ، وعشرة جنيهات لتوماس هوبز « رمزا للمحبة » .

٣ — صعود فرانسيس ليكون وسقوطه : ١٥٦١ — ١٦٢١

نحن الآن أمام أكبر عقل وأنشطه وأكثره مدعاة للفخر ، لقد وقفنا على مولده ونسبه ، ودراسته للأدب والدبلوماسية والقانون ، وفقره غير المتوقع ، والتماسه للوظيفة ، دون أن يسمع به أحد ، وتحذيره لصديقه المحسن الخبير المحرم ، ومضاياته أياه على كره منه . ولقد استنفد العلم والمعرفة والطموح كل طاقته ، حتى لم يعد به ميل إلى النساء ، على أنه على أية حال ، كان يحب الشبان (٢٤) . وفى سن الخامسة والأربعين (١٦٠٦) تزوج من أليس برنهام Barnham التى هيأت له ٢٢٠ جنيهافى العام . ولكنه لم ينجب أطفالا .

وعندما اعتلى جيمس الأول عرش انجلترا بعث إليه ليكون بكتاب مسرف فى

الزلفى والملقى ، يعرض فيه نفسه على الملك على أنه صالح لتقلد المناصب وأهل لها ولما كان ابن حامل أختام الملك ، وابن أخ لآل سيسل أو من أبناء عمومهم أو خوولتهم ، فإنه أحس بأن طول انتظاره للوظيفة الحكومية يعكس شيئا من روح العداء من جانب الوزراء المتربعين على كراسى الحكم ، وربما كانت انتهازيته المتبرمة ، نتيجة ، وفى نفس الوقت سببا فى تأخر تعيينه فى أحد المناصب . وكان قد خدم بالفعل فى البرلمان لمدة تسعة عشر عاما ، دافع فيها عادة عن الحكومة ، واشتهر بسعة الاطلاع ، والفكر البناء ، والعبارة الواضحة الأخاذة . وكان يرسل بين الحين والحين . إلى الملك « مذكرات » تفيض بالآراء السديدة فى كيفية النهوض بالتفاهم المتبادل والتعاون بين مجلس العموم واللوردات ، وتوحيد برلمانى إنجلترا واسكتلنده ، وإنهاء الاضطهاد الدينى للمخالفين ، وتهدة أيرلنده باستمالة الكاثوليك فيها ، واعطاء الكاثوليك فى إنجلترا مزيدا من الحرية دون فتح الباب للمزاعم البابوية ، وإيجاد وسيلة للتوفيق بين الانجليكانيين والبيوريتانيين . وقرر مؤرخ درس الشئون السياسية فى تلك الحقبة دراسة مستفيضة - قرر « أن تنفيذ هذا البرنامج لم يكن يعنى الا تغيير كل مساوئ النصف الثانى من هذا القرن (١٥) » . وطرح جيمس هذه المقترحات جانبا على أنها غير عملية فى ظروف التفكير السائدة . واكتفى بضمم بيكون إلى طبقة الفرسان الثلاثمائة الذين وزعهم ١٦٠٣ ، وتذرع بيكون بالصبر وظلى يمنى نفسه .

وعلى الرغم من كل شئ ، فإن براعته بوصفه محاميا لم توفر له الغنى والثراء إلا فى شئ من البط . وفى ١٦٠٧ قدرت ثروته بنحو ٢٤,١٥٥ جنيه (٦) . وفى ضيعته التى زودها بكل ألوان الترف ، فى جورهامبرى ، كما هيا لها نخبة من العاملين المرتفعى الأجور والسكرتيرين اليقظين مثل توماس هوبز ، نقول انه فى هذه الضيعة استطاع أن ينعم بالجمال والراحة اللتين أحبهما فى حكمة أكثر مما ينبغى ، ورعى صحته بالعمل فى الحديقة التى بنى فى وسطها ركنا فاخرا يأوى إليه ليخلو إلى نفسه يتفرغ إلى الدرس والبحث ، فكتب كما يكتب الفلاسفة وعاش كما يعيش الأمراء ،

اله لم يجد سببا يبرر أن يكون العقل مفلسا ، ويبرر ألا يكون « سليمان » (أى الحكيم) ملكاً .

إن بيكون لم يطل به الأمد حتى يبلغ الهدف ، فإن الملك جيمس الذى قدره حق قدره آخر الأمر عينه فى ١٦٠٧ مساعدا للنائب العام وفى ١٦١٣ نائبا عاما ، وفى ١٦١٦ عضوا فى مجلس شورى الملك ، وفى ١٦١٧ حاملا للأختام ، وفى ١٦١٨ قاضيا للقضاة . وخلعت عليه ألقاب كريمة جديدة لتزين مواهبه وقدراته : ففي ١٦١٨ عين بارون فيرولام الأول ، وفى يناير ١٦٢١ فيكونت سانت ألبانز . ولما غادر جيمس إنجلترا إلى اسكتلنده ، ترك قاضى قضائه ليحكم البلاد . « واستقبل بكون السفراء يحف به الجلال والعظمة » وعاش فى جورهامبرى تمهودة الفخامة والأبهة « حتى بدا أن البلاط الملكى هنا (فى قصر جورهامبرى) ، وليس قصر هويتبول أو فى قصر سان جيمس (٢٧) » .

لقد حظى بيكون بكل شيء إلا الشرف . ففى سعيه وراء المناصب كثيرا ماضى إلى المبادئ ، فاستغل نفوذه ، كمساعد للنائب العام ، لاصدار الأحكام القضائية على الصورة التى يرغب فيها الملك (٢٨) ودافع ، وهو حامل للأختام الملكية ، عن أشد الاحتكارات تعسفا وظلما ، وحماها ووضح أنه فعل هذا إبقاء على رضا بكنجهام . وقبل ، وهو قاض ، هدايا ثمينة من المتقاضين أمام محكمته . ولم يكن كل هذا إلا شيئا من فساد هذا العصر ورخاوته ، ان الموظفين العامين كانوا يتقاضون رواتب هزيلة ، فعوضوا عنها « بالهدايا والعطايا » ممن يساعدونهم . واعترف جيمس قائلا : إذا كان لا بد لى من معاقبة الرشوة ، لمسا تركت واحدا من الرعايا » . ان جيمس نفسه كان يقبل الرشوة (٢٩) .

وثارت نائرة البرلمان الذى اجتمع فى يناير ١٦٢١ ضد الملك — وكره بيكون ، لأنه أكبر مدافع عنه ، وأنه هو الذى قضى بشرعية الاحتكارات ، وإذا لم يكن فى مقدور البرلمان بعد أن يخلع الملك ، فإن فى مقدوره تخرج وزيره ومساءلته . وفى فبراير عين لجنة لتقصى الحقائق فى دور القضاء خاصة . وفى مارس قادمة لجنة تقريراً

أثبتت فيه أنها وجدت مغالطات كثيرة ، لاسيما في تصرفات قاضى القضاة وسلوكه ، وأهمته بثلاث وعشرين حالة محددة من حالات الفساد . وأهاب ببيكون بالملك أن ينقذه ، متنبأ بأن « هؤلاء الذين يطعنون قاضى القضاة الآن ، سرعان ما يطعنون التاج بعده (٢٠) » . وأشار عليه جيمس باقرار الاتهام ، ومن ثم يضرب مثلاً يحول دون الفساد في الوظائف العامة مستقبلاً ، وفي ٢٢ أبريل أرسل ببيكون اعترافاً إلى مجلس اللوردات . وسلم بأنه أخذ هدايا من المتقاضين ، كما فعل سائر القضاة ، وأنكر أن أحكامه تأثرت بها — فانه كان قد أصدر في قضايا كثيرة أحكاماً ضد مقدمى الهدايا؛ وحكم عليه مجلس اللوردات « بدفع غرامة قدرها أربعون ألفاً من الجنيهات . وبالسجن في برج لندن لمدة يرضاها الملك ، ولا يكون له إلى الأبد الحق في تولى المناصب العامة ، وألا يدخل البرلمان في الدولة بأسرها » . وسبق في ٣٠ مايو إلى برج لندن ، ولكن أفرج عنه بعد أربعة أيام بأمر من الملك الذى ألغى كذلك الغرامة التى تبهظ كاهله . وآوى قاضى القضاة المعاقب إلى جورهامبرى ، وحاول أن يحيا حياة أكثر بساطة . ووجد راوى Rawley وهو أول من كتب سيرة حياة ببيكون — على ورقة كتبها عند وفاته ، بالرمز « كنت أعدل قاض فى إنجلترا فى هذه السنوات الخمسين ، ولكنه كان كذلك أعدل تزريع من البرلمان فى هاتين المائتين من السنين » (٢١) وكانت لهذا الاتهام والمحاكمة آثار طيبة ؛ ذلك أنها خففت من الفساد فى الوظائف العامة ؛ ولاسيما فى دور القضاء ، كما وضعت سابقة مسئولية وزراء الملك أمام البرلمان . كما أنها صرفت ببيكون عن ميدان السياسة ، الذى كان فيه متحرراً فى التفكير ؛ رجعيًا فى التنفيذ ؛ وردته ثانية إلى مجال بديل ؛ هو مجال العلم والفلسفة حيث أمكنه « أن يدق الناقوس لتجتمع العبقريات معا » وأن ينادى فى نثر رائع بثورة العقل ومنهجه .

٤ — التجديد الكبير

كانت الفلسفة لأمد طويل ، الملجأ الذى يلوذ به ببيكون ربما من عناء العمل ، إن لم تكن حبه الدفين الذى يطوى عليه جوانحه ، وأسمعده ما يصبو اليه ويقبل عليه ؛ وكان بالفعل قد نشر فى ١٦٠٣ — ١٦٠٥ مؤلفاً عظيماً The Proficiency (١٢)

and Advancement of Learning (اتقان المعرفة والنهوض بها) ولكن بدا له أن هذا مجرد برنامج تمهيدى وليس انجازا . وفى ١٦٠٩ كتب إلى أسقف إلى Ely : أرحو أن يأذن الله لى فى أن أكتب كتابا مستفيضا منصفيا فى الفلسفة ... (٣٢) » ، وفى ١٦١٠ كتب إلى كازوبون (عالم لاهوتى وكاتب فرنسى معاصر له) : « إن ما أهدف إليه هو أن أحدث تنظيما أفضل لحياة الانسان ... بفضل التأمل الصحيح المصادق (٣٣) » .

وفى أثناء السنوات التى أزعجته فيها المناصب ، كان ييكون قد أبصر - فى اقتراض طائش فى أيام السعة والثراء - بخطة وقورة لتجديد العلم والفلسفة . وقبل سبعة شهور من سقوطه ، أعلن الخطة فى كتاب باللاتينية موجه إلى كل أوروبا ، أسماه فى جراءة « التجديد الكبير » . وكانت صحيفة العنوان نفسها تحديا ، ذلك أنه قد رسم عليها قارب يعبر بأقصى سرعته أعمدة هرقل إلى الأطلسى ، ووضع بين الأعمدة أحد شعارات العصور الوسطى « لا تذهب إلى أبعد من ذلك » وكتب ييكون « إن كثيرين سوف يمرون عبره ، وسوف تزداد المعرفة والعلم » . وأضافت المقدمة المزهوة « إن فرانسيس فيرولام (ييكون) قد تدبر هذا بينه وبين نفسه ، وحكم بأنه من مصلحة الأجيال الحاضرة والمستقبلة أن تتعرف على أفكاره (٣٤) » .

ولما وجد أن « مايجرى فى مجال العلم الآن ليس إلا مجرد دوران حوله ، وحركة دائبة تنهى إلى حيث تبدأ ، خلص إلى أنه » :

ليس ثمة إلا سبيل واحد أمامنا وهو أن نحاول الأمر كله من جديد ، وفق خطة أفضل ، وأن نشرع فى أن نقيم من جديد ، إقامة تامة ، صرح العلوم والفنون العملية ، وكل المعرفة الانسانية ، على أساس سليم
وفضلا عن ذلك فانه لما لم يكن يعلم كم من الزمن قد ينتضى قبل أن تيسر هذه الأفكار لأجد غيره فانه

عقد العزم على أن ينشر على الفور كل ما يستطيع انجازه ،
حتى يبقى ، في حال وفاته ، موجزا أو خطة لما كان قد
فكر فيه . إن كل المطامح بدت لناظره هزيلة ضئيلة
إذا قورنت بالعمل الذي هو بصده (٢٥) .

وجعل إهداء المشروع برمته إلى جيمس الأول مع رجاء المذرة « لأننى سرقت
من الوقت المخصص لانجاز المهام التي وكلتها لى ، وقتا اقتضاه هذا العمل » ،
ولكن مع أكبر الأمل فى « أن يكون فى نتيجته تخليد لذكرى اسمك وتشريف
لعهدك » — وهذا ما حدث ، فان جيمس كان رجلا معروفا بسعة الاطلاع والنوايا
الطيبة ، فلو أمكن اقتناعه بتمويل الخطة ، فأى تقدم كان يمكن تحقيقه ؟ وكما كان
روجر بيكون قد أرسل قبل ذلك بزمان طويل (١٢٦٨) إلى البابا كليمنت الرابع
« العمل العظيم » يلتمس منه العون على تنفيذ اقتراح بالنهوض بالعلم والمعرفة ،
فان سميئه أهاب الآن بالملك أن يأخذ على عاتقه « مهمة ملكية » هى تنظيم البحث
العلمي ، والتوحيد الفلسفي لنتائجه ، من أجل الخير المادى والأدبى للجنس البشرى .
وذكر جيمس « بالملوك الفلاسفة » — نرفا ، تراجان ، هادريان ، أنطونينوس ،
بيوس ، ماركوس أوريليوس ، الذين هياؤوا للامبراطورية الرومانية حكومة فاضلة
لمدة قرن من الزمان (٩٦ — ١٨٠) بعد الميلاد . فهل كان من أجل حاجته إلى
الاعتمادات الحكومية وأمله فى الحصول عليها ، أنه أيد الملك بمثل هذا العناد
والاصرار ، وبشكل جر عليه الخراب ؟ .

وفى مقدمة أخرى طلب بيكون من القارئ أن يلتقى نظرة على العلم السائد وقد
هلهلته الأخطاء ، وركد بشكل غمز . لأن :

« العباقرة العظام ، على تعاقب العصور ، كانوا يرغمون
على الانحراف عن طريقهم ، إن الرجال ذوى القدرة
والفكر ، فوق مستوى السوق ، كان يسرهم ، من أجل
الشهرة ، أن ينحنوا أمام حكم الزمن والجماهير ، وهكذا

فان أى تفكير من مستوى رفيع ظهر فى أى مكان ، كانت تعصف به رياح الأفكار السوقية (٢٦) » .

ولكى يهدىء من روع رجال اللاهوت الذين كانوا متسلطين على الشعب أو الملك ، فان سيكون حذر قراءه من أن « يقصروا معنى » ما يضطلع به « فى حدود الواجب ، فيما يتعلق بالمسائل الالهية أو الدينية » . وتنصل من أى قصد له فى التعرض للعقائد أو الشئون الدينية . « إن المهمة التى بين يدى ليست رأيا يجب اعتناقه ، بل هى عمل يجب اقيام به . . . إلى لا أكد وأنصب فى وضع أساس أى مذهب أو نظرية ، بل أساس منفعة الانسان وقوته (٢٧) » . واستحث الآخرين أن يقبلوا عليه وينضموا إليه فى عمله ، ووثق فى أن الأجيال المتعاقبة ستواصله .

وفى نشرة تمهيدية رائعة عرض بيبكون خطة للمشروع :

فأولا ، يمكن أن يحاول تصنيفا جديدا للعلوم القائمة أو المرغوب فيها ، ويفرد لها مسائلها ومجالات البحث فيها ، وهذا هو ما أنجزه فى ” النهوض بالمعرفة “ ، الذى ترجمه ووسع فيه فى كتاب (التوسع فى العلوم) ١٦٢٣ ، حتى يصل إلى القراء فى القارة .

ثانيا : ، يمكن أن يتخصص مواطن الضعف فى المنطق المعاصر ، ويسعى إلى ” استغلال أدق وأكمل للعقل البشرى “ مما صاغه أرسطو فى رسائله المنطقية ، المعروفة فى جملتها باسم Organon ، وهذا ما فعله بيبكون فى كتابه Novum Organum (١٦٢٠) .

ثالثا : يمكن أن يشرع فى ” تاريخ طبيعى “ ” لظواهر الكون “ - القللك ، الفيزياء ، البيولوجيا .

رابعا : يمكن أن يعرض فى ” سلم الفكر “ نماذج من التحقيق العلمى ، طبقا لطريقته الجديدة .

خامسا : يمكن أن يصف مثل هذه الأشياء ، بوصفها بشار ، ” كما كشفتها أنا بنفسى “ .

سادسا : يمكن أن يشرع في تفسير تلك الفلسفة التي تعقبها في مختلف العلوم على هذا النحو ، ومن ثم يجب إيضاحها وإثبات صحتها . « ان اكمال الجزء الأخير . . . فوق طاقتي وأكثر مما أصبو إليه » . ويبدو لنا ، نحن الذين نتخبط وناهث اليوم في خضم المعرفة والتخصصات ، ان برنامج سيكون عقيم أشد العقم . ولكن المعرفة لم تكن آتتكمثل هذه السعة والدقة ، وأن روعة الأجزاء التي أنجزت لتغفر جراءة الكل . وعندما أفشى بيبكون إلى سيسل بقوله « اني ضمنت كل المعرفة إلى نطاق ولايتي » ، فانه لم يكن يقصد أنه في مقدوره أن يستوعب كل العلوم تفصيلا ، ولكنه قصد أن يستعرض العلوم ، وكأنما يمسحها أو يلقي عليها نظرة عامة « من عل » ، بغرض تنسيقها وتشجيعها . وقال وليم هارفي عن بيبكون إنه « كتب الفلسفة ، على نهج قاضى القضاة في الكتابة (٢٨) » ، بل وخططها كما يخطط القائد الامبراطورى معركة .

وانا لندرك اتساع مجال العقل وحدة الذهن عند بيبكون إذا نحن تتبعناه في كتاب « النهوض بالمعرفة » ، إنه يعرض أفكاره في نواضع غير مألوف ، على أنها « ليست أفضل كثيرا من الصوت ... الذى يحدثه الموسيقيون حين يضبطون آلاتهم (٢٩) » . ولكنه يعزف هتا كل نغماته المميزة ، إنه يدعو إلى مضاعفة عدد الكليات والمكتبات والمعامل وحدائق الأحياء والمتاحف العلمية والصناعية ، وتدعيمها جميعا ، كما يدعو إلى تحسين رواتب المعلمين والباحثين ، وتخصيص اعتمادات أكبر لتمويل التجارب العلمية ، وإلى انصال متبادل وتعاون أوثق وخطة أفضل لتوزيع العمل بين جامعات أوروبا (٤٠) . انه ، فى تقديسه أو عبادته للعلم ، لم يفقد رؤيته الصحيحة للأشياء أو وجهة النظر السليمة ، فهو يدعو إلى تعليم عام متحرر ، يشمل الأدب والفلسفة ، لأنه يهيمى للوصول إلى حكم سليم على الغايات التى تقترن بتحسين الوسائل على أساس علمى (٤١) . وهو يحاول أن يصنف العلوم فى ترتيب منطقى ، ويحدد مجالاتها وحدودها ويوجه كلا منها إلى أمهات المسائل التى تنتظر الفحص والحل وتحقق كثيرا من مطالبه عن طريق العلوم — تسجيل أفضل لتطورات المرض عند المريض ، إطالة الحياة باستعمال الأدوية الواقية ، الفحص الدقيق « للظواهر النفسية » ، والنهوض بعلم

النفس الاجتماعى . حتى لقد استبق دراستنا المعاصرة فى وسائل النجاح (٤٢) .

أما القسم الثانى والأكثر جراءة من « التجديد الكبير » فكان محاولة لصياغة منهج للعلم . لقد عرف أرسطو الاستقراء ، ودعا اليه أحيانا ، ولكن الأسلوب الغالب فى منطقته هو الاستنباط ، والمثل الأعلى فيه هو القياس . وأحسن بكون بأن المنهج القديم Organon قد أبى العلم راكدا ، بتوكيده على الفكر النظرى أكثر منه على الملاحظة . الواقعية . أما « المنهج الجديد » فقد عرض فيه بكون نظاما وأسلوبا جديدين للفكر — الدراسة الاستقرائية للطبيعة ذاتها ، عن طريق الخبرة والتجربة . وهذا الكتاب أيضا ، ولوأن بكون تركه دون أن يكتمل ، وعلى الرغم من كل عيوبه ، هو أروع إنتاج فى الفلسفة الانجائزية ، وأول دعوة صريحة واضحة إلى عصر العقل . ولقد كتب باللاتينية ، ولكن فى عبارات مشرقة بليغة ، جرى نصفها مجرى الحكم وجوامع الكلم . إن السطور الأولى جمعت أطراف فلسفة . . . تعلن الثورة الاستقرائية ، وتؤذن أو تنذر بالثورة الصناعية ، وتضع مفتاح التجريبية فى يد هوبز ولوك ومل وسبنسر .

ان الانسان بوصفه خادام الطبيعة ومفسرها ، يمكن أن يعمل ويفهم الكثير، والكثير حقاً من مجرى الطبيعة ، مادام قد لاحظ الطبيعة واقعيا ، أو بفكره . . . أما ما وراء هذا فهو لا يستطيع أن يدرك شيئا أو يعمل شيئا . إن المعرفة الانسانية والقدرة البشرية تلتقيان فى الانسان الواحد ، وحيثما لا يعرف مجرى الطبيعة ، لا يمكن إنتاج الأثر المطلوب . ولكي تسيطر على الطبيعة . ينبغى أن تمتثل لها (*)

وكما اقترح ديكرارت بعد ذلك بسبعة عشر عاما ، فى « بحث فى المنهج » : أن يبدأ الفلاسفة بالشك فى كل شيء ، فان بكون هنا يتطاب تنقية الفكر « كخطوة أولى فى التجديد » . ذلك أن « المعرفة الانسانية كما نعهدها فى انفسنا ، ان هى إلا خليط وأكاداس

(*) العبارة المشهورة « المعرفة قوة » لا ترد بهذه الصيغة فى مؤلفات بكون الموجودة الآن . ولكن فى نبذة من « التأملات المقدسة » كتب يقول « المعرفة اقسمها قوة » (٤٣) والفكرة ، بطبيعة الحال ، سائدة فى كل كتابات بكون .

لم يتيسر هضمها ، مكونة من كثير من السداجة وسرعة التصديق ، وكثير من المصادفات والأعراض غير الجوهرية ، وكذلك من الإنكار الصبائية التي تشربناها في أول الأمر (٤٤) . ومن ثم يجدر بنا ، منذ البداية ، أن نخلى أذهاننا ، قدر الطاقة ، من أية انشغالات سابقة وتحيزات وافتراضات ، بل يجدر بنا حتى أن ننصرف عن أفلاطون وأرسطو ، ونكتسح من أفكارنا « الأصنام » أو الأوهام الخالدة التي ولدها فينا فرط الحساسية في الحكم على الأشياء أو المعتقدات والتعاليم التليدية السائدة في مجتمعنا ، ويجب أن نبدل الحيل المنطقية التي يملها التفكير لمجرد الرغبة في شيء ما ، والحقائق اللفظية للتفكير الغامض ، ويجب أن نخلف وراء ظهورنا ، كل طرق الاستنباط الفخمة ، تلك الطرق التي عرضت أن نستنبط ألفاً من الحقائق الباطنة من بضع بديهيات أو مبادئ قليلة . وليس في العلم قبة سحرية ، وكل ما يؤخذ من القبة لخدمتنا يجب أن يوضع أولاً عن طريق الملاحظة أو التجربة . ولكن لا يقصد هنا مجرد الملاحظة العابرة ، أو « السرد البسيط » للمعطيات ، ولكن « الخبرة المطلوبة للتجربة » . وعلى هذا نجد أن يكون الذي غالباً ما انتقص من قدره على أنه يتجاهل المنهج الحقيقي للعلم ، يتقدم ليصف المنهج الفعلي للعلم الحديث :

إن المنهج الصحيح للاختبار ، يشعل النور أولاً (بالافتراض) ، ثم بواسطة هذا الضوء ينير الطريق ، بادئاً بالاختبار ترتيماً سليماً . ومنه يستنتج بديهيات « الثمار الأولى » ، (النتائج المؤقتة) ومن البديهيات الراسخة تبدأ ثانية تجارب جديدة . . . إن التجربة نفسها هي التي ستقرر وتحكم (٤٥) .

ومهما يكن من أمر فإن يكون كان على حذر من الفرضيات . حيث كانت في الكثير الغالب توحى بها التقاليد أو التحيز أو الرغبة ، أي توحى بها (مرة أخرى) « الأصنام » . فكان يرتاب في أي نهج تقليدي تصطفي الفرضية فيه ، قصداً أو عن غير قصد من التجريب معطيات مثبتة أو مؤكدة لها ، وتفسر تفسيراً خاطئاً أو تتعالم عن الشواهد العكسية أو المضادة . وتجنباً للوقوع في هذا الشرك ، اقترح بيبكون استقراء شاقاً ، بتجميع كل الحقائق الوثيقة الصلة بالمسألة ، وتحليل هذه الحقائق ومقارنتها

وتصنيفها ، وربطها بعضها ببعض ، ثم « بعملية صحيحة من « الاستبعاد والنبد » أى التخلص من فرضية بعد أخرى ، على التعاقب ، حتى يمكن الكشف عن « الصيغة » أو القانون الأساسى الضمنى وجوهر الظاهرة (١٦) . إن معرفة « الصيغة » سوف يهيئ تحكماً متزايداً فى الحدث ، فيعيد العلم بالتدريج صنع البيئة ، بل من المحتمل صنع الإنسان نفسه .

وأحسن سيكون بأن هذا هو الهدف النهائى — أى أن منهج العلم سوف يطبق على التحايل البالغ الدقة للشخصية الإنسانية ، والتصميم على إعادة تشكيلها . ويحث ليكون على دراسة الغرائز والعواطف ، وهذه وتلك وثيقة الصلة بالذهن ، قدر صلة الرياح بالبحر (١٧) . ولكن هنا بصفة خاصة ، لا يكون الخطأ فى مجرد التماس المعرفة ، بل فى نقلها . ويمكن إعادة صنع الإنسان عن طريق التعليم المستنير ، لو أننا كنا نريد أن تجذب إلى ميدان التربية عقولا من الطراز الأول بمنحهم الرواتب الكافية وتكريمهم (١٨) . ويبدى يكون إعجابه بالجزويت ، وتمنى لو أنهم « كانوا على مذهبنا وفى صفنا » (١٩) ، ويستنكر المخلصات ، ويحبذ التمثيل فى الكليات ، ويدعو إلى مزيد من العلم فى البرامج ، فلماذا نظرنا إلى العلم والتعليم على هذا الأساس ، فلنهما (كما جاء فى « قارة أطلنطس الحديدية » لن يكونا من خدم الحكومة وأدراهما . بل مرشدها وهدفها ، ويختتم قاضى القضاة الأمين بقوله « لى أراهن بكل شئ فى سبيل نصرة الفن على الطبيعة فى سباقها » .

٥ — فلسفة رجل الدولة

هنا نحس بعقل جبار ، أى — رجل واحد على مدى قرن ، متمكن من الفلسفة ومن السياسة على حد سواء . وقد يشوقنا أن نقف على تفكير الفياسوف فى السياسة ، وتفكير السياسى فى الفلسفة .

وعلى الرغم من أنه كان لى يكون منهج فى الفلسفة ، وأنه ترك عرضاً حسن الترتيب لفكره ، باستثناء المنطق ، فإن اتجاه أفكاره كان واضحاً ، ولو أنها اتخذت شكلاً يدل على رجل كان لزاماً عليه كثيراً أن يخرج عن هدوء الفلسفة لينظر فى قضية

قانونية ، أو ليقف في وجه المعارضة في البرلمان ، أو ليمحض الرأى والنصح ملكاً لا يجدى معه الرأى والمشورة . ويجدر بنا أن نجمع آراءه من تعليقاته العابرة ومن نبذه الأدبية ، بما في ذلك « مقالاته » (١٥٩٧ ، ١٦١٢ ، ١٦٤٥) . وفي إهدائه هذه المقالات إلى بكنجهام ، وفي غرور صناعة الكتابة ، كتب بيبكون ، « إنى أرى . . . أن الأثر قد يبقى ما بقيت الكتب » . وكان أسلوبه في رسائله متكلفاً ملتوياً ، حتى لقد اعترفت زوجته : « إنى لا أفهم كتابته الملفوفة المليئة بالألغاز (٥٠) » . وبذل في « المقالات » جهداً أكبر ، وراض قلمه على الوضوح ووصل إلى قوة هائلة في التعبير ، لا تباريه فيها إلا صحائف معدودة في النثر الانجليزى ، من حيث المادة ذات المغزى الهام الزاخرة بالتشبيهات المشرقة الواضحة في صياغة دقيقة ، وكأنما أولع تاسيتس (مؤرخ روماني — القرن الأولى الميلادى) بالفلسفة ، وتنازل ليكون واضحاً .

إن حكمة بيبكون دنيوية إنه ينصرف عن الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) إلى الخفى أو الطائش من الأمور ، وقليل ما قفز طموحه الوثاب من الجزء إلى الكل . ومهما يكن من أمر فإنه يبدو أحياناً أنه يخوض في مادية حتمية : « لا يوجد في الطبيعة حقاً ، شيء عدا الأجسام الفردية التى تؤدى أعمالاً فردية صرفة طبقاً لقانون محدد (٥١) » . وإن البحث في الطبيعة لياتى بأحسن النتائج حين يبدأ بالفيزياء وينتهى بالرياضيات (٥٢) ولكن " الطبيعة " هنا قد تعنى العالم الخارجى . لقد أثر بيبكون الفلاسفة المتشككين قبل سقراط ، على أفلاطون وأرسطو . وامتدح ديموقريطس الفيلسوف المادى (٥٣) . ولكنه حينئذ يرتضى تمييزاً دقيقاً بين الجسم والنفس (٥٤) ، ويستبق انتقاد بيرجسون للفكر على أنه « مادى أساسى » . « إن إدراك الإنسان يتأثر برؤية ما يجرى في الفنون الميكانيكية . . . ومن ثم يتخيل أن شيئاً شبيهاً بهذا يجرى في الطبيعة الأشياء (٥٥) » . ويرفض مقدماً البيولوجيا الميكانيكية عند ديكارت .

ومع ما يعتمل في نفسه من عواطف متصارعة نحو الدين ، نراه « يتبل » في حرص ، فلسفته « بالدين ، وكأنما يتبل بالملح (٥٦) » « الأفضل عندى أن أصدق الخرافات التى

في حياة القديسين وفي التلمود وفي الكتب المقدسة ، على أن يكون هذا العالم بلا عقل (٥٧) . ويضع الاتحاد في مكانه في قطعة تكررت مرتين (٥٨) . وإن تحليله لأسباب الاتحاد لتوضح فكرة هذا الكتاب : -

إن أسباب الاتحاد هي الانقسامات في العقيدة ، إذا كانت كثيرة ، لأن أي انقسام أساسي يلهب حماسة الفريقين كليهما وغيرتهم ، ولكن الانقسامات الكثيرة تقود إلى الاتحاد ، وثمة سبب آخر ، وهو أعمال القس المحزنة . وأخيرا ، عصور المعرفة ، وخاصة إذا سادها السلم والرخاء ، فإن الماعب والعداوات تزيد في اتجاه عقول الناس إلى الدين (٥٩) .

إن يكون يؤكد قاعدة أن " الدين يحد من كل ألوان المعرفة (٦٠) " . وطبقا لما رواه قسيسه راوولي « كان يذهب كثيرا إلى الصلاة في الكنيسة ، إذا سمحت ظروفه الصحية » ولقي ربه على العقيدة الصحيحة للكنيسة الانجليزية (٦١) وعلى الرغم من ذلك ، فانه أفاد ، مثل خلفه العظيم وليم أوكهام ، من التمييز بين الحقيقة اللاهوتية والحقيقة الفلسفية ، فقد يحسك الدين بمعتقدات لا يجد العلم والفلسفة عليها دليلا ، ولكن الفلسفة يجب أن تعتمد على العقل فقط ، كما أن العلم ينبغي أن يلتزم تفسيرات دنيوية صرفة ، على أساس سبب ونتيجة ماديتين (٦٢) .

وعلى الرغم من تحمس يكون للمعرفة ، فانه يخضعها أو يضعها في المحل الثاني من الأخلاق . فليس ثمة نفع للإنسانية إذا لم يؤد التوسع في المعرفة إلى الخير . « إن طيبة النفس هي أهم مزايا العقل ومنازله الرفيعة (٦٣) » ومهما يكن من أمر فان حماسه المألوفة تفر حين يتحدث عن الفضائل المسيحية . ومن الواجب ممارسة الفضيلة باعتدال ، لأن الأشرار قد يخدعون الاخيار غير الحكماء (٦٤) . وقليل من الخدع أو الرياء ضروري للنجاح ، إن لم يكن المدنية . والحب ضرب من البخون ، والزواج نوع من الشرك أو الفخ : « إن الذي له زوجة وأولاد ، يضع عقبات في سبيل النجاح ، لأنهم عوائق في سبيل المغامرات والمشروعات الكبيرة . . .

إن أفضل الأعمال وأعظمها أثرا على الناس نبتت من إناس ليس لهم زوجة ولا أولاد . ” وأقر بيبكون — مثل اليزابث وهلدبراند — عزوبة رجال الدين .
 إن حياة العزوبة تصلح لرجال الكنيسة ، لأن الصدقات لا تكاد تروى الأرض ،
 إذا كان لزاما عليها أولا أن تملأ بركة (٦٥) ” (لاحظ نزعته إلى الاستعارة والمجاز
 والايجاز الأنجلوسكسوني) . إن الصداقة خير من الحب : وإن المتزوجين ليكونون
 صداقات غير مستقرة . إن بيبكون يتكلم عن الحب والزواج بأسلوب رجل ضحى
 بالعوائف الرقيقة في سبيل الطموح ، ورجل أمكنه أن يحكم مملكة أفضل من أن
 يحكم بيته .

أما فلسفته السياسية فقد واجهت حالات وظروفا أكثر مما واجهت نظريات .
 وأولى من الشجاعة ما امتدح معها ما كيا فلي . وارتضى صراحة المبدأ القائل بأن
 الدول ليست مقيدة بالقانون الأخلاقي الذي تلقنه لرعاياها . وأحس — مثل نيتشه ،
 بأن الحرب الجيدة ترحب بأي سبب ، » ويجب ألا نستمع إلى رأى أساتذة وفلاسفة
 العصور الوسطى الذي يقول بأنه ليس من العدل أن تشن الحرب إلا إذا سبقها
 وقوع الضرر أو الاستفزاز ... إن الخوف الحقيقى من خطر محقق ، ولولم تحدث
 أية ضربات ، سبب مشروع للحرب . « وفى أية حادثة » فإن الحرب العادلة
 الشريفة هى الطريقة المثلى » للمحافظة على الأوضاع السليمة للأمة (٦٦) . وإنه لمن
 أسمى درجات الأهمية ، من أجل الامبراطورية والعظمة ، أن تؤمن الأمة بأن
 « سلاحها هو مناط شرفها ، وهو هدفها وشغلها الشاغل » . والبحرية القوية ضمان
 لاحترام الجيران . « والسيادة على البحار هى الرمز الحقيقى للملكية (٦٧) » . وفى
 شباب الدولة تزدهر الأسلحة ، وفى وسط عمر الدولة ، تزدهر المعرفة ، ثم تزدهر
 الأسلحة والمعرفة كلتاهما معا لفترة من الزمن ، وفى عصر اضمحلال الدولة تنتعش
 الأعمال التجارية والتجارة (٦٨) . وسكان المدن محاربون ضعاف ، والفلاحون أو
 القرويون أفضل منهم فى الحرب ، ولكن صغار ملاك الأرض الأحرار أفضل
 الجميع . ومن ثم فإن بيبكون — مثل مور ، استنكر المساحات الزراعية الكبيرة

المسورة ، لأنها تقلل من نسبة ملاك الأراضي في السكان . واستنكر تركيز الثروة على أنه سبب هام من أسباب الفتن والثورات :

وأول علاج أو مانع لهذه ، هو أن نزيل بكل الوسائل الممكنة ، السبب المادى . . . وهو الحاجة والفاقة . . . ونهتّم بكل ما نخدم التوسع في التجارة وتوازنها ، وتعزيز الصناعة والقضاء على الخمول ، والتبديد والتبذير ، بسن قوانين الحد من الانفاق وتنظيمه . وتحسين التربة وعدم إرهاقها وتحديد أسعار الحاجيات المبيعة وتخفيف الضرائب وفوق هذا كله ، انتهاج سياسة حكيمية في عدم تجميع ثروات الدولة . وأموالها في أيدي قليلة إن المال مثل السماد ، لاخير فيه ، إلا إذا انتشر (٦٩) .

وارتاب بيكون في البرلمان ، بوصفه مشكلا من ملاك الأراضي والتجار غير المتعلمين المتعصبين أو وكلائهم ، وفكر في أن جيمس الأول ، بالمقارنة بهؤلاء ، متعلم يتحلّى بروح إنسانية ، بل إن نظرية الملك في " الحكم الاستبدادى المطلق " بدت في نظره خيرة كبديل عن الزمر الجشعة والمذاهب العنيفة . واعتبر - مثل معاصره ريشيليو - أن تركيز السلطة في يد الملك ، واخضاع كبار ملاك الأراضي له ، خطوة ضرورية لإقامة حكومة منظمة . وذهب ، مثل فولتير : إلى أن تعليم رجل واحد أيسر من تعليم الجماهير . إن الثروة الهائلة الخاصة لم تزعج الملك . وكان جيمس مشدودا في عناد بالغ إلى التبذير والضرائب والسلام .

وسخر بيكون من « الفلاسفة » الذين « يسنون قوانين خيالية لدول خيالية » ، إن مقالاتهم أو محاضراتهم ، كالنجوم التي لاتعطى إلا قليلا من الضوء لأنها على ارتفاع شاهق . ولكنه في أيام سأمه ، أغرى بأن يصور نوع المجتمع الذى يريده للناس ليعيشوا فيه . ولاريب في أنه كان قد قرأ " يوتوبيا " مور (١٥١٦) ، وكان كامباللا قد نشر لتوه كتابه " مدينة الشمس " (١٦٢٣) ، والآن في ١٦٢٤

كتب بيكون " القارة الجديدة " (The New Atlantis) " أبحرنا من يبرو التي كنا قد قضينا فيها سنة كاملة إلى الصين واليابان عبر البحر الجنوبي " : هدوء تام ، أرزاق محدودة ، جزيرة تحوطها العناية الإلهية ، شعب يحيا حياة سعيدة في ظل قوانين سنّها لهم المغفور له الملك سليمان . وبدلا من البرلمان ، مجلس سليمان — مجمعة من المراقب والمعامل والمكتبات وحدائق الحيوان والنبات ، مزودة برجال العلم ورجال الاقتصاد والفنيين والأطباء وعلماء النفس والفلاسفة ، مختارين (كما هو الحال في جمهورية أفلاطون) بعد اختبارات متكافئة بعد فرص تعليمية متكافئة ، ثم (دون إجراء انتخابات) يحكمون الدولة ، أو بالأحرى ، يحكمون الطبيعة ، لمصلحة الانسان . ويشرح أحد هؤلاء الحكام للمترجمين القادمين من أوروبا فيقول : " إن غاية مؤسستنا هي معرفة أسباب الأشياء وحركاتها الخفية ، وتوسيع حدود " امبرطورية الانسان ، من أجل التأثير في كل الأشياء الممكنة (٧٠) " ، وفي هذه " الفتنة " التي تقع في جنوب المحيط الهادى ، اخترع سحر سليمان بالفعل الميكروسكوب والتلسكوب والساعات الذاتية الملىء ، والغواصات والسيارات والطائرات ، واكتشفوا المسكنات والتنويم المغناطيسى ، ووسائل المحافظة على الصحة ، وإطالة العمر ، ووجدوا طرق تطعيم النبات وتوليد أنواع جديدة ، وتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة . ونقل الموسيقى إلى أماكن بعيدة . وفي مجلس سليمان ترتبط الحكومة والعلم معا . وكل الأدوات وتنظيم البحث ، وهو ما كان يكون قد توسل إلى جيمس أن يزود به البلاد ، موجودة هنا ، في القارة الجديدة ، كجزء من عدة الحكومة وأدواتها . والجزيرة تتمتع باستقلال اقتصادى ، وهى تتحاشى التجارة الخارجية لأنها شرك ينصب الحرب . إنها تستورد المعرفة لا السلع . وهكذا يحتل الفيلسوف المتواضع مكان رجل الدولة المزهو بنفسه ، كما أن نفس الرجل الذى كان قد نصبح بالحرب أحيانا عند الاقتضاء ، يوصفها دواء مقويا أو منشطا اجتماعيا ، نراه الآن ، وقد آذنت شمس حياته بمغيب ، يحلم بجنة من السلام .

٦ - صيحة العقل

استمر بيكون يعمل حتى النهاية . فنشر بعد عام واحد من تقاعده ، " تاريخ

حكم هنرى السابع ، سجل به مستوى جديدا لكتابة التاريخ ، فهو تفسير واضح صريح ، فى نثر رشيق قوى ، للقضايا والسياسات والأحداث ، وصورة وصفية أدبية منصفة نزيهة أخاذة لحاكم بعيد عن المثالية ، حقيقية إلى حد بعيد (٧١) . وأعقب هذا مجموعة من الرسائل : ” دراسة فى الرياح ” ” دراسة فى الكثافة والتخلخل ” . ” دراسة فى الحياة والموت ” ، وأبحاث أخرى ، لقد تهيأ له الآن من الفراغ ما لم يكن يتوقعه ، فليس ثمة دار ولا أهل ولا أصدقاء ، فان كل طلاب المنافع الذين كانوا يزدحجون على بابه أيام نفوذه وسلطانه ، تمسحوا الآن بأعتاب أخرى . وسأل مرة أحد من يتبادل معهم الرسائل : ” من معك من الزملاء فى عملك ؟ فأجاب انى الآن فى وحدة تامة (٧٢) ” .

وفى ما كان يحاول أن يختبركم من الوقت يمكن أن يحفظ الجليد اللحم من التعفن والفساد ، قطع الرحلة ذات يوم من أيام الربيع ليشتري دجاجة ، وذبحها وحفظها فى الجليد ، فوجد أنه أصيب بقشعريرة . فلجأ إلى دار لورد أرونديل Arundel المجاورة ، حيث وضعه فى الفراش ، وظن أنه سقم عارض لا يلبث أن يزول ، وكتب أن التجربة ” نجحت نجاحا تاما ” ، إنه حفظ الدجاجة ، ولكنه فقد حياته . تم قضت عليه الحمى ، وخنقه البلغم فى ٩ ابريل ١٦٢٦ . ومات فى سن الخامسة والستين . وانطفأت الشمعة المتوهجة نجاة .

لم يكن بيبكون ، كما ظن بوب ” أحكم وأذكى وأحط بنى الانسان (١٣) ” . فان مونتاني كان أحكم ، وفولتير أذكى ، وهنرى الثامن أحط ، وقال أعداء بيبكون عنه إنه كان عطوفا نافعا ، يبادر إلى الصفح والمغفرة . وكان أنانيا إلى حد الخنوع والاستسلام ، ومزهوا إلى حد اغصاب الآلهة . ولكننا نشاركه هذه الأخطاء إلى حد نغفر معه طبيعته البشرية من أجل الأضواء التى نشرها . إن غروره كان القوة الدافعة فيه . وإذا كنا نرى أنفسنا كما يرانا غيرنا لثبات حركتنا وتوقفنا عن العمل .

ولم يكن بيبكون من رجال العلم أو الأفراد العلميين ، ولكنه كان فيلسوف علم . وكان مدى قوة الملاحظة عنده هائلا ، ولكن مجال تأمله وتفكيره كان فسيحا إلى

حد لا يهيء له الوقت الكافي للبحث الخاص . وحاول شيئا من هذا دون نتيجة تذكر . . . وتختلف كثيرا عن تقدم العلم المعاصر . ونبد آراء كوبرنيكس الفلكية ، ولكنه أورد أسبابا وجيهة لذلك^(٧٤) . وتجاهل كبلر وجاليليو ونايير . وكثيرا ما تنبه (كما حدث في " القاره الجديدة ") إلى دور ملكة الخيال والافتراض والاستنباط في البحث العلمي ، ولكنه ظل ينتقص من أهميته ، وأتى اقتراحه بطول الأناة في تجميع الحقائق وتصنيفها ، بأحسن النتائج في علم الفلك ، حيث زودت الأرصاد النجمية والتسجيلات التي قام بها آلاف الباحثين - زودت كوبرنيكس بمادة استقرائية ، لاستنباطاته الثورية ، ولكنها لم تكن قريبة الشبه بالطرق الفعلية التي كشفت في عصره قوانين حركات الكواكب وتوابع المشتري وجاذبية الأرض والدورة الدموية .

ولم يزعم بيبكون أنه اكتشف الاستقراء ، وعرف أن أناسا كثيرين مارسوه من قبل . ولم يكن أول من " أطاح " بأرسطو . فان رجلا مثل روجر بيبكون ، وبتروس راموس ، فعلا هذا لعدة قرون خلت . ولكن أرسطو الذي أطاحوا به (كما تحقق بيبكون أحيانا) لم يكن أرسطو الاغريق الذي كان كثيرا ما استخدم وامتدح الاستقراء والتجريب ، ولكن أرسطو الفيلسوف الذي صنعه العرب وأتباع الفيلسفة السكولاستية (الفيلسفة النصرانية في العصور الوسطى) . إن الذي أراد بيبكون أن يقضى عليه هو المحاولة الخاطئة لاستنباط عقائد العصور الوسطى من الميتافيزيقا القديمة ، لقد ساعد بيبكون على أية حال ، على تخليص أوروبا النهضة من الاذعان البالغ التزمّت للقديم .

ولم يكن بيبكون أول من أكد أن المعرفة طريق القوة . فقد فعل روحر بيبكون هذا من قبل ، وقال كامبانالا ، في بلاغة بيبكون : " إن قوتنا تتناسب مع معرفتنا^(٧٥) " . وربما أفرط رجل الدولة في الالحاح على الغايات النفعية (طبق المذهب المنفعة) للعلوم . ومع ذلك فانه أقر بقيمة " العلوم البحتة " بمقارنتها " بالعلوم التطبيقية " - - - تميزا " لنور العلم " عن " ثماره " . وحث على دراسة الغايات والوسائل بقدر سواء ، وأدرك أن قرنا من الاختراع لابد أن يخلق مشاكل كبرى ،

أكثر من أن يحل المشاكل القائمة ، إذا ترك الدوافع الانسانية على حالها دون تغيير ؛ وربما تبين سيكون ، في انحلاله الخلقى هو نفسه ، الهوة التى خلقها تقدم المعرفة إلى ما هو أبعد من تهذيب الخلق ؛

ترى ماذا تبقى بعد ما أسلفنا من استنتاجات متأخرة ؟ يبقى أن يكون كان أقوى أهل الفكر والذكاء وأعظمهم أثرا في زمانه . لقد بزه شكسبير بطبيعة الحال في الخيال والفن الأدبى . ولكن عتل يكون خلق في الكون كله ، مثل نور كشف يحدق ويحقق مستطعا ، في كل الزوايا والخفايا ، فتمثلت فيه كل حماسة النهضة المتقدمة اليقظة ، وكل الانارة والزهو اللذين تملكا كولمبوس وهو يبحر مسعورا إلى عالم جديد . استمع إلى هذه الصيحة المرححة من الديك روبين Cock Robin وهو يؤذن بانبلاج الفجر :

وهكذا انتهت من هذا القسط من التعليم الذى يمس المعرفة المدنية ، وبهذه المعرفة المدنية ختمت الفلسفة الانسانية ، وبهذه الفلسفة الانسانية ، انتهت من الفلسفة بصفة عامة . والآن وقد توقفت قليلا ، أنظر إلى الوراء ، إلى ما مررت به أو تصفحته ، فانه يبدو لى ، قدر ما يستطيع الانسان أن يحكم على نفسه ، أن هذه الكتابة ليست أفضل كثيرا من الصخب أو الصوت الذى يحدثه الموسيقيون عند ضبط آلاتهم ، مما لا يطرب الانسان لسماعه ، ومع ذلك فان هذا الضبط سبب في حلاوة الموسيقى فيما بعد . وكذلك قنعت أنا بضبط آلات الوحدى والتأمل حتى يكون العزف أفضل والأيدى أقدر . وحقا ، أنى إذ أضع أمانى حالة هذه الأزمان التى قامت فيها المعرفة بزيارتها أو جولتها الثالثة ، بكل خصائصها ، مثل تفوق عباقرة هذا الزمان وحيويتهم ، والمساعدات والأنوار التى حصلنا عليها من أعمال الكتاب القدامى ، وفن الطباعة الذى ينقل الكتب إلى كل الناس من جميع المستويات ، وانفتاح العالم بفضل

الملاحظة التي كشفت الذئاب عن تجارب لاحصرها ، وعن قدر كبير من التاريخ الطبيعي ... أقول حقا إنى إزاء هذا كله ، لأملك إلا أن أصل إلى الاقتناع بأن هذه الحقبة الثالثة من الزمن تفوق كثيرا عهد المعرفة اليونانية والرومانية ... أما عن جهودى وأعمالى ، إذا كان ثمة جهود وأعمال لى ، فانه إذا عنى الانسان أن يسر نفسه أو يسر الآخرين بالانتقاص من قيمتها أو نقدها ، فانها ستعود إلى المطلب القديم المتسم بالصبر والجلد « اضربنى إذا ما أردت ، ولكن اسمعنى فقط » فلينتقد الناس وليقرعوا ماشاءوا ، فانهم بذلك سوف يلاحظون ويقدرّون (٧٦) .

إن بيبكون عبر عن أنبل مشاعر عصره — لتحقيق حياة أفضل عن طريق التوسع فى المعرفة — ومن ثم فإن الاعقاب خلدوا ذكره بتذكار حى ، هو تأثرهم به ، لقد حركت روحه — لا طريقته — العلماء وبعثت فيهم القوة والنشاط . فكأن أنعشهم وشحن عزائمهم ، بعد قرون كانت العقول فيها حبيسة قواعد ، أو واقعة فى شرك عناكب من نسج الرغبات لالحقائق ، أن يصادفوا رجلا أحب صوت الحقيقة مهما كان عنيقا ، وأحب جو البحث والكشف ، وهو جو يبعث على الحياة ، رجلا وجد متعة فى لقاء ظلال الشك على دياجير الجهل والخرافة والخوف . وظن بعض رجال ذلك العصر ، مثل دون ، أن العالم فى طريقه إلى الاضمحلال والانحلال ، وأنه يسير بسرعة إلى نهاية الفناء والتحطيم ، فأعلن بيبكون إلى عصره أنه مرحلة شباب عالم ، زاخرة بثورات الحياة .

ولم يكن الناس لينصتوا إلى بيبكون فى بداية الأمر ، فإنهم فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا آثروا تحكيم السلاح فى صراع العقائد ، فلما خفت حدة هذا الصراع ، فإن هؤلاء الذين لم يكونوا مغلولين بقيود الحقائق ، احتشدوا ، تحذوهم روح بيبكون ، ليزيدوا من سيطرة الناس ، لا على الناس ، بل على ظروف حياة الانسان وما يعتورها (١٨)

من عقبات . وعندما أسس رجال من الانجليز « الجمعية الملكية في لندن للنهوض بالمعرفة الطبيعية » (١٦٦٠) ، كان تكريما لفرانسيس بيكون وتخليدا لذكراه ، أن يكون مصدر وحى الجمعية وملهمها ، ومن الجائز أن : « مجلس سليمان » في « القارة الحديدية » هو الذى حدد هدفها (٧٧) . وحيا لبيّنز بيكون باعتباره خالقا للفلسفة من جديد (٧٨) . وعندما تكاثف فلاسفة عصر التنوير لتأليف دائرة معارفهم التى هزت العالم (١٧٥١) فانهم أهدها إلى فرانسيس بيكون . وكتب ديدرو في نشرتها التمهيدية : « إذا كنا أدينا مهمتنا بنجاح ، فاننا نكون مدينين بأكبر الفضل لقاضى القضية بيكون الذى اقترح خطة قاموس عالمى للعلوم والفنون ، في عصر لم يوجد فيه — إذا صح التعبير — علوم ولا فنون ، وأن هذا العبقرى الفذ ، كتب في عصر كان من المستحيل فيه كتابة تاريخ لما هو معروف — كتب تاريخا أو دراسة لما هو ضرورى أن نتعلمه أو نعرفه » . وفي غمرة الحماس قال دالمبرت عن بيكون « إنه أعظم الفلاسفة وأفصحهم وأكثرهم شمولا » . ولما تمخضت جماعة التنوير عن الثورة الفرنسية قررت نشر مؤلفات بيكون على حساب الدولة (٧٩) . ونهج الفكر البريطانى في مغزاه ومبناه ، من هوبز إلى سبنسر — باستثناء بركلى وهيوم والهيغلين الانجليز — منهج بيكون ، فان نزعته إلى إدراك العالم الخارجى على أساس من المذهب الذرى عند ديموقريطس ، هى التى حركت هوبز إلى المادية ، وتوكيده على الاستقراء هو الذى وجه هوبز إلى علم النفس التحريبي الذى تتحرر فيه دراسة العقل من ميتافيزيقا النفس ، كما أن تركيزه على « المنافع » و « التطبيقات » أسهم مع فلسفة هلفشيوس في توجيهه بنشام إلى تعيين « النافع والصالح أو الحسن » . وأخيرا فان روح بيكون هى التى هيأت إنجلترا للانقلاب الصناعى .

ومن هنا جاز لنا أن نضع بيكون في قمة عصر العقل . لأنه لم يكن مثل بعض من جاءوا بعده ، يحب العقل حبا أعمى ، فانه ارتاب في أية أفكار أو خطط لم يتحقق منها التجريب الفعلى ، وفي كل النتائج التى شابتها الرغبة . « إن الادراك الانسانى ليس ضوءا جافا ، إن الارادة والعواطف تنفخ فيه ، ومن ثم تنطلق العلوم التى يمكن تسميتها : بعلوم يريدها الانسان ، لأن ما يرى الانسان أنه يكاد يكون

حقيقيا ، يصدقه ويؤمن به على الفور » (٨٠) . وآثر بـيكون ” ذلك العقل المنزع من الحقائق ، ومن تحالف أوثق وأنقى بين هاتين القوتين : التجريدية والعقلانية ، يمكن أن نأمل في خير كثير (٨١) “ .

كما أن بـيكون لم يقل ، مثل فلاسفة القرن الثامن عشر ، بأن العقل عدو الدين أو أنه بديل عنه ، إنه أفسح لكل منهما مجالا في الفلسفة وفي الحياة . ولكنه كره الاعتماد على التقاليد والنصوص والمراجع ، وطالب بتغييرات عقلانية طبيعية بدلا من الافتراض أو الحدس العاطفي ، ومن الاعتراضات الخارقة للطبيعة ، والأساطير الشعبية المألوفة . إن بـيكون رفع راية كل العلوم ، وجذب للانضواء تحته أشد العقول تلهفا في الأجيال القادمة . وسواء شاء أو لم يشأ ، فإن العمل الذي دعا إليه — التنظيم الشامل للبحث العلمي ، والتوسع في المعرفة ونشرها في العالم بأسره — نقول ان هذا العمل يحوى في طياته بذور أعمق مسرحية في الأزمنة الحديثة : المسيحية ، كاثوليكية أو بروتستانتية ، تناضل من أجل حياتها ، ضد انتشار العلم والفلسفة وقوتها . وكانت المسرحية الآن قد ألفت مقدمتها على العالم .

الفصل الثامن

الثورة الكبرى

١٦٢٥ - ١٦٤٩

١ - الاقتصاد المتغير

إن الثورة التي سودت برلماناً وقتلت ملكاً - قبل أن يكفر لويس السادس عشر عن ذنوب أسلافه ، بمائة وأربعة وأربعين عاماً - كانت لها جذورها في الصراع الاقتصادي والحلف الديني ،

كان الإقطاع تنظيماً يعتمد كل الاعتماد على الزراعة . وكانت الملكية تنظيماً بلغ بالإقطاع ذروته . وكانت مرتبطة أشد الارتباط باقتصاد يقوم على الملاك والأرض . وحدث في إنجلترا تطوران اقتصاديان قطعاً هذه الجذور الإقطاعية . أحدهما نمو طبقة كرام المحتد ذوي الملكيات الصغيرة من غير ذوي ألقاب النبالة (Gentry) ، وهم في موقف وسط بين الأشراف أو النبلاء ذوي الألقاب ، وبين صغار مالكي الأرض الأحرار أو المزارعين الذين يملكون أرضاً . وكانت أيديهم مغلولة في ظل ملك وحاشية ومجموعة من القوانين لا تزال تفكر أو تصاغ بعقلية النظام الإقطاعي . ولما اشتروا المقاعد في مجلس النواب أو استولوا عليها عنوة ، وتطلعوا إلى حكومة خاضعة لبرلمان خاضع لهم هم أنفسهم . أما التطور الثاني فهو نمو ثروة البرجوازية - أصحاب المصانع والمحامون والأطباء - ومطالباتها بتمثيل سياسي يتناسب مع قوتهم الاقتصادية ، ولم يكن لهذه الدوافع الثورية مصلحة مشتركة ، بل تعاونوا بمجرد أن يحاولوا كبح جماح الملاك ذوي النسب والحسب والحاشية المنتفخة الأرداج ، وملك اعتبر أن الاستقرائية الوراثة ، مصدر ضروري للنظام الاقتصادي والسياسي والاستقرار .

وكان النظام الاقتصادى يغير ، من عام لعام ، قاعدته ونقطة ارتكازه من الأرض الثابتة إلى المال المتحرك . وقبل ١٥٤٠ كان مصنع النحاس يتطلب توظيف ٣٠٠ دولار ، (بعملة الولايات المتحدة ١٩٥٨) وفى عام ١٦٢٠ ، ١٢٥ ألف دولار . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كانت المشروعات الرأسمالية التى تستلزم إنفاق اعتمادات ضخمة ، قد نهضت بمصانع حجر الشب فى يوركشير ، ومصانع الورق فى دارتفورد ، ومصانع صب المدافع فى برنديلي ، والمناجم البعيدة العمق التى ازداد التفات عليها للحصول على مزيد من الفحم والنحاس والزنك والحديد والرصاص . وفى ١٥٤٠ كان هناك عدة مناجم أنتج الواحد منها عشرين ألف طن . واعتمد الحرفيون والصناع الذين يستخدمون المعادن ، على التعدين والصناعات المعدنية التى تركزت فى أيدى الرأسماليين ، وزودت مؤسسات النسيج بالمواد اللازمة . الخوانيت التى كانت تستخدم ما بين ٥٠٠ وألف عامل ، والنساجين والحياطين الذين انتشروا فى آلاف الدور فى المدن والقرى . وكانت الزراعة تسهم فى التحول الرأسمالى فى الإنتاج . واشترى الرأسماليون مساحات كبيرة من الأرض وسوروها ، بغية إمداد المدن باللحوم ، والمصانع بالصوف داخل إنجلترا وخارجها . وارتفعت تجارة إنجلترا الخارجية إلى عشرة أمثالها فيما بين عامى ١٦١٠ و ١٦٤٠ .

ولم يدر بخلد إنجلترا أن الهوة كانت سحيقة جداً بين الغنى والفقير ، و « انحطت تعويضات العمال إلى أدنى مستوى لها فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، لأن أسعار الطعام زادت على حين بقيت الأجور على ما هى عليه^(١) » . فإذا اتخذنا (١٠٠) كأساس ، فإن الأجور الحقيقية للنجارين الإنجليز كانت ٣٠٠ حوالى سنة ١٣٨٠ ، و ٣٧٠ فى سنة ١٤٨٠ ، ٢٠٠ فى عهد إليزابث ، ١٢٠ فى عهد شارل الأول — وهذا أدنى أجر فى بحر أربعائة سنة^(٢) . وفى ١٦٣٤ كانت البطالة فظيعة إلى حد أن شارل أمر بتدمير مصنع ميكانيكى لنشر الخشب أنشئ حديثاً ، لأنه عطل كثيراً من النشارين عن العمل^(٣) . وكانت الحرب مع فرنسا سبباً فى رفع الضرائب ، كما كانت الحرب فى فرنسا سبباً فى تعطيل تجارة الصادرات ، وسوء المحاصيل (١٦٢٩ — ١٦٣٠) سبباً فى تضخم الأسعار حتى صارت البلاد على حافة

الحجاء: (١). وأخذ هذا الاقتصاد المتضخم في الهبوط فجأة (١٦٢٩ ، ١٦٣٢ ، ١٦٣٨) ؛ وتضافرت كل هذه العوامل مع الصراع الدينى فى أن تدفع بكثير من الأسرات الإنجليزية إلى أمريكا ، وتوقع إنجلترا فى حرب أهلية غيرت وجه الأمة ومصائر ها .

وكذلك أصبحت حرب الطبقات صراعاً بين المذاهب الدينية والقوانين الأخلاقية . وكان الشمال زراعياً بأغلبية ساحقة ، وكاثوليكية فى معظمه ولو فى الحفاء . أما لندن والجنوب فكانت تنمو فيها الصناعة والبروتستانتية بشكل متزايد . وعلى حين تعلق قلوب طبقة رجال الأعمال الحديدية باحتكاراتها وبتعريف الحماية البحرية . فإنها فى نفس الوقت طالبت باقتصاد حر تتحدد فيه الأجور على قدر العمل والسلع ، وحيث لا تكون ثمة سيطرة إقطاعية ولا حكومية على الانتاج والتوزيع والربح والملكية ، وحيث لا توصم بوصمة العار ، الأعمال التجارية ، ولا تقاضى الفوائد على الأموال ، ولا المضاربة بالثروة . وتمسك البارونات وفلاحوهم بمفهوم الإقطاع عن الالتزام المتبادل والمسئولية الجماعية ، وتنظيم الدولة للأجور والأسعار ، وضوابط العرف والقانون لشروط الاستخدام والربح . واحتج البارونات بأن الاقتصاد التجارى (المركنتلى)^(*) الحديد ، الذى ينتج لسوق وطنية أو دولية ، كان يمزق العلاقات بين الطبقات ويقوض الاستقرار الاجتماعى . وأحسوا (كما أحس صغار ملاك الأراضى والحكومة) أن قدرتهم على الوفاء بديونهم والتزاماتهم مهددة بخطر آثار التضخم على قيمة الرسوم والإيجارات والضرائب التى اعتمدوا عليها . ونظروا فى ازدياد غاضب إلى المحامين الذين أسهموا بشكل واضح فى الإدارة ، وإلى التجار الذين حكموا المدن ، وأوجسوا خيفة من سلطان لندن التى سادتها الروح التجارية (المركنتلية) ، والتى كان عدد سكانها يبلغ نحو ٣٠٠ ألف نسمة ، من مجموع سكان إنجلترا البالغ خمسة ملايين ، ومن ثم كانت تستطيع تمويل جيش وثورة .

(*) Mercantile ، نظام اقتصادى نشأ فى أوروبا خلال تفسخ الاعطائية لتعزيز ثروة البلاد عن طريق التنظيم الحكومى للاقتصاد والتهاج سياسة تهدف إلى تطوير الزراعة والصناعة . ولإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية .

٢ — مرجل الديانة ١٦٢٤ — ١٦٤٩

إن الملك الجديد الذى ارتقى العرش فى ظل النظام الإقطاعى والاجتماعى العتيق المعتمد على الأرض ، والذى أحس باليأس والضياع فى لندن بتجارها والبيوريتانيين فيها ، نقول إن هذا الملك لى من التعب والنصب فوق ما يحتمل الصبر ، من جراء تعدد المعتقدات الدينية وحدتها . إن عملية الاجتهاد أو تكوين رأى الفردى التى دعا إليها كل رأى جديد حتى سادت وسيطرت ، تضافرت مع انتشار الكتاب المقدس ، على تشجيع اختلاف الشيع والطوائف ، حتى لقد أحصى منها أحد المؤلفين ٢٩ طائفة فى ١٦٤١ . وأحصى آخر ١٨٠ منها فى ١٦٤٩ . وفضلا عن الانقسام بين الكاثوليك والبروتستانت ، كان هناك الانقسام الحاد بين البروتستانت إلى أنجليكانيين ومسيحيين وبيوريتانيين ، وانقسام البيوريتانيين إلى المستقلين الذين كانوا يحملون بالجمهورية ، والكويكرز الذين يعارضون الحرب والعنف وحلف الأيمان ، والمؤمنين بالعصر الألفى السعيد — أو طائفة الملكية الخامسة — الذين كانوا يعتقدون أن السيد المسيح سوف يعود سريعا ليقيم حكمه على الأرض ، والانتينوميين (طائفة تقول بأن الإيمان وحده — لا الامتثال للقانون الأخلاقى — ضرورى للخلاص) الذين كانوا يحتاجون بأن المصطفين من عند الله مستثنون من القوانين الإنسانية ، والانفصاليين أتباع براون ، والباحثين Seekers ، والمشايخ Ranters . وشكا أحد أعضاء البرلمان من أن « الرجال الميكانيكيين » (الحرفيين) كانوا يقيمون المنابر ويبشرون بألوان عقائدهم المتحمسة ، وكان كثيرون منهم يكسون مطالب الاقتصادى أو السياسية بنصوص من الكتاب المقدس ، وكان هناك الذين يقولون بتعميد البالغين فقط Anabaptists ، والمعمدان الذين انشقوا على الانفصاليين (١٦٠٦) وانقسموا (١٦٣٢) إلى معمدانيين عامين رفضوا النظرية الكلفنية فى القضاء والقدر ، ومعمدانين خاصين قبلوها .

(*) Presbyterians رجال كنيسة بروتستانتية يدير شؤونها شيوخ منتخبون يتمتعون جميعا

بمنزلة متسوية .

إن تعدد الطوائف والشيوع ، ومساجلاتها الحادة الجريئة ، أدت بنفر من الناس إلى الشك في جميع صيغ المسيحية وأشكالها . ورثى الأسقف Fotherby (١٦٢٢) « لأن الكتب المقدسة فقدت سلطانها على كثير من الناس ، وظن أنها لا تصلح إلا للجهلة والحمقى^(٥) » — وفي ١٦٤٦ تحدث الجبر الحليل جيمس جرانفورد عن « الجماهير التي غيرت عقيدتها إما إلى التشكك . . . أو الإلحاد ، ولم يؤمنوا بشيء^(٦) . » وفي كتيب عنوانه Hell Broke Loose « انفتحت الجحيم على مصراعها » : بيان بالأخطاء السائدة ، والمهرطقة والتجديف في هذا العصر ، (١٦٤٦) وكان على رأس قائمة المهرطقات ، الرأى القائل بأن الكتاب المقدس سواء كان مخطوطاً حقيقياً (نصاموثوقا) أم لم يكن . . : فإنه لا يعدو أن يكون من صنع الإنسان ، وأنه عاجز عن أن يكشف عن إله في السماء^(٧) » ، وجهرت هرطقة أخرى « بأن العقل السليم هو الحكم في العقيدة ، أو قاعدة الإيمان . . . ويجدر ألا نصدق بالكتب المقدسة ونظريات الثلاث والتجسد والبعث إلا بقدر موافقتها للعقل ، وليس إلا^(٨) » . وأنكر عدد كبير من المتشككين وجود الجحيم وألوهية المسيح . وسعى نفر متزايد من المفكرين الذين أطاق عليهم اسم « الربوبيين » إلى التوفيق بين مذهب التشكك والدين باقتراح مسيحية تقتصر على الإيمان بالله والخالود . وهياً لإدوارد ، لورد هربرت شربرى لهذا « الطريق الوسط ، أساساً فلسفياً في بحث رائع عن الحقيقة^(٩) » . قال هربرت إن الحقيقة مستقلة عن الكتب المقدسة ، ولا يمكن أن تقرها كنيسة أو أية سلطة أخرى ، وإن أفضل اختبار للحقيقة هو موافقة الناس جميعاً عليها ، وتبعاً لذلك تكون أحكم ديانة هي ديانة « طبيعية » ، لا ديانة « موحى بها » ، تنحصر نفسها في النظريات التي تتقبلها كل المذاهب : وهي أن هناك « كائناً » ، وأنه تجب عبادته بالحياة الفاضلة المستقيمة أساساً ، وأن السلوك المستقيم ، ثاب ، وأن السلوك السيء يعاقب عليه ، إما هنا في الحياة الدنيا ، أو هناك الحياة الآخرة . ويقول أو برى إن هربرت مات « في هدوء » بعد أن أبوا عليه الأسرار المقدسة^(١٠) .

وكان البرلمان أشد قلقاً وانشغالا بالكاثوليكية منه بالهرطقة . ففي ١٦٣٤ قارب الكاثوليك في إنجلترا أن يشكلوا ربع السكان (١٠) ، على الرغم من كل القوانين والأهوال التي كان يقاسمها نحو ٣٣٥ من الجزويت ، واعتنق النبلاء البارزون المذهب القديم ، وفي ١٦٢٥ أعلن جورج كلبرت ، لورد بلتيمور تحوله إلى الكثلركة ، وفي ١٦٣٢ منحه شارل مرسوماً بإنشاء المستعمرة التي عرفت باسم ماريلاند . وفي ١٦٣٣ أرسلت الملكة الكاثوليكية هنريتا ماريا إلى رومه مبعوثاً يستجدي منصب الكردينال لأحد الرعايا البريطانيين . وعرض الملك الأنجليكاني أن يسمح بإقامة أسقف كاثوليكي في إنجلترا إذا أيد إربان الثامن خطة شارل في عقد بعض زيجات دبلوماسية (١٦٣٤) ولكن البابا رفض . وطالب الكاثوليك بالتسامح الديني . ولكن البرلمان — الذي يعي في ذاكرته تعصب الكاثوليك ، ومذبحة سانت برتلميو ، ومؤامرة البارود ، والاشتمزاز من لإجراء تحقيق في مستندات ممتلكات بروتستانتية كانت يوماً كاثوليكية — طالب ، بدلا من ذلك ، بالتطبيق الكامل للقوانين التي صدرت ضد الكاثوليكية . وساد شعور قوى شعاره « لا كثلركة » ، وخاصة بين طبقة صغار الملاك والطبقة الوسطى ، يعارض بالمثل ، تدفق القساوسة الكاثوليك إلى إنجلترا ، كما يقاوم ازدياد التقريب بين الفكر والطقوس الأنجليكانية والكاثوليكية .

وتمتعت الكنيسة الرسمية بحماية الدولة لها حماية كاملة . وكانت العقيدة والعبادة الأنجليكانية إجباريتين قانوناً ، وجعلت المواد التسع والثلاثون قانوناً من قوانين البلاد ١٦٢٨ . وادعى الأساقفة الأنجليكانيون « الخلافة الرسولية » — أي أنهم كانوا قد رسموا بوساطة الرسول ، ورفضوا تأكيد المشيخيين والبيوريتانيين أن يرسموا الكاهن شرعاً ، وكان كثير من رجال الدين الأنجليكانيين في ذاك العصر ، رجالا يتحلون بعلم واسع وشعور كريم . وكان جيمس أشر Usher رئيس أساقفة أرماج Armagh عالماً حقاً ، برغم حسابه المشهور (في كتابه Annales Veteris Testamenti ، ١٦٥٠) أن الله خلق العالم في ٢٢ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق . م . — وهذه غلطة في الحساب الزمني جعلت شبه رسمية في طبعات الكتاب المقدس (١٢) . ودعا جون

هيلز ، قسيس السفارة الإنجليزية في هولنده — إلى الشك والعقل والتسامح :

إن الطرق التي توصلنا إلى . . . أى علم أو معرفة ليست إلا اثنتين ، أولاهما الاختبار وثانيتهما الاستدلال المنطقي ، إن الذين يأتونك ليلقوا إليك بم يجب أن تؤمن وماذا يجب أن تفعل ، دون أن يذكروا لك السبب في هذا أو ذلك . ليسوا أطباء بل إنهم متطفلون دجالون . . . إن أهم مصدر وقوة للحكمة ليس من السهل التصديق بهما . . . إن تلك الأشياء التي نجلها لقدمها ، ماذا كانت في بداية نشوئها ؟ هل كانت زائفة ؟ إن الزمن لا يستطيع أن يضىء عليها حقيقة وصدقا . إن عامل الزمن . . . مجرد شيء خارج عن موضوع البحث . . . وليس تعدد الآراء ، ولكن إرادتنا الفاسدة الشريرة — التي تظن أنه من الملائم أن نتخيل كل شيء (من نفس الفكر) كما نصوره نحن أنفسنا — هي التي أزعجت الكنيسة إلى هذا الحد . ألم نكن مستعدين لأن يلعن بعضنا بعضاً حين لم نكن متفقين في الرأي ؟ ويمكن أن تكون قلوبنا متحدة . . . هناك شيثان يصنعان رجلاً مسيحياً كاملاً — إيمان صادق وسلوك قويم . ولو أن الثاني يبدو أجدر بالاعتبار ، ويخلع علينا اسم المسيحيين ، ولكن الثاني في النهاية ، سيثبت أنه الأقوى والأرسخ ، وليس ثمة رجل . . . حتى ولو كان همجياً أو وثنياً ، لانصل إليه أنسام الشفقة المسيحية (١٣) :

ولم يستجب بعض " عبدة الأصنام " لكرم هيلز . وكتب جزويتى بتوقيع " إدوارد نوت نبذة عنوانها Charl Mistaken (١٦٣٠) قال فيها إنه لن يكتب الخلاص لأى بروتستانتي ، إلا بمحض الصدقة (١٤) . ولكن أعاد الطمأنينة إلى قلوب البروتستانت الذين أدانهم المقال السابق ، ولیم تشلنجورث ، Chillingworth الذى كان كتابه " العميدة البروتستانتية " هي الطريق المأمون للخلاص ، ١٦٣٧ " أشهر

بحث لا هو في ذلك ، العصر ، لقد عرف تشلنجورث الفريقين كليهما ، فقد كان قد ارتد إلى الكاثوليكية ، ثم عاد إلى البروتستانتية ، وما زالت لديه تحفظاته ، وقال عنه كلارندون « إنه تعود الشك حتى أصبح شيئا فشيئا لا يثق في شيء قط ، ومتشككا على الأقل في أعظم الأسرار الدينية (١٥) » .

وكان جرمي تيلور أفصح الأنجليكانين في عهد شارل ، ولا تزال عظاته تقرأ ، كما أنها أشد تأثيرا من عظات بوسويه ، حتى أنها هزت مشاعر أحد الفرنسيين (١٦) . وكان تيلور ملكيا متحمسا ، وقسيسا في جيش شارل الأول . وعندما سيطر المشيخيون والبيوريتانيون على البرلمان ، وأسأوا ، في تعصب شديد ، معاملة الأنجليكانين الذين كانوا يوما متعصبين ، أصدر تيلور كتاب « حرية الوعظ » (١٦٤٦) وهو دعوة حذرة إلى التسامح : إن أي مسيحي قبل عقيدة الرسل يجب أن تتلقاه الكنيسة بين أعضائها ، ويجب أن يترك الكاثوليك أحرارا ، إلا إذا أصروا على سيادة على إنجلترا وعلى الملوك (*) ، وقبض حزب البرلمان على تيلور وأودع السجن في الحرب الأهلية ، ولكن بعد عودة الملكية ، انضم إلى حكومة الأساقفة في الكنيسة ، وخف تحمسه للتسامح .

وظهر أثر الكاثوليكية المتزايد في الرجل الأنجليكاني البارز ذي النفوذ في عصره ، وهو وليم لود ، الذي كان رجل فكر وإرادة ، ولد ليسيتر ويحكم أو يموت . وكان متمسكا بأهداب الفضيلة أشد تمسك ، متزمتا أشد التزم ، وطيد العزم إلى حد العناد مع سرعة الغضب . ورأى لود — كأى رجل صالح من رجال الكنيسة ، أنه من القضايا المسلم بها أن المعتقد الديني الموحد أمر لاغنى عنه للحكومة الناجحة وأن الشعائر المعقدة ضرورية لكل عقيدة مهدثة مؤثرة ، وما كان أشد حزن المسيحيين والبيوريتانيين وأسفهم عندما اقترح لود إعادة الفنون إلى خدمة الكنيسة ، لتجميل المذبح والمنبر وجرن التعميد ، وإعادة الصليب إلى الطقوس ، والمدبرة (الرداء الكهنوتي الأبيض) إلى الكهنة . وعلى هيئة جبل خاص للخطايا ، أمر بوضع مائدة

(*) في ١٦٣١ ، في مشمرة خليج ماسشوست نادى روجر وليم بالسماح بلا حدود مع الكاثوليك واليهود والمسلمين .

العشاء الرباني التي كانت توضع حتى الآن وسط الهيكل (وكانت تستخدم في بعض الأحيان لوضع القبعات عليها) ، نقول أمر لود بوضع هذه المائدة خلف حاجز في الطرف الشرقي من الكنيسة ، وكانت هذه التغييرات في معظمها لإحياء لأعراف اليزابث وقوانينها ، ولكنها في نظر البيوريتانيين الذين أحبوا البساطة ، كانت تمثل رتدادا إلى الكاثوليكية ، وتجديدا للفصل الطبقي بين القسوس وجمهور المصلين . ويبدو أن لود أحس بأن الكنيسة الكاثوليكية كانت على حق في أحاطة الديانة بالمراسم والشعائر ، واضفاء هالة من القداسة على النسيس (١٧). وقدرت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أراءه إلى حد أنها قدمت إليه منصب الكاردينال (١٨) . ولكنه رفض رفضا مهنذا . ولكن يبدو أن هذالعرض أيد لوم البيوريتانيين وتأنبهم ، وأطلقوا عليه النذير يقدوم المسيح . وعينه شارل ١٦٣٣ رئيسا لأساقفة كنتبري وعضوا وزارة الخزانة . وعين رئيس أساقفة آخر قاضيا للقضاة في اسكتلندة فشكا الناس من أن رجال الكنيسة يعودون إلى السلطة ، كما كانت الكنيسة في أوج عظمتها في العصور الوسطى .

وشرع كبير أساقفة إنجلترا ، من قصره في لامبث Lambeth في إعادة تشكيل الطقوس والأخلاقيات الإنجليزية ، وخلق مائة عدو جديد حين فرض عن طريق « محكمة اللجنة العليا » (وهي هيئة قضائية أقامتها اليزابث ، وهي الآن كنسية بشكل واضح) : فرض غرامات فادحة على المتهمين بالزنى ، ولم تطب نفوس الضحايا باستخدامه الغرامات في اصلاح كاتدرائية سانت بول المتهمة ، وطرده المحامين والبائعين المتجولين والمترثرين من أبهاثا (١٩) وحرمة الكهنة الذين رفضوا الطقوس الجديدة من رواتبهم ، أما الكتاب والخطباء الذين نقدوها مرارا وتكرارا . أو ارتابوا في العقيدة المسيحية ، أو الذين عارضوا نظام الأساقفة فكانوا يحرمون من الكنيسة ويوضعون في آلة تعذيب خشبية ذات ثقوب تنيد فيها رجلا المذنب ويدهاه ، أو تقطع أذناه .

ويجب أن نتخيل بشاعة ووحشية العقوبات التي فرضت في عهد لود ، حتى ندرك مصيره . فان الكاهن البيوريتاني اسكندر ليتون Leighton ، حوكم أمام

محكمة قاعة النجم لأنه المؤلف المعترف به لكتاب يقول بأن نظام الأساقفة ، نظام شيطاني معاد للمسيحية . فقيد في الاغلال وسجن في مكان موحش لمدة خمسة أسابيع في زنزانة شديدة البرد « مليئة بالجرذان والفيران ، معرضة للثلوج والأمطار » ، فتساقط شعر رأسه ، وتقرش جلده ، وربط إلى خازوق ، وتلقى ستا وثلاثين جلدة بحبل سميك على ظهره العارى ، ووضع في المشهرة (آلة تعذيب) لمدة ساعتين في صدقيع نوفمبر وجليده ، ودمغ بسمة العار في وجهه ، وشق أنفه وقطعت أذنه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة (٢٠) . وفي ١٦٣٣ فرضت على لودويك بوير Ludowyc Bowyer ، الذى كان قد اتهم لود بأنه كاثوليكي في دخیلة نفسه ، غرامة . ودمغ بسمة العار ، وبترت أطرافه ، وشوه جسمه ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة (٢١) . واتهم وليم برين ، وهو من غلاة الدعاة البيوريتانيين في « أنباء من أفسوبك » (١٦٣٦) ، اتهم أساقفة لود بأنهم خدم للبابا وللشيطان (٢٢) ، وأوصى بشنق الأساقفة . فدمغ بسمة العار على خديه كليهما وقطعت أذناه ، وأودع السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل (١٦٤٠) (٢٣) . وسجنت لمدة أحد عشر عاما امرأة أصرت على اعتبار السبت يوم راحة وعبادة (٢٤) .

وانفق ألد أعداء لود ، وهم البيوريتانيون ، معه على ضرورة التعصب أو عدم التسامح . وذهبوا إلى أنه حكم نهائى معقول من الأصل السماوى للمسيحية والكتب المقدسة ، فان أى فرد يعارض عقيدة قامت على هذا الأساس ، لابد أن يكون مجرما أو معتوها ، وتجب حماية المجتمع من كثير من الخطايا واللعنات التى قد تنصب على المجتمع من جراء تعاليمه . وناشد المشيخيون البرلمان -- (١٦٤٨) أن يشرع عقوبة السجن مدى الحياة لمن يستمرون على نشر تعاليم الكاثوليك والمعمدانيين والأرمنيين والكويكرز ، وعقوبة الاعدام للذين ينكرون نظريات الثالوث الأقدس ، أو التجسد . ولكن المستقلين أتباع كرومويل ، على أية حال ، عرضوا التسامح مع كل من يقبل أساسيات المسيحية ، ولكنهم استبعدوا الكاثوليك والموحدين والمدافعين عن حكومة الأساقفة (٢٥) .

وكان في البيوريتانيين شيع كثيرة إلى حد يصعب معه جمعهم في تعميم واحد

ينطبق عليهم جميعا . وتمسك معظمهم بكلفنية صارمة ، وبحرية سياسية فردية ، ويحق جمهور كل كنيسة في إدارة شئونها دون إشراف الأساقفة ، وعبادة غير موسومة بالمراسم والشعائر ، متسمة بالمساواة ، وتخلوا عن الفن الديني الذي يلهم المصلين ويشتت أفكارهم ، واتفقوا مع المشيخين في اللاهوت ولكنهم رفضوا مجامعهم الكنسية ، لأنها تنزع إلى ممارسة سلطة الأساقفة ، وأصرروا على تفسير حرفي للكتب المقدسة ، واستنكروا القول بحكم العقل على الحق الموحى به ، وكانوا يجلون العهد الجديد والعهد القديم بقدر سواء ، وطبقوا على أنفسهم الفكرة اليهودية « شعب الله المختار » ، وعمدوا أطفالهم بأسماء بطارقة « العهد القديم » وأبطاله ، وفكروا في الرب على أساس « يهوه » الصارم القاسي ، وأضافوا إلى ذلك إيمان الكلفنية بأن معظم الناس هم « أبناء العقاب الإلهي » قضت عليهم الإرادة المتحكمة من لدن إله لا يرحم بالخلود في الجحيم ، وعزوا خلاص القلة « المختارة » ، لا إلى صالح الأعمال ، بل إلى نعمة الهية ينعم الله بها على من يشاء متى شاء . وذهب بعضهم إلى أنه كلم الله ، وظن بعضهم أنهم ملعونون فهاموا في الشوارع يثنون ويتأوهون ، استبقا لخلودهم في العذاب . وبدا أن الله يسلط الصواعق دوما على رؤوس الناس .

وفي وسط هذا « الارهاب » الذي فرضته البلاد على نفسها كادت « انجلترا : المرحية » أن يتقلص ظلها واستسلمت « انسانية عصر النهضة » و « طبيعية » عصر الزباث المفعمة بالحوية إلى شعور بالذنب وخوف من الانتقام الإلهي . وبهذا الخوف وذلك الشعور نظر الناس إلى مسرات الحياة وكأنها أرجاس من عمل الشيطان أو تحديات اللاله . وعاودت قسا أكبر من الناس لم يعهد له مثيل من قبل في التاريخ المعروف ، نقو عاودتهم المخاوف من الطبيعة البشرية والجسد ، التي كانت سائدة بين الرهبان في الأديار . وأعلن بريم Pryme أن كل عناق « دعارة » ، وكل رقص مشترك « فسق وفجور » (٢٦) . وفي نظر معظم البيوريتانيين كانت الموسيقى والزجاج الملون والصور الدينية والأردية الكهنوتية البيضاء والكهنة المسوحوون بازيت — كلها أمور تحول دون الاتصال بالله والاتجاه إليه . ودرسوا الكتاب

المقدس بعناية فائقة ، واقتبسوا عباراته في كل حديث وفي كل فقرة تقريبا ، وطرز بعض المتحمسين المعصين ثيابهم بنصوص مقدسة ، وأضاف المغالون في التقى والورع لفظة « حقا » لإشهادا على اخلاصهم أو صدقهم . وحرم البيوريتانيون الصالحون استخدام مستحضرات التجميل وترتيب الشعر ، على أنهما ضرب من الزهو والغرور والتفاهة . وحظوا بالاسم المستعار « ذوى الرؤوس المستديرة Roundheads » لأنهم قصوا شعورهم بشكل قصير جدا . ونددوا بالمرسح على أنه مخز (وهكذا كان) ، وبمطاردة الديبة والثيران على أنها عمل وحشى ، وبأخلاق البلاط على أنها وثنية . كما استنكروا الاحتفالات والأعياد الصاخبة ، ودق النواقيس ، والتجمع حول عمود أول مايو المزدان بالأشرطة والأزهار والرقص حوله ، وشرب الأناخاب ، ولعب الورق . وحرموا كل الألعاب أيا كانت في يوم الراحة ، وقالوا انه يوم الرب ، ويجب ألا يسمى بعد الآن بالاسم الوثني « الأحد » . ورددوا صيحات الغضب — ومن بينهم ملتون — حين أصدر شارل الأول ولود — تجديدا لمرسوم جيمس الأول — « إعلان الألعاب » ١٦٣٣ ، أجازا فيه الألعاب في يوم الأحد بعد تأدية الصلوات . ومد البيوريتانيون تشدهم في تحريم الألعاب والملاهي وفي الانقطاع إلى العبادة والراحة في أيام الآحاد (قوانين الأحد الزرقاء) ، إلى يوم عيد الميلاد ، ورثوا لأسلوب الاحتفال بمولد المسيح بالمرح والرقص والألعاب ، وكانوا على حق في أنهم نسبوا معظم تقاليد عيد الميلاد إلى أصول وثنية ، وطالبوا بأن يكون عيد الميلاد يوما مهيبا للصوم والكفارة ، وفي ١٦٤٤ أقنعوا البرلمان بعد لأى ، باقرار هذه الفكرة بمقتضى القانون :

وكما أكدت البروتستانتية على العظة أكثر مما فعلت الكاثلكة ، فان البيوريتانيين كذلك توسعوا فيها حتى إلى أبعد مما جرى عليه البروتستانت ومزق التعطش إلى المواعظ بعض القاوب ، وانتقل عمدة نوروك إلى لندن ليستمع إلى مزيد من الوعظ ، واستقال بزاز من الأبرشية لأنها لا تقدم إلا عظة واحدة كل يوم أحد ، وقام « محاضرون » خاصون لإطفاء هذا النظم — وهؤلاء عبارة عن رجال

عادين تستأجرهم الأبرشية لالقاء عظة يوم الأحد ، بالاضافة إلى مايلقيه الكاهن المعتاد . ونهض معظم الوعاظ البيوريتانيين بمهمتهم في جدية بالغة فأرهبوا مستمعيهم بأوصاف الجحيم ، واتهم بعضهم الآثمين علنا بالاسم ، وأفصح واحد منهم عن مدمني الحمر في شعب الكنيسة ، وضرب ، وهو يتحدث عن البغايا ، مثلاً بـزوجة أحد أهالي الأبرشية المشهورين ، وقال آخر لمستمعيه إنه إذا كان الزنى والحلف والغش واغفال طقوس يوم الراحة ، إذا كانت هذه كلها تؤدي بالإنسان إلى الجنة ، فسيكتب الخلاص للأبرشية بأسرها (١٧) . وأحس القساوسة البيوريتانيون أن من واجبه أن يصفوا للناس — أويحرموا عليهم — قواعد السلوك ، وأنواع اللباس ووسائل التسلية ، فحرموا الاحتفال بأيام العطلة أو الأعياد في الأعراف الوثنية أو الكنيسة الكاثوليكية ، وبذلك أضافوا نحو خمسين يوم عمل إلى السنة (٢٨) ، ودوت صيحة الواجب في الخلق البيوريتاني ، مقترنه بغرس الشجاعة والاعتماد على النفس والحزم والاقتصاد والعمل في النفوس ، وكان هذا نظاماً أخلاقياً يلتزم مع الطبقة الوسطى ، فانه حث على العمل الجاد النشط ، وأجاز من الوجهة الدينية المشروعات والمغامرات التجارية والمالكية الخاصة . وكان الفقر ، لا الغنى ، في نظرهم ، هو الخطيئة ، لأنه ينم على الافتقار إلى الخلق الشخصي وإلى نعمة الله (٢٩)

وكان البيوريتانيون ، من الناحية السياسية ، يتوقون إلى حكومة دينية ديمقراطية ، لا يكون فيها بين الناس إلا فروق أخلاقية ودينية ، ولا يكون فيها حاكم غير المسيح . ولا قانون سوى كلمة الله . وكرهوا الضرائب الباهظة التي تعول الكنيسة الانجليكانية . وشعر رجال الأعمال منهم أن هذه الكنيسة الرسمية العليا الباهظة النفقات تحلبهم وتستنزف أموالهم . وقال أحد المؤلفين « إن هذه الهاوية الأسقفية ثلثتهم تجارة الأمة » (٣٠) . ودافع البيوريتانيون عن الثراء . ولكنهم احتقروا الترف الحامل الذي كان يرفل فيه النبلاء ، وتمسكوا بالأخلاقيات إلى حد التطرف ، كما فعلت الأجيال التالية بالحرية . ولكن ربما كانت مبادئهم القاسية تصحيحاً ضرورياً للانحلال الخلقى في عصر اليزابث . وأنجبوا بعضاً من أقوى الشخصيات في التاريخ — كرمول وملتون ، والرجال الذين فتحوا الفياق والقفار الأمريكية .

ودافعوا عن الحكومة البرلمانية ونظام الخلفين ونقلوها إلينا ، وإن إنجلترا المدينة لهم ،
بشكل جزئى ، بالرصانة الحقه فى الخلق الإنجليزى ، واستقرار الأسرة البريطانية ،
ونزاهة الحياة الرسمية فى بريطانيا . ولم تفقد شينا .

٣ - البيوريتانيون والمسرح

إن أول انتصار أحرزه البيوريتانيون كان فى حرهم ضد المسرح . فإن كل
ما تميزوا به — من لاهوت قائم على « الاصطفاء » و « الرفض » وخلق مئزمت ،
ومزاج قاس ، وحديث انجيلى — كان يتناول المسرح بالتجريح والتسخير ، عن
طريق الصور الكاريكاتورية الفاضحة التى لا تغتفر ، وكانت الطامة الكبرى
فى ١٦٢٩ : فإن ممثلة فرنسية تجاسرت على إسناد دور نسائى إلى شاب فى رواية
مثلت على مسرح Black Friars فلقذفوها بالتفاح والبيض الفاسد .

وربما أَرْضَى الكتاب المسرحيون الجدد جماعة البيوريتانيين ، لأنهم كانوا
فى جملتهم مهلبين ، ولو أنهم ، من حين إلى حين ، حاولوا بالبداعات ، لإرضاء
جمهور الدرجة الثالثة ذوى الأذواق السقيمة واجتذابهم . إن رواية فيليب ماسنجر
« طريقة جديدة لتسديد الديون القديمة » (١٦٢٥) لم تكن تهجو الفضيلة المتزمتة ،
بل جشع الاحتكارات . ولم يكن ثمة شعريخلق ، ولا ذكاء يدوى ، ولا مجازات
وتخييلات صارخة ، ولكن الرجل المبتز المجرد من الضمير والمبادئ الخلقية وقع
فى يد العدالة آخر الأمر . وتعاقبت خمسة فصول دون أن تظهر واحدة من البغايا أو بنات
الهوى . وتحايل جون فورد على تصيد الجمهور بأن جعل عنوان الرواية « يا حسرتاه
لأنها مومس » ، ولكن هذه الرواية ، ورواية « القلب الكسير » (كلتاهما ١٦٢٣)
احتفظنا بشيء من الاحتشام ، وربما أمكن تمثيلهما الآن لو أن الجمهور الحديث
استطاع أن يتحمل العذاب فى حل عقد الرواية .

وسدد البيوريتانيون أعنف ضرباتهم للمسرح ، حين أرسل أشد أنصارهم جرأة
وشجاعة ، ولیم برين ، إلى الصحافة (١٦٣٢) مقاله « سوط المثلين
Players Seourge وكان برين محامياً ، ولم يدع النزاهة والتجرد ، وقدم إلى
(١٩)

المدعى مذكرة من ألف صحيفة ، وبالاقتباس من الكتب المقدسة ومن كتابات آباء الكنيسة بل حتى من كتابات الفلاسفة الوثنيين ، أثبت أن المسرحية من عمل الشيطان ، فلإنها بدأت كصيغة أو شكل لعبادته . إن معظم الروايات ممثلة بالتجديف والدعارة والفحش ، زاخرة بعناق العشاق ، والإيماءات الخليعة ، والموسيقى والأغاني والرقص الذى يثير الشهوة ، وإن كل أنواع الرقص من عمل شيطاني ، وكل خطوة فيه إن هي إلا خطوة إلى الجحيم ، وإن كل الممثلين مجرمون فجرة كفر . « إن كنيسة الله ، لا المسرح ، هي المدرسة الوحيدة الصالحة ، والكتاب المقدس والعظات والكتب الدينية المخلصة الورعة . . . هي المحاضرات ” أى القراءات الوحيدة الصالحة للمسيحيين . فإذا أرادوا التحول عنها :

فإن أمامهم مشاهد متعددة فى الشمس والقمر والكواكب والنجوم وسائر المخلوقات التى لا نهاية لتعددتها وتنوعها ، ليمتعوا بها أنظارهم . وإن أمامهم تغريد الطيور ليشنفوا به آذانهم ، وإن لديهم الشذا الرقيق الجميل والروائح الزكية المنبعثة من الأعشاب والأزهار والفواكه لينعشوا بها أنوفهم . . . ولديهم المذاق الجميل لكل ما يصلح للأكل . . . والمسرات والمتعة التى تقدمها لهم البساتين والأنهار والحدائق والبرك والغابات ، والبهجة التى يوفرها لهم الأصدقاء والأقرباء والأزواج والزوجات والأولاد ، والمقتنيات والثروة ، وسائر النعم الظاهرة التى أنعم الله بها على الإنسان (٣١)

وكانت الحجة قوية بليغة ، ولكنها وصمت كل الممثلات بالدعارة والبغاء ، وكانت الملكة لتوها قد استقدمت من فرنسا بعض الممثلات ، وكانت هى نفسها تتدرب على تمثيل دور فى البلاط ، وجرح شعور هنريتا ماريا واستاءت ، واتهم لود برين باثارة الفتنة ، ودفع المؤلف بأنه لم يكن يقصد الطعن فى الملكة أو التشهير بها ، واعتذر عن عدم مراعاة الاعتدال فى كتابته . ولكن على أية حال ، فى قسوة عالقت بأذهان البيوريتانيين طويلا ، منع من الاشتغال بالمحامة وفرضت

عليه غرامة يستحيل دفعها ، ٥٠٠٠ جنيه (٢٥٠٠٠٠ دولار ؟) ، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة . ووضع في المشهرة وقطعت أذناه كلتاها (٣٢) ، ومن سجنه أصدر (١٦٣٦) ” أنباء من أبزوك “ اتهم فيه الأساقفة الأنجليكانيين بأنهم نخوة شيطانيون ، وذئاب ضارية ، وأوصى بشننهم . فعذب في المشهرة من جديد ، واستؤصلت بقايا أذنيه ، وبقي في السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل ١٦٤٠ .

وفي ١٦٤٢ أصدر البرلمان أمراً بإغلاق كل مسارح إنجلترا . وكان هذا في أول الأمر ، فن تدابير حرب ، بدا أنها معدودة بهذه الأوقات الفاجعة . ولكنها استمرت حتى ١٦٥٦ . وآذنت بزوال الحياة الطويلة للمسرحية الإليزابيثية ، وسط مسرحية أكبر لم يشهد لها المسرح الإنجليزي مثالا قط .

٤ — النثر في عهد شارل الأول

كان هناك في إنجلترا ، رجلا ن على الأقل ، يستطيعان أن يطلا على المشهد المضطرب في مقدرة وهدوء . وكان جون سلدن Selden واسع الاطلاع والعلم حتى قال عنه الناس : لا يعلم أحد أى شىء لا يحيط به سلدن علما . إنه كرجل مهتم بالآثار والتاريخ القديم ، جمع بيانات عن الدولة في إنجلترا قبل عهد النورمندين ، وسجلا موثوقاً عن « ألقاب الشرف » (١٦١٧) ، وبوصفه مستشرقاً ، ذاع صيته في كل أوروبا . بدراسته في الشرك وتعدد الآلهة ، وبوصفه من رجال القانون شرح قانون الأحبار وكتب « تاريخ العصور » ودحض فكرة أنها فرضت من عند الله ، وبوصفه عضواً في البرلمان أسهم في اتهام بكنجهام ولود في صياغة « ملتمس الحقوق » . وأودع السجن مرتين . وشهد « اجتماع وستمنستر » كمنسوب علماني عادي « يشهد اقتتال الحمير المتوحشة » ودعا إلى الاعتدال في المنازعات الدينية . وبعد وفاته أصبح كتابه « حديث المائدة » الذي سجله سكرتيره ، من الآثار الأدبية الإنجليزية ، نقطف هنا نموذجاً منه :

إنه لمن العبث أن نتحدث عن هرطيق ، لأن الإنسان لا يعتد

الإلتزام براه أو يفكر فيه هو نفسه . وفي العصور البدائية كان ثمة

آراء كثيرة ، اعتنق واحدا منها أحد الأمراء ، ودمغت
سائر الآراء بأنها هرطقات . ولا يمكن أن يكون رجل
ما أعقل الناس من أجل علمه ومعرفته ، فقد يهين هذا
موضوعا للمناقشة ولكن الذكاء والحكمة تولدان مع الانسان
. . . . إن العقلاء لا يتفوهون بشيء في أوقات الخطر .
إن الأسد دعا الشاة ليسألها إذا كانت ثمة رائحة تخرج من
فمه ، فلما أجابت بالإيجاب عضها فأطاح برأسها لأنها غبية
حمقاء . فدعا الذئب وأعاد عليه نفس السؤال فأجاب بالنفي ،
فزقه الأسد إربا لأنه متملق . وأخيرا نادى على الثعلب
وكرر عليه السؤال ، فتعجب وقال إنه مصاب بالبرد ولا يستطيع
أن يشم (٣٣) .

وكان توماس براون « ثعلبا » . إنه ولد في لندن ١٦٠٥ وتلقى علومه في
مدرسة ونشستر ، واكسفورد ومونبيليه وبادوا ولیدن ، واستزاد من العلوم
والفنون والتاريخ كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، ثم انصرف إلى الاشتغال بالطب في
نوروك . وهذب من « تحليلاته للبول » بتدوين ملاحظاته وأفكاره « عن كل
هذه الأشياء ، وعن قليل غيرها » On all things and a few others وأخفى
بلباقة نظريته في الدين في كتابه « السب الديني » (١٦٤٢) ، وهو يمثل مرحلة
في تاريخ الفكر الانجليزي . وإنك لتجد في شخصه « مونتاني بريطاني » ، فهو
مثله في طرافته وخياله ، وفي تذبذبه وتعدد جوانبه ، وربما اقتبس عنه فيما كتب
عن الصداقة (٣٤) ، وهبط بتشككه إلى الامتثال للكنيسة الانجليزية مستسيغا
العقل ومعلنا لإيمانه . وملا براون كلامه بالاشعارات والاشتقاقات التقليدية
ولكنه أحب فن الألفاظ وموسيقاها ، مستخدما أسلوبا كأنه دواء « مضاد
للبلبى والفساد » .

وكان بطبيعة دراسته وتعليمه نزاعا إلى الشك . وفي أطول مؤلفاته وعنوانه
« الأقوال الزائفة الشائعة » شرح وهذب مئات من « الآراء الفاسدة الشائعة » في

أوروبا — منها أن العقيق الأحمر يضيء في الظلام ، وأن الفيل لا مفاصل له ، وأن العنقاء تتوالد بذاتها من رفاتها ، وأن السمندر (نوع خرافي من الضفادع) يمكن أن يعيش في النار ، وأن وحيد القرن (حيوان خرافي له جسم فرس وذيل أسد) له قرن واحد في وسط الجبهة ، وأن البجع يغنى قبل موته ، وأن الفاكهة المحرمة كانت التفاح ، « وأن ضفدع الطين يبول بهذه الطريقة ينفث سمة (٢٥) » ولكنه كأي مهاجم للتقاليد والمعتقدات القديمة ، كان له معتقداته ، فانه آمن بالملائكة والشياطين وقراءة الكف والسحرة (٢٦) ، وشارك في ١٦٦٤ في اتهام امرأتين بأنهما ساحرتان ، وشنقا بعد ذلك على الفور ، وهما تؤكدان براءتهما (٢٧) .

ولم يكن به ميل إلى النساء ، وذهب إلى أن « الجنس » أمر مرذول فقال

لم أتزوج غير مرة واحدة فقط ، وإني لأمتدح أولئك الذين يعتقدون العزم على ألا يتزوجوا مرتين ، وإني لأتمنى أن نتكاثر ، مثل الشجر ، دون اتصال جنسى ، أو أن تكون هناك وسيلة أخرى للابقاء على الجنس البشرى ، انه أقبح عمل يأتيه الرجل العاقل في حياته ، وليس ثمة شيء يوهن من عزيمته ويؤذى خياله أكثر من تفكيره في أية حماقة تافهة شاذة قد ارتكبها (٢٨) .

أما بالنسبة لموضوعه الرئيسي فانه مسيحي بحكم الدفاع عن المسيحية : أما من حيث ديانتى ، فانه على الرغم من الظروف الكثيرة التى قد تغرى العالم ، فليس لدى منها شيء قط (مثل الخزى العام فى مهنتى ، المجرى الطبيعى لدراساتى وأبحاثى ، عدم التحيز فى سلوكى وفى أحاديثى فى الموضوعات الدينية ، فلا أتحمس فى الدفاع عن دين ، ولا أعارض دينا آخر بمثل هذا العنف الذى اعتاد الناس أن يعارضوا به الديانات الأخرى) ، ولكن برغم كل شيء ، فاني أتجاسر ، دون أى إكراه ، على اعتناق المسيحية الكريمة . لا لأنى أدين بلبقى لحرن المعمودية ، ولا من أجل

تعليمى ، أو المناخ الذى ولدت فيه ، ولكن لأنى
فى أيام نضجى وحكمى السليم على الأمور ، عرفت كل
الأديان وخبرتها (٢٩) .

ويحس براون بأن عجائب الدنيا ونظامها تم على عقل إلهى - « إن الطبيعة
هى فن الإله (٤٠) » ويعترف بأنه ارتكب بعض الهرطقة ، وينزلق إلى شئ من
الارتياب فيما جاء بالكتاب المقدس عن الخلق والتكوين (٤١) ، ولكنه الآن يحس
بالحاجة إلى ديانة مقررّة ترشد الحائرين والمترددّين من الناس ، ويرثى لتفاهة
الهرطقة الذين يعكرون صفو النظام الاجتماعى بتوفيقيهم فى عملهم (٤٢) . ولم يكن
يحب الليبريتانيين ، وبقى على ولائه وإخلاصه لشارل الأول ، أثناء الحرب الأهلية ،
وكافأه شارل الثانى على جهوده برفعه إلى مرتبة الفارس .

وفى سنواته الأخيرة أغراه بالتأمل والبحث فى الموت ، الكشف عن بعض
المقابر فى نورفولك ، وسجل ملاحظاته وأفكاره فى تحفة من روائع النثر الانجليزى
غير ذات موضوع محدد : Hydriolaphia Urne - Buriall. (١٦٥٨) . وينصح
بأحراق الموتى ، كأخف الوسائل عقبا لتخليص الأرض منها . « إن الحياة بريق
صاف ، واننا لنعيش «بشمس» خفية فيها » ، ولكننا نومض ثم نخبو بسرعة مخزية.
وإن الأجيال تتمضى ، على حين يبقى الشجر ، وإن الأسرات العريقة لا تعمر قدر ماتعمر
ثلاث بلوطات (٤٣) » ويحتمل أن العالم نفسه « يقترب من نهايته » فى هذه الساعة
الفاصلة من الزمن . ونحن بحاجة إلى الأمل فى الخلود ليثبتنا ضد قصر الحياة هذا ،
وإنه لسند قوى لنا أن نحس بالخلود ، - ولكن يحزننا أشد الحزن أن تدفعنا
أطياف الجحيم فى التياح إلى الاحتشام واللياقة (٤٤) . وليس المثل الأعلى « فراغا
سماويا » ولكنه « فى نطاق هذا العالم المحسوس » فى حالة من الرضا والهدوء .
ولكن براون يستدرك بسرعة حتى لا ينزلق إلى هاوية الهرطقة ، فيختم تأملاته
الدينية بدعاء خاشع إلى الله :

اللهم أنعم على فى هذه الحياة براحة الضمير ، وبالسيطرة

على عواطفى ، وامنحنى حبك وحب أصدقائى الأعزاء ،
وهذا أكون سعيدا إلى حد الاشفاق على قيصر . تلك ،
يا إلهى ، رغباتى المتواضعة التى يملها على طموحى المعقول .
وهو كل ما أجرؤ على القول بأنه السعادة على الأرض ،
التي لا أضع فيها قاعدة ولا حدا لنعمتك وعنايتك . وأمتنى
كما تشاء حكمتك فان مشيئتك سوف تنفذ ولو فى القضاء
على (٤٥) .

• - الشعر فى أيام شارل

وظهرت فى نفس الحقبة طائفة من الشعراء الثانويين الأقل شأنا - الذين حظى
كل منهم بأعظم الحب لدى هذا أو ذاك من الناس - والذين أمتعوا الناس ،
وملأوا وقت فراغهم بقوافى الغزل وقصائد التقوى الرخيمة . وحيث أن الملك
كان يميل إليهم ويرضى عنهم لأنهم كانوا أبواقا له ولسان حاله فى كل التقلبات ،
فان التاريخ يعرفهم باسم « الشعراء الفرسان » . وكان روبيرت هرك **Herrick**
يدرّب قلمه عند بن جونسون ، وظن لبعض الوقت أن قدحا من النبيذ يمكن أن
ينظم مجلدا من القصائد ، وكان يحتسى الخمر لعدة ساعات دون انقطاع ، من أجل
باخوس (إله الخمر والعريضة عند اليونان والرومان) ، ثم درس ليهي نفسه
للانخراط فى سلك رجال الدين ، وتلقى درسا فى العشق والغرام ، وقطع على نفسه
عهدا أن يؤثر التحليلات على الزوجات (٤٦) . وأشار على العذارى « بجمع براعم
الورد » عند تفتيحها . أما عشيقته كورنا **Corinna** فانه يستنحها بقوة :

انهضى ، انهضى ، يا للعار إن الصبح المتفتح يمثل بأجنحته
قدرة الله كاملة . انظرى كيف أن افجر ينبثق فى الجو عن
خيوط الضوء الحديد الجميل . انهضى أيتها الغادة النورم
وانظرى كيف ترين قطرات الندى العشب والشجر تعالى ،
ولنذهب ونحن فى ريعان شبابنا لنسرح ونمرح فى اللهو البرى

فى أيامنا . سوف يدركنا الهرم بسرعة ونفنى قبل أن نستمتع
بحريتنا . . . وعندما يسعفنا زماننا ، وقبل أن نذبل
ونذوى ، تعالى يا حبيبتي كورنا ، تعالى ننعم بربيع
الحياة (٤٧) .

وهكذا فى كثير من قصائده الماجنة التى نشرها (١٦٤٨) فى مجموعة
Hesperides ، حيث نجد أنها ، حتى فى أيامنا الفاجرة ، فى حاجة إلى تهذيب ،
حتى تلائم كل الناس . ولكن كسب العيش ضرورى كذلك . ومن ثم غادر هرك
لندن الحبيبة إلى نفسه (١٦٢٩) - حاملا معه حبه للقصيد والقوافى - وقصد
وهو محزون ، ليعمل قسيسا ويقم فى بيت متواضع فى ديفونشير النائية .

وسرعان ما شرع فى نظم قصائد تفيض بالتقى والورع ، بادئا بدعاء الغفران :
أما عن قصائدى المحافاة للدين ، والتى كتبها فى أيام طيشي
ومجوفى ، عن كل جملة أو عبارة أولفظة فيها ، لم يرد فيها
ذكرك ، يا إلهى ، فتجاوز عنها يارب ، وامح من كتابي كل
سطر لم تلهمنى فيه الصواب (٤٨) .

وفى ١٦٤٧ عزله البيوريتانيون من وظيفته . وتصور جوعا ، فى خضوع
وولاء ، طوال الأيام السود فى حكم كرومول ، ولكنه عاد إلى أبرشيته بعودة
الملكية ، ومات هناك ، وهو فى سن الرابعة والثمانين ، وضاعت كورنا فى
أيوايا النسيان .

ولم يعمر توماس كارو Carew مثلما عمر هرك ، ولكنه مثله ، وجد فسحة
من الوقت للخليالات والمخطيات . وثمل كارو بالمفان التى تديق عن الوصف فى
المرأة . فتغنى بها فى تفصيل جندل نشوان فى « نشوة ARapture » ، وفى ازدراء
جرىء للظهر والعفة حتى أن الشعراء الآخرين شتموا عليه دقته الفاسقة . ولم يغفر
البيوريتانيون لشارل الأول تعيينه فى المجلس الخاص . ولكن ربما تجاوز عن
الموضوع من الناحية الشكلية . لقد اقتبس الشعراء فى أيام شارل كل الرقة والأناقة

الفرنسيين في شعر رونسار وبنات أطلس ليزوقوا بالفن الرشيق محون الشهوات [وبعدها عن اللياقة والاحتشام .

وحظى سيرجون سكلنج Suckling بثروة طائلة في حياته القصيرة التي لم تتجاوز الثلاثة والثلاثين ربيعا . ولد في ١٦٠٩ ، وورث في الثامنة عشرة من عمره أموالا كبيرة . وطاف بأنحاء أوربا ليكمل دراسته ، وضمه شارل الأول إلى طائفة الفرسان ، وحارب تحت إمرة جوستافوس أدولفوس في حرب الثلاثين عاما . وعاد إلى إنجلترا (١٦٣٢) ، ليصبح بفضل وسامته وذكائه وثرائه الواسع من ذوى الخطوة في البلاط الملكي . ويقول عنه أوبري إنه « كان من أشجع أهل زمانه وأكثرهم شهامة وتودداً إلى النساء ، ومن أكبر المقامرين في لعبة البولنج (اللعب بالكرات الخشبية) ولعب الورق . . . وقد تأق أخواته إلى . . . ساحة اللعب ، تتعالى صيحاتهن وصرارهن خوفا من ضياع أنصبتهن في القمار (٤٩) . » وابتدع نوعا من لعب الورق Cribbage (كريج) . ولم يتزوج قط في حياته . ولكنه صاحب « عددا كبيرا من السيدات ذوات المكانة » . وفي إحدى الحفلات أهدى السيدات جوارب حريرية . وكأنها حلوى ، ثم مضى الحفل في بذخ هائل (٥٠) . وأخرجت روايته أجلورا Aglaura في مناظر باذخة مسرفة ، دفع نفقاتها من جيبه الخاص ، وحشد قواته للقتال إلى جانب الملك ، وخاطر بحياته في محاولة لانقاذ سير توماس ونثورث ارل سترافورد ، وزير الملك ، من السجن (في برج لندن) . فلما أخفق هرب إلى القارة ، وهناك حين حرم من كل ثروته . تناول السم ومات .

كذلك خدم ريتشارد لفلاس Lovelace الملك في الحرب والشعر معا ، كما كان أيضا ثريا وسيا . رآه أنتوني وود في اكسفورد فقال عنه انه « ألطف وأجمل إنسان وقعت عليه عيناه » (٥١) وفي ١٦٤٢ رأس وفدا من كنت يلتمس من البرلمان الطويل (وكان مشيخيا لأمد قصير) ، إعادة الطقوس الأنجليكانية . ومن أجل هذه الجراءة في التمسك بمعتقداته ، قضى في السجن سبعة أسابيع . ولما جاءت معشوقته أثلثا Althea زوره وتواسيه في السجن ، خلدها بهذه الأبيات :

عندما يرفرف الحب بأجنحة طليقة حول الأبواب ، ويأتى
بملاكه الطاهر أثلثيا تهمس من خلف القضبان . وعندما
أرقد متشابكا فى شعرها لأحول بصرى عن عينيها ، فان
الطيور التى تسبح فى الهواء لاتعرف حرية مثل هذه .

إن بعض الجدران لاتصنع سجنا ، ولا تصنع بعض
القضبان قفصا ، لأن العقول البريئة الهادئة تتخذ من
هذا وذاك صومعة . وإذا كنت أنعم بالحرية فى حبى ، وإذا
كانت نفسى طليقة . فان الملائكة الذين يخلقون فى السماء
هم وحدهم الذين ينعمون بمثل هذه الحرية (٥٢) .

وخرج إلى الحرب ثانية فى ١٦٤٥ ، معتذرا إلى خطيبته (لوسى ساكفرل

To Lucasta, Going to the Wars : فى قصيدة :

لاتقولى ياعزيزتى انى قاس لأرحم ، لأنى من معبد
صدرك الطاهر وبالك الخالى ، أطر إلى ساحة الحرب
وأمتشق الحسام

على أنك أنت نفسك سوف تقدسين مثل هذا التحول لأنى
لم أكن لأحبك ، إذا لم يكن الشرف أحب إلى منك (٥٣) .

وطبقا لأنباء كاذبة عن موته فى ساحة القتال تزوجت لوكاستا (لوسى الطاهرة)
من شخص آخر طلب يدها . ولما أن فقد لفلاس فتاة أحلامه وثروته فى سبيل
الدفاع عن الملكية ، ساءت أحواله إلى حد الاعتماد على إحسان أصدقائه وبرهم
ليقيم أوده . وبات هذا الذى كان يرفل فى ثياب موشاة بالفضة والذهب ، يرتدى
الآن أسمالا بالية ويأوى إلى الأكواخ . ومات من السل والحزال ١٦٥٨ ، وهو
فى سن الأربعين .

وكان من الممكن أن يتعلم لفلاس فن البقاء من ادموند وولر Waller الذى
نجح فى الاحتفاظ بنشاطه لمدة ستين عاما ، مماثلا جانبي الثورة الكبرى كإيهما ،

وأصبح أكثر شعراء زمانه شعبية ، وعمر بعد ملتون ، ومات في سريره ١٦٨٧ وهو في سن الواحدة والثمانين . ودخل البرلمان في السادسة عشرة من عمره ، وأصابته لوثة من الجنون في سن الثالثة والعشرين ، ثم شفى وتزوج في سن الخامسة والعشرين من سيدة في لندن آلت إليها ثروة ضخمة ، واراها التراب بعد ثلاث سنوات من زواجهما . وسرعان ماتودد إلى ساكاريسا (ليدي دوروثي سدن) ، بأسلوب جديد للموضوع قديم .

اذبحي أيتها الوردة الجميلة ، وأبلغني هذه التي تضيع وقتها وتضيعني ، إنها الآن تعرف حق المعرفة أنني إذ أشبهها بك ، كم تبدو هي جميلة فاتنة .
أبلغها ، وهي في ريعان الشباب ، وتتجنب أن يختلس أحد النظر إلى مفاتها ، أنك لو كنت (أيتها الوردة) ، نشأت في الصحراء ، حيث لا يقطن إلا سكان ، لأصابتك البول دون أن يتغنى أحد بجمالك
ثم تغنى تلك التي نقرأ فيها المصير المشترك لكل ماهو فاذ نادر ، وما أقصر الأيام التي نقضيها مع ربات الحسن الرائع والجمال المذهل .

وثمة شاعر آخر يكاد يكون من الشعراء الأقل شأنًا يدخل في زمرة شعراء هذه الحقبة ، وهو ريتشارد كراشو ، الذي امتلأ بالحساس الديني أكثر مما أغرم بمتاع الدنيا . وكتب والده ، وهو من رجال الكنيسة الأنجليكانية ، مقالات ضد الكاثوليكية ، وملأ قلب ابنه بالخاوف من البابوية . ولكن ريتشارد اعتنق الكاثوليكية . ووصل من كمبريدج (١٦٤٤) لمناصرة الملك ، فهرب من إنجلترا إلى باريس . وهناك تعزى عن فقره « بتجليات الذات الإلهية » ، كان المتصوفة الأسبان في نظره كشفا مقدسا عن النشوة الدينية والورع . وحين وقف أمام صورة للقديسة تريزا غبطها على ماظفرت به من اختراق مس المسيح لقلبها ، وتوسل إليه أن تبله تلميذا لها ، منكرا لذاته :

استحلفك بملء ملكوت هذه القبلة الأخيرة التي أمسكت
بروحك الطاهرة ، وختمتك ملكا للمسيح ، وبكل
السموات التي لك فيه (يا شقيقة الساروفيم الجميلة) ،
وبكل مانجده فيك من صفاته ، ألا تتركى في شيئا من
نفسى ، وأن تدعى أنامل حياتك ، بحيث أموت عن
كل حياتى .

قدم كراشو للعالم هذه القصيدة وقصائد غيرها فى ديوانه « خطوات إلى المعبد »
(١٦٤٦) ، وهى خليط متناقض يجمع بين النشوات الدينية والزوات الشعرية :
ولما لندرك من خلال هذا الشاعر ، وشاعر آخر مثله متأخر عنه ، هو هنرى
فوجان ، أنه فى تلك الأيام العصبية المحمومة ، لم تكن إنجلترا منقسمة إلى
بيوريتانيين وكلفنيين ، بل وسط حرب الشعر واللاهوت ، وجدت بعض الأرواح
أن الدين ليس كامنا فى الأضرحة الضخمة والطقوس المنومة ، ولا فى التعاليم الرهيبة
والاختيار المرسوم بالكبرياء والزهو ، ولكن فى الاتصال البريء الواقى ، للنفس
الحائرة الخاشعة ، بالله الغفور الودود .

٦ — شارل الأول يواجه البرلمان ١٦٢٥ — ١٦٢٩

أى طراز من الرجال كان هذا الملك الذى كان على إنجلترا بأسرها أن تقا تل من
أجله ؟ وقبل أن تنتزع العاصفة كل آثار الرحمة والشفقة من قلبه ، كان رجلا
فاضلا إلى حد معقول — كان ابنا عطوفا بارا ، وزوجا مخلصا بشكل غير عادى ،
وصديقا وفيا ، وأبا يحبه أبناؤه حب العبادة ، وكان قد بدأ صراعه فى الحياة
بعلة خلقية فى جسمه ، فلم يكن يستطيع المشى إلى أن بلغ السابعة من العمر . وتغلب
على هذه العاهة بالدأب على ممارسة ألعاب قوية ، حتى استطاع فى سن الشباب
والنضج أن يتقن ركوب الخيل والصيد على أحسن وجه . وعانى من عجز عن
النطق ، فكان حتى سن العاشرة لا يكاد يستطيع الابانة فى كلامه . وفكر أبوه فى
إجراء عملية له فى لسانه ، وتحسن شارل شيئا فشيئا ، ولكن ظل حتى آخر لحظة فى

حياته يتلعم ، وكان عاىه أن يتغلب على هذه العقبة بالتزام البطء فى الكلام (٥٠) .
وعندما قضى أخوه هنرى نعبه ، وكان محبوباً لدى الشعب ، وتركه الوريث
الظاهر للعرش . حامت الشبهات حول اشتراك شارل فى موته ، وكان اتهاماً ظالماً ،
ولكنه أسهم فى اكتئاب الأمير وسوء حالته النفسية . فآثر العزلة المملة على المرح
الصاخب والإدمان على الخمر فى بلاط والده . وبرع فى الرياضيات والموسيقى
واللادوت ، وتعلم شيئاً من اليونانية واللاتينية ، وقليلاً من الأسبانية . وأحب
الفن ، فاحتفظ بمجموعة أخيه ، وزاد عليها ، فأصبح جامعاً للتحف مع التمييز بين
الفن والثمن منها . وراعياً كريماً للفنانين والشعراء والموسيقين . ودعا إلى بلاطه
الرسام الإيطالى أورازيو جنتيلسكى ، ثم روبنز وفانديك وفرانس هالز ، ورفض
هالز ، وجاء روبنز أساساً بوصفه سفيراً . ولكن العالم كله عرف شارل على أنه
الملك المزهو الوسيم ، مع فنديك بلحيته ، وكم من لوحة للملك بريشة فانديك .
واستمر وليم دوبون . تلميذ فانديك يصور الأسرة المالكة .

وأسهمت أبوة شارل وزواجه فى القضاء عليه . لقد ورث عن أبيه فكرته عن
الحق المطلق للملك . وسلطته فى سن القوانين وتنفيذها ، والحكم بلامرمان ،
والغاء التوازن الذى يسنها البرلمان . وبدأ أن هذه الفكرة تبررها السوابق ، وكانت
قضية مسلماً بها فى فرنسا وأسبانيا ، وكان يشجع شارل على اعتناقها ، بكنجهام
والخاشية والملكة جميعاً . نشأت هنريتا ماريا فى البلاط الفرنسى فى نفس الفترة التى
كان فيها ريشيليو قد جعل من أخيها لويس الثالث عشر حاكماً مطلقاً مستبداً على
فرنسا بأسرها . فيها عدا ريشيليو نفسه . وقدمت الملكة إلى إنجلترا ، وهى تجهر
عذها الكاثوليكية ، مصطحبة معها فى ركب عرسها الكهنة الكاثوليك ، وزاد
من تشددتها فى الأسك بمذمبتها ما رأت من العنت الذى يلاقيه الكاثوليك فى إنجلترا .
وتحمت الملكة . بسحر الجمال والحيوية والدكاء ، وبكل نزوع آل مديتشى إلى
الاشتغال بالسياسة . ولم يكن بد من أن تحث زوجها المخلص على التخفيف من
آلام الكاثوليك فى إنجلترا ، ولا ريب فى أنها كانت تحلم بتحويل الملك نفسه إلى
الكتلكة . وأنجبت له ستة أطفال . ولا بد أنه لى عناء شديداً فى مقاومة رغبتها فى تنشئة

الأطفال على العقيدة الكاثوليكية . ولكنه كان قد انتهج نهجاً مخلصاً في التمسك بالعقيدة الأنجليكانية . وتحقق أن بلاده ، إنجلترا ، بروتستانتية إلى حد كبير ، معادية للبابوية التي تنذر بالأخطار .

في ١٨ يونية ١٦٢٥ اجتمع أول برلمان في عهد شارل : مائة من اللوردات — نبلاء وأساقفة — تمتعوا بعضوية مجلس اللوردات ، وخمسمائة رجل ثلاثة أرباعهم من البيوريتانيين^(٥٥) ، انتخبوا لمجلس العموم ، بمختلف طرق الاحتيال المالى والسياسى^(٥٦) ، ولم يزعم أحد بأنه كان ثمة ديمقراطية . ومن المحتمل أن مستوى الكفاية في هذا البرلمان أعلى مما كان يمكن أن يأتي به اقتراع البالغين ، فقد ضم كوك وسلدن وبيم وسيرجون اليوت وسيرتوماس ونتورث . وغيرهم ، ممن نخلد التاريخ ذكرهم . وزادت جملة ثروات أعضاء مجلس العموم على ثلاثة أمثال ثروات اللوردات^(٥٧) . وتكشفت نزعة مجلس العموم في مطالبته بتطبيق القوانين المعادية للكنائس . وطلب الملك تخصيص أموال للنفقات الحكومية وللحرب مع أسبانيا ، فاعتمد المجلس مبلغ ١٤٠ ألف جنيه (٧ ملايين دولار ؟) ، وتعهد أن يكون هذا المبلغ غير كاف ، فإن الأسطول وحده كان يتطلب ضعف هذا المبلغ . وجرى العمل لمدة قرنين من الزمان ، على منح الملوك الإنجليز طيلة مدة حكمهم . حق فرض رسوم على الصادرات والواردات ، وكنت عادة شلنين أو ثلاثة شلنات عن كل برميل كبير Tun (وحدة سعة ٢٥٢ جالوناً عادة) ومن ستة إلى إثنا عشر بنساً لكل باوند . ولكن القانون الذى سنه البرلمان آنذاك « Tonnage and Poundage » سمح للملك بممارسة هذا الحق لمدة عام واحد فقط . واحتج بأن الاعتمادات السابقة كانت حاشية الملك جيمس تبدها في إسراف وتبذير . كما شكوا من أن الضرائب كانت تفرض دون موافقته ، وتقرر منذ الآن أنه لابد من دعوة البرلمان سنوياً ليفحص كل عام مصروفات الحكومة . واستاء شارل من هذه التدابير والنيات . ولما باتت لندن مهددة بالطاعون ، اتخذ من ذلك ذريعة لحل البرلمان في ١٢ أغسطس ١٦٢٥ .

كان بكنجهام يقبض آنذاك على زمام الأمور في الحكومة ، فإن شارل لم يرث عن أبيه الدوق اللطيف المستهتر فقط ، بل إنه كان كذلك قد تربى في أحضان ، ورافقه في أسفاره ، في صحبة كان من الصعب معها على الملك (شارل) أن يرى في صديقه مستشاراً غير حكيم يحرج عليه الكوارث . وكان بكنجهام ، بتأييد من البرلمان ، قد دفع جيمس إلى الحرب مع أسبانيا ، أما الآن فقد رفض البرلمان اعتماد الأموال اللازمة للحرب . وجهاز الدوق أسطولا ضخماً ليقمع ويهاجم البضائع والثغور الأسبانية ويسلبها ، ولكنه أخفق إخفاقاً تاماً ، أما الجنود العائدون ، الذين لم يتسلموا رواتبهم ، والذين ساءت روحهم المعنوية ، فقد أعملوا السلب والنهب ونشروا الروح الانهزامية في المدن الساحلية الإنجليزية .

ولما اشتدت حاجة شارل إلى المال ، راض نفسه على دعوة برلمانه الثاني ، وقويت المعارضة باشتداد حاجة الملك . وحذره مجلس العموم من فرض الضرائب دون إقرار البرلمان لها . ووصم اليوت الدوق (وكانا يوماً صديقين) بأنه رجل فاسد عاجز ازداد ثراء كلما أخفقت استراتيجية البلد أو سياستها . وعين البرلمان لجنة لمساءلة بكنجهام . فأنبه الملك قائلاً : « أنا لا أسمح بأن يحقق المجلس مع خدemy ، فما بالكم برجل قريب مني إلى هذا الحد . » فأشار اليوت على المجلس بوقف أية اعتمادات حتى يسلم الملك بحق البرلمان في إسقاط أى وزير ، وذكر شارل البرلمان عاضباً ، بأن في مقدوره أن يفرضه في أية لحظة ، فرد المجلس على ذلك بمحاكمة بكنجهام رسمياً — متهمين إياه بالخيانة ومطالبين بعزله عن منصبه (٨ مايو ١٦٢٦) وأبلغ الملك بأنه لن يقر أية اعتمادات ، حتى يتم ذلك . فحل الملك البرلمان في ١٥ يونيه ، وترك البت في موضوع المسئولية الوزارية للمستقبل .

وبات شارل مرة أخرى معزواً في ميسيس الحاجة إلى المال ، وبيع ممتلكات كبير من الصحاف الملكية القضية والذهبية . وطلب إلى البلاد بأسرها أن تبعث بالهبات والهدايا للملك ، ولكن ما جمع منها كان يسيراً ، فإن الثروات البريطانية كانت تناصر البرلمان ، وأمر شارل أعوانه أن يجمعوا رسوم الصادرات والواردات سالفة الذكر . ورغم عدم حصوله على موافقة البرلمان ، وأن يستولوا على بضائع التجار

الذين يعجزون عن الدفع . وأمر الثغور بالانفاق على الاسطول ، وأمر وكلاءه بسوق الرجال إلى الخدمة العسكرية عنوة . وهزم رجال الامبراطور القوات الانجليزية الدنمركية التي كانت تقاتل من أجل البروتستانتية في ألمانيا شر هزيمة . فطالب الدنمركيون حلفاء انجلترا بالمعونة التي كانت وعدتهم بها . وأمر شارل بعقد قرض إجبارى — فكان على كل دافع ضرائب أن يقرض الحكومة ١ ٪ من قيمة أرضه و ٥ ٪ من ثمن ممتلكاته الشخصية . وأودع الحصوم الأثرياء السجن ، وسبق المعارضون الفقراء إلى الجيش أو البحرية . وفي نفس الوقت حمل التجار البريطانيون المؤن والذخيرة إلى بوردو و لاروشيل للهيجنوت المشتبكين في حرب مع ريشيليو . فأعلنت فرنسا الحرب على انجلترا (١٦٢٧) ، وقاد بكنجهام أسطولا لمهاجمة الفرنسيين في لاروشيل ، ولكن الحملة أخفقت . وسرعان ما نفذ المبلغ الذى جمع من القرض وقدره ٢٠٠ ألف جنيه . وبات شارل مرة أخرى على شفا الانفلاس ، فدعا برلمانه الثالث .

اجتمع البرلمان في ١٧ مارس ١٦٢٨ ، وأعيد كولك واليوت وونتورث وجون هامدن . وأرسلت مدينة هنتنجدون لأول مرة أحد ملاك الأرض الأقوياء الشكيمة ممثلا عنها ، هو أوليفر كرومويل . وفي خطاب العرش طالب شارل بالاعتمادات متجهما ، ثم قال في وقاحة وبغير اكتراث : « لاتأخذوا هذا على أنه تهديد ، فاني احتقر أن أهدد إلا من هم أنداد لي (٥٨) » واقترح البرلمان اعتماد مبلغ ٣٥٠ ألف جنيه ، ولكن قبل التصويت على ذلك ، طلب موافقة الملك على « ملتصق الحقوق » (١٨ مايو ١٦٢٨) الذى أصبح أحد المعالم التاريخية في الطريق إلى « سيادة البرلمان » :

إلى صاحب الجلالة الملك المعظم

إننا في خشوع واحتشام نعرض على مليكتنا وسيدنا . . . أنه من حيث أنه قد أعلن وطبق بقانون من ادوارد الأول ، أنه لا ضريبة ولا معونة يمكن أن توضع أو تفرض ،

بغير الارادة الخالصة لرؤساء الأساقفة والأساقفة وكل ارل
وكل بارون وكل فارس ، وممثلى المدن والجامعات والأحرار
من العامة . وورث رعاياك هذه الحرية ، أى أنهم لا يجبرون
على الاسهام فى أية ضريبة أو رسوم أو معونة أو أى
تكليف آخر من هذا القبيل ، لا يكون قد وضع بموافقة
البرلمان موافقة عامة .

ومضى « الملتمس » يحتج على القروض الاجبارية ، وإهدار الملك لحق الفرد
فى التحقيق فى قانونية الاعتقال ، وحق المحاكمة أمام المحلفين كما وردا فى « العهد
الأعظم ١٢١٥ » . وقال كوك : « إننا سنعرف عن طريق هذا الملتمس ما إذا
كتب للبرلمان أن يحيا أو يندثر » . ووافق شارل على الملتمس موافقة غامضة ملتوية ،
وطالب البرلمان برد أكثر صراحة ووضوحا . وظل على موقفه من وقف
الاعتادات . فوافق الملك موافقة رسمية أو شكلية . وأحست لندن بأهمية هذا
الاستسلام ومغزاه ، وقرعت النواقيس بشكل لم يسمع له مثيل لعدة سنوات
من قبل .

ونخطا البرلمان خطوة أخرى ، فطالب الملك بعزل بكنجهام ولكنه رفض ،
وفجأة روع الطرفان حين وجد أن هذه المشكلة خرجت من أيديهما . ذلك أن
جون فلتون — وهو محارب قديم جريح أثقلته الديون ، غاضبا من أجل متأخرات
معاشه ، متأثرا أشد التأثر بالنشرات — اشترى سكين جزار ، ومشى ستين ميلا
من لندن إلى بورتسموث ، وغمس السكين فى صدر بكنجهام ، وسلم نفسه
للسلطات (٢٣ أغسطس ١٦٢٨) . وانهارت أمام الجثة زوجة بكنجهام التى
كانت على وشك الوضع ، واستولى الشعور بالندم على فلتون فأرسل إليها باعتذاراته
وطلب منها الصفح ، فأجابته إلى طلبه . ولكنه أعدم دون تعذيب .

وحذر البرلمان الملك بأن استمراره فى تحصيل رسوم الصادرات والواردات
إهدار للملتمس الحقوق ، فأجاب شارل بأن مثل هذه الرسوم لم يرد ذكرها فى
الوثيقة ، فشجع البرلمان التجار على الامتناع عن دفعها (٥٩) وتوكيدا لحق البرلمان
(٢٠)

في سن التشريع الديني ، برغم سيادة الملك الدينية ، نادى بكلفنية صارمة ، وبتفسير مضاد لآراء أرمينيوس* للمواد التسع والثلاثين باعتبارها قانون إنجلترا ، واقترح ، استنادا إلى السلطة المخولة له ، فرض الخضوع للكنيسة الانجليزية على هذا الأساس ، وفرض العقوبات على الكاثوليك والأرمنيين على حد سواء (٦٠) . فأمر الملك برفض البرلمان ، وغادر رئيسه مقعد الرئاسة امتثالا لهذا الأمر ، ولكن المجلس أبى أن يفيض الاجتماع ، وأرغم رئيسه على العودة إلى كرسيه . نحن الآن في ٢ مارس ١٦٢٩ حيث قدم جون اليوت ثلاثة قرارات تنص على أن تكون جريمة كبرى عقوبتها الإعدام : لإدخال المذاهب البابوية أو الأرمنية أو أية أفكار أخرى تخالف تعاليم الكنيسة القويمة الصحيحة ، والاشارة أو الاشتراك بأي شكل من الأشكال في جمع رسوم الصادر والوارد التي لم يقرها البرلمان ، ودفع مثل هذه الضرائب غير المعتمدة . ورفض رئيس المجلس أخذ الرأي على هذه الاقتراحات . فقام أحد الأعضاء بهذه العملية ، وقابلها المجلس بالهتاف والتصفيق وأقرها . ومنذ علم أعضاء المجلس بأن جنود الملك على وشك الدخول إلى قاعة المجلس وطردهم ، فانهم قرروا فض اجتماعهم ، وانصرفوا .

وفي مارس أمر شارل بسجن اليوت وسلدن وسبعة أعضاء آخرين بتهمة إثارة الفتنة . وسرعان ما أطلق سراح ستة منهم ، وحكم على الثلاثة الباقين بفرامات فادحة وبالسجن لمدة طويلة ، ومات اليوت في السجن وهو في سن الثامنة والثلاثين (١٦٢٢) .

٧ - شارل حاكم مطلق : ١٦٢٩ - ١٦٤٠

ومضت إحدى عشرة سنة - وهي أطول فترة من نوعها في تاريخ إنجلترا لم يجتمع فيها البرلمان . وبات شارل آنذاك حرا في أن يكون حاكما مطلقا . إنه من الوجهة النظرية لم يطالب بأكثر مما ذهب إليه جيمس واليزابث وهنري الثامن ،

(*) جاكوب أرمينيوس (١٥٦٠ - ١٦٠٩) - وهو لاهوتي هولندي بروستانت عارض آراء كلفن ، في القضاء والقدرة وحرية الإرادة والخلع .

ولكنه . من الوجهة العملية ذهب إلى أكثر مما ذهبوا إليه ، لأنهم لم يبلغوا بسلطات الملك وحقوقه قريبا من حد التوتر والانفجار كما كان يفعل شارل ، بفرض الضرائب غير المقررة ، وعقد القروض الاجبارية ، وإيواء الجنود لدى المواطنين ، وإجراء الاعتقالات التعسفية ، وإنكار حق المسجونين في طلب التحقيق في أمر حبسهم وفي المحاكمة أمام المحلفين ، وتشجيع طغيان محكمة « قاعة المنجم » ، ومحكمة اللجنة العليا وقساوتهما ، الأولى في المحاكمات السياسية ، والثانية في القضايا الكنسية ؛ ولكن غلطة شارل الأباسية هي عجزه عن أن يدرك أن الثروة التي يمثلها مجلس العموم أعظم كثيرا من الثروة التي يسيطر عليها الملك أو الثروة الموالية له ، وأن سلطة البرلمان لا بد أن تزداد تبعا لذلك .

وفي أثناء هذه الأزمة ، وقبل أن تستنزف دماء الأمة ، ازدهر الاقتصاد ، لأن شارل - مثل والده - كان رجل سلام ، وأبقى إنجلترا بعيدة عن الحرب طيلة معظم حكمه ، على حين أزهق ريشيليو فرنسا ، كما أصبحت ألمانيا خرابا بلقعا . وبذل الملك المهوك أقصى الجهد في التخفيف من التركيز الطبيعي للثروة . فأمر بوقف المساحات المسورة وألغى ما أقيم منها في خمس مقاطعات داخلية بين عامي ١٦٢٥ و ١٦٣٠ ، وفرض غرامات على ٦٠٠ من ملاك الأرض المتمردين (٦١) . وأمر برفع أجور عمال النسيج في ١٦٢٩ ، ١٦٣١ ، ١٦٣٧ ، وأمر قضاة الصلح بفرض رقابة أدق على الأسعار . وعين لجنا الحماية مستوى الأجور ، والإشراف على إعانة الفقراء . وخلق لود لنفسه أعداء جدد ، بتجذيده أرباب العمل من « إذلال الفقراء واضطرارهم إلى إراقة ماء وجوههم » (٦٢) . ولكن في نفس الوقت منحت الحكومة الاحتكارات في الملح والصابون والنشا والبيرة والنيذ والجلود ، وأفادت منها . واحتفظت لنفسها باحتكار الفحم . فكانت تشتريه بأحد عشر شلنا للعبوة ، وتبيعه بسبعة عشر في الصيف وتسعة عشر في الشتاء (٦٣) . وتلك أيضا احتكارات أزهقت الفقراء إلى أبعد حد ، وهاجر إلى إنجلترا الحديد أكثر من ٢٠ ألفا من البيوريتانيين .

ودفع شارل بأنه كان لا بد له من إيجاد وسيلة لتغطية نفقات الحكومة . وفي

١٦٣٤ حاول محاولة مشثومة : فرض ضريبة جديدة . ذلك أن السوابق جرت من قديم على مطالبة المدن الساحلية بأن تمد الأسطول بالسفن اللازمة له زمن الحرب ، مقابل حمايته لها ، أو أن تدفع ، بدلا من ذلك ، « مال السفن » للحكومة لتمنق منه على الأسطول . ولكن شارل الآن ، ونحن في ١٦٣٥ ، فرض « ضريبة السفن » هذه ، وبغير سابقة ، على كل انجلترا بأسرها في زمن السلم ، متذرعا (وهذا حق تماما) بالحاجة إلى إعادة بناء البحرية الخربة ، استعدادا للطوارئ ، ولتتولى حماية التجارة البريطانية ضد قراصنة القنال الإنجليزي . وعارض البكثيرون هذه الضريبة الجديدة ، ورفض جون هامدن دفعها ، اختبارا لمشروعيتها ، فأودع السجن ثم أطلق سراحه . وكان بيوريتانياً موسراً من بكنجهامشير . قال عنه أحد أنصار الملكية — كلارندن ، إنه ليس من مثيري الفتن بل إنه رجل هادئ « يتميز برزانة ودقة غير عاديتين (٦٤) » . أخفى صلابته في كياسته ومجاماته ، وأخفى زعامته في تواضعه .

وتأخرت محاكمة هامدن طويلا ، ولكن أخيراً بدىء بنظر القضية في نوفمبر ١٦٣٧ ، وأورد محامو التاج سوابق «ضريبة السفن» وقالوا بأن للملك في ساعة الخطر الحق في أن يطلب المعونة المالية دون انتظار لانعقاد البرلمان . فأجاب محامو هامدن بأنه لم يكن ثمة ضرورة ماسة تقتضى العجلة ، وحالة طوارئ . وأنه كانت هناك فسحة من الوقت لدعوة البرلمان ، ثم أن فرض الضريبة انتهك مبادئ الحقوق الذي قبله الملك . وصدر الحكم لمصلحة التاج بأغلبية سبعة ضد خمسة من القضاة ، ولكن الرأي العام ساند هامدن ، وارتاب في نزاهة القضاة الذين هم عرضة لانتقام الملك . وسرعان ما أطلق سراح هامدن . واستمر شارل حتى ١٦٣٩ يجمع ضريبة السفن . واستخدم الجزء الأكبر منها في بناء البحرية التي قاتلت الهولنديين وانتصرت عليهم في ١٦٥٢ .

وفي الوقت نفسه تجاوزت أخطاء الملك الجسام انجلترا إلى اسكتلنده ، فإنه أزعج المشيخين الاسكتلنديين بزواجه من كاثوليكية ، ومدد سلطان الأساقفة على

كنائسهم . وروع نصف الأشراف « بقانون الإلغاء » (١٦٢٥) الذي يقضى بالغاء كل ما منح من أراضي التاج أو الكنيسة منذ ارتقاء ماري ستيوارت إلى العرش . وعين خمسة من الأساقفة ورئيساً للأساقفة أعضاء في المجلس المخصوص في اسكتلنده ، ثم عين هذا الأخير وهو جون سبوتيزود Spottizwoode قاضياً للقضاة - وهو أول رجل من رجال الكنيسة يعين في هذا المنصب منذ عهد الإصلاح الديني . ثم إنه لما قدم ، بعد إبطاء أو تمهل مثير ، إلى اسكتلنده لينزوج عليها (١٦٣٣) ، سمح للأساقفة بإجراء الطقوس التي تكاد تكون في معظمها مراسم كاثوليكية في الكنيسة الأنجليكانية - الملابس والشموع والمذبح والصليب . ولما كان الأساقفة الإسكتلنديون قد وطدوا العزم على فرض سلطانهم على المشيخيات ، فإنهم وضعوا مجموعة من القواعد الطقسية التي صارت تعرف - باسم " قوانين لود " ، وقد أولت هذه القوانين الملك سلطة كاملة في الفصل في قضايا الكنيسة ، وحرمت اجتماع رجال الدين إلا بدعوة من الملك ، وقصرت حق القيام بالتدريس على من يحيزهم الأسقف ، ونصت على ألا يرسم قسيساً إلا من يرتضى هذه النوانين (٦٥) . وأقر شارل هذه القوانين وأمر بإعلانها في كل كائس اسكتلنده . وانتج القساسة المشيخيون على أن نصف الإصلاح الديني بهذه الطريقة قد نسب ، وهدروا من أن شارل يمهّد لإضاع بريطانيا أرومه . وثارث ثائرة الجمهور في كنيسة سانت جيل في إدنبرة عند محاولة إقامة الشائر على الشكل الجديد ، وقذف بالمصى والحجارة الكاهن الذي تولى إقامة الشائر ، وطوحت جنى جلدز Jenny Geddes بكرسيها في رأسه صارخة " أيها اللص اقلد ، هل أنت الذي ستتلو القداس ؟ (٦٦) " وانهالت الظلامات والالتماسات على شارل من كل الطبقات تطالب بالغاء " القوانين الكنسية " السابق ذكرها . فكان جوابه أنه دمع هذه الملتمسات بالخيانة . وبدأت إسكتلنده الثورة ضد الملك .

وفي ٢٨ فبراير ١٦٣٨ وقع ممثلو الكنيسة الإسكتلندية وسواد الناس في إدنبرة " الميثاق الوطني " يؤكدون فيه من جديد مذهب المشيخية وطقوسها ، ويرفضون القوانين الجديدة ، وينلدرون أنفسهم للدفاع عن التاج وعن " العقيدة الصحيحة " .

وبتحرير من القساوسة أبدت إسكتلنده كلها تقريباً هذا الميثاق . وهرب سبوتز وود وكل الأساقفة فيما عدا أربعة ، إلى إنجلترا . وطردت الجمعية العامة للكنيسة الإسكتلندية في جلاسجو كل الأساقفة ، وأعلنت استقلالها عن الحكومة . وأرسل الملك أوامره بفض الاجتماع ، وإلا وجهت إلى المشتركين فيه تهمة الخيانة . ولكنهم واصلوا عقد جلساتهم . وحشد الملك جيشاً قوامه ٢١ ألف جندي تعوزهم الحماسة ، ساربه إلى إسكتلنده ، على حين جمع ” الميثاقيون ” قوة من ٢٦ ألف رجل ألهمهم الحماس الديني والغيرة الوطنية . وعندما تلاقى الجمعان وافق شارل على عرض القضية على برلمان إسكتلندي حر وجمهورية غير مقيدة من الكنيسة الإسكتلندية ، ووقعت الهدنة في بروك Berwick في ١٨ يونية ١٦٣٩ وبذلك انتهت « حرب الأساقفة الأولى » دون إراقة دماء . ولكن الجمعية الجديدة انعقدت في إدنبره في ١٢ أغسطس ١٦٣٩ ، وأكدت القرارات ” الخائنة ” التي اتخذت في مؤتمر جلاسجو ، وصدق البرلمان الإسكتلندي على قرارات الجمعية . واستعد الطرفان ” لحرب الأساقفة الثانية ” .

ودعا الملك للوقوف إلى جانبه ، في هذه الأزمة ، رجلاً ثابت الازم كامل المزايا (وكانت هذه الكلمة شعاره) بقدر ما كان الملك متردداً عاجزاً . وكان توماس ونتورث Wentworth قد وصل إلى مقاعد البرلمان وهو في سن الحادية والعشرين (١٦١٤) ، وكان غالباً ما يصوت ضد الملك . وكسبه شارل إلى جانبه بتعيينه رئيساً «لجلس الشمال » ، وكافأه على نشاطه في تنفيذ سياسة الملك بضمه إلى مجلس شورى الملك وبعث به نائباً للملك في إيرلنده (١٦٣٢) حيث أخذت الثورة هناك سياسته ” البارعة ” التي ارتكزت على كفاية مجردة من الرحمة ، وأقامت سلاماً مشوباً بالغضب . وفي ١٦٣٩ عين ارل سترافورد ورئيساً لمستشاري شارل . ونصح الملك بحشد جيش كبير ، لقمع ” الميثاقيين ” ومواجهة البرلمان المتمرد بقوة لا قبل له بمقاومتها . ولكن الجيش الكبير يتطلب اعتمادات من العسير تدبيرها بدون البرلمان . فدعا ، على كره منه ، برلمانه الرابع ، فلما اجتمع هذا ” البرلمان القصير ” (١٣ أبريل ١٦٤٠) عرض عليه الملك رسالة ضبطت ، التمس فيها الميثاقيون نجدة لويس الثالث عشر (٢٧) . واحتج الملك بأن له الحق ، إزاء مثل هذه الخيانة ،

في أن يحشد جيشا ، واتصل جون بيم سرا بالميثاقين ، وقرر أن مشكلتهم مماثلة لقضية البرلمان ضد الملك ، وحرص البرلمان على منع المعونات المالية عن الملك ، وعلى التحالف مع الاسكتلنديين . فحل شارل البرلمان القصير بتهمة الخيانة (٥ مايو ١٦٤٠) . واندلعت الفتنة في لندن ، وهاجم الرعايا قصر رئيس الأساقفة لود ، فلما لم يجدوه قتلوا كاثوليكيًا رفض الصلاة البروتستانتية (٦٨) .

وسار شارل إلى الشمال بجيش جمع ارتجالا ، وتقدم الاسكتلنديون نحو الحدود وهزموا الانجليز (٢٠ أغسطس ١٦٤٠) واستولوا على شمال إنجلترا . ووافق الملك البائس على دفع ٨٥٠ جنيه يوميا حتى يتم التوصل إلى معاهدة مرضية ، ولكنه عجز عن الدفع ، وبقي الجيش الاسكتلندي حول نيوكاسل ، بوصفه حليفا حاسما للبرلمان الانجليزي في حربه ضد الملك . فدعا شارل ، وقد تولاه اليأس والذهول والحيرة ، مجلسا من النبلاء للاجتماع به في يورك . فنصحوه بأن سلطانه بات على شفا الانهيار ، وأنه لا بد له من تسوية مع أعدائه . وللمرة الأخيرة دعا الملك البرلمان ، وهو أطول البرلمانات وأشدّها حسما وأكثرها شؤما في تاريخ إنجلترا .

٨ - البرلمان الطويل

اجتمع البرلمان في وستمنستر في ٣ نوفمبر ١٦٤٠ . وكان مجلس العموم يضم نحو ٥٠٠ عضوا « زهرة الطبقة العليا والعامة المتعلمين . . . مجلس ارستقراطي لاشعبي » (٦٩) ، يمثلون ثروة إنجلترا أكثر مما يمثلون شعبها ، ولكنهم يناضلون من أجل المستقبل ضد الماضي . وأعيدت أغلبية أعضاء البرلمان القصير ، متحفزين للانتقام . وتبوأ سلدن وهامدن وبيم أماكنهم من جديد . وكان كرومول رجلا مرموقا ، ولو أنه لم يرق إلى الزعامة بعد .

وإنه ليتعذر ، على بعد الشقة ، أن تصور كرومول تصويرا موضوعيا . فان المؤرخين منذ ظهر حتى اليوم ، يصفونه بأنه منافق طموح (٧٠) ، أو قديس سياسي (٧١) . . . إنه شخصية متناقضة ، ربما جمع - وربما وفق في بعض

الأحياء — في خلقه بين الصفات المتعارضة التي أدت إلى اختلاف الناس في تقديرهم له . وهذا هو مفتاح سيرة كرومويل .

كان كرومويل من ملاك الأرض من غير ذوى الحسب والنسب . الذين لم يتمتعوا بريق الوظائف الحكومية ، ولو أنه أسهم عن غير طيب نفس في الاتفاق عليها . مع ذلك فإنه كان له أسلافه . فكان والده روبرت كرومويل يملك ضيعة متواضعة في هنتنجدون تدر ٣٠٠ جنيه في العام . وكان جده الأكبر ريتشارد وليامز ابن أخى توماس كرومويل أحد قساوسة هنرى الثامن ، فغير اسمه إلى كرومويل ، وحصل بوصفه كاهنا ، أو من الملك ، على شيء من الضياع والموارد المصادرة من الكنيسة الكاثوليكية (٧٢) ، وكان أوليفر واحداً من بين عشرة أطفال ، وهو الوحيد الذى عمر ، على حين مات الباقون في سن الطفولة . وكان معلمه في المدرسة الثانوية واعظاً متحمساً ، كتب رسالة يثبت فيها أن البابا عدو المسيح ، وأخرى يعدد فيها العقوبات الالهية للخطائين المعروفين بسوء السمعة . والتحق أوليفر (١٦١٦) بكلية سدنى سبسكس في كبردج ، وكان ناظرها صمويل وارد الذى مات في السجن (١٦٤٣) لاتخاذ موقفاً بيوريتانياً عنيدا ضد بدع لود و « إعلان الألعاب » الذى أصدره شارل . والظاهر أن أوليفر ترك كبردج قبل التخرج . وأخيراً في ١٦٣٨ اتهم نفسه بمقارفة شيء من طيش الشباب ونزقه :

تعلمون أية حياة كنت أعيشها . آه لقد عشت في طلام محب إلى نفسى ، وكرهت النور . كنت زعيماً ، ولكن زعيم الخطائين الآثمين . إن هذا حق : كان التقى بغیضاً إلى قلبى ، ولكن الله حبانى رحمته ، آه بركات رحمته سبحانه ، احمده واشكروه وأثنوا عليه من أجلى — وتوجهوا إليه من أجلى بالدعاء ، لعل من أسدى هذا الصنيع الجليل أن يتمه يوم المسيح ، أو يوم الحساب (٧٣) .

ومارس كرومويل كل ضروب الندم ، وانتابه هذيان الموت وكل مظاهر القلق العقلى ، مما بقى معه مكتئباً باستمرار ، وتحدث بقية حياته بأسلوب الورع البيوريتانى .

ثم استقر وتزوج وأنجب تسعة أطفال ، وأصبح مواطناً نموذجياً ، إلى حد أنه في ١٦٢٨ ، وهو في سن الثامنة والعشرين ، انتخب ليمثل هنتنجدون في البرلمان . وباع ممتلكاته في هنتنجدون بمبلغ ١٨٠٠ جنيه (١٦٣١) وانتقل إلى سانت إيف St. Ives ، ثم بعدها إلى Ely . وعندما أعادته كمبردج إلى البرلمان (١٦٤٠) وصفه عضو آخر بقوله : ” يرتدى بشكل عادي جداً حلة من قماش بسيط ولم تكن ملابسه الداخلية نظيفة كل النظافة . . تلتطخ ياقته الصغيرة بقعة أو بقعتان من الدم “ . . وكان وجهه منتفخاً يميل إلى الحمرة ، وصوته حاداً مجرداً من التناغم — وكان طبعه منتقداً إلى حد بعيد ، ولكن مع القدرة على ضبط النفس (٧٤) ، — وكان يتحين الفرصة الملائمة ، ويخاطب الرب . وكان له قوة عشر رجال . ومهما يكن من أمر ، فإن الله حتى هذه اللحظة ، اصطلي أدوات أخرى .

إن جون بيم هو الذي كشف عن الغضب الذي ساد البرلمان باتهامه سترافورد بأنه يناصر البابوية سرّاً ، وأنه يدبر قدوم جيش من ليرلنده للإطاحة بالبرلمان ، و « تغيير القانون والديانة » (٧٥) . وفي ١١ نوفمبر ١٦٤٠ اتهم مجلس العموم لارل سترافورد ، حيث لم يغفر له المجلس قط تخليه عن الملك — بالخيانة وأمر بإيداعه السجن . وفي ١٦ ديسمبر ، وبعد أن أعلن المجلس أن القوانين الإنجليكانية الجديدة باطلة قانوناً ، اتهم رئيس الأساقفة لود « بالكثلكة » والخيانة ، وأمر بإيداعه السجن كذلك ، واعترف سلدن فيما بعد بقوله : « إننا نعلم أنهم لم يرتكبوا جريمة من هذا القبيل (٧٦) » . أما شارل فقد أصابه الدهول والحيرة إزاء هذه الخطوات العنيدة القاسية ، إلى حد أنه لم يتخذ أى إجراء لحماية معاونيه . وبررت الملكة مخاوف البرلمان حين طابت إلى كاهن الاعتراف الخاص بها أن يلتمس العون من البابا (٧٧) .

وعادت موجة التأثير والانفعال لدى الفريقين كليهما . وظهر بين المتطرفين في لندن حزب Roota nd Branch (استئصال الأصل والفرع) — وكان يضم ملتون — وتقدم إلى البرلمان بملتمس يطلب فيه إلغاء الحكومة الأسقفية ، واستعادة حكومة الكنيسة إلى الشعب ، ويستنكر فيه ما يقول به بعض الأساقفة من « أن البابا ليس

عدو المسيح ، وأن الخلاص يمكن تحقيقه في العقيدة الكاثوليكية (٧٨) . ورفض المجلس هذا الملتمس . ولكنه أقر تحريم ممارسة الأعمال التشريعية والقضائية على رجال الكنيسة . ووافق اللوردات شريطة احتفاظ الأساقفة بمقاعدهم في مجلس اللوردات . وهذا ، على أية حال ، هو ما كان يريده بالضبط أعضاء مجلس العموم ، لأنهم توقعوا أن الأساقفة في مجلس اللوردات سوف يصوتون دائماً إلى جانب الملك . وزاد النار اشتعالا ، تلك النشرات التي أنهالت ، دفاعاً عن حكومة الأساقفة أو هجوماً عليها . ذهب الأسقف جوزيف هول إلى أن لحكومة الأساقفة حقاً إلهياً ، على أن الرسل ، أو المسيح ، هم الذين أسسوها . فرد عليه خمسة من المعلمين المشيخيين ، في نشرة مشهورة ممهورة باسم مستعار Smectymnuus مكون من الأحرف الأولى لأسمائهم . وأعقبها خمس هجمات عنيفة شنها ملتون . وفي ١٧ مايو ١٦٤١ عاد كرومويل فاقترح إلغاء حكومة الأساقفة إلغاء تاماً . وأقر مجلس العموم المشروع ورفضه مجلس اللوردات . وفي أول سبتمبر قرر أن تزال من كل الكنائس الإنجليزية كل " الصور الخلية " وأن يمنع في " يوم الرب " (يوم الأحد) الرقص والألعاب الأخرى . واجتاحت إنجلترا موجة أخرى من تحطيم الصور المقدسة والقضاء على المعتقدات التقليدية ، فأزيلت أسبجة المذبح وأستاره ، وحطمت النوافذ ذات الزجاج الماون ، ومزقت الصور لإرباً (٧٩) . وعاد مجلس العموم فأقر مشروعاً بإقصاء الأساقفة في ٢٣ أكتوبر . فأهاب الملك باللوردات ، معلناً أنه قرر الاستشهاد في سبيل المحافظة على مبدأ الكنيسة الأنجليكانية ونظامها ، وقد كان . . . وضمن تدخله عدم إقرار المشروع . ولكن الجموع المعادية منعت الأساقفة من دخول البرلمان . ووقع اثنا عشر منهم احتجاجاً أعلنوا فيه أن أى تشريع يقر في غيبتهم يعتبر باطلاً عقياً . فأدانهم البرلمان وأودعهم في السجن . وأخيراً أقر مجلس اللوردات قانون إقصاء الأساقفة (٥ فبراير ١٦٤٢) . ولم يعد الأساقفة يتخذون مقاعدهم في البرلمان .

وتابع مجلس العموم تدعيم سلطانه ، فاقترض من مدينة لندن المال اللازم لتغطية نفقاته . وأقر مشروعات قوانين تنص على أن تكون مدة البرلمان ثلاث

سنوات ، وتحرم حل أى برلمان قبل مضي خمسين يوماً من بدء اجتماعه ، وحل البرلمان الحالى دون موافقته . وأصلح نظام الضرائب والقضاء . وألغى محكمة قاعة النجم ومحكمة اللجئة العليا . وقضى على الاحتكارات وعلى ضريبة السفن . وألغى الحكم الصادر ضد هامدن : ومنع الملك حق جمع رسوم الصادرات والواردات ، إلا لفترات يحددها البرلمان وحده . ووافق شارل على هذه الإجراءات ، ولكن البرلمان جاوز الإصلاح إلى الثورة .

وفى مارس ١٦٤١ قدم المجلس ارل سترافورد إلى المحاكمة ، وأدانته بتهمة الخيانة ، وأرسل الحكم إلى الملك لتوقيعه . وخلافاً لما نصح به لود ، شخص شارل إلى مجلس اللوردات ، وأعلن أنه على الرغم من استعداده لعزل سترافورد من منصبه ، فإنه لن يوافق قط على إدانته بالخيانة . فأعان أعضاء مجلس العموم أن فى حضور الملك انتهاكاً لحزمة البرلمان وإهداراً لحيثه وفى اليوم التالى تجمعت « حشود ضخمة حول مجلس اللوردات وقصر الملك وهى تهتف « العدالة ، العدالة » : وتطالب بإعدام سترافورد . وتوسل مجلس الشورى الذى تولاه الجزع ، إلى الملك أن يدعن ، فأبى . وضم رئيس أساقفة يورك رجاءه لى رجائهم فى أن يوقع الملك على الحكم ، وأندره النبلاء بأن حياته وحياة المسكة وحياة أطفالهما فى خطر ، ولكنه أصر على الرفض . وأخيراً أرسل إليه نفس الرجل المحكوم عليه بالإعدام رسالة ينصحه فيها بالتوقيع ، الذى هو البديل الوحيد « لعنف الرعاع (٨٠) » . فوقع شارل ، ولكنه لم يغتفر لنفسه هذا العمل قط . وفى ١٢ مايو ١٦٤١ سبق سترافورد إلى ساحة الإعدام ، ومد لود يديه بين قضبان الزنزانة ليباركه أثناء مروره . ومات « الرجل الكامل » دون أنين أو تشنج ، أمام أعين جمهور معاد .

ووسع إعدام سترافورد هوة الخلاف فى المجلس وانقسامه إلى ما عرف فيما بعد بحزبى الأحرار والمحافظين - أولئك الذين أيدوا ، والذين عارضوا انتقال سلطة من الملك إلى البرلمان إلى حد أبعد . إن رجالاً مثل لوسبوس كارى (فيكونت

فولكلند) وادوارد هايد (ارل كلارندون فيما بعد) وكان كلاهما يساندان البرلمان — نقول إن هؤلاء الرجال تساءلوا : أولا يكون الملك ، بعد تأديبه وتهذيبه بمثل هذه القسوة ، حصنا مرغوبا فيه ضد حكم الرعاع في لندن ، وضد تحكم البيوريتانيين في الدين ، وضد برلمان جامع يمكن أن يقوض أركان الكنيسة ، ويهدد الملكية الخاصة ، ويعرض للخطر الكيان الطبقي في الحياة الانجليزية بأسره ؟ وربما سلم بيم وهامدن وكرومويل بهذه الأخطار ، ولكن كان ثمة خطر آخر كان يعتلج في نفوسهم ، ألا وهو خوفهم على حياتهم هم أنفسهم إذا استعاد الملك قوته وسلطانه . إن الملك قد يأتي في أية لحظة بجيش نصف كاثوليكي من إيرلنده ، كما اقترح سترافورد من قبل . وقرر البرلمان ، من أجل سلامته وحمايته ، الاحتفاظ بالجيش الاسكتلندي الموالى له في شمال إنجلترا ، وأرسل إلى الاسكتلنديين منحة مبدئية قدرها ٣٠٠ ألف جنيه ، ووعد بدفع إعانة شهرية قدرها ٢٥ ألفا من الجنيهات (٨١) .

وازدادت مخاوف البرلمان باندلاع ثورة عنيفة فجأة في إيرلنده (أكتوبر ١٦٤١) . ودعا فليم أونل وروري أومور الثالث ، وغيرهما من الزعماء ، إلى حرب التحرير — تحرير ألسر من مستعمرها الانجليز ، وتحرير الكاثوليك من ربة الظلم ، وتحرير إيرلنده من نير إنجلترا . وألمبت الثوار ذكريات الاضطهادات الفظيعة ، وانزع الملكية وطرد الأهالي بصورة أجمية ، فقاتلوا قتالا عنيفا وحشيا . أما الانجليز في إيرلنده — دفاعا عما بدا لهم آنذاك أنه ممتلكات شرعية لهم ، وعن حياتهم — فانهم قابلوا الضراوة بأشد منها ، وغدا كل انتصار بمثابة مذبحة . واشتبه البرلمان الانجليزي خطأ في أن الملك أذكى نار الثورة لاستعادة الكاثلكة إلى إيرلنده ، ثم بعد ذلك إلى إنجلترا ، فرفض طاب الملك مالا لحشد جيش لانقاذ الانجليز في شرق إيرلنده ، خشية أن يوجه مثل هذا الجيش ضد البرلمان ذاته . واستمرت ثورة إيرلنده في نعمة ثورة إنجلترا .

واشتدت الثورة حين رفع شارل إلى مرتبة أعلى ، اثنين من الأساقفة المبعدين الذين حوكموا ، فاقترح النواب الناقمون « الاحتجاج الأعظم » ياخصون فيه قضيتهم

ضد الملك ويعلنون عنها ، ويمكن أن يرغم الملك على منح البرلمان حق الاعتراض على التعيينات في الوظائف الكبرى . وأحسن كثير من المحافظين أن مثل هذا الإجراء سوف ينقل السلطة التنفيذية إلى البرلمان ويشل يد الملك . وازداد الانقسام الحزبي حدة ، والمناقشات عنفا ، واستل الأعضاء سيوفهم ليؤكدوا وجهات نظرهم . وصرح كرومويل فيما بعد بأنه لو كان هذا الاقتراح رفض لركب البحر إلى أمريكا (٨٢) . ولكنه أقر بأغلبية ١١ صوتا . وفي أول ديسمبر ١٦٤١ قدم إلى الملك . وبدأ « الاحتجاج الأعظم » بتوكيد ولاء البرلمان للتاج ، ومضى يعدد بالتفصيل إساءات الملك إلى البرلمان ، والأضرار التي ألحقها بالبلاد ، واستعرض العيوب التي عالجتها الإصلاحات البرلمانية ، واتهم " الكاثوليك . . . والأساقفة ، والقسم الفاسد من رجال الدين " والمستشارين ورجال الحاشية الأثنايين ، بالتآمر على " إل انجلترا إلى الكاثوليكية . وأشار إلى تكرار خرق " ملتقى الحقوق " وتكرار حل البرلمانات المنتخبة حلا تعسفيا استبداديا . وطالب الملك بالدعوة إلى عقد جمعية من علماء اللاهوت لاعادة المذهب الأنجليكاني إلى ما كان عليه قبل قوانين لود ، واقترح على الملك أن يعزل من مجلس الشورى كل المناوئين لسياسة البرلمان ، وأن يستخدم فقط منذ الآن . " مستشارين وسفراء ووزراء ممن يرى البرلمان مبررا للوثوق بهم . وبدون هذا لن يستطيع الأعضاء أن يقدموا بحلته الامدادات اللازمة له ، أو المساعدات للبروتستانت فيما وراء البحار ، كما أراد جلالته (٨٣) " .

وتهمل شارل في الرد على هذا الانذار النهائي . فتمخطاه البرلمان إلى الشعب ، وأمر بنشر " الاحتجاج الأعظم " ثم رد شارل فوافق على دعوة مجمع كنسي ليقمع كل " غزوات كاثوليكية " ، ورفض حرمان الأساقفة من حق التصويت في البرلمان ، وأصر على حقه في أن يختار لمجلس شورى الملك أو للوظائف العامة كل من يرى أنه صالح . ثم طلب مرة أخرى اعتمادات مالية . ولكن البرلمان بدلا من هذا ، اقترح " قانون الميليشيا " الذي يخوله حق السيطرة على الجيش .

ولكن شارل" ، في غمرة الحيرة والتردد ، كما هو شأنه دائما ، عمد إلى توجيه ضربة جريئة إلى البرلمان الذي شجها على أنها عمل من أعمال الحرب . ذلك أنه في ٣ يناير ١٦٤٢ اتهم النائب العام ، باسم الملك ، أمام اللوردات ، خمسة أعضاء من مجلس العموم — بيم ، هامدن ، هولتز ، هسلريج ، ستروود — اتهمهم بالخيانة لعملهم على أن يشق الجيش عصا الطاعة على الملك ، وتشجيعهم " دولة أجنبية " (اسكتلنده) على غزو إنجلترا وشن الحرب على الملك . وفي اليوم الثاني دخل شارل ، تظاهره قوة من ثلثائة جندي تركهم عند الباب ، إلى مجلس العموم للقبض على الرجال الخمسة ، فلم يجدهم هناك . فقال الملك الحائر المرتبك ، وقد صار في مأمن ، " أرى أن كل الجبناء قد هربوا " ، وشيعته وهو في طريقه إلى الخروج صيحات الاستنكار والتوبيخ " الحصانة " . لأن مثل هذا الغزو الملكي المسلح للبرلمان كان غير مشروع بشكل واضح صريح . وخشية الاعتقال بالجملة ، انتقل النواب إلى دار البلدية " جلد هول " تحت حماية المواطنين . وعندما غادر شارل لندن إلى هامبتون كورت ، عاد النواب ، بما فيهم الخمسة المتهمون إلى وستمنستر . وهربت الملكة هنريتا سرا إلى فرنسا ومعها مجوهرات التاج لتشتري بها العون للملك . وسافر شارل إلى الشمال ومعه أختامه . وحاول أن يدخل هل لتأمين المون العسكرية هناك ، ولكن المدينة أبت عليه ذلك . فغادرها إلى يورك . وأصدر البرلمان أوامره إلى جميع القوات المسلحة بالامتثال إلا للبرلمان وحده (٥ مارس ١٦٤٢) . وانسحب من البرلمان خمسة وثلاثون من اللوردات وخمسة وستون من النواب ، وانضموا إلى الملك في يورك . وأصبح إدوار هايد آنذاك كبير مستشاري الملك .

وفي الثاني من يونية نقل البرلمان إلى شارل تسعة عشر مقترحا رأى أن قبولها ضرورى للصالح . منها أن عليه أن يخول للبرلمان سلطة الاشراف على الجيش وجميع المواقع المحصنة . وأن يكون له حق تعديل الطقوس الدينية وحكومة الكنيسة ، وتعيين وعزل وزراء التاج وحراس أبناء الملك ، وأن يكون له سلطة إقصاء الاشراف الذين يعينون فيما بعد ذلك ، عن مجلس اللوردات ، ورفض شارل هذه

المقترحات ، على أنها ، عليا ، تقويض للملكية . وعين البرلمان - وكأنما كان يتدرب على دور الثورة الفرنسية - لجنة " الأمن العام " ، وأمر بأن " يحشد جيش على الفور ، (١٢ يولييه) " وسافر كرومويل وآخرون إلى مواطنهم لجمع المتطوعين وتنظيمهم . وفي نداء إلى الأمة (٢ أغسطس) أسس البرلمان ثورته ، لا على رغبته في السيادة البرلمانية ، بل على تفاقم الكاثوليكية في إنجلترا ، وحذر البلاد من أن انتصار الملك لابد أن يعقبه مذبحة عامة للقضاء على البروتستانت (٨٤) .
أوفى ١٧ أغسطس استولى وكلاء البرلمان على المخازن العسكرية في هل . وفي ٢٧ غسطس ١٦٤٢ نشر شارل رايته فوق نوتنجهام ، وبدأت الحرب الأهلية الأولى.

٩ - الحرب الأهلية الأولى : ١٦٤٢ - ١٦٤٦ :

انشقت إنجلترا الآن - بصورة لا يكاد يكون لها مثيل من قبل في تاريخها المعروف ، وانحاز إلى صف البرلمان لندن والثغور والمدن الصناعية ، وبصفة عامة الجنوب والشرق ، ومعظم الطبقة الوسطى ، وجزء من الطبقة العليا ، وعلميا كل البيوريتانيين . وانضم إلى جانب الملك اكسفورد وكمبردج والغرب والشمال ، ومعظم الارستقراطيين والمزارعين ، وكل الكاثوليك والانجليكانيين الأسقفيين تقريبا . وكان مجلس العموم منقسما على نفسه ، حيث ناصر الثوار نحو ٣٠٠ عضو ، على حين بلغ عدد الملكيين نحو ١٧٥ عضوا . وبلغ عدد مجلس اللوردات ١١٠ ، انجاز إلى جانب البرلمان نحو ٣٠ منهم في بداية الأمر ، ورجحت كفة الثورة ضد الملك . وكان في لندن نصف ثروة الأمة ، وقدمت للثورة القروض بسخاء عظيم ، على حين عجز الملك عن الاقتراض من أى مكان . وكان الأسطول يناصبه العداء ، فسد المنافذ على كل معونة أجنبية . ولم يكن أمام الملك إلا أن يعتمد على الهبات والمنح وعلى رجال من الضياع الكبيرة التي أحس أصحابها أن مصلحتهم في تلك الأرض تتحقق بانتصاره ، وانبعثت من جديد في الأسرات القديمة بعض فضائل الفروسية ومشاعرها ، وقدموا المال للملك بلا قيد أو شرط ، وقتلوا وسقطوا في الميدان كما يسقط كرام الرجال . واندفع الفرسان المفعمون فتوة وحيوية ، بشعورهم المعقوصة ونخيلهم المظلمة بأهوى الدروج إلى نهمار حرب بطولية ، ومعهم كل الشعراء

إلا ملتون . ولكن الثروة كانت إلى جانب البرلمان .

والتقى الجمعان لأول مرة في ادجهل Edgehill (٢٣ أكتوبر ١٦٤٢) ، وكان كل جيش يتألف من ١٤ ألف رجل . . . وكان الملكيون تحت قيادة الأمير روبرت Rupert ابن اليزابث أميرة بوهيميا أخت شارل ، وكان في الثانية والعشرين من عمره . أما ” ذوو الرعوس المستديرة “ أو البرلمانيون فكان يقودهم روبرت دافريه ارل اسكس الثالث . ولم تكن المعركة فاصلة . ولكن اسكس سحب قواته ، وتقدم الملك إلى اكسفورد ليتخذها مقراً لقيادته . ولكن نحميا والنجتون — وهو بيوريتاني متحمس أو سياسي ، أسماها فوزامينا للبرلمان وللرب ، فهو يقول :

هنا ندرك رحمة الله الواسعة . . . لأن جملة القتلى من الجانبين ، كما سمعت ، كان ٣٥١٧ ، ولكن قتل من الأعداء عشرة مقابل كل واحد فقدناه منا . ولكن انظر إلى حسن صنيع الله ، فإن الذين قتلوا منا كان معظمهم من الذين ولوا الأدبار . أما الذين صمدوا واستبسلا فقد كتبت لهم النجاة كم أود أن أوتى القدرة على أن أروى كيف أن يد العناية الإلهية صوبت بشكل رائع مدافعنا وقذائفنا لتدمير العدو . . . يا للعجب ، كيف وجه الله قذائفهم . . . إن بعضها سقط أمامهم (من جانبنا) وبعضها مر مروراً عابراً ، وبعضها عبر فوق رؤوسهم ، وأخرى سقطت إلى جانبهم . . . يا الله ، ما كان أقل من مس بأذى برصاص الأعداء ممن وقفوا في وجوههم وقاوموهم ببسالة . . . هذا صنع الله ، وما أروعه في نظري (٨٥) .

على أن الأمور تأزمت في صفوف البرلمانين في الربيع التالي . فإن الملكة هنريتا تسلمت إلى انجلترا ، حاملة معها بعض الأسلحة والذخيرة ولحقت بالملك في اكسفورد .

وضيع إسكس الوقت سدى ، على حين كان الهرب والمرض ينخران فى جيشه ، وأصيب هامدن يجرح مميت فى بعض المناوشات عند شالجراف فيلد . وهزمت قوة [برلمانية فى أدوالتون مور (٣٠ يونيه ١٦٤٣) ، ودمرت قوة أخرى فى راوندواى داون (١٣ يوليه) . وسقطت برستول فى يد الملك . ولما ساءت أقدار البرلمان إلى هذا الحضيض ، ولى وجهه شطر اسكتلنده طلباً للعون . وفى ٢٢ سبتمبر وقع مندوبو اسكتلنده « تحالفاً وميثاقاً مقدسين » ، تعهد الاسكتلنديون بمقتضاه بإرسال جيش لمساعدة البرلمان مقابل ٣٠ ألف جنيه شهرياً ، شريطة أن يقيم البرلمان فى إنجلترا وإيرلنده مذهب البروتستانتية المشيخية — أى حكومة المشايخ فى الكنيسة ، دون سيطرة الأساقفة ، وفى نفس الشهر عقد شارل صلحاً مع المتمردين الإيرلنديين ، المتقدم بعضهم للقتال فى صفوفه فى إنجلترا . وابتهج الكاثوليك الإنجليز لهذا . وتزايد عدد البروتستانت الذين انقلبوا على الملك . وفى يناير ١٦٤٤ هزم الغزاة الإيرلنديون فى نانتوتش . وتقدم الجيش الاسكتلندى نحو إنجلترا . والآن كانت الحرب الأهلية تضم ثلاث أمم وأربعة مذاهب .

وفى يولية ١٦٤٣ . انعقدت « جمعية وستمنستر » — ١٢١ من رجال الدين الانجليز ، ٣٠ من العلمانيين الانجليز ، وثمانية مندوبين اسكتلنديين (انضموا فيما بعد) — لتحديد البروتستانتية المشيخية الجديدة فى إنجلترا . ولقد عوقت السيطرة البرلمانية أعمال هذه اللجنة حتى باتت تجرر أذيالها فى مؤتمرات تعقدها لمدة ست سنوات . وانسحب نقر قليل من الأعضاء كانوا يظاهرون الحكومة الأسقفية . وطالبت فئة قليلة من البيوريتانيين المستقلين ألا يشهد الاجتماع مشيخون ولا أساقفة . أما الأغلبية — وفاء بتعهد البرلمان ونزولاً على إرادته ، فلأنها أيدت أن يتولى الأمور الدينية فى إنجلترا أو إيرلنده واسكتلنده شيوخ الكنيسة ومجلسهم والجامع الإقليمية والجمعيات العامة . وألقى البرلمان الحكومة الأسقفية الإنجليكانية (١٦٤٣) ، وأقر التنظيم المشيخى والمذهب المشيخى ، ووضع لها الزاوين (١٦٤٦) ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق الاعتراض على أية قرارات كنسية . وفى ١٦٤٧ أصدرت الجمعية « اعتراف وستمنستر بالعقيدة والتعاليم الكبرى والتعاليم الصغرى » وكلها تثبت

مذهب كلفن في القضاء والقدر ، والاصطفاء ، والرفض (أى الإخراج من زمرة الإبرار(*)) وأهملت الكنيسة الانجليكانية وعودة الملكية إلى أسرة ستيورت ، جمعية وستمنستر ، ولكن « الاعتراف والتعاليم » بقيت معمولاً بها نظرياً في الكنائس المشيخية في البلاد الناطقة بالانجليزية .

واتفقت الجمعية والبرلمان على رفض ما تقدمت به الفرق الصغيرة من إلتماس التسامح الدينى . واتمست مدينة لندن المتحدة من البرلمان القضاء على كل الهرطقات . وفي ١٦٤٨ قدم أعضاء مجلس العموم مشروعات تقضى بعقوبة السجن مدى الحياة على خصوم تعميم الأطفال ، وبعقوبة الإعدام على من ينكرون الثالوث الأقدس أو المتجسد أو نزول الكتاب المقدس بوحي من عند الله ، أو خلود الروح (٨٧) . وأعدم عدد من الجزويت فيما بين عامى ١٦٤٢ و ١٦٥٠ . وفي يناير ١٦٤٥ ، اقتيد رئيس الأساقفة لود ، وهو في الثانية والسبعين ، من السجن إلى ساحة الاعدام ، ولكن البرلمان أحس أنه مشغول بالحرب إلى أقصى حد ، وأنه ليس ثمة مجال للرفق والجمالة . ومهما يكن من أمر فلان كرومول ناضل في سبيل شيء من التسامح . وفي ١٦٤٣ شكل في كمبردج فرقة أطلق عليها « ذوو الدروع الحديدية Ironsides » وهو اسم أطلقه في الأصل الأمير روبرت على كرومويل نفسه ، ورحب بكل الأفراد الذين ينضمون إلى الفرقة من كل الملل والنحل — باستثناء الكاثوليك وأنصار حكومة الأساقفة — « ممن لا تفارق خشية الله نفوسهم » ، ومن يتدبرون

(*) مقتطفة من « اعتراف » وستمنستر ، فقرة ٣ « بأمر الله ، وإظهاراً لمجده وعظمته ، قدر على بعض الناس والملائكة الحياة الخالدة ، وقضى على آخرين بالموت الأبدى . أما الذين كتب عليهم الحياة الخالدة من البشر ، فإن الله — قبل وضع أساس العالم ووفقاً لمشيئته الخالدة الثابتة التي لا تتغير ، وما اقتضت إرادته الخفية — قد اختارهم في المسيح لمجد خالد ، منه ونعمة وحباً ، دون تنبؤ بالعقيدة أو صالح الأعمال ، أو المثابرة على أى منهما ... وكل هذا وفق مشيئته الخالصة سبحانه . أما بقية البشر فقد اقتضت إرادته التي لا مرد لها ، أن يبسط إليهم رحمته ، أو يقبضها عنهم كما يشاء ، لأنه المهيمن على كل خلقه فيتغاضى عنهم ، أو يوقعهم في الحزى ويسلط عليهم العذاب جزاء بما كسبت أيديهم إقراراً للعدالة الإلهية (٨٦) .

ما صنعت أيديهم^(٨٨) . وعندما أراد ضابط مشيخي أن يطرد — من الفرقة ضابطا برتبة مقدم من أنصار تجديد التعميد (إعادة تعميد البالغين ورفض تعميد الأطفال) ، اعترض عليه كرومويل قائلا . « سيدى ، إن الدولة حين تختار موظفيها لا تلتقى بالا إلى آرائهم ، طالما أنهم جادون في خدمتها بإخلاص ، وهذا يكفي^(٨٩) » . وفي ١٦٤٤ طلب إلى البرلمان « أن يلتمس وسيلة ما للتسامح ، وفقا لما جاء في الكتاب المندس ، مع ذوى النفوس الضعيفة الذين لا يستطيعون في كل الأحوال أن يخضعوا لحكم الكنيسة^(٩٠) » . وتجاهل البرلمان هذه الطلب ، ولكن كرومويل ظل يمارس تسامحا نسبيا في فرقته ، وطوال سيطرته على إنجلترا .

وكان ارتقاء كرومويل إلى مرتبة القيادة مفاجأة من مفاجآت الحرب . إنه شارك لورد فرديناندو فيرفاكس أمجاد النصر في ونسي (١١ أكتوبر ١٦٤٣) . ولقد هزم فيرفاكس في مارستون مور (٢ يولية ١٦٤٤) ولكن رجال كرومويل « الحديديون » أنقذوا الموقف . إن قوادا برلمانين آخرين ، مثل إرل اسكس وإرل مانشستر ، تراجعوا أو عجزوا عن متابعة انتصارهم وأقر مانشستر صراحة بعدم رغبته في الاطاحة بالملك . وبغية التخلص من هؤلاء القادة ذوى الألقاب ، اقترح كرومويل « قرار انكار اللات » (٩ ديسمبر ١٦٤٤) ، يعتزل كل أعضاء البرلمان بمقتضاه قياداتهم . وهزم الاقتراح ، ولكن عرض من جديد وأقر (٣ أبريل ١٦٤٥) . واعتزل اسكس ومانشستر ، وعين توماس فيرفاكس — ابن فرديناندو — قائدا أعلى — وسرعان ما عين كرومويل قائدا للفرسان ، وأمر البرلمان بتكوين جيش « على طراز جديد » ، من ٢٢ ألف جندي ، وأخذ كرومويل على عاتقه مهمة تدريبه .

ولم يكن لدى كرومويل سابق خبرة عسكرية قبل الحرب . ولكن قوة شخصيته وخلقه ، وثبات أurdته وصموده لتحقيق الهدف ، وبراعته في التلاعب بالأحاسيس الدينية والسياسية لدى الناس ، كل أوامك هيا له القدرة على تشكيل قواته على نظام فلد وولاء فريد : فكان المذهب البيوريتاني يضارع الخلق الاسبرطى في صنع جنود لا يقهرون ، انهم لم « يؤدوا القسم مثل الفرسان » ، بل على النقيض من ذلك

لم يسمع حلف الأيمان في معسكراتهم قط ، بل إنها كانت تدوى بالعظاات والصلوات .
انهم لم يسلبوا ولم يذهبوا ، ولكنهم اقتحموا الكنائس ليجردوها من الصبر الدينية ،
ويخلصوها من الأسقفين أو البابويين (٩١) . وكانوا يهتفون فرحين أو غاضبين
حين يلاقون العدو . ولم تزل بهم الهزيمة قط . . وعند ما كان الملكيون يطاردون
مشاة نسير توماس فيرفاكس في ناسبي (١٤ يونية ١٦٤٥) ، حول كرومول بفرسانه
الجلدد الهزيمة إلى نصر مبين ، إلى حد أن الملك فقد كل مشاته ومدفعيته ونصف
خيالته ، ونسخا من مراسلاته التي نشرت لتكشف عن خطته في استقدام مزيد من
القوات الايرلندية إلى إنجلترا ، وإلغاء القوانين المناهضة للكاثوليكية .

ومنذ تلك اللحظة أخذت أحوال الملك تزداد سوءا وبسرعة . فلأن مركيز مونروز ،
قائده البطل في اسكتلنده ، بعد عدة انتصارات ، هزم في فيلبهو وهرب إلى
النارة . وفي ٣٠ يولييه ١٦٤٥ استولى جيش البرلمان على باث ، وفي ٢٣ أغسطس
تخلى روبرت عن برستول إلى فيرفاكس ، والتمس الملك ، دون جدوى ، العون
من كل الجهات . وأحس جنوده بأن قضيتهم خاسرة ، فتذرعوا بمختلف المعاذير
وتخلفوا عنه وانضموا إلى العدو . وحاول بالمفاوضات الملتوية مع كل فريق على
حدة أن يوقع الانقسام في صفوف أعدائه — فيفرك بين المستقلين والبرلمان ، وبين
البرلمان والاسكتلنديين ، ولكنه أخفق في ذلك . وكان لتوه قد أرسل زوجته الحامل ،
عبر أراضن معادية ، لتبحر إلى فرنسا ، وأمر الآن الأمير شارل بالفرار من إنجلترا
بأيه وسيلة ممكنة . وتنكر هو ، مع اثنين من المرافقين ، وشق طريقه إلى الشمال
حيث استسلم للاسكتلنديين (٥ مايو ١٦٤٦) . ووضعت الحرب الأهلية الأولى ،
بالفعل أوزارها .

١٠ — المتطرفون : ١٦٤٦ — ١٦٤٨

وراود شارل الأمل في أن يعامله الاسكتلنديون ، وكأنه لا يزال ملكا عليهم ،
ولكنهم آثروا أن يعتبروه سجيناً لديهم . وعرضوا عليه أن يعاونوه على استرداد
عرشه ، إذا قبل التوقيع على « التحالف والميثاق المقدسين » ومقتضى ذلك . يكون
مذهب المسيحية المشيخية إجباريا في كل الجزر البريطانية ، ولكنه أبى عليهم ذلك . وبعث

البرلمان الانجليزى بمندوبيه إلى الاسكتلنديين في نيوكاسل يعرض عليهم ارتضاء شارل ملكا ، شريطة أن يقبل الميثاق ، ويوافق على إقصاء زعماء الملكيين ، ويسمح بسيطرة البرلمان على كل القوات المسلحة ، وتعيين كبار موظفي الدولة ، ولكن الملك رفض . وعرض البرلمان على الاسكتلنديين مبلغ ٤٠٠ ألف جنيه لتسديد متأخراتهم ونفقاتهم ، إذا عادوا إلى اسكتلنده وسلموا الملك إلى المندوبين الانجليز . ووافق برلمان اسكتلنده ، وقبل المسال ، لا على أنه ثمن الملك ، بل على أنه تعويض عن نفقات الحرب . وأحس شارل ، على أية حال ، بأنهم قايضوا عليه بالذهب . ونقل إلى هولبي هاوس في نورثمبتونشير (يناير ١٦٤٧) على أنه سجين البرلمان البريطانى .

واستعرض الجيش الانجليزى المعسكر آنذاك في سافرون والدن ، على بعد أربعين ميلا من لندن ، استعرض انتصاراته ، وطالب بمكافآت متساوية . ان الاحتفاظ بجيش يبلغ ثلاثة وثلاثين ألف رجل ، اضطر البرلمان إلى رفع الضرائب إلى ضعف أعلى معدل لها أيام شارل ، ومع هذا تأخر للجند رواتب ما بين أربعة إلى عشرة شهور . وفوق ذلك فلان البوريتانيين الذين انهزموا في البرلمان ، كانت لهم اليد الطولى في الجيش ، وحامت الشبهات حول زعيمهم كرومويل في أن له أطماعا لا تتفق مع سيادة البرلمان . وأسوأ من هذا كله ، أنه كان في فرقته « أنصار المساواة Levelers » الذين يرفضون أى تمييز بين المراتب في الدولة وفي الكنيسة ، والذين نادوا بحق الاقتراع للبالغين وبالحرية الدينية . وكان نفر قليل منهم شيوعيين فوضويين . وأعلن ولیم والوين أن كل شيء يجب أن يكون مشاعا مشتركا ، ومن ثم لن تعود هناك حاجة لقيام حكومة ، لأنه لن يكون هناك حينذاك لصوص ولا مجرمون (١٦٢)» وكان جون للبورن Lilburne أعظم دعاة أنصار المساواة يزداد ، بعد كل اعتقال وعقاب ، شعبية في لندن (١٦٤٦) (١٦٣) . وهوجم كرومويل على أنه من « أنصار المساواة » ولكنه برزهم تعاطفه معهم ، كان يعارض آراءهم ، احساسا منه بأن انجلترا آنذاك لا بد أن تؤدي فيها الديمقراطية إلى الفوضى .

واستاء البرلمان ؛ وهو آنذاك « مشيخي » . لما ينطوى عليه من خطر ، وجود جيش عرمرم مزعج ، في مكان قريب ، وهو جيش مستأجل ذو قوة . فأقر مشروعا بتسريح نصفه ، وتسجيل الباقي متطوعين للخدمة في أيرلنده . فطالب الجنود بمناخرواوتهم ، فأقر البرلمان صرف جزء منها نقدا والباقي وعودا . ورفض الجنود أن يفرقوا إلا إذا دفعت استحقاقاتهم ورواتبهم كاملة . وجدد البرلمان المفاوضات مع الملك ، وكاد أن يصل معه إلى اتفاق على إعادته إلى العرش ، شريطة قبوله « الميثاق » لمدة ثلاثة أعوام . وحذر الملك من قبول هذا العرض ، ولكن جماعة من الفرسان هاجمت هولمى هاوس وأسرت الملك ، واقتادته إلى نيوماركت (٣ - ٥ يونيه ١٦٤٧) ، وأسرع كرومويل إلى نيوماركت ، وجعل من نفسه رئيسا « لمجلس من الجيش » ، وفي ١٠ يناير بدأ الجيش مسيرة غير متعجلة إلى لندن . . وفي الطريق أرسل إلى البرلمان إعلانا صاغه أساسا صهر كرومويل القدير ، هنرى أيرتون Ireton ، ندد فيه باستبداد البرلمان الذى لم يكن خيرا من استبداد الملك ، وطالب بانتخاب برلمان جديد مع توسع في حق الانتخاب . ووقع البرلمان بين نارين ، فإن التجار والصناع وأهل لندن كانوا يخشون احتلال الجيش للمدينة ، وطالبوا ، في صخب شديد بعوده الملك ، وفق أية شروط كانت ، تقريبا . وفي ٢٦ يولييه اقتحمت الجموع البرلمان وأرغموه على دعوة الملك إلى لندن ، ووضع الميشيا تحت قيادة المشيخين . وترك سبعة وستون من « المستقلين » البرلمان إلى الجيش .

ودخلت القوات لندن في ٦ أغسطس ، وأثروا بالملك معهم ، وأعيد « المستقلون » السبعة والستون إلى أماكنهم في البرلمان ، الذى سيطر عليه الجيش منذ تلك اللحظة إلى أن قبض كرومويل على زمام الأمور . ولم تشب تصرفات الجيش شائبة من الفوضى أو التشويش ، ولم تكن مجردة من المبادئ ، بل حافظ على النظام في المدينة ، وفي القوات المسلحة نفسها ؛ بل إن الأجيال التالية أجازت مطالبه التى يحتمل أنها كانت غير عملية فى أوانها . وفى نشرة بعنوان « قضية الجيش مدونة بصدق وأمانة » (٩ أكتوبر ١٦٤٧) طالب بحرية التجارة وإلغاء الاحتكارات ، وإعادة الأراضي العامة إلى الفقراء ، وألح على ألا يرغم لإنسان على الشهادة ضد نفسه

في المحكمة (٩١) . وفي « اتفاقية الشعب » (٣٠ أكتوبر) أعلن « أن كل السلطة أصلاً وأساساً في مجموع الشعب بأسره » ، وأن الحكومة العادلة الوحيدة هي التي تكون عن طريق ممثلين ينتخبون انتخاباً حراً يتوفر فيه حق الاقتراع للبالغين ، وأنه بناء على هذا ، فإن الملوك والوردات ، إذا سمح لهم بالبقاء فيجب أن يكونوا خاضعين لمجلس العموم ، وأنه لا يجوز إعفاء أحد من سلطة القانون ، وأنه يجب تمتع الجميع بالحرية الدينية الكاملة (٩٥) . قال الكولونيل رينزبورو « إن كل من ولد في إنجلترا ، الفقير أو أحمق الناس في المملكة ، يجب أن يكون له صوت في اختيار أولئك الذين يضعون قوانين البلاد ، تلك القوانين التي يعيش ويموت في ظلها » (٩٦) .

وخفف كروموويل من حدة المناقشة بدعوة زعمائها إلى الصلاة . واتهمه « أنصار المساواة » بالنفاق والتفاوض سرّاً لإعادة الملك ، واعترف بأنه لا يزال يؤمن بالملكية ، وأوضح لهم أن معارضة مقترحاتهم ستكون شديدة إلى حد لا يمكن معه التغلب عليها ، « بقوة العضلات » وحدها . وبعد نقاش طويل أقنع الزعماء بأن يخففوا من مطالبهم بالاقتراع العام إلى طلب التوسع في حق الانتخاب . ورفض بعض الجنود هذا الحل الوسط ، وعلقوا « اتفاقية الشعب » في قبعاتهم ، وتجاهلوا أمر كروموويل بالانصراف . وقبض على ثلاثة من زعماء الفتنة ، وحوكموا أمام محكمة عسكرية قضت بإعدامهم . فأمرهم كروموويل بإجراء القرعة على حياتهم ، ومن يخسر يعدم . وعاد النظام سيرته .

وفي الوقت نفسه تمكن الملك من الهرب من سجنائه العسكريين ، واتخذ طريقه إلى الشاطئ وإلى جزيرة وايت حيث وجد مأوى أميناً في قلعة كارسبروك (١٤ نوفمبر ١٦٤٨) . وشدد من عزيمته ما تراهي إليه من أنباء ثورة الملكيين ضد البرلمان في الريف وفي الأسطول ، وعرض عليه المندوبون الإسكتلنديون في لندن سرّاً ، أن يملوه بجيش يعيده إلى عرشه إذ قبل إقامة النصرانية المشيخية وإبطال ما عدّها من المذاهب المسيحية . وارتضى الملك هذا « الارتباط » ولكنه حدده

بثلاث سنوات . وذاكر المندوبون لندن ليحشدوا جيشاً . واعتمد البرلمان الإسكتلندي خططهم لغزو إنجلترا ، وأصدر في ٣ مايو ١٦٤٨ بياناً يطالب كل الانجليز بالالتزام « بالميثاق » ، ويحظر كل الأشكال الدينية فيما عدا المشيخية ، ويأمر بحل جيش « المستقلين » ورأى البرلمان الانجليزي أن تنفيذ هذه المقترحات لا يعنى شيئاً إلا التضاء عليه وإخضاع إنجلترا لإسكتلندة . وأسرح بمصالحة كرومويل ، وأقنعه بأن يقود قواته ضد الإسكتلنديين . ولا ريب أن البرلمان سر لإبعاد كرومويل ، والإلقاء به إلى التهلكة ، وبعد ثلاثة أيام من الأخذ والرد أقنع الجيش بأن يتبعه إلى ميدان المعركة . وتبعه الجيش على كره منه ، وأقسم بعض الزعماء أنهم إذا قدر لهم إنقاذ إنجلترا فلسوف يكون من « واجههم أن يستدعوا رجل الدم ، شارل ستيوارت ، ايقدم حساباً عن الدماء التي سفكها » (١٧) .

١١ — وأسدل الستار : ١٦٤٨ — ١٦٤٩

استطاع كرومويل بفضل ما أوتي من طاقة أن يقصر من أمد الحرب الأهلية الثانية . فعلى حين أحمد فيرفاكس ثورات الملكيين في كنت ، اتجه أوليفر غرباً واستولى على معقل ملكي في ويلز . وعبر الاسكتلنديون نهر تويد في ٨ يرييه ، وتقدموا في سرعة مذهلة حتى صاروا على بعد نحو ٤٠ ميلاً من ليفربول . وفي برستون ، في لنكشير ، التقى جيش كرومويل المكون من تسعة آلاف جندي ، مرتين ، بهذا الجمع من الاسكتلنديين والخياله الملكيين وأوقع بهم هزيمة منكرة (١٧ أغسطس) .

وبينما كان كرومويل وجنوده يعملون على إنقاذ البرلمان ، دبر البرلمان أن يحمي نفسه منهم ، بفتح باب المفاوضات من جديد ، لإعادة الملك . ولكنه أصر على أن يوقع الملك « الميثاق » وأن يضعه موضع التنفيذ ، فرفض الملك . وعرض الجيش العائد أن يؤيد عودته إلى العرش مع الحد من حقوقه الملكية إلى أضيق الحدود ، فأبى (١٧ نوفمبر) . وبغية أن يقطع الجيش الطريق على البرلمان ليعيد الملك إلى العرش ، قبض عليه ثانية وأودعه قلعة هيرست المواجهة لجزيرة وايت ، وشجب البرلمان هذا التصرف ، واقترح على قبول شروط الملك أساساً لتسوية النزاع — فالمن قادة الجيش الذين

كانوا يتوقعون الموت ، إذا عاد شارل ، أنه لن يسمح بالدخول إلى مجلس العموم إلا لمن ظلوا على « ولائهم وإخلاصهم للمصلحة العامة » . وفي بواكير يوم ٦ ديسمبر أحاطت قوة من الجنود تحت قيادة كولونيل توماس برايد ، بمجلس العموم ، واقتحمته ، ومنعت أو طردت ١٤٠ من الأعضاء الملكيين والمشيخين ، وأودعت السجن أربعين عضوا أبدوا شيئا من المقاومة (٩٨) . واستحسن كرومويل هذا الاجراء . واشترك في الاقتراع على سرعة محاكمة الملك وإعدامه .

لم يبق الآن من الأعضاء الخمسمائة الذين كان يتألف منهم مجلس العموم ١٦٤٠ إلا ستة وخمسين . وأقر هذا « البرلمان الأثارة » (الذى لم يبق فيه إلا نفر قليل) ، بأغلبية ستة أصوات ، قانونا ينص على أن شن الملك الحرب على البرلمان خيانة عظمى ، ورفض اللوردات القانون على أنه ليس من سلطة مجلس العموم ، وعندئذ (٤ يناير ١٦٤٩) ، قرر النواب أن الشعب « بعد الله مصدر كل سلطة عادلة » وأن النواب ، وهم يمثلون الشعب ، « أصحاب السلطة العليا في هذه الأمة » ، وأنه بناء على ذلك تكون لتشريعاتهم قوة القانون ، دون موافقة اللوردات أو الملك . وفي ٦ يناير عين النواب ١٣٥ عضوا لمحاكمة الملك ، وأبلغ أحد الأعضاء — وهو ألخرونون سدنى — كرومويل بأنهم ليس لديهم سلطة قانونية ، ليحاكموا ملكا . ففقد كرومويل صوابه وصاح في وجهه قائلا : « أؤكد لك أننا سنقطع رأسه وفوقه التاج (٩٩) » وبذل قادة الجيش آخر محاولة لتفادى قتل الملك . فعرضوا تبرئة شارل إذا وافق على بيع أراضى الأساقفة ، وتنازل عن حقه في الاعتراض برفض قرارات البرلمان . ولكن الملك أجاب بأنه لا يستطيع إلى ذلك سبيلا ، لأنه أقسم اليمين على أن يكون مخلصا لكنيسة إنجلترا . وليس ثمة من ينازع في شجاعته ،

وبدأت المحاكمة في ١٩ يناير ١٦٤٩ . وجلس القضاة المرتجلون الستون أو السبعون على منصة مرتفعة في طرف من قاعة وستمنستر ، واصطف الجنود في الطرف الآخر ، واكتظت الدهاليز والشرفات بجمهور المتفرجين ، وأجلس شارل وحده وسط القاعة . وتلا جون برادشو رئيس الجلسة قرار الاتهام ، وطلب إلى الملك أن

يجيب ، فأنكر شارل سلطة المحكمة في محاكمته أو صحة تمثيلها لشعب إنجلترا ، وقال بأن حكومة يديرها برلمان يسيطر عليه الجيش ، هي أسوأ طغيانا من أى طغيان أظهره هو قط ، فضجت الشرفات بالهتاف « حفظ الله الملك » ودوت المنابر باستتكار المحاكمة وشجبها . وخشى برادشو على حياته في الشوارع ، وأرسل الأمير شارل من هولنده صحيفة لا تحمل إلا توقيعه ، ووعد القضاة بالموافقة على أية شروط يدونونها فوق اسمه ، إذا هم أبقوا على حياة والده (١٠٠) . وعرض أربعة من النبلاء أن يقدموا حياتهم فداء للملك (١٠١) ، فرفض عرضهم . ووقع تسعة وخمسون من القضاة ، من بينهم كروموويل ، الحكم بالاعدام . وفي ٣٠ يناير سار الملك في هدوء إلى الموت ، أمام جمهور غفير تملكه الرعب . وبضربة واحدة من بلطة الجلاد قطع رأسه . وكتب شاهد عيان « لقد تعالت أنات آلاف الحاضرين وقتئذ وآهاتهم ، بشكل لم أعهده قط من قبل ، وأرجو ألا أسمعه من بعد » (١٠٢) .

وهل كان الاعدام عملا مشروعا ؟ إنه بطبيعة الحال لم يكن كذلك . فإنه طبقا للقانون المعمول به ، يكون البرلمان شيئا فشيئا ، ويشكل قاس ، قد انتحل لنفسه الحقوق الملكية التي أقرتها السوابق لمائة عام . فالثورة على التحدبد أمر غير مشروع ، ولبس أمامها من طريق لتدفع بالحديد إلى الأمام إلا هدم القديم . وكان شارل مخلصا في الدفاع عن السلطات التي ورثها عن إليزابث وچيمس ، لقد أثموا ضده قدر ما أثم هو ، وكانت غلظته القاتلة أنه لم يدرك أن التوزيع بالحديد للثروة ، اقتضى ، من أجل الاستقرار الاجتماعي ، توزيعا جديدا للسلطة السياسية .

وهل كان الاعدام عدلا ؟ إذا نجي القانون جانبا ، بالاحتكام إلى السلاح ، فقد يلتمس المغلوب الرحمة ، ولكن يمكن للغالب أن يفرض أقصى العقوبة إذا رأى أن هذا ضروري لمنع تجدد المقاومة ، أو لتعويق الآخرين ، أو للحفاظ على حياته وحياة أتباعه . والمفروض أن أى ملك منتصر كان يمكن أن يطيح برأس كروموويل وأيرتون وفيرفاكس وكثيرين غيرهم ، وربما مع مختلف ألوان التنكيل والعداب التي يتعرض لها عادة كل من بتهمون بالخيانة .

وهل كان الاعدام عملا حكيما ؟ من المحتمل ألا يكون كذلك ، ومن الواضح [

أن كرومويل اعتقد بأن بقاء الملك على قيد الحياة ، مهما يكن من اطمئنان إلى ضمان سجنه ، يمكن أن يحفز الملكيين إلى معاودة الثورة المرة بعد المرة ، ولكن كذلك سوف يكون حافزا على تجديد المقاومة من جانب ابن الملك الذي لا يمكن الوصول إليه في فرنسا أو هولنده ، والذي لم تلوثه أخطاء والده ، والذي لابد أن تكلل هامته وشيكا بأعجاد البطولة . إن إعدام شارل الأول أدى إلى تحول كان يمكن التنبؤ به في الشعور الوطني الذي استرد مساره على مدى أحد عشر عاما ، ويوحى التاريخ اللاحق بأن الرحمة كانت عين العقل والحكمة فإنه عندما وقع جيمس الثاني ، ابن شارل ، بالمثل ، في الخطأ الجسيم ، تدبرت ثورة ١٦٨٨ الجلييلة الأمر ، في دهاء ارسقراطى ، وسمحت له عمدا بالهرب إلى فرنسا ، وكان لخلعه نتائج ثابتة دائمة . ومهما يكن من أمر ، فإن الثورة السابقة هى التى مكنت للثورة اللاحقة فعاليتها السريعة .

إن الثورة الكبرى تماثل ثورات الهيجونوت فى فرنسا القرن السادس عشر ، كما تماثل ، برغم الفوارق الكثيرة ، الثورة الفرنسية ١٧٨٩ — فهناك فى الحالة الأولى العصيان المسلح للكلفنية البسيطة العابسة التى شدت من أزرها الثورة التجارية ، ضد الكنيسة الشديدة التمسك بالشعائر والطقوس وضد الحكومة الاستبدادية المطلقة . وهناك فى الحالة الثانية ثورة الجمعية الوطنية التى تمثل سلطان المال وقوة الطبقة الوسطى ، ضد ارسقراطية تمتلك الأرض يتزعمها ملك حسن النية ولكنه متخبط مرتبك . وما وافى عام ١٧٨٦ حتى كان الانجليز قد استوعبوا ثورتهم ، وكان فى مقدورهم أن ينظروا بعين الفزع القلق ، عن اقتناع ، إلى ثورة خضبت بالدم ، مثل ثورتهم ، أرض دولة وقتلت ملكا ، لأن الماضى حاول أن يقف جامدا لا يريم .

NOTES المراجع

CHAPTER I

1. Froude, *Reign of Elizabeth*, I, 11.
2. Neale, *Queen Elizabeth*, 26.
3. *Ibid.*, 37.
4. Froude, I, *Introd.*, vii.
5. Read, G., *Mr. Secretary Cecil and Queen Elizabeth*, 32.
6. *Ibid.*, 119.
7. Hughes, P., *The Reformation in England*, III, 46.
8. Froude, *Elizabeth*, III, 300.
9. Froude, I, 448.
10. Barnes, H. E., *Economic History of the Western World*, 205.
11. Hallam, *Constitutional History of England*, I, 245.
12. Lingard, J., *History of England*, VI, 324.
13. Christopher Hatton in *Shakespeare's England*, I, 80.
14. Neale, 61.
15. *Ibid.*, 75-6.
16. *Shakespeare's England*, I, 5.
17. Neale, 186.
18. Froude, I, 120.
19. *Cambridge Modern History*, III, 289.
20. Froude, IV, 61.
21. Thornton, *Table Talk from Ben Jonson* in *Leigh Hunt*, 9.
22. Hallam, I, 133.
23. Neale, 80.
24. Read, 163.
25. Froude, II, 84.
26. *Cambridge Mod. History*, II, 581.
27. Froude, I, 300.
28. *Ibid.*, 101.
29. *Ibid.*, 491.
30. Creighton, *Queen Elizabeth*, 154.
31. Church, R. W., *Spenser*, 116.
32. Lingard, VI, 321.
33. Aubrey, *Brief Lives*, 103.
34. Chute, *Shakespeare at London*, 145.
35. Bacon, F., *Philosophical Works*, 869, *Apophthegm* 45.
36. Froude, V, 100.
37. Sir John Hayward in Mont, K., *Elizabethan and Jacobean Prose*, 1.
38. Chute, *Ben Jonson*, 163.
39. Froude, I, 12, 13.
40. *Ibid.* and 145, II, 238. Allen, J. W., *History of Political Thought in the Sixteenth Century*, 199-200.
41. Ascham, *The Schoolmaster*, 81.
42. *Ibid.*, III, 2.
43. Laine, *English Literature*, 160.
44. Smith, Fretwell, *The Age of the Reformation*, 634.
45. Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 5, 6.
46. Bradbrook, *The School of Night*, 7; Boas, *Marlowe and His Circle*, 90; and the ed. of *Love's Labour's Lost* by A. T. Quiller Couch and J. Dover Wilson, London, 1923.
47. Bradbrook, 39.
48. *Ibid.*, 12.
49. Robertson, *Freethought*, II, 10.
50. Green, J. R., *Short History of the English People*, ch. vii, sect. 3.
51. Froude, I, 183; IV, 65; V, 228.
52. *Ibid.*, IV, 585-6.
53. *Cambridge Mod. History*, II, 562.
54. Chute, *Ben Jonson*, 79.
55. Roeder, *Catherine de' Medici*, 492.
56. Froude, IV, 119; Neale, 215.
57. Payne, E. A., *The Anabaptists of the 16th Century*, 19; Lingard, VI, 170.
58. Pastor, *History of the Popes*, XVII, 250.
59. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 150.
60. Froude, I, 329.
61. *Ibid.*, II, 345; Hughes, III, 159.
62. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, I, 6; *Cambridge Mod. History*, III, 349.
63. Lingard, VI, 122.
64. Hughes, III, 189.
65. Pastor, XIX, 441-2.
66. *Ibid.*
67. McCabe, *Candid History*, 148.
68. *Ibid.*, 150.
69. Froude, IV, 284.
70. *Ibid.*, 294-5.
71. Lingard, VI, 165; Froude, IV, 297.
72. Pastor, XIX, 458.
73. Hughes, III, 315-6.
74. Neale, 165.
75. Hughes, III, 363; Williams, F. B., *Elizabethan England*, 10.
76. Froude, V, 238.
77. Hughes, III, 380; Neale, 299.
78. Hallam, I, 169; Lingard, VI, 257.
79. Hughes, III, 391-6.
80. Allen, J. W., *History of Political Thought in the Sixteenth Century*, 216-7, Hallam, I, 190.
81. Hallam, I, 198.
82. Hughes, III, 408.
83. Lea, H. C., *Studies in Church History*, 508.
84. Neale, 178.
85. Hallam, I, 205.
86. *Cambridge Mod. History*, III, 345.
87. Walton, Isaac, *Life of Richard Hooker*,

- in Clark, B. H., *Great Short Biographies of the World*, 556.
188. Hooker, Richard, *Works: Laws of Ecclesiastical Polity*, I, x, 4, 8.
89. *Ibid.*, VIII, vi, 11.
90. *Ibid.*, I, i, 1.
91. Froude, IV, 237.
92. *Ibid.*, 191.
93. D'Alton, E. A., *History of Ireland*, III, 199.
94. Froude, IV, 233, 236.
95. *Ibid.*, 233.
96. Froude, II, 466.
97. *Encyclopaedia Britannica*, 14th ed., XV, 778b.
98. Froude, II, 211.
99. Nussbaum, F. L., *History of the Economic Institutions of Modern Europe*, 122; Froude, II, 468.
100. Barnes, *Economic History*, 265.
101. Acton, J. E., *Lectures on Modern History*, 152; Davies, E. Trevor, *The Golden Age of Spain*, 212; Froude, III, 309; V, 37.
102. Froude, V, 344.
103. *Ibid.*, 400.
104. Michelet, Jules, *Histoire de France*, IV, 4.
105. Froude, V, 413.
106. *Ibid.*, 430-1.
107. Spedding, J., *Life and Times of Francis Bacon*, I, 56.
108. Strachey, *Elizabeth and Essex*, 173.
109. In Eddy, Sherwood, *The Challenge of Europe*, 205n.
110. Strachey, *Elizabeth and Essex*, 6.
111. Clarendon, Robert Devereux and George Villiers, in Clark, *Great Short Biographies*, 603.
112. Spedding, I, 21.
113. *Ibid.*, 179.
114. *Ibid.*, 56.
115. Strachey, 65.
116. Spedding, I, 231.
117. Spedding, note to Rawley's *Life of Bacon*, in Bacon, *Philosophical Works*, 3.
118. Strachey, 172; Spedding, *Life of Bacon*, I, 227; Creighton, *Queen Elizabeth*, 279.
119. Holzknicht, *Backgrounds of Shakespeare's Plays*, 301; Chambers, E. K., *William Shakespeare*, I, 354; Strachey, 241.
120. Spedding, I, 343-8.
121. Strachey, 264-5.
122. Creighton, 295.
123. Strachey, 279.
124. In Muir, *Elizabethan and Jacobean Prose*, 39.
125. *Ibid.*, 40.
126. *Hamlet*, III, iii, 15-23.

127. Bacon, *Advancement of Learning*. Preface to the King.
128. *Henry VIII*, V, v, 18.

CHAPTER II

1. A phrase of unknown origin, as old as 1300.—Mencken, H. L., *New Dictionary of Quotations*, 143.
2. Bernal, *Science in History*, 284; Wolf, A., *History of Science in the Eighteenth Century*, 630.
3. Trevelyan, *English Social History*, 191.
4. Rogers, *Economic Interpretation of History*, 38; Traill, *Social England*, III, 365; Froude, *Henry VIII*, I, 19; Lipson, *Growth of English Society*, 157f..
5. *Shakespeare's England*, I, 310.
6. Rogers, *Economic Interpretation*, 37; Rogers, *Six Centuries of Work and Wages*, 84, 88, 100.
7. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 94; *Shakespeare's England*, I, 331.
8. Creighton in Traill, III, 373.
9. Gasquet, *Henry VIII and the English Monasteries*, II, 515n.
10. Smith, P., *Age of the Reformation*, 476.
11. Beard, Chas., *Toward Civilization*, 227.
12. Trevelyan, *Social History*, 160-1.
13. Wolf, *History of Science in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 614.
14. Thompson, J. W., *Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 497.
15. S6c, H., *Modern Capitalism*, 55.
16. Trevelyan, *Social History*, 120.
17. Sarton, G., *Introduction to the History of Science*, IIIa, 324.
18. Addison, J. D., *Arts and Crafts in the Middle Ages*, 26.
19. Froude, *Elizabeth*, II, 88.
20. Chute, *Shakespeare of London*, 63.
21. Ascham, *Schoolmaster*, 71-8 and end.
22. Einstein, Lewis, *Italian Renaissance in England*, 160.
23. Hughes, III, 137.
24. Goethe, *Faust*, Part II, lines 616-18, quoted in Haydn, II., *The Counter-Renaissance*, 362.
25. *Camb. Mod. History*, III, 393.
26. Chute, *Ben Jonson*, 41.
27. Trend, J. B., *Civilization of Spain*, 110.
28. Hughes, III, 144.
29. *Shakespeare's England*, I, 416.
30. Froude, *Elizabeth*, V, 461.
31. Trevelyan, *Social History*, 140.
32. Lingard, VI, 323.
33. *King Lear*, IV, vi.
34. Lingard, VI, 323.
35. Hallam, I, 35.

36. *Shakespeare's England*, I, 398.
37. Froude, *Elizabeth*, IV, 122-3; *Shakespeare's England*, I, 400.
38. Hallam, I, 234; Spenser, E., *Poetical Works*, Introd., xxiii.
39. Browne, Sir Thos., *Religio Medici*, Introd., x.
40. Garrison, *History of Medicine*, 819.
41. Bacon, Essay "Of Gardens," in *Philosophical Works*, 791.
42. *Merchant of Venice*, I, ii.
43. *As You Like It*, about Nothing, III, iv.
44. Holzknecht, 44.
45. Philip Stubbs in James, B. B., *Women of England*, 250.
46. Wright, Thomas, *Womankind in Western Europe*, 334.
47. *Merchant of Venice*, III, ii, 89.
48. *Shakespeare's England*, II, 94.
49. Wright, Thomas, *History of Domestic Manners and Sentiments in England*, 456.
50. James I., *A Counterblast to Tobacco* (1604), in Muir, 89.
51. McKinney and Anderson, *Music in History*, 278.
52. *Oxford History of Music*, II, 221.
53. *Ibid.*, 208.
54. Haydn, H., *The Portable Elizabethan Reader*, 666.
55. Burney, C., *General History of Music*, II, 306.
56. In the National Portrait Gallery, London.
57. Blomfield, R., *Short History of Renaissance Architecture in England*, 37.
58. Bishop, A. T., *Renaissance Architecture of England*, 34; Blomfield, 86.
59. *Ibid.*
60. Haydn, *Counter-Renaissance*, 13.

CHAPTER III

1. Burton, Robert, *Anatomy of Melancholy*, 7.
2. *Shakespeare's England*, II, 183.
3. Putham, G. H., *Censorship of the Church of Rome*, II, 258.
4. *Shakespeare's England*, II, 217.
5. *Cambridge History of English Literature*, III, 369.
6. Garnett and Gosse, *English Literature*, II, 68.
7. Cainb., *History of English Literature*, III, 172.
8. Ascham, *Scholemaster*, 17-23.
9. Haydn, *Portable Elizabethan Reader*, 183.
10. Lyly, *Euphues: The Anatomy of Wit*, 3.
11. Greene, Robert, *A Groats-worth of Wit Bought with a Million of Repentance*, in Taine, *English Literature*, 168.
12. In Muir, 28.
13. Symonds, J. A., *Shakespeare's Predecessors*, 435.
14. Saintsbury, *History of Elizabethan Literature*, 233.
15. Bourne, Sir Philip Sidney, 75.
16. Aubrey's *Brief Lives*, 278.
17. Bourne, 115.
18. *Ibid.*, 27-30.
19. *Ibid.*, 277.
20. Sidney, Philip, *Works: Defense of Poetry*, 9.
21. Sidney, *Works*, III, 14.
22. *Ibid.*, I, 7.
23. *Ibid.*, I, 16.
24. *Defense of Poetry*, 41.
25. Sidney, Sonnet xxxi.
26. Bourne, 326.
27. In Haydn, *Elizabethan Reader*, 394.
28. Bourne, 149.
29. Spenser, *Poetical Works*, 559.
30. Prefatory Letter to Raleigh, in *Poetical Works*, 407.
31. *Faerie Queene*, II, xii, 78.
32. Thornton, *Table Talk*, 1.
33. Van Doren, *Anthology of World Poetry*, 1026.
34. Aristotle, *Poetics*, 1449-50.
35. *Defense of Poetry*, 38.
36. Mantzius, *History of Theatrical Art*, III, 11.
37. *Shakespeare's England*, II, 241.
38. Chambers, E. K., *The Elizabethan Stage*, I, 255.
39. Holzknecht, 110.
40. Chambers, *Elizabethan Stage*, I, 258.
41. Shakespeare, *Twelfth Night*, II, iii.
42. *Pericles*, IV, ii.
43. Chambers, *Elizabethan Stage*, IV, 273-5.
44. *Henry V*, I, i, 13.
45. *Hamlet*, III, ii, 10.
46. Holzknecht, 153.
47. *Shakespeare's England*, II, 277.
48. *Hamlet*, II, ii, 354.
49. Mantzius, III, 228.
50. Marlowe, *Works*, Appendix, 428-30.
51. Bakeless, John, *Tragicall History of Christopher Marlowe*, 112.
52. Symonds, *Shakespeare's Predecessors*, 437.
53. Bakeless, 113.
54. Marlowe, *Tamburlane*, Part I, Act II, vii.
55. France, A., *The Gods Are Athirst*, 57.
56. *Ecclesiastes*, i, 18.
57. Marlowe, *Faustus*, I, i.
58. *The Jew of Malta*, II, iii.

59. *Ibid.*, I, i.
60. *Ibid.*, II, i.
61. *Tambrulane*, Part I, Act I, i.
62. *Bakeless*, 156; *Esquire Magazine*, December 1954.

CHAPTER IV

1. Chambers, *William Shakespeare*, II, 264.
2. *Ibid.*, 257.
3. Lee, Sidney, *Life of William Shakespeare*, 22.
4. Chambers, *Shakespeare*, II, 188.
5. *Ibid.*, 189.
6. *Ibid.*, 259, 265.
7. Shakespeare, Sonnet xxix.
8. Sonnet cx.
9. Chute, *Shakespeare*, 269.
10. Sonnet clxii.
11. Lee, 68.
12. Raleigh, W., *Shakespeare*, 150.
13. Chambers, *Shakespeare*, I, 434.
14. *As You Like It*, II, vii.
15. *King Lear*, IV, vi, 120.
16. *Timon of Athens*, IV, i, 35.
17. *Ibid.*, IV, iii, 54.
18. *Ibid.*, IV, iii, 151f.
19. *Troilus and Cressida*, II, ii, 166.
20. *Coriolanus*, I, iv, 57.
21. Thornton, *Table Talk*, 5.
22. *Encycl. Brit.*, III, 781b.
23. *Two Gentlemen of Verona*, I, i, 71.
24. *The Tempest*, I, ii, 129.
25. *Midsummer Night's Dream*, II, iii, 61.
26. *Hamlet*, II, ii, 310.
27. *Romeo and Juliet*, I, ii, 139.
28. *Julius Caesar*, I, ii, 139.
29. *Tempest*, II, i, 47.
30. Hauser, A., *Social History of Art*, I, 422.
31. *Love's Labour's Lost*, I, i, 166.
32. *Richard III*, I, i, 1.
33. *Ibid.*, I, i, 24.
34. *2 Henry IV*, IV, iv.
35. *1 Henry IV*, III, i.
36. *Much Ado about Nothing*, II, iii.
37. *2 Henry IV*, III, i.
38. *King John*, IV, ii.
39. *Troilus and Cressida*, III, iii.
40. *Midsummer Night's Dream*, I, iii.
41. *Merchant of Venice*, I, iii.
42. *Twelfth Night*, III, iv.
43. *Mid. Night's Dream*, I, i.
44. *Othello*, I, i.
45. *King Lear*, IV, vi.
46. *Hamlet*, I, iv.
47. *Ibid.*, II, ii.
48. *Mid. Night's Dream*, II, i.
49. *Two Gentlemen of Verona*, IV, ii.
50. *Cymbeline*, II, iii.
51. *Measure for Measure*, IV, ii.
52. *Mid. Night's Dream*, V, i, 7.
53. Examples in Chambers, *Shakespeare*, 228-30.
54. *Comedy of Errors*, III, i, 76.
55. *Tempest*, IV, i, 109.
56. *As You Like It*, III, ii.
57. Shaw, Bernard, *Man and Superman*, Preface, xxviii.
58. *Hamlet*, I, v.
59. *Much Ado about Nothing*, V, i.
60. *Hamlet*, III, iv, 88.
61. *Ibid.*, II, ii.
62. *Coriolanus*, IV, vii.
63. *Hamlet*, I, iv, 25.
64. *Richard III*, V, iii.
65. *Richard II*, III, iii.
66. *1 Henry IV*, III, i; cf. Haydn, *Counter-Renaissance*, 601f.
67. *Troilus and Cressida*, I, iii.
68. *King Lear*, V, ii, 9.
69. *Twelfth Night*, II, iii.
70. *King Lear*, IV, vi, 111f.
71. *Pericles*, II, i.
72. *Tempest*, II, i, 147-64.
73. *Hamlet*, IV, iv, 35.
74. Raleigh, *Shakespeare*, 61.
75. *King John*, III, i.
76. *Henry VIII*, II, ii; *Romeo and Juliet*, IV, ii.
77. *King Lear*, IV, i, 36.
78. *Ibid.*, V, iii, 169.
79. V, ii, 10.
80. *King John*, III, iv, 108.
81. *Hamlet*, I, iii, 126-28.
82. *Macbeth*, V, v, 23.
83. *Merchant of Venice*, V, i.
84. *Measure for Measure*, III, i, 118.
85. *Hamlet*, I, iv, 67.
86. Chambers, *Shakespeare*, II, 194.
87. In Lee, *Shakespeare*, 179.
88. Jonson, *Timber*, in Chute, *Ben Jonson*, 340.
89. Lee, 177.
90. *Ibid.*, 178.
91. Aubrey, 275.
92. Jonson, *Timber*, in Lee, 177.
93. Chambers, *Shakespeare*, I, 84.
94. Lee, 203.
95. Aubrey, 275.
96. *Ibid.*, 85.
97. *Tempest*, I, ii, 5.
98. *Ibid.*, IV, i, 148.
99. V, i, 48.
100. V, i, 181.
101. Chambers, *Shakespeare*, I, 89.
102. Holzknecht, 380-1.
103. Voltaire, Letter of July 19, 1776, in Denoïresterres, G., *Voltaire et la société française au XVIII^e siècle*, VIII, 108.

104. In Croce, B., *Ariosto, Shakespeare, and Corneille*, 284.
105. Voltaire, article on Dramatic Art, in Holzschnecht, 387.
106. Goethe, *Wilhelm Meister*, Book II, chs. xliii-xvi.

CHAPTER V

1. Brantôme, *Book of the Ladies*, 92.
2. *Ibid.*, 124.
3. Sainte-Beuve, *English Portraits*, 6.
4. Pastor, XVI, 283.
5. Lingard, VI, 12.
6. *Book of Discipline*, Heads I and III, in Knox, *History of the Reformation in Scotland*, II, 281-3.
7. Knox, *History*, II, 321-2.
8. In National Portrait Gallery, London, and in Uffizi Gallery, Florence.
9. Lang, Andrew, *Mystery of Mary Stuart*, 13, 61.
10. Knox, *History*, II, 10; Froude, *Elizabeth*, I, 255.
11. Knox, II, 8.
12. *Ibid.*, 12.
13. *Ibid.*, 13f.
14. Lang, *History of Scotland*, II, 107.
15. *Ibid.*
16. Muir, Edwin, *John Knox*, 240.
17. Knox, *History*, II, 29.
18. Lang, *History*, II, 110.
19. Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, xxix.
20. Knox, *History*, II, 44-6.
21. Lang, *History*, II, 126.
22. Knox, II, 71-7; Lang, II, 127; Muir, *Knox*, 253.
23. Knox, II, 81.
24. *Ibid.*, 83.
25. *Ibid.*, 93.
26. Zweig, *Mary Queen of Scots*, 108.
27. Neale, *Queen Elizabeth*, 141.
28. Lang, *History*, II, 160.
29. *Ibid.*; Froude, *Elizabeth*, II, 50.
30. Lang, II, 162.
31. *Camb. Mod. History*, III, 272.
32. Lang, *Mystery*, 75.
33. *Ibid.*, 108-11.
34. *Camb. Mod. History*, III, 173.
35. Lang, *History*, II, 171; Lingard, VI, 67.
36. Lang, II, 170-2.
37. *Ibid.*; Knox, *History*, lxxiii.
38. Zweig, 158.
39. Lang, *Mystery*, 236.
40. Acton, *Lectures*, 150-2; Lang, *Mystery*, 295, 353, 362.
41. *Ibid.*, 133.
42. Lang, *History*, II, 188.
43. Neale, 161.
44. Lang, *Mystery*, 194.
45. Froude, *Elizabeth*, II, 307, 310.
46. Brockway and Winer, *Second Treasury of the World's Great Letters*, 112.
47. Hallam, I, 167.
48. Froude, *Elizabeth*, II, 407.
49. *Ibid.*, 403; Lang, II, 200.
50. Lang, II, 203.
51. Lang, *Mystery*, 286.
52. Lingard, VI, 97.
53. Froude, III, 110.
54. Muir, *Knox*, 282.
55. Knox, *History*, I, vii.
56. Lingard, VI, 126.
57. *Ibid.*, 128; Hughes, III, 278.
58. Roeder, *Catherine de' Medici*, 491.
59. Neale, 263.
60. Pastor, XIX, 450-2.
61. Lingard, VI, 187.
62. *Ibid.*, 205-6; Pastor, XXI, 7-19.
63. *Ibid.*, 25; Froude, V, 259-61.
64. Williams, Chas., *James I*, 76, 80-3; Froude, V, 294.
65. Zweig, 291.

CHAPTER VI

1. Fontenoy in Froude, V, 74.
2. Lang, *History*, 276, 294-6, 305, 395; Lingard, VI, 183.
3. Lea, *Studies in Church History*, 302-8.
4. *Ibid.*, 500.
5. Lang, *History*, II, 243.
6. James I, *Basilikon Doron*, in Gooch, *English Democratic Ideas in the Seventeenth Century*, 41.
7. Lang, *History*, II, 278.
8. *History Today*, March 1956, 159.
9. Buckle, *History of Civilization*, IIa, 199.
10. Williams, *James I*, 132.
11. *Encycl. Brit.*, IV, 310.
12. Allen, J. W., *History of Political Thought*, 339-40; cf. Carlyle, R. W., *History of Medieval Political Theory*, 332f; Figgis, J. N., *From Gerson to Grotius*, 167-72.
13. Allen, op. cit., 342.
14. Quoted by Oliver Dick in Introduction to Aubrey's *Brief Lives*, xxx.
15. In Chute, *Ben Jonson*, 249.
16. *Ibid.*, 268.
17. *Ibid.*, 217.
18. Bowen, C. D., *The Lion and the Throne*, 315.
19. Aubrey, 67.
20. In Robinson, J. H., *Readings in European History*, 349; Allen, 254; Dunning, W. A., *History of Political Theories*, II, 217.
21. Allen, J. W., *English Political Thought*, 26.
22. *Ibid.*, 124.

23. Lingard, VII, 17.
24. Allen, *English Political Thought*, 223.
25. Williams, *James I*, 192-3.
26. Lingard, VII, 19-22.
27. *Ibid.*, 29.
28. *Ibid.*, 40-3.
29. *Ibid.*, 46-8.
30. *Ibid.*, 50, 96.
31. McCabe, *Candid History of the Jesuits*, 198.
32. Lang, *History*, II, 508.
33. Aubrey, 21.
34. Hallam, H., *Literature of Europe*, III, 324.
35. Webster, *The White Devil*, in Webster and Ford, *Plays*, p. 91.
36. Webster, *Duchess of Malfy*, in Webster and Ford, p. 145.
37. *Ibid.*, IV, ii.
38. Thornton, *Table Talk*, 15.
39. Thomas Fuller in Chute, *Ben Jonson*, 37.
40. Jonson, *Every Man out of His Humour*, Induction.
41. Thornton, 7.
42. Jonson, *Every Man out of His Humour*, Induction.
43. Thornton, 8.
44. Chute, *Ben Jonson*, 161.
45. Jonson, *The Alchemist*, II, i.
46. Baskerville, Read, etc., *Elizabethan and Stuart Plays*, 1077.
47. Herrick, *Poems*, 241.
48. Chute, *Ben Jonson*, 310.
49. Williams, *James I*, 189.
50. Introduction to Burton, *Anatomy of Melancholy*, p. x.
51. *Ibid.*
52. Burton, *Anatomy of Melancholy*, 8.
53. *Ibid.*, 3.
54. *Ibid.*, 79-80.
55. Donne, *Poems*, 83.
56. *Ibid.*, 26.
57. Elegy XIII; Elegy II.
58. *Poems*, 182.
59. *Ibid.*, 180.
60. Thornton, 4.
61. *Poems*, 253.
62. In Peterson, *Treasury of the World's Great Speeches*, 91.
63. *Ibid.*, 92.
64. Walton, *Life of Dr. Donne*, in Peterson, 95.
65. Hallam, *Constitutional History*, I, 347; *Encycl. Brit.*, XVIII, 961b; Lingard, VII, 7.
66. Text in Schuster, M. L., *Treasury of the World's Great Letters*, 82-4.
67. Raleigh, Sir Walter, *Selections*, 61.
68. *Ibid.*, 117.
69. Lingard, VII, 101.
70. Spedding, *Life of Fr. Bacon*, II, 288-9; Wallace, *Sir Walter Raleigh*, 261f.
71. Lingard, VII, 102.
72. *Encycl. Brit.*, XVIII, 961b.
73. Wallace, *Raleigh*, 315.
74. Raleigh, *Selections*, Introduction, 28.
75. Lingard, VII, 117.
76. Williams, *James I*, 258.
77. Hallam, *Constitutional History*, 109.
78. *Ibid.*, 122.
79. MacLaurin, C., *Mere Mortals*, 137.

CHAPTER VII

1. Browne, Sir Thomas, *Pseudodoxia Epidemica*, in *Works*, Vols. II and III.
2. Thorndike, Lynn, *History of Magic and Experimental Science*, VI, 548-9.
3. Lecky, *Rationalism in Europe*, I, 38n; Williams, *James I*, 106-10.
4. Lang, *History*, II, 434.
5. Hughes, *Reformation*, II, 286n.
6. *Ibid.*, 285.
7. Thorndike, VI, 550; Chute, *Ben Jonson*, 229.
8. Trevelyan, *English Social History*, 232.
9. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, I, 97.
10. *Ibid.*, 95.
11. Robertson, *History of Freethought*, II, 13.
12. Huntington Library Bulletin, April 1934, p. 99.
13. Wolf, *History of Science*, I, 192.
14. *Ibid.*, 426.
15. John, Evan, *King Charles I*, 153; Kellogg, *The New Dietetics*, 847.
16. Garrison, *History of Medicine*, 248.
17. Sigerist, *The Great Doctors*, 141.
18. Harvey, *Exercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis*, in Hammerman, *Great Books*, 273.
19. Walsh, J. J., *The Popes and Science*, 396.
20. Aubrey, 131.
21. Prinzmetal, *Heart Attack*, 121-2.
22. Aubrey, 128.
23. *Ibid.*, 130.
24. *Ibid.*, 11.
25. Gardiner, S. R., in Garnett and Gosse, *English Literature*, II, 12.
26. Spedding, *Life of Bacon*, I, 542.
27. Aubrey, 9.
28. Macaulay, *Critical and Historical Essays*, II, 326-8.
29. Bowen, *The Lion and the Throne*, 418; *Canb. Mod. History*, III, 571.
30. Spedding, *Life*, II, 463.
31. *Ibid.*, 633.
32. *Ibid.*, I, 563.
33. *Ibid.*, 569.

CHAPTER VIII

34. Bacon, *Philosophical Works*, 241.
35. *Ibid.*, ~
36. *Ibid.*, 244.
37. *Ibid.*, 247.
38. Aubrey, 130.
39. Bacon, *Phil. Works*, 167.
40. *Ibid.*, 76, 78; *De Augmentis scientiarum*, Preface.
41. *Philosophical Works*, 76.
42. *Advancement of Learning*, ch. 8.
43. Bacon, *Works*, ed. Spedding and Ellis, VII, 241.
44. *Novum organum*, i, 97.
45. *Ibid.*, i, 82; and "Plan of the Work" in *Philosophical Works*, 250.
46. *Novum organum*, ii, 13, 17.
47. *Philosophical Works*, 144.
48. *Ibid.*, 77.
49. *Ibid.*, 50.
50. Spedding, *Life*, I, 111.
51. *Novum organum*, ii, 2.
52. *Ibid.*, ii, 8.
53. *Ibid.*
54. *De Augmentis*, iv, 3.
55. *Novum organum*, i, 66.
56. *De Augmentis*, end.
57. Essay "Of Atheism"
58. *Ibid.*; *Advancement of Learning*, in *Philosophical Works*, 45; *De Augmentis*, iii, 2.
59. Essay "Of Atheism."
60. *Valerius Terminus*, ch. i, in *Philosophical Works*, 186.
61. Rawley's *Life*, in *Phil. Works*, 9.
62. *De Augmentis*, ix, 1.
63. Essay "Of Goodness."
64. *Ibid.*
65. "Of Marriage and Single Life."
66. Essays "Of Empire" and "Of the True Greatness of Kingdoms."
67. *De Augmentis*, viii, 3, in *Phil. Works*, 610-11.
68. "Of Vicissitude of Things."
69. "Of Seditions and Troubles."
70. *Phil. Works*, 717.
71. *History of Henry VII*, in *Works*, VI, 218-45.
72. In Nichol, J., *Fr. Bacon*, II, 4.
73. Pope's *Essay on Man*, line 282.
74. *Thema coeli*, in *Phil. Works*, 705; *Description globi intellectualis*, *ibid.*, 685.
75. In Friedell, *Cultural History of the Modern Age*, I, 335.
76. *The Advancement of Learning*, in *Phil. Works*, 167.
77. Wolf, *Science in the Sixteenth Century*, 630; Bernal, *Science in History*, 105.
78. Hallam, *Literature of Europe*, III, 72.
79. Nichol, J., II, 235.
80. *Novum organum*, i, 49.
81. *Ibid.*, i, 26, 95.
1. Rogers, *Six Centuries of Work and Wages*, 103.
2. *Ibid.*, table at p. 73.
3. John, *Charles I*, 167.
4. French, Allen, *Charles I and the Puritan Upheaval*, 100-2.
5. Robertson, J. M., *Freethought*, II, 24.
6. *Ibid.*, 77.
7. *Ibid.*, 76.
8. *Ibid.*
9. Aubrey, 135.
10. Belloc, H., *Richelieu*, 49.
11. McCabe, *Candid History*, 202.
12. Toynbee, A., *Study of History*, IX, 178.
13. Allen, *English Political Thought*, 237.
14. *Ibid.*, 242.
15. *Ibid.*
16. Taine, *English Literature*, 259-62.
17. Hume, D., *History of England*, IV, 183.
18. Gardiner, S. R., *History of England 1603-42*, VII, 302.
19. French, *Charles I*, 281.
20. Lingard, VII, 181; Taine, *English Literature*, 265.
21. *Camb. Mod. History*, IV, 279.
22. Allen, *English Thought*, 194.
23. Carlyle, T., *Oliver Cromwell*, I, 93.
24. French, 306.
25. Schaff, *History of the Christian Church: The German Reformation*, I, 79.
26. Allen, *English Thought*, 283.
27. French, 281.
28. Markun, L., *Mrs. Grundy*, 114.
29. Weber, Max, *The Protestant Ethic*, 177.
30. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 387.
31. Allen, *English Thought*, 279f; Lingard, VIII, 190.
32. *Ibid.*, 191n.
33. Thornton, *Table Talk*, 72, 106.
34. Browne, *Religio Medici*, 77.
35. Browne, *Works*, II, 226.
36. *Religio Medici*, 70, 34.
37. Singer, *Studies in the History of Science*, 222.
38. *Religio Medici*, 82.
39. *Ibid.*, 1.
40. *Ibid.*, 18.
41. *Ibid.*, 25.
42. *Ibid.*, 10.
43. *Ibid.*, 179.
44. *Ibid.*, 60.
45. *Ibid.*, 92.
46. Herrick, *Poems*, 181.
47. *Ibid.*, 178.
48. *Ibid.*, 198.
49. Aubrey, 287.
50. *Ibid.*, 289.
51. *Ibid.*, 192.

52. Lovelace, *Poems*, 78.
53. *Ibid.*, 18.
54. MacLaurin, *Mere Mortals*, 143-4; John, *Charles I*, 4; French, 16.
55. Bishop, *Renaissance Architecture*, 25.
56. John, *Charles I*, 65.
57. *Ibid.*, 66.
58. *Ibid.*, 133; Lingard, VII, 164.
59. Gardiner, S. R., *History of England 1603-42*, VII, 1.
60. *Ibid.*, 41-3.
61. Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 171.
62. *Ibid.*, 174; Allen, *English Thought*, 360.
63. Rickard, *Man and Metals*, II, 799.
64. Clarendon, *History of the Rebellion*, I, 323.
65. *Ibid.*, 188f.
66. Carlyle, *Oliver Cromwell*, I, 94.
67. Lang, *History of Scotland*, III, 71.
68. John, *Charles I*, 107.
69. Morley, *Oliver Cromwell*, 72.
70. Clarendon, *passim*; Hume, D., *History of England*, IV, 174, 401.
71. Carlyle, *Oliver Cromwell*; Firth, *Oliver Cromwell*; Buchan, *Oliver Cromwell*.
72. Morley, *Cromwell*, 9.
73. Carlyle, *Cromwell*, I, 98.
74. *Ibid.*, 108.
75. Clarendon, I, 300; Gardiner, *History of England*, IX, 230.
76. Thornton, *Table Talk*, 108.
77. Gardiner, IX, 251-2.
78. Allen, *English Thought*, 346f.
79. Morley, *Cromwell*, 91; Hallam, *Constitutional History*, II, 119; Allen, 354.
80. Clarendon, I, 452.
81. *Ibid.*, 466.
82. Firth, *Cromwell*, 61.
83. Clarendon, II, 49 f.
84. Allen, *English Thought*, 313, 403-4.
85. Robinson, J. H., *Readings*, 356.
86. Schaff, *History of the Christian Church; The Swiss Reformation*, II, 565.
87. Firth, 149; Bury, J. B., *History of Freedom of Thought*, 86; Robertson, J. M., *Free Thought*, II, 76.
88. *Cambr. Mod. History*, IV, 312.
89. Firth, 147.
90. *Ibid.*
91. Macaulay, *History of England*, I, 100.
92. Goöch, *English Democratic Ideas*, 119, 179.
93. *Ibid.*, 124.
94. *Ibid.*, 128.
95. *Cambr. Mod. History*, IV, 345.
96. Firth, 175.
97. Morley, *Cromwell*, 240.
98. Lingard, VIII, 110.
99. Morley, 267.
100. John, *Charles I*, 294.
101. Hume, *History*, IV, 485.
102. Churchill, W. S., *History of the English-Speaking Peoples*, II, 223.
103. Robinson, *Readings*, 359.

فهرس

الجزء الأول من المجلد السابع

من قصة الحضارة

الكتاب الاول

ابتهاج غامر في إنجلترا

١٥٥٨ - ١٦٤٨

الفصل الاول

الملكة العظيمة

١٥٥٨ - ١٦٠٣

بيان

رقم

- ١ (مزايا المحنة ٢
- ٢ (حكومة الزابث ٦
- ٣ (العذراء العاشقة ١
- ٤ (الزابث وحاشيتها ١٤
- ٥ (الزابث والدين ٢٠
- ٦ (الزابث والكاثوليك ٢٦
- ٧ (الزابث والبيوريتانيون ٣٢
- ٨ (الزابث وايرلنده ٣٩

- ٩ (اليزابث وأسبانيا ٤٣
١٠ (رالى واسكس ٥٤
١١ (السحر يذوى ويلدبل ٦١

الفصل الثانى

انجلترا المرحه

١٦٢٥ - ٥٥٨

١. (فى العمل ٦٦
٢ (فى المدارس ٧٤
٣ (الفضيلة والرذيلة ١٦
٤ (العدالة والقانون ٧٩
٥ (فى البيت ٨١
٦ (الموسيقى الانجليزية ٨٧
٧ (الفن الانجليزى ٩٠
٨ (الرجل فى عهد اليزابث ٩٤

الفصل الثالث

على سفوح بارناسوس

١٦٠٣ - ١٥٥٨

- ١ (الكتب ٩٧
٢ (حرب الأدباء ١٠١
٣ (فيليب سدنى ١٠٤

- ٤ (ادموند سبنسر ١١٠
٥ (المسرح ١١٥
٦ (كرسستوفر مارلو ١٢١

الفصل الرابع

وليم شكسبير

١٥٦٤ — ١٦١٦

- ١ (أيام الشباب ١٣٠
٢ (تطور الشاعر ١٣٢
٣ (تفوق الشاعر ١٣٦
٤ (براعة شكسبير الفنية ١٤٣
٥ (فلسفة شكسبير ١٥٠
٦ (الرضا والقناعة ١٥٦
٧ (بعد موت الشاعر ١٦٠

الفصل الخامس

مارى ملكة اسكتلنده

١٥٤٢ — ١٥٨٧

- ١ (الملكة الجنية ١٦٥
٢ (اسكتلنده ١٦٧
٣ (مارى ونركس ١٧٠
٤ (الملكة تقع في شرك الغرام ١٧٧
٥ — التكفير ١٨٦

الفصل السادس

جيمس السادس والأول

١٥٦٧ — ١٦٢٥

-
- ١ (جيمس السادس ملك اسكتلنده ١٩٦
٢ (جيمس الأول ملك انجلترا ٢٠٤
٣ (مؤامرة البارود ٢٠٩
٤ (المسرح في عهد جيمس ٢١٤
٥ (بن جونسون ٢١٩
٦ (جون دون ٢٢٨
٧ (جيمس يثير العاصفة ٢٣٥

الفصل السابع

الدعوة إلى العقل

١٥٥٨ — ١٦٤٩

-
- ١ (الخرافة ٢٤٣
٢ (العلوم ٢٤٥
٣ (صعود فرانسيس بيكون وسقوطه ٢٥٤
٤ (التجديد الكبير ٢٥٧
٥ (فلسفة رجل الدولة ٢٦٤
٦ (صيحة العقل ٢٦٩

الفصل الثامن

الثورة الكبرى

١٦٢٥ - ١٦٤٩

- ١ (الاقتصاد المتغير ٢٧٦
- ٢ (مرجل الديانة... .. ٢٧٩
- ٣ (البيوريتانيون والمسرح ٢٨٩
- ٤ (النثر في عهد شارل الأول ٢٩١
- ٥ (الشعر في عهد شارل الأول ٢٩٥
- ٦ (شارل الأول يواجه البرلمان ٣٠٠
- ٧ (شارل حاكم مطلق ٣٠٦
- ٨ (البرلمان الطويل ٣١١
- ٩ (الحرب الأهلية الأولى ٣١٩
- ١٠ (المتطرفون ٣٢٤
- ١١ (وأسدل الستار ! ٣٢٨

قصة الحضارة

ول وَايريل ديورانت

بداية عصر العقل

مراجعة
غالب أدهم

ترجمة
محمد علي أبو درة

المجلد الأول من المجلد السابع

٢٨



تونس



بيروت